

رواية

# أنا غافالدا

معماً

« إن ما يمتنع الناس من الغيش معمأ

هو حماقتهم وليست اختلافاتهم... »



20.9.2014

@ketab\_n  
Follow Me

المركز الثقافي العربي



# آنا غافالدا

بالتاريخ

... لعدد

بغداد

بالتاريخ

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

معاً

@ketab\_n

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي



آنا غافالدا  
معاً...

الكتاب

معاً ...

تأليف

آنا غافالدا

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى ، 2012

عدد الصفحات: 672

القياس: 21 X 14

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-536-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 - 01 352826

فاكس: +961 1 343701

Email: cca\_casa\_bey@yahoo.com

إلى موعيت كليمان

(1919-2003)

جسدٌ غيرُ مطلوب



## القسم الأول





# 1

لم تكن بوليت ليستافيه مجنونة كما كان يقال عنها. لا شكّ أنها كانت تعرف الأيام لأنّه لم يعد لديها ما تفعله سوى أن تحصيها، أن تنتظرها، وأن تنساها. كانت تعلم جيداً أنّ هذا اليوم هو الأربعاء. كانت جاهزة! فقد ارتدت معطفها وأخذت سلتها وقسائم الحسم على الأسعار وانتظرت وصول سيارة إيفون... ولكن ها هو هرّها يموء جائعاً أمام الباب. حينما انحنت لتضع قصعة الحليب أمام الهرّ، وقعت وارتطم رأسها بالدرجة الأولى من السّلم.

كانت بوليت ليستافيه تقع غالباً، ولكن كان ذلك سرّاً من أسرارها. لم تكن تتحدّث عنه لأحدٍ. «لأيّ كان، هل تسمعيّني؟». كانت تتوعّد نفسها بهذه العبارة بصمت. «لإيفون، ولا للطبيب، ولا حتى للصبي...».

تضطرّ لأن تقوم ببطء، وتنتظر إلى أن تعود الأمور طبيعية. تفرك كدماتها بمحلول السانتول وتخفي آثارها.

لم تكن آثار كدمات بوليت مزرقّة أبداً. كانت مصفّرة، مخضّرة أو ضاربة للبنفسجي، وكانت تبقى لفترات طويلة على

جسدها. لفترات طويلة جداً. أحياناً لأشهرٍ عديدة. كان من الصعب إخفاؤها. يسألها الناس البسطاء لماذا تلبس دائماً وكأَنَّها في عزِّ الشتاء. لماذا ترتدي جوارب ولا تنزع سترتها أبداً.

وكان حفيدها الصغير، خاصّة، يعذبها بالحاحه:

- إذا يا جدّتي؟ ما هذا؟ انزعي كلّ هذه الأسمال،

ستموتين من شدّة الحرارة!

كلا، لم تكن بوليت ليستافيه مجنونة على الإطلاق. كانت تدرك أن هذه الكدمات التي تغطي جسمها باستمرار ستسبّب لها مصاعب ذات يوم...

كانت تدرك كيف تنتهي حياة النساء المسنّات مثلها. اللواتي يلزمن بيوتهنّ لثلاً يسقطن أرضاً. العجائز اللواتي لا يستطعن تمرير خيط من ثقب إبرة ولا يعود بوسعهنّ أن يتذكّرن كيف يُرْفَع صوت التلفاز. اللواتي يجربن كل أضرار لوحة التحكّم وينتهين إلى إطفاء الجهاز وهنّ يبكين غيضاً.

يبكين بدموعٍ خفيفة ومريرة. ويمسكن برؤوسهنّ أمام تلفازٍ مطفأ.

ماذا إذا؟ لم يعد هناك أيّ شيء؟ لم يعد هناك قط صخبٌ في هذا البيت؟ لم تعد هناك أصوات؟ على الإطلاق؟ بذريعة نسيان لون الزرّ؟ ولكنّ الصغير كان قد وضع لك علامات على جهاز التحكّم! علامة لتبديل القنوات، وعلامة للتحكّم بالصوت وعلامة لإطفاء الجهاز! هيا يا بوليت! كفي عن البكاء وانظري إلى العلامات!

كفاكّن صراخاً بي أنتنّ الأخريات... لقد زالت العلامات

منذ زمنٍ طويلٍ... لقد زالت عن الجهاز بعد لصقها بوقتٍ  
قصيرٍ... وقد مرّت أشهرٌ وأنا أبحث عن الزرّ، ولم أعد أسمع  
شيئاً، أرى فقط الصور مع همهمة خفيفة...  
لا تصرخن هكذا، سوف تزيدونني صمماً...

## 2

- بوليت؟ بوليت، أنتِ هنا؟

صرخت إيفون مستاءةً. كانت تشعر بالبرد، فشَدّت وشاحها  
على صدرها وصرخت من جديد. لم تكن تريد الوصول متأخرةً  
إلى المتجر.  
عادت إلى سيارتها متنهدة، أوقفت المحرّك وأخذت  
قلنسوتها.

لا بدّ أن تكون السيّدة بوليت وسط الحديقة. كانت السيّدة  
بوليت تذهب باستمرارٍ إلى الحديقة. وتجلس على مقعدٍ قرب  
أقفاص الأرانب الخاوية. كانت تبقى هناك لساعات كاملة، أحياناً  
منذ الصباح وحتى المساء. تجلس مستقيمة، ساكنة، صابرة،  
يذاها فوق ركبتيها، ونظرتها شاردة. تحدّث نفسها، تستذكر  
الأموات وتكلّم الأحياء.

تحدّث إلى الأزهار وإلى قدميها الغائصتين بين الخضار  
وإلى طيور القرب وإلى ظلّها. فتفقد رشدها ولا تعود تعرف  
الأيام. كان اليوم هو الأربعاء وهو يوم التسوّق. وصلت إيفون،  
التي تأتي وتأخذها. كلّ أسبوع منذ أكثر من عشرة أعوام. ورفعت  
مزلاج الباب الصغير وهي تئنّ قائلة: «عسى ألا يكون هناك  
مكروه...».

هذا إن لم يكن مكروهاً أن يشيخ المرء، أن يكون وحيداً،  
أن يصل متأخراً إلى المتجر ولا يجد عربات الأغراض قرب  
صناديق المحاسبة. . .

ولكن الحديقة كانت خالية.

بدأت المرأة الشرسة تقلق. ذهبت إلى الجهة الخلفية ولم  
تجدها. وضعت يديها على طرفي فمها وهي تصرخ منادية بوليت.  
«يا يسوع الحبيب!» صرخت إيفون حينما شاهدت جسد  
صديقتها ممداً على أرضية المطبخ.

تحت تأثير الانفعال، رسمت إيفون شارة الصليب كيفما كان  
وخلطت بين الابن والروح القدس، وراحت تبحث عن أداة في  
المستودع. حطمت زجاج النافذة بواسطة معزقٍ وبذلت جهداً  
كبيراً لتعتلي حرف النافذة.

لاقت صعوبة في العبور إلى الحجرة، جثت على ركبتيها  
ورفعت رأس السيدة العجوز العائم في سائلٍ ورديّ اللون حيث  
كان الدم قد امتزج بالحليب.

- أوه! بوليت! هل متّ؟ هل متّ هنا؟

كان الهرّ يلعق الأرضية وهو يموء، غير مكترثٍ بالمأساة،  
ولا بكسرات الزجاج المتناثرة من حوله.

### 3

لم تكن إيفون متحمسة، ولكنّ المسعفين طلبوا منها الصعود  
إلى عربة الإسعاف لتسوية المسائل الإدارية وإجراءات إدخالها  
إلى قسم الطوارئ.

- هل تعرفين هذه السيّدة؟

كانت مصدومة.

- أعتقد أنني أعرفها! كنّا معاً في البلدية.

- إذاً هيا اصعدي.

- وسيارتي؟

- لن تُسرق سيارتك! سوف نعيدك في الحال... .

قالت بانقياد:

- حسناً... سأذهب... .

كانت عربة الإسعاف غير مريحة. دلّوها على مقعدٍ صغيرٍ بلا مسند بجانب النقالة، جلست عليه غير مرتاحة. شدّت بقوة على حقيبة يدها وكادت أن تنقلب عند كلّ منعطف.

كان معها رجلٌ شاب، يزعق لأنه لا يجد وريداً في ذراع المريضة فأثار ذلك إيفون.

- لا تزعق هكذا، لا تزعق هكذا... ماذا تريد منها أولاً؟

- أن أشكّ لها المحقن.

- أن تفعل ماذا؟

أدركت، من نظرة الصبي، أنه من الأفضل أن تهدأ وواصلت مونولوجها الخفي: «انظروا إلى هذا... انظروا إلى هذا كيف يهرس ساعدها... يا له من شقاء... أفضل أن لا أرى... أيتها القديسة مريم، صلّي لها... هيه أنت! أنت تؤلمها هكذا!».«

انتصب واقفاً وضبط دولاباً صغيراً في قطارة السيروم

(المصل). أحصت إيفون القطرات وصلت كيفما كان. منعها صخب صفارة الإنذار من التركيز.

وضعت يد صديقتها على ركبتيها وراحت تمسدها كما تمسّد طرف تنورتها. منعها الحزن والهلع من أن تكون أكثر رقةً وحناناً...

تنهّدت إيفون كارمينو ونظرت إلى تلك التجاعيد، تلك الندب، تلك البقع الغامقة المنتشرة في كلّ مكانٍ من يد صديقتها، تلك الأظافر التي كانت لا تزال رفيعة، ولكنها قاسيةً ومتسخةً ومتشققةً. وضعت يدها بجانب يد صديقتها وقارنت بينهما. بالتأكيد كانت أصغر سنّاً منها وأكثر بدانةً، ولكن أيضاً أقلّ شقاءً منها في حياتها. فقد عملت في ظروفٍ أقلّ قسوةً وحظيت بالعطف والحنان في بيتها. فهي، ومنذ زمنٍ طويل، لم تعد تجهد نفسها بالعمل في حديقة المنزل... ظلّ زوجها يزرع البطاطس، أمّا بقية الخضار، فكانت تفضّل شراءها من المتجر، إذ كانت نظيفة. ولم تعد مضطرةً لتنظيف قلوب الخسّ بسبب الرخويات... ثمّ كان لها عالمها الخاصّ: ابنها جيلبير وابنتها كاترين وحفيداتها... أمّا بوليت، فماذا بقي لها؟ لا شيء. لا شيء يُذكر. زوجٌ ميتّ، وابنة مومس، وولدٌ لا يأتي أبداً لرؤيتها. همومٌ وذكريات تشكّل سلسلة من الآلام...

شردت إيفون كارمينو حالمة: إذأ، أهذه هي الحياة؟ أهي بهذه الخفة؟ أهي بهذا الجحود؟ ومع ذلك، كم كانت امرأة جميلة! وكم كانت طيِّبة؟ كم كانت متألقة... وماذا بعد؟ إلى أين ذهب كلّ ذلك إذأ؟

في تلك اللحظة، أخذت شفتا السيّدة العجوز تتحرّكان. في لحظة واحدة، أزاحت إيفون كل تلك الفلسفة التي كانت تُرهق ذهنها:

- بوليت، أنا إيفون. كلّ شيء على ما يرام، عزيزتي بوليت... جئتُ لمساعدتكِ و...

غمغمت بوليت:

- هل متُّ؟ هل قضي الأمر، هل متُّ؟

- كلا بالطبع، عزيزتي بوليت! كلا بالطبع! لم تَمُتِ، أنتِ

حيّة!

أغمضت بوليت عينيها من جديد وهي تئنّ:

- آه، آه...

كانت هذه «الآه» مريعة. كلمة صغيرة يائسة ومحبّطة ومستسلمة.

آه، لم أمت... آه حسناً... آه هذا أسوأ... آه اعذريني...

لم توافقها إيفون الرأي:

- هيا يا عزيزتي! يجب أن تعيشي يا عزيزتي بوليت! يجب

أن تعيشي، رغم كلّ شيء!

هزّت السيّدة العجوز رأسها يميناً ويساراً. بصعوبة وببطء. أهو

تحسّر مشوّب بالحزن والعدا. أم هو تمرّد على الموت.

ربّما هو الاحتمال الأوّل...

ثمّ ساد الصمت. لم تعد إيفون تدري ماذا تقول. تمخّطت

وأمسكت بيد صديقتها ومسّدها بلطف.

- سوف يضعونني في دارٍ للمسنّين، أليس كذلك؟

انتفضت إيفون:

- كلا، سوف لن يضعوك في دارٍ للمسنّين! كلا! ولماذا

تقولين هذا؟ سوف يعالجونك وهذا كلّ ما في الأمر! بعد عدّة

أيام ستعودين إلى بيتك!

قال الرجل المرافق:

- كلا. أنا أعرف جيداً أن هذا غير صحيح...

- آه! هذا على سبيل المثال، ولكنّ هناك أمرٌ آخر! ولماذا

إذاً، أيّها الصبيّ؟

أشار لها المسعف بحركة من يده ليطلب منها التحدّث

بصوتٍ أخفض.

- وهريّ؟

- سوف أهتمّ بأمره... لا تقلقي.

- وعزيزي فرانك؟

- سنستدعي حفيدك، سنستدعيه لاحقاً. أنا سأتكفل بالأمر.

- لم يعد لدي رقم هاتفه. لقد أضاعته...

- أنا سأعثر عليه!

- ولكن لا يجب إزعاجه، إنّ عمله شاقّ، أنتِ تعرفين...

- نعم بوليت، أعرف جيداً، سأترك له رسالة هاتفية. أنتِ

تعرفين الوضع اليوم، كلّ الصبيان معهم هواتف نقالة... لم نعد

نزعجهم بالهاتف...

- أخبريه أنّ... أنّني... أنّ...



أجهشت السيّدة العجوز بالبكاء.

في حين بدأت عربة الإسعاف صعودها نحو المستشفى، غمغمت بوليت ليستافيه باكية: «حديقتي... بيتي... أعيدوني إلى بيتي من فضلكم...».

كان المسعف وإيفون قد نهضا.

#### 4

- إلى متى يعود آخر طمّ لك؟

كانت قد أصبحت خلف الستار وهي تنزع سروالها. تنهّدت. كانت تعلم أنّ هذا السؤال سوف يُطرح عليها. كانت تعلم ذلك. ولذلك تحسّبت للأمر... كانت قد ربطت شعرها بملقّط فضيّ ثقيل وصعدت إلى ذلك الميزان اللعين وهي تستجمع قواها قدر المستطاع. بل وحاولت أن تضغط على الميزان قليلاً لترفع مؤشره... ولكن هيهات، لم يكن ذلك كافياً وستلقى مباشرة درسها الأخلاقي القصير...

رأته مباشرة حينما لمس بطنها، أضلعها، وركيها البارزين جداً، ثدييها المضحكين، وفخذيها الهزيلين، كان كلّ ذلك يغيظه.

انتهت إلى أن شدّت حزامها بهدوء. لم يكن هناك ما تخشاه هذه المرّة. كانت عند طبيب العمل وليس المدرسة. كلامٌ عن القوام واللياقة ومن ثمّ تخرج.

- إذا؟

جلست الآن أمامه وابتسمت له.

كان ذلك سلاحها الفتاك، ضربتها السرية، وسيلتها الفعالة. أن تبتسم لمحدثك الذي يعانقك، ليس هناك أفضل من هذه الوسيلة للحصول على شيءٍ مختلف. ولكن للأسف، كان هذا الشخص قد تعلّم في نفس المدرسة... وضع مرفقيه على الطاولة وشبك يديه ثم أطلق ابتسامة أخرى مؤثرة. كانت مهياً للاستجابة. ربّما كان عليها ألا ترتاب في أمرٍ آخر، كان لطيفاً ولم تستطع الامتناع عن إغماض عينيها حينما وضع يديه على بطنها...

- إذا؟ من دون كذب؟ وإلا أفضل ألا تجيبني.

- لزمّن طويل...

كشّر، وقال:

- بالتأكيد، بالتأكيد... ثمانية وأربعون كيلوغراماً لطولٍ يبلغ متراً وثلاثة وسبعين سنتيمتراً، إذا ما سارت الأمور هكذا، ستصبحين قريباً بين الصمغ والورقة...

سألت بسداجة:

- ورقة ماذا؟

- ورقة الإعلان...

- آه! ورقة الإعلان! اعذرني لم أسمع بهذا التعبير...

كادت أن تجيب بشيءٍ ما، ثمّ امتنعت. انحنى لكي يأخذ وصفة وهو ينتهد قبل أن يحدّق من جديد في عينيها.

- ألا تأكلين؟

- بلى بالتأكيد أكل!

فجأةً استبدّ بها إعياء شديد. ضاقت ذرعاً بكلّ هذا الجدل

حول وزنها. كانت منهكة. منذ ما يقارب سبعة وعشرين عاماً وهم يصدعون رأسها بهذا الحديث. ألا يمكن الحديث عن أمرٍ آخر؟ ولكنها كانت موجودة! وكانت حيوية. كانت حيوية تماماً. نشيطة كالأخرين، تفرح كالأخرين، تحزن كالأخرين، مقدامة كالأخرين، حساسة وموهنة كأبي فتاة أخرى. كان هناك شخصٌ ما في الداخل، هناك شخصٌ ما...

رجاءً، ألا يمكن الحديث معها عن أمرٍ آخر اليوم؟

- أنتِ توافقينني، أليس كذلك؟ ثمانية وأربعون كيلوغراماً، هذا ليس وزناً مناسباً...

قالت يائسة:

- نعم، نعم... أوافقك الرأي... منذ زمنٍ طويل لم ينزل وزني إلى هذا الحد... أنا..

- أنتِ ماذا؟

- كلا. لا شيء.

- أخبريني.

- أنا... أنا عشت لحظات عصبية أكثر من هذه، أعتقد... لم يصدر عنه ردّ فعل.

- هل ستملأ لي هذه الاستثمارة؟

أجاب، محمماً:

- نعم، نعم، سأفعل، أوه... ما هذه الشركة؟

- أيّ شركة؟

- هذه، التي نحن بصددِها، شركتك...

- توكلين.

- عفواً؟

- توكلين.

ردّد الأحرف:

- تاء، واو، كاف، لام، ياء، نون.

- ربّما كان من الأفضل تسميتها باسم فرنسي، ولكنني

أعتقد بأنهم مغرمون بلغة اليانكي... أنت تری، إنّها أكثر  
احترافية، تُسمّى دريم تيم الرائعة.

لم يكن يرى شيئاً. وسأل:

- ما هي بالضبط؟

- ماذا؟

- هذه الشركة؟

استندت ومدّت ذراعيها أمامها لكي تتمطّي وتحدّثت بنبرة

مضيفة طيران جديّة للغاية عن حدود مهماتها الجديدة:

- توكلين، أيّها السيدات والسادة، تستجيب لكلّ طلباتكم

بخصوص النظافة. للأفراد والحرفيين، للمكاتب والنقابات،

للمكتبات والوكالات، للمشافي والمساكن، للمنازل أو

المعارض، شركة توكلين هنا لإرضائكم. توكلين ترتّب، توكلين

تنظّف، توكلين تكتّس، توكلين تشطف، توكلين تلمّع، توكلين

تصقل، توكلين تعقم، توكلين تزيّن، توكلين تُطهّر وتوكلين تزيل

الروائح. مواعيد تناسبكم. رشاقة. حفظ لأسراركم. عمل متقن

وأسعارٌ مدروسة. توكلين، محترفون في خدمتكم!

ألقت هذا الخطاب الرائع دفعة واحدة ومن دون أن تلتقط أنفاسها. ظلّ طبيبها الفرنسي مذهولاً لذلك:

- أهذا تهريجٌ؟

- كلا بالطبع، ثمّ إنك ستري دريم تيم، إنها خلف الباب...

- ماذا تفعلين بالضبط؟

- لقد أخبرتك للتوّ.

- كلاً، أنتِ... أنتِ!

- أنا؟ حسناً، أنا أرتب، أنظف، أكنس، أجلي، وألمّع وأقوم بكلّ الأمور.

- أنتِ مدبّرة منز...؟

- عا... عاملة نظافة، أفضل... .

احتار في أمره، وسأل:

- لماذا تقومين بهذا العمل؟

حملقت فيه.

- كلا، ولكنني أعني لماذا «هذا العمل»؟ لماذا لا تقومين

بعملٍ آخر؟

- لم لا؟

- ألا ترغبين في ممارسة نشاط أكثر... أوه...

- أكثر قيمة؟

- نعم.

- كلا.

ظلّ على حاله للحظة، وقلم الرصاص في الهواء، وفمه نصف مفتوح ثمّ نظر إلى ساعته ليعرف التاريخ وسألها من دون أن يرفع رأسه:

- الكنية؟

- فوك.

- الاسم؟

- كاميل.

- تاريخ الميلاد؟

- 17 شباط 1977.

- تفضلي، آنسة فوك، أنت مؤهلة للعمل...

- رائع. كم تطلب منّي؟

- لا شيء، إنّ... أوه... إنّ توكلين هي التي ستدفع.

ردّدت وهي تنهض بحركة مسرحية ظاهرة:

- أووه توكلين! ها أنا مؤهلة لتنظيف المراحيض، هذا

مذهل...

رافقها حتى الباب.

لم يعد يتسم واستعاد قناعه كشخصية مهمّة حيّة الضمير.

في نفس اللحظة التي ضغط فيها على الرسغ، مدّ لها يده:

- بضعة كيلوغرامات رغم كلّ شيء؟ لإسعادي...

هزّت رأسها. لم تعد تجدي معها هذه الحيل. الابتزاز

والمشاعر النبيلة. كانت قد تجرّعت منها الكثير.

قالت:

- سنرى ما يمكننا فعله. سنرى... ..

دخلت سامية بعدها.

نزلت سلالم الشاحنة وهي تفتش في جيوب سترتها بحثاً عن سيجارة. كانت مامادو البدينة وكارين جالستين على مقعدٍ وهما تعلقان على المارّة وتحتجان لأنّهما كانتا تريدان العودة إلى منزلهما.

قالت مامادو ممازحة:

- إذا؟ ماذا تفعلين هنا في الداخل؟ هل جعلك ناسكة أم

ماذا؟

جلست كاميل على الأرض وابتسمت لها. ابتسامة مختلفة. ابتسامة شفافة، هذه المرّة. لم تكن تمارس خبثها مع صديقتها العزيزة مامادو، فهي قوية جداً... ..

بصقت كارين قراضة ظفرٍ من فمها، وسألت:

- أهو ظريف؟

- إنه رائع.

قالت مامادو بحماسة:

- آه، كنتُ أعرفه جيّداً! كنت أشكّ في ذلك كثيراً! وقد

قلّ ذلك لكِ ولسيلفي، التي كانت عارية تماماً في الداخل!

- سيصعدك على ميزانه... ..

صرخت مامادو:

- مَنْ؟ أنا؟ أنا؟ يعتقد أنني سأصعد على ميزانه!

كانت مامادو تزن ربّما مائة كيلوغرامٍ على أقلّ تقدير، كان

فخذاها يحتكان ببعضهما بعضاً.

- هيهات! إذا ما اعتليتُ ميزانه سأهشم الميزان وأهشمه هو معه! وماذا أيضاً؟
- قالت كارين:
- وسيحقنك بالحقن.
- حقن ماذا؟
- طمأنتها كاميل:
- كلا، كلا، سيصغي إلى قلبك ورئتك فقط... ..
- هذا لا ضير منه.
- وسيلمس بطنك أيضاً... ..
- قالت عابسة:
- ولكن لنر، ولكن لنر، لنلتقي عنده. إذا ما مسّ بطني، سألتهمه نيئاً... .. إنّ الأطباء البيض الصغار وجبة شهية... ..
- رفعت من نبرة صوتها وسحبت طرف قميصها الفضفاض.
- نعم، نعم إنّها وجبة شهية... .. لقد أخبرني أجدادي بذلك. مع جذور نبات المينهوت وعرف الدجاج... .. ما أطيبها من وجبة... ..
- والسيدة بريدار، ماذا سيفعل بها؟
- كانت السيدة بريدار، واسمها الأوّل جوزي، الأكثر بغياً وفسقاً وفجوراً وهزأةً من بينهنّ جميعاً. وكانت أيضاً زعيمتهنّ. «زعيمتهنّ في الابتزاز» كما كان واضحاً على شارتها. كانت بريدار تفسد حياتهنّ، ضمن حدود وسائلها المتوفّرة بالتأكيد، ولكن، كان ذلك متعباً نسيباً... ..



- لبريدار، لا شيء. حينما يشم رائحتها، سيطلب منها أن ترتدي ثيابها فوراً.
- لم تكن كارين مخطئة. فقد كانت جوزي بريدار، فضلاً عن كل الصفات التي ذُكرت، تعرق كثيراً.
- ثم جاء دور كارين وأخرجت مامادو من حقيبتها حزمة أوراق ووضعتها على ركبتي كاميل التي وعدتها أن تلقي نظرة عليها وتحاول أن تفكّ طلاسمها.
- ما هذا؟
- هذا سجلّ الإعانة العائلية.
- أقصد كلّ هذه الأسماء المسجّلة هنا.
- حسناً هذه عائلتي.
- أية عائلة؟
- أية عائلة، أية عائلة؟ حسناً إنها عائلتي! فكّرني بعقلك يا كاميل.
- كلّ هذه الأسماء، هي عائلتك؟
- أجابت بتفاخر:
- نعم كلّها.
- ولكن كم ولداً لديك؟
- لديّ خمسة، وأخي لديه أربعة... ..
- ولكن لماذا جميعهم هنا.
- أين، هنا؟
- أوه... على الورقة.

- هذا أريح لأنّ أخي وزوجته يقيمان عندنا ولأنّهُ لدينا نفس صندوق البريد... ..
- ولكن كلاً، هذا لا يجوز هنا، يقولون إن هذا لا يجوز... يقولون إنّه لا يمكنك أن تكوني أماً لتسعة أولاد... ..
- ولماذا لا يمكنني؟ والدتي لديها اثنا عشر ولداً!
- مهلاً، لا تغضبي يا مامادو، أنا أقول لك بالضبط ما هو المذكور. إنهم يطلبون منك أن توضحني الأمر وتحضري بطاقتك العائلية.
- ولماذا؟
- حسناً أعتقد أنّ ما قمت به غير شرعي. لا أعتقد أنّ من حقكما أنت وأخيك أن تضمّا أولادكما في نفس البطاقة... ..
- نعم، ولكن ليس لدى أخي أيّ شيء.
- أهو يعمل؟
- طبعاً يعمل! يعمل في الطرق السريعة.
- وزوجة أخيك؟
- برطمت مامادو، وقالت:
- لا تفعل شيئاً! ولا أيّ شيء. إنّها لا تتحرّك، هذه المومس الشريرة، لا تحرك أبداً مؤخرتها الضخمة!
- ابتسمت كاميل في داخلها، وهي تتخيّل كيف تكون «مؤخّرة ضخمة» في نظر مامادو.
- هل لديهما أوراق ثبوتية؟
- طبعاً!

- حسناً إذآ، يمكنهما أن يعدآ بطاقتين منفصلتين.
- ولكنّ زوجة أخي لا تريد الذهاب إلى مركز الإعانة العائلية، وأخي يعمل ليلاً وينام نهاراً...
- فهمت، ولكن الآن، تريدان الحصول على مخصّصات كم ولد؟
- أربعة أولاد.
- أربعة؟
- نعم، هذا ما أريد أن أقوله لك منذ البداية، ولكنك، ككلّ البيض، تعتبرين نفسك على حقّ ولا تصغين أبداً!
- زفرت كاميل بشيء من العصبية.
- المشكلة التي أريد إخبارك بها، هي أنهم قد أغفلوا سيسيتي...
- وأيّ رقم سيسيتي؟
- إنها ليست رقماً، يا غبيّة! إنها ابنتي الأخيرة، الصغيرة سيسي...
- آه! سيسي!
- نعم.
- ولماذا اسمها غير موجود؟
- ما بك يا كاميل، أتفعلين هذا عمداً أم ماذا؟ هذا هو سؤال الذي طرحته عليك منذ قليل!
- لم تعد تعرف ماذا تقول...
- الأفضل أن تذهبي إلى مركز الإعانة مع أخيك وزوجته ومعكم كلّ الأوراق وتشرحوا وضعكم للمرأة...

- لماذا تقولين «المرأة»؟ أيّ امرأة؟

قالت كاميل محتدة:

- أيّا كانت!

- آه، حسناً، حسناً، لا تغضبي هكذا. سألتكِ هذا السؤال

لأنني اعتقدتُ بأنكِ تعرفينها...

- مامادو، لا أعرف أحداً في مركز الإعانة. لم أذهب إليه

في حياتي، هل فهمتِ؟

أعادت إليها أوراقها، كانت بينها إعلانات وصور سيارات

وفواتير هاتف.

سمعتها وهي تغغم: «قالت المرأة وأنا سألتها أيّ امرأة،

هذا طبيعي لأنّ هناك رجالاً أيضاً، إذاً كيف استطاعت أن

تعرف، إن كانت لم تذهب إلى هناك أبداً، كيف استطاعت أن

تعرف أنّ ليس هناك سوى سيّدات؟ هناك رجال أيضاً... أهذه

السيدة أعرف كلّ شيء أم ماذا؟

- هيه؟ هل حردتِ هناك؟

أجابت بلغة ركيكة:

- كلا، لم أحرد. قلتُ بأنكِ ستساعديني ولكنك لم تفعلي.

وهذا كلّ ما في الأمر!

- سأذهب معك.

- إلى مركز الإعانة؟

- نعم.

- وستكلمين مع المرأة؟

- نعم.

- وإن لم تكن هي؟

أوشكت كاميل أن تفقد شيئاً من برودة أعصابها حينما عادت سامية.

- إنه دورك، يا مامادو... تفضلي هذا هو رقم الطبيب... .

- لأفعل به ماذا؟

- لأفعل به ماذا؟ لأفعل به ماذا؟ لا أدري. لتتصلي بالطبيب

طبعاً! هو من طلب منّي أن أعطيكِ الرقم... .

كان قد سجّل رقمه على وصفة طبية وكتب: لقد وصفتُ لكِ  
عشاءً شهياً، اتصلي بي.

كوّرت كاميل فوك الورقة ورمتها.

نهضت مامادو بتناقل وأشارت إليها بسبابتها، ثمّ أضافت:

- أتعرفين لو أنّك تدبرين حلاً لابنتي سيّسي، سأطلب من  
أخي أن يجلب لكِ حبيباً... .

- ظننتُ أنّ أخيكِ يعمل في الطرقات السريعة؟

- في الطرقات السريعة وفي السحر وفكّ السحر.

رفعت كاميل عينيها إلى السماء.

قاطعتها سامية:

- وأنا؟ هل يستطيع أن يدبّر لي حبيباً؟

مرّت مامادو من أمامها. وصرخت في وجهها:

- أنتِ أيتها اللعينة، أعيدي لي دلوي أولاً، ومن ثم نتكلّم

مع بعضنا!

- تَبّاً، أنتِ تضجريني بهذا الموضوع! هذا الدلو ليس لكِ،  
إنّه دلوي أنا! كان دلوكِ أحمر اللون!  
قالت الأخرى وهي تبتعد:

- لعينة، اذهبي، لعيبينة...

لم تكن قد انتهت من صعود السلالم حينما تحركت  
الشاحنة. حظاً سعيداً هنا في الداخل، كانت كاميل تبتسم وهي  
تمسك بحقيبتها، حظاً سعيداً...

- أأنذهب إلى هناك؟

- سأتبعك.

- ماذا ستفعلين؟ ستستقلين المترو معنا؟

- كلا، سأعود مشياً.

- آه صحيح أنكِ تسكنين في الأحياء الجميلة...

- تتكلمين...

- هيا، إلى اللقاء صباحاً...

- سلاماً أيتها الفتيات...

كانت كاميل مدعوة إلى العشاء في بيت بيير وماتيلد. تركت  
رسالة لإلغاء الدعوة والاعتذار منهما على مجيب هاتفهما الصوتي.  
فابتعدت كاميل فوك النحيلة جداً. والتي زاد وزنها ثقلُ  
حقيقية ظهرها والحجارة والحصى المتراكمة داخل جسمها. ربّما  
هذا هو ما كان عليها أن تخبر طبيب العمل به قبل قليل. لو  
كانت لديها الرغبة في ذلك... أم القوة؟ أو ربّما الوقت؟ الوقت  
بالتأكيد، طمأنت نفسها من دون أن تكون مقتنعة بذلك تماماً.

كان الوقت شيئاً لم تعد تدركه. انقضت أسابيع وأشهر كثيرة من دون أن تبالي به بأيّ شكل. وخطبتها المسهبة منذ قليل، مونولوجها العبثي ذاك الذي حاولت من خلاله أن تقنع نفسها بأنها لا تزال قويّة كغيرها، لم تكن سوى كذبة خالصة.

آية كلمة استخدمت سابقاً؟ «حيويّة»، أهذا صحيح؟ كان ذلك مضحكاً، لم تكن كاميل فوك حيويّة.

كانت شبحاً يعمل ليلاً ويكدّس الحصى في النهار. تتنقّل ببطء وتتكلّم قليلاً وتنسحب بهدوء.

كانت لا تزال امرأة شابّة، وهشّة البنية.

لا ينبغي الاعتماد على المشهد السابق، الخفيف جداً، السهل جداً، المريح جداً. كانت كاميل فوك تكذب. كانت تخدع ذاتها وترغم نفسها كي لا تلفت الانتباه.

ومع ذلك فكّرت ثانية بذلك الطبيب... سخرت من رقم هاتفه النقال ولكنّها فكّرت في أنّها ربّما تكون قد فوّتت فرصتها... فقد بدا الطبيب طويل البال وأكثر اهتماماً من الآخرين... ربّما كان عليها... لقد أخطأت في لحظة ما... كانت متعبة، ربّما كان عليها أن تضع هي الأخرى مرفقيها على الطاولة، وتروي له الحقيقة. أن تخبره أنّها إذا كانت لم تعد تأكل إلا القليل جداً، فذلك لأنّ حصيّ تملأ بطنها، وأنّها تستيقظ كلّ صباح بشعورٍ وكأنّها تلوك حصيّ، وهي لم تفتح عينيها بعد، وأنّها كانت تختنق. وأنّ العالم المحيط بها لم يعد له أية أهمية، وأنّ كلّ يوم جديد هو بمثابة عبءٍ لا يُحتمل. ولذلك، كانت تبكي. ليس لأنّها كانت حزينة، وإنّما لتجاوز كلّ ذلك. كانت

تلك الدموع المنحدرة تساعدها على تحمّل حواها واستعادة أنفاسها.

أكان سيسمع؟ أكان سيفهم؟ طبعاً. ولهذا السبب لزمّت الصمت.

لم تشأ أن تنتهي كما انتهت أمها. ورفضت أن تسير على دربها، فإذا ما بدأت، لا تدري إلى أين يقودها هذا الأمر. سيقودها إلى مكانٍ بعيدٍ جداً. بعيد جداً وعميق جداً ومظلم جداً. ولم تكن تملك الجرأة على الالتفات إلى الوراء.

كانت تجرؤ على الخداع ولكن ليس على الالتفات إلى الوراء.

نزلت إلى المتجر أسفل بيتها وأرغمت نفسها على شراء مأكولات. فعلت ذلك إكراماً لعطف ذلك الطيب الشاب ومن أجل ضحكة مامادو. تلك الضحكة المجلجلة لهذه المرأة، هذا العمل الواهن عند توكلين، السيّدة بريدار، حكايات كارين الغربية، التوبيخات، السجائر المتبادلة، الوهن الجسدي، ضحكاتهم الحمقاء المجنونة، وأمزجتهم السيئة أحياناً. كان كلّ هذا يساعدها على العيش. نعم، يساعدها على العيش.

دارت مرّات عديدة حول رفوف المتجر قبل أن تقرّر، واشترت موزاً وأربع قوارير من اللبن الرائب وزجاجتي مياه معدنية.

شاهدت صبي عمارتها الملفت للانتباه. ذاك الصبيّ الغريب بنظارته المرتقة بلصقة مشمّعة وسراويله البالية، وأساليبه المريخية. لا يكاد يمسك بغرضٍ، حتى يضعه في مكانه في الحال، يخطو



بضع خطوات، ثم يقف مذهولاً، ويعود ويأخذه ثانية ويهزّ رأسه ثم يغادر مسرعاً الطابور حينما يأتي دوره أمام صندوق المحاسبة ليعود ويضعه مرّة أخرى في مكانه. بل وشاهدته ذات مرّة وهو يخرج من المخزن ليدخل إليه من جديد ويشتري مرطبان المايونيز الذي كان قد أرجعه قبل قليل. المهرج الحزين الغريب الذي كان يُضحك الزبائن ويتلعثم أمام البائعات ويعتصر قلبها.

كانت تصادفه أحياناً في الشارع أو أمام بوابة عمارتهما فيرتبكان وينفعلان ويقلقان. في هذه المرّة أيضاً، كان يتأوّه أمام الرمز الرقمي لفتح البوابة.

سألت:

- هل من مشكلة؟

- آه! أوه! عفواً! (كان يفتل يديه) مساء الخير يا آنسة، اعذريني على... اعذريني على إزعاجك، أنا... أنا أزعجك، أليس كذلك؟

كان ذلك فظيماً. لم تكن تدري إن كان عليها أن تسخر منه أم تشفق عليه. كان خجله المرضي، وطريقته الغامضة جداً في الكلام، والكلمات التي يستخدمها وحركاته، كان كلّ ذلك يعكّر صفو مزاجها على نحوٍ مريع.

- لا، لا، لا مشكلة! أنسيت الرمز؟

- يا للشيطان! كلا! أقصد لا أدري. لا أقصد... يا إلهي، أنا...

- ربّما غيروه؟

- أتعتقدين ذلك جدياً؟

سألها وكأنها قد أخبرته بنهاية العالم.

- سنرى ... 342 بـ 7...

سُمع صليل قفل الباب.

- أوه، لأنني مشوّش الذهن... لأنني مشوّش الذهن...

أنا... ومع ذلك هذا ما فعلته، أنا أيضاً... لا أفهم...

قالت له وهي تدفع الباب:

- لا مشكلة.

قام بحركة مفاجئة لدفعها إلى مكانه وأراد أن يمرّ ذراعه

على كتفها ولكنه أخطأ هدفه فوجّه ضربة قوية إلى قفا رأسها.

- الويل لي! عسى لا أكون قد آلمتك؟ كم أنا أحرق،

حقاً، أرجوكِ المعذرة... أنا...

ردّدت للمرّة الثالثة:

- لا مشكلة.

لم يتحرّك.

رجته أخيراً:

- آه... هلا رفعت قدمك لأنك تدوس على أصابع قدمي

وتؤلمني للغاية...

كانت تضحك. وكان ذلك مثيراً للأعصاب.

حينما أصبحت في البهو، هرع نحو الباب المزجج ليتيح لها

الدخول بلا عائق.

اعتذرت منه وهي تشير إلى عمق الباحة:

- للأسف، لن أصعد من هناك.

- أقيمين في الباحة؟

- آه... ليس بالضبط... وإنما تحت... ..

- آه! ممتاز... (كان يسحب ممسك كيسه الذي علق في

المقبض المعدني للباب) لا بدّ أن يكون هذا... أن يكون... ..  
ممتعاً جداً... ..

قالت وهي تتعدّ ممتعضة:

- آه... نعم... هذه طريقة لرؤية الأمور... ..

صرخ:

- سهرة ممتعة يا أنستي، وبلغني تحياتي لوالديك!

والداها... .. كان هذا الشخص ذو عاهة... .. تذكّرت أنّها

باغته ذات ليلة، وهي التي اعتادت العودة في منتصف الليل، في

الباحة وهو يرتدي منامة وجزمة صيد وفي يده علبة حلوى. كان

مرتبكاً وسألها إن شاهدت هراً. أجابت بالنفي وسارت معه لبضع

خطوات بحثاً عن الهرّ الضائع. سألته بقلق: «كيف هو؟»،

فأجاب: «للأسف، لا أعرف». «لا تعرف كيف هو قَطُّك؟».

تجمّد في مكانه: «لماذا عليّ أن أعرف ذلك؟ لم يكن لدي هراً

أبدأ!». استاءت وتركته مزروعاً في الباحة وهي تهزّ رأسها. لا بدّ

أنّ هذا الشخص محبّط جداً.

«الأحياء الجميلة... ..» فكّرت من جديد بجملته كارين وهي

ترتقي الدرجة الأولى من الدرجات المائة والاثنتين والسبعين التي

كانت تفصلها عن كوخها.

الأحياء الجميلة، أنتِ محقّة... .. كانت تقيم في الطابق

السابع في غرفة خدمة لعمارة فاخرة تطلّ على شان دي مارس

وبهذا المعنى، نعم كانت تقييم في مكانٍ أنيقٍ، فإذا ما جلست على كرسيٍّ صغيرٍ واستدارت إلى اليمين، كان يمكنها أن تشاهد أعلى برج إيفل. ولكن عدا ذلك، يا حلوتي، لم يكن الحال كذلك فعلاً...

ارتقت السلم لاهئةً وهي تجرّ خلفها قواريرها. حاولت ألا تتوقف أبداً ولا في أيّ طبق. حصل لها ذلك ذات ليلة ولم تستطع الصعود مجدداً. جلست في الطابق الرابع ونامت مسندةً رأسها على ركبتيها. كان الاستيقاظ شاقاً. كانت متجمدة من البرد واحتاجت إلى عدة ثوانٍ قبل أن تدرك أين هي.

خافت من هبوب عاصفة فأغلقت كوة النافذة قبل أن تغادر لاهئةً وتخيّل الحرارة المستعرة هناك في الأعلى... حينما كانت تُمطر كانت تتبلّل وحينما كان الجوّ لطيفاً مثلما هو اليوم، كانت تشعر بالاختناق، وفي الشتاء، كانت ترتعش برداً. كانت كاميل تعرف جيداً هذه الظروف المناخية إذ كانت تعيش هنا منذ أكثر من عام. لم تكن تتذمّر، فهي لم تكن تحلم بذلك المأوى وكانت لا تزال تتذكّر الهيئة القلقة لبير كيسلر حينما دفع باب غرفة المهملات هذه أمامها وهو يقدم لها المفتاح.

كانت غرفة صغيرة ومتسخة ومزدحمة.

حينما صادفها قبل أسبوعٍ على عتبة بابه، جائعة، تائهة وصامتة، كانت كاميل فوك قد أمضت ليالي عديدة في الشارع. خاف في البداية، حينما شاهد ذلك الظلّ على درج منزله:

- بير؟

- مَنْ هناك؟

أَنَّ الصوت:

- بيير...

- مَنْ أنت؟

ضغط على الزرّ وأصبح خوفه أكبر:

- كاميل؟ أهذه أنتِ؟

قالت بأسى وهي تدفع أمامها حقيبة صغيرة:

- بيير... يجب أن تحتفظ لي بهذا... هذا عتادي وسأخبئه

لنفسي سوف أخبئ كلّ شيء... كلّ شيء... لا أريد أن يأخذوا

مَنّي أدواتي وإلا سوف أموت... سوف أموت، أتفهم؟

اعتقد بأنّها تُهذي:

- كاميل! عمّا تتكلمين؟ ومن أين تأتين؟ ادخلي!

ظهرت ماتيلد من خلفه وتهاوت المرأة الشابّة على

حصيرتهما.

جرّدها من ثيابها وأخذوها لتنام في الغرفة الداخلية. سحب

بيير كيسلر كرسيّاً إلى جانب سريرها ونظر إليها، فرعاً:

- هل نامت؟

- أشعر...

- ماذا حدث؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك.

- ولكن انظر في أيّ حالةٍ مزريّة هي!

- هسس... ..

استيقظت في منتصف ليلة اليوم التالي وذهبت إلى الحمام

بهدهوء لثلا توقظهما. آثر بيير وماتيلد، اللذان لم يكونا نائمين، أن يدعاها وشأنها. أبقياها على هذه الحال لعدة أيام، وتركها لها نسخة من المفاتيح ولم يطرحا عليها أيّ سؤال. كان هذا الرجل وهذه المرأة رحمةً لها.

حينما عرض عليها الإقامة في غرفة للخادمة كان قد تركها شاغرة في عمارة والديه بعد وفاتهما، أخرج من تحت سريرها الحقيبة الصغيرة التي قادتها إلى بيتها.

قال لها:

- تفضّلي.

هزّت كاميل رأسها رافضة:

- أفضل تركها هنا...

قاطعها بجفاء:

- غير ممكن... ستأخذينها معك. لا داعي لتركها عندنا!

رافقتها ماتيلد إلى متجرٍ كبير وساعدتها في اختيار مصباحٍ وحشيةٍ وألبسةٍ داخليةٍ وبعض أواني المطبخ وسخان كهربائي وثلاجة صغيرة.

سألته قبل أن تدعها تغادر:

- هل معك نقود؟

- نعم.

- هل ستكونين بخير، يا صديقتي العظيمة؟

ردّدت كاميل حابسة دموعها:

- نعم.

- هل تريدن الاحتفاظ بمفاتيحنا؟

- كلا... كلا... ستسير الأمور على ما يُرام. أنا... ماذا  
يمكنني أن أقول.. ماذا...

كانت تبكي.

- لا تقولي شيئاً.

- أقول شكراً؟

قالت ماتيلد وهي تضمّنها:

- نعم، شكراً، لا بأس، هذا جيّد.

جاء لرؤيتها بعد مرور بضعة أيام.

كان صعود السلالم قد أضناها وتهاويا على الحشية.

ضحك بيير وقال بأنّ هذا يذكره بشبابه وأنشد «البوهيميية».

شربوا الشمبانيا في أفداح بلاستيك، وأخرجت ماتيلد من كيس  
كبيار كومة من الأطعمة المدهشة. أثارت الشمبانيا ومشاعر  
العطف الجراءة لديهما على طرح بعض الأسئلة. أجابت على  
بعضها، ولم يلحّ عليها.

بينما كانا على وشك المغادرة، وكانت ماتيلد قد نزلت بضع

درجات، استدار بيير كيسلر وأمسكها من معصمها.

- يجب أن تعلمي، يا كاميل... عليك أن تعلمي الآن...

أخفضت عينيها:

- أشعر أنني عملتُ كثيراً في هذه السنين الأخيرة... كثيراً،

كثيراً...

ضمّنها ثانية بشدّة إلى حدّ إيلامها.

- لم يكن ذلك عملاً وأنتِ تعلمين هذا جيداً!

رفعت رأسها وقابلت نظرتَه، قائلة:

- ألهذا ساعدتني؟ لتقول لي هذا الكلام؟

- كلا.

كانت كاميل ترتجف.

ردّد وهو يتركها:

- كلا، كلا. لا تتفوّهي بحماقات. أنتِ تعلمين أننا لطالما

اعتبرناكِ كابتننا...

- عبقرية أم سفيهة؟

ابتسم لها وأضاف:

- اعملي. لا خيار لكِ في كلّ الأحوال...

أغلقت الباب وربّبت المائدة الصغيرة وعثرت على كاتالوغ كبيار لدار سينوليه في قاع الحقيبة. وذكّرتها وريقة: لا يزال حسابك مفتوحاً... لم تتجرأ على تصفّح الكاتالوغ وشربت ما تبقى في القارورة.

أطاعته وعملت.

اليوم، هي تنظّف قذارة الآخرين وهذا يواتيها تماماً.

في الحقيقة، كانت الحرارة قاتلة هناك في الداخل... وقد أخطرتهنّ جوزي الرائعة: «لا تتدّمرن، أيتها الفتيات، فنحن نعيش آخر أيامنا الحلوة، وبعدها سيحلّ الشتاء، وتحلّ علينا معه الأيام العصيبة! إذًا، لا تتدّمرن!».

كانت محقّة لمرة واحدة. فقد اقتربت نهاية سبتمبر وغدت



الأيام قصيرة بوضوح. فكّرت كاميل بأنّ عليها أن تنظّم أمورها بطريقة مختلفة هذه السنة، أن تنام أبكر، وتستيقظ بعد الظهيرة لتشاهد الشمس. كان هذا النوع من التفكير يفاجئها هي ذاتها وأدارت مجيب هاتفها الصوتي بشيءٍ من اللامبالاة. جاء الصوت أخيراً:

«أنا ماما... لم أعد أدري إن كنتِ تعرفين عمّن أتحدّث عنها... ماما، أتعرفين؟ هذه هي الكلمة التي يلفظها الأبناء الطيّبون حينما يتوجّهون إلى والدتهم، أعتقد... لأنّ لديكِ والدة، هل تتذكّرين ذلك؟ اعذريني لأنني أذكركِ بهذه الذكرى السيئة، ولكن لأنّ هذه ثالث رسالة أتركها لكِ منذ الثلاثة... أريد فقط أن أعرف إن كنّا لا نزال نعيش مع...».

قطعت كاميل التسجيل وأعدت زجاجة اللبن إلى الثلاجة. تربّعت وأخذت تبغها وبذلت جهداً لكي تلفّ لنفسها سيجارة. خانتها يداها. حاولت مراراً أن تلفّ ورقة السيجارة من دون أن تمرّقها. ركّزت تفكيرها على حركاتها وكأنّ ليس هناك ما هو أهمّ لديها في الدنيا وعضّت على شفّتها إلى حدّ الإدماء. كان من الإجحاف إزعاجها بهذه الطريقة بسبب ورقة في حين كانت تعيش يوماً شبه طبيعي. تكلمت واستمعت وضحكت بل وعاشرت الناس. تظارفت أمام ذلك الطبيب ووعدت مامادو. لم يجعلها ذلك تشعر بأيّ شيء ومع ذلك... كان قد مرّ زمنٌ طويل وهي لم تعد بأيّ شيء. أبدأ. ولا لأيّ شخص. وها هي بضع جملٍ صادرة عن آلة تنخر في رأسها وتجرحها إلى الوراء وترغمها على الاستلقاء، محظّمة وكأنّها تنوء تحت ثقل أنقاض لا تُحتمل...

- سيّد ليستافيه!
- نعم، يا ريّس!
- لديك مكالمة... .
- كلا، يا ريّس!
- ماذا، كلا؟
- أنا مشغول، يا ريّس، اطلب منهم أن يتّصلوا بي لاحقاً... .

هزّ الرجل الطيّب رأسه واستدار في مكتبه.

- سيّد ليستافيه!
- نعم، يا ريّس!
- إنها جدّتك... .
- ساد هرجٌ ومرجٌ وسط جمع العاملين.
- ردّد الصبي الذي كان يجردّ قطعة لحم من العظم:
- أخبرها بأنني سوف أتصل بها لاحقاً.
- أنت تثير المتاعب، يا ليستافيه! تعال وخذ هذا الهاتف اللعين! لستُ عاملة المقسم!
- مسح الرجل الشاب يديه بالخرقة المعلّقة بطاولته ومسح جبينه بكمّته وقال للصبي الذي كان يعمل على طاولة العمل المجاورة له، متوعّداً:
- هيه أنت، لا تلمس شيئاً، وإلا... سوف... .
- قال الآخر:

- هذا جيّد، اذهب واطلب هدايا الميلاد، الجدّة تنتظر... ..

- مغفّل، اذهب... ..

دخل إلى المكتب وأمسك بالسماعة وقال متلهفًا:

- جدّتي؟

- مرحباً يا فرانك... .. لستُ جدّتك، السيّدة كارمينو هي

التي تتحدّث... ..

- السيّدة كارمينو؟

- أوه! كم تعذّبت للعثور عليك. اتّصلتُ أولاً بالوكالات

التجارية وأخبروني بأنّك لم تعد تعمل فيها، فاتّص... ..

قاطعها فجأةً:

- ما الذي حدث؟

- يا إلهي، إنّها بوليت... ..

- انتظري، لحظة من فضلك.

نهض، أغلق الباب، أمسك بالسماعة من جديد، جلس،

هزّ رأسه، شحّب وجهه، بحث على الطاولة عن شيءٍ يكتب به،

ثمّ تفوّه ببضع كلمات وأغلق السماعة.

رفع طاقيته وأمسك برأسه بين يديه وأغمض عينيه وبقي على

تلك الحال لعدّة دقائق. كان رئيس الطهاة ينظر إليه عبر الباب

المزجج. وأخيراً، دسّ قصاصة الورق في جيبه وخرج.

- هل أنت بخير؟

- بخير، يا رئيس... ..

- أليس من أمرٍ خطير؟

- عنق الفخذ.

أجاب الآخر:

- آه، هذا شائع عند المسنين... حدث هذا لأمي منذ عشرة أعوام، ولو أنك تراها اليوم، إنها أرنب بريّة حقيقية.

- قل، يا ريس...

- وكأنك ستطلب مني أجرك اليومي...

- كلا، سأقوم بالعمل في فترة الظهيرة وسأعوّض توقفي في المساء من فترة استراحتي، ولكنني أودّ أن أغادر بعد...

- ومن سيحلّ محلّك هذا المساء؟

- غيوم، يمكنه القيام بذلك، إنه...

- وهل سيجيد العمل؟

- نعم، يا ريس.

- وكيف لي أن أعرف أنه سيجيد العمل؟

- أنا أخبرك بذلك، يا ريس.

عبس الآخر، وبخ صبيّاً كان يمرّ من هناك، وأمره أن يغيّر

قميصه.

التفت من جديد نحو رئيس قسمه وأضاف:

- هيا! ولكنني أحذرك، يا ليستافيه، إن حصل أيّ خطأ

خلال الدوام المسائي، أو كانت هناك أيّ ملاحظة، سوف أحملك مسؤولية ذلك، اتفقنا؟

- اتفقنا، يا ريس.

عاد إلى مكانه وأمسك بسكينه من جديد.

- ليستافيه، إذهب واغسل أولاً يديك! نحن هنا، لسنا في الريف!

غمغم وهو يغمض عينيه:

- إخرس. اخرسوا جميعاً... ..

انكبّ على عمله بصمت. بعد لحظة تجرّأ زميله الذي حلّ محلّه على السؤال:

- هل تسير الأمور سيراً حسناً؟

- كلا.

- لقد سمعتُ ما قلته للرئيس... .. إنه عنق الفخذ، أليس

كذلك؟

- نعم.

- هل الإصابة خطيرة؟

- كلا، أعتقد كلا، ولكنّ المشكلة هي أنني وحيد... ..

- وحيدٌ في ماذا؟

- وحيدٌ في كلّ شيء.

لم يفهم غيوم ولكنّه آثر أن يتركه وشأنه مع همومه.

- إذا كنتَ قد سمعت وأنا أتكلّم مع العجوز، فهذا يعني

أنك فهمت ما عليك القيام به هذا المساء... ..

- نعم.

- هل يمكنك القيام بالمهمّة؟

- ستسير الأمور... ..

واصل العمل بصمت، أحدهما منكبّ على أرانبه والآخر

على ربيع خروف.

- دراجتي ...

- ما بها؟

- سأعيرك إياها يوم الأحد ...

- الجديدة؟

- نعم.

همس الآخر:

- حسناً، إنه يحب جدته ... حسناً. لا بأس.

كثير فرانك، وقال:

- شكراً.

- وبعده؟

- ماذا؟

- أين جدتك العجوز؟

- في تور.

- ماذا إذا؟ ستحتاج إلى دراجتك يوم الأحد، إن كان عليك

الذهاب لرؤيتها؟

- سوف أتدبر أمري بطريقة أخرى ...

قاطعهما صوت رئيس القسم:

- الصمت! من فضلكما، الصمت!

شحذ غيوم سكينه واستغل الضجيج الناجم عن ذلك

ليغمغم:

- هذا جيد، اذهب ... سوف تعبرني إياها حينما تتعافى ...

- شكراً.

- لا تشكرني. سوف أسرق منصبك... .

هزّ فرانك ليستافيه رأسه مبتسماً.

لم يتفوّه بكلمة أخرى. وبدا له الدوام أطول مما هو في العادة. شقّ عليه أن يركّز وصرخ حينما أرسل رئيس الطهاة قسائم الطلبات وجهد لئلا يحرق نفسه. كاد أن يخفق في طهو ضلع ثور ولم يكفّ عن شتم نفسه بصوتٍ خفيض. فكّر في الفوضى التي ستعصف بحياته خلال بضعة أسابيع. كان من الصعب سابقاً التفكير فيها والذهاب لرؤيتها حينما كانت في صحّة جيّدة، أمّا الآن، فيا لها من بلبلة، اللعنة... لم يكن ينقصه إلاّ هذا... كان قد اشترى دراجة نارية باهظة الثمن بقرضٍ طويل الأجل وكان عليه دفع الأقساط. كيف سيمكنه تسديدها وسط كلّ هذا؟ أخيراً... لم يجرؤ على الاعتراف بذلك، ولكنّه كان أيضاً سعيداً بهذا الحظّ غير المتوقع... فالمعلّم تيتي سوف يأخذ درّاجته وسيكون بوسعه أن يجربها على الطريق السريع...

إذا ما سار كلّ شيء على ما يُرام، سيمكنه الاستمتاع بقيادتها وسيكون هناك في أكثر من ساعة بقليل...

ظلّ وحيداً في المطبخ خلال قطع اللحم مع عمال غسل الأواني. قام بمجرد بضاعته وأحصى قطع اللحم وترك مدوّنة طويلة موجهة إلى غيوم. لم يكن لديه الوقت ليمرّ ببيته، فاستحمّ في حجرات تغيير الثياب وبحث عن شيءٍ ينظف به واقبي وجهه ثمّ غادر المكان مشوّش البذهن.

كان سعيداً وقلقاً في آنٍ واحد.

كانت الساعة أقلّ من السادسة بقليل حينما أوقف دراجته في مرأب المستشفى. أخبرته موظفة الاستقبال بأنّ موعد الزيارات قد انتهى وأنّ بإمكانه العودة في اليوم التالي بدءاً من الساعة العاشرة. ألحّ عليها، فتصلّبت في موقفها.

وضع خوذته وقفازيه على طاولتها، ثمّ حاول أن يقنعها بلا انفعال:

- انتظري، انتظري... لم نفهم على بعضنا جيّداً... لقد وصلتُ من باريس الآن، وعلي أن أعود في الحال، وبالتالي إن استطعتِ...

ظهرت ممرّضة، وقالت:

- ماذا يحدث؟

توجّه نحوها:

- مرحباً... اعدزيني على إزعاجك، ولكن عليّ أن أقابل جدّتي التي وصلت البارحة إلى هنا في حالة إسعاف، وأنا...

- ما اسمك؟

- ليستافيه.

- آه! نعم!

أعطت إشارة لزميلتها، ثم قالت له:

- اتبعني...

شرحت له الوضع باختصار، وعلّقت على العملية، وذكرت المدّة التي تستغرقها عملية إعادة التأهيل وطلبت منه تفاصيل حول



نمط حياة المريضة. شقّ عليه أن يستجمع أفكاره، وفجأة تضايق من رائحة المكان ومن هدير محرّك الدراجة الذي كان لا يزال يدوي في أذنه.

فتحت الممرضة الباب وقالت مبتهجة:

- ها هو حفيدك! أترين؟ لقد أخبرتك بأنه سيأتي! حسناً، سأدعكما بمفردكما، مرّ عليّ في مكتبي وإلا لن يدعوك تخرج... .

لم ينتبه لأن يشكرها. فما شاهده، هنا في السرير، مزق قلبه.

دار من حول نفسه أولاً ليستعيد بعضاً من رباطة جأشه. نزع قميصه الرياضي وكنزته وبحث عن مكانٍ يعلّقهما عليه.

- الجوّ حار هنا، أليس كذلك؟

كان صوته غريباً.

- كيف حالك؟

السيدة العجوز، التي حاولت ببسالة أن تبسم له، أغمضت عينيها وبكت.

كانوا قد نزعوا طقم أسنانها. فبدا خدّاهما غائرين وكانت شفّتها العليا مرخية داخل فمها.

- إذأ؟ مارستِ الطيش مرّة أخرى، أليس كذلك؟

تطلّبت منه هذه النبرة المداعبة جهداً خارقاً.

- تحدّثتُ مع الممرضة، وقد أخبرتني بأنّ العملية الجراحية قد أُجريت بنجاح. وها أنتِ الآن مع قطعة معدنية جميلة... .

- سوف يضعونني في دارٍ للعجزة...

- كلا! ما هذا الكلام؟ سوف تمكثين هنا لبضعة أيام،  
وستذهبين إلى دارٍ للنقاهاة. هذه ليست داراً للعجزة، هذا أشبه  
بمستشفى ولكنّه أصغر حجماً. سوف يدلّونك ويساعدونك على  
المشي من جديد ومن ثمّ، مباشرةً، إلى حديقة السيّدة بوليت!  
- كم يوماً سيستغرق هذا؟

- بضعة أسابيع... وبعد ذلك، سيتوقّف الأمر عليك...  
عليك أن تثابري...

- وستأتي لرؤيتي؟

- طبعاً، سوف آتي! لديّ درّاجة جميلة...

- ألا تسير بها بسرعة كياراة؟

- سل سل سل، سلحفاة حقيقية...

- كاذب...

ابتسمت له وسط دموعها.

- كفّي عن هذا، يا جدّتي، وإلا سأبكي وأنتحب، أنا  
أيضاً...

- كلا، ليس أنت. أنت لا تبكي أبداً، أنت... حتى حينما  
كنت قاصراً، حتى حينما التوى ذراعك، لم أرك قط تذرف  
دمعةً...

- ومع ذلك كفّي.

لم يجرؤ على الإمساك بيدها بسبب الأنايب الموصولة بها.  
- فرانك؟

- أنا هنا، يا جدّتي... ..

- أنا أتألم.

- هذا طبيعي، سيزول هذا، يجب أن تنامي لبعض الوقت.

- أنا أتألم كثيراً.

- سأخبر الممرضة بذلك قبل أن أغادر، سوف أطلب منها

أن تعطيك مسكناً... ..

- ألن تغادر في الحال؟

- كلا!

- حدّثني قليلاً. حدّثني عن نفسك... ..

- انتظري، سوف أطفئ النور، هذا الضوء رديء جداً... ..

رفع فرانك الستارة، وفجأة، ساد الغرفة ظلٌّ خفيف. ثمّ

حرّك الأريكة من مكانها ليكون بجانب اليد الأمانة ويأخذها بين

يديه.

شقّ عليه في البداية العثور على كلماته، وهو الذي لم

يحسن قط الحديث عن نفسه... .. بدأ بالحديث عن أمور ثانوية،

كالطقس في باريس والتلوّث ولون دراجته من طراز سوزوكي،

وكلّ هذه التفاهات.

ومن ثمّ، وبمساعدة الغروب والوجه شبه الهادئ لجدّته،

وجد ذكريات وأسراراً أكثر قيمة. روى لها سبب انفصاله عن

صديقته الصغيرة وأخبرها عن اسم الفتاة التي يتهيأ لاصطيادها،

وتقدّمه في فنّ الطبخ وتعبه... .. قلّد شريكه الجديد في السكن

وسمع جدّته تضحك بلطف.

- أنت تبالغ ...

- أقسم لك أنني لا أبالغ! سوف ترين ذلك حينما تأتيين

لرؤيتنا وستدركين ...

- أوه، ولكنني لا أرغب في المجيء إلى باريس، أنا ...

- إذًا، نحن سنأتي، وستعدّين لنا وجبة شهية!

- أعتقد ذلك؟

- نعم. سوف تحضّرين لنا قالباً من الحلوى بالبطاطس ...

- أوه، كلا، ليس هذا الطبق ... إنه بسيط جداً ...

ثمّ تحدّث عن جوّ المطعم وتوبيخات رئيس الطهاة، وعن ذلك اليوم الذي جاء فيه وزيرٌ ليهنّئهم في المطبخ، وعن مهارة الشاب تاكومي، وعن سعر الكمأة. تحدّث لها عن أخبار مومو والسيدة مانديل. وأخيراً صمت لكي يصغي إلى أنفاسها ويُدرِك أنّها قد نامت. فنهض من دون أن يشير ضجيجاً.

في اللحظة التي أوْشك فيها على الخروج، نادته:

- فرانك؟

- ماذا؟

- لم أخبر والدتك، أنت تعرف ...

- حسناً فعلت.

- أنا ...

صمت

- يجب أن تنامي الآن، كلما نمتِ أكثر كلما تماثلتِ

للشفاء أسرع.

- حسناً فعلتُ؟

هزّ رأسه ووضع إصبعه على فمه.

- نعم. هيا، نامي الآن...

شعر بأن الأضواء قد دوّخته واستغرق وقتاً لا بأس به إلى أن وجد طريقه. صادفته الممرضة عرضاً.

قدّمت له كرسيّاً، وفتحت الملفّ الذي يعنيه. بدأت بطرح بعض الأسئلة العملية والإدارية، ولكن الصبي لم يستجب لها.

- كيف حالك؟

- أنا متعب...

- ألم تتناول شيئاً؟

- كلا، أنا...

- انتظر، لدينا هنا ما يلزم...

أخرجت من درج طاولتها علبة سردين وعلبة بسكويت.

- هل هذا يكفي؟

- وأنتِ؟

- لا مشكلة! انظر! لقد تناولت الكثير من الحلوى! أتأخذ

القليل من العصير مع هذا؟

- كلا شكراً. سأخذ علبة كوكا من الموزع...

- هيا، أنا سأصّبّ لنفسي كوباً صغيراً لكي أصحبك،

ولكن... هذا سرٌّ بيننا، اتفقنا؟

تناول القليل من الطعام، وأجاب عن كلّ أسئلتها، واستعاد

متاعه.

- تقول إنها تتألم...

- سيتحسن حالها غداً. لقد أضفنا مسكّنات ألمٍ إلى حقنها، وستستيقظ في حال أفضل...

- شكراً.

- هذا واجبي.

سار سريعاً، وحرص على ألا يثير ضجيجاً. ليس الآن. لقد تحمّل طويلاً... وكان بوسعه أن يقاوم لبعض الوقت.

## 7

- قهوة؟

- كلا، كوكا من فضلك.

شربت كاميل الكوكا بجرعاتٍ صغيرة. كانت جالسة في مقهى يقع قبالة المطعم الذي أعطتها أمها موعداً فيه. أمسكت بيديها الكأس من جانبيها وأغمضت عينيها وهي ترتشف منها ببطء. لطالما أتلفت وجبات الغداء هذه، المتأخرة جداً، أمعاءها. كانت تخرج ملوية على نفسها، مترنحة، وكأنها قد سلّخت حيةً. وكان أمها كانت تنكبّ، بتدقيقٍ ساديٍّ مفرط، على إعادة فتح الآلاف من النُدب الصغيرة، واحدة فواحدة. لمحتها كاميل في المرأة خلف القوارير وهي تجتاز باب مطعم بارادي دي جاد. أشعلت سيجارة، نزلت إلى المغاسل، دفعت حسابها وعبرت الشارع. وضعت يديها في جيبيها وشبكتها على بطنها.

لمحت شبحتها المحنيّ وجاءت تجلس قبالتها وهي تأخذ نفساً طويلاً:

- صباح الخير ماما!

فردت:

- ألا تقبليني؟

قالت بصوتٍ أخفض:

- صباح الخير ماما.

- كيف حالك؟

- لماذا تسأليني هذا السؤال؟

تشبّثت كاميل بحرف الطاولة لئلا تنهض مباشرة.

- أسألكِ هذا السؤال لأنّ هذا هو ما يقوله الناس عموماً

لبعضهم حينما يلتقون...

- ولكنني لستُ «الناس»، أنا...

- أنتِ ماذا، إذأ؟

- أوه، أرجوكِ، لا تبداي!

أشاحت كاميل بصرها ونظرت إلى الديكور المقرّز للمطعم،

المصنّم من الجصّ ومنقوشات آسيوية. كانت العروق مرصّعة

بالبلاستيك والأثاث من الفورمايكا الصفراء.

- المكان جميل...

- كلا، إنّه مقرّز. ولكن لا قدرة لي على دعوتكِ إلى برج

أرجان. من جهةٍ أخرى، حتى لو كانت لدي القدرة على ذلك لما

دعوتكِ إليه... فالنقود التي تأكلين بقيمتها، ستكون أموالاً

مهذورة...

وأكملت باستهزاء ومرارة:

- لاحظني جيداً، يمكنك الذهاب إليه من دوني لأنك  
تملكين المال! مصائب قوم عند قوم فوا...  
توعدتها كاميل:

- كفي عن هذا في الحال، كفي وإلا سأنصرف. إن كنتِ  
بحاجة إلى المال، أخبريني وسأقرضك إياه.

- صحيح أن الآنسة تعمل... عملٌ شريف... بل ومغري...  
مدبرة منزل... ليس من المعقول أن يكون يقوم بهذا العمل  
شخص بهذه الفوضوية... سوف لن تكفي عن إدهاشي، هل  
تعلمين؟

- كفي، ماما، كفي. لا يمكننا الاستمرار بهذه الطريقة. لا  
يمكننا، أفهمين؟ أقصد، أنا لا أستطيع. قللي شيئاً آخر من  
فضلك، قللي شيئاً آخر.

- كانت لديك مهنة جميلة، وأفسدت كل شيء...  
- مهنة جميلة... لا تهمني... ثم إنني لست نادمة  
عليها... لم أكن سعيدة فيها...

- ما كنتِ لتبقي فيها مدى الحياة... ثم ما معنى كلمة  
«سعيدة»؟ هذه الكلمة الجديدة الدارجة هذه الأيام، هذه  
الكلمة... سعيدة! سعيدة! إذا كنتِ تعتقدين أننا موجودون على  
هذه الأرض لكي نتلهى كالأطفال ونقطف شقائق النعمان،  
تكونين ساذجة جداً، يا ابنتي...

- كلا، كلا، اطمئني، لا أعتقد ذلك. كنتُ في المدرسة  
المناسبة وأعرف أننا موجودون لنشقى. لقد ردّدتِ على مسامعي  
ذلك كثيراً...



سألتهما النادلة:

- هل اخترتما طلبكما؟

كانت كاميل لتعانقها.

نثرت أمها أقراصها على الطاولة وأحصتها بإصبعها.

- ألم تضيقى ذرعاً بكلّ هذه القاذورات؟

- لا تتحدّثي عمّا لا تعرفينه. لو لم أتناولها، لمتُ منذ أميدٍ

طويل...

- ماذا تعرفين عنها؟ ولماذا لا تنزعين أبداً هذه النظارة

الفضيعة. لا شمس هنا...

- أنا أفضل حالاً معها. هكذا أرى العالم كما هو...

قرّرت كاميل أن تبتسم لها وأن تربّت على يدها. فإمّا أن

تفعل ذلك أو تنقضّ على رقبتها وتخنقها.

انبسطت أسارير أمها، تأوّهت قليلاً، تذكّرت عزلتها، آلام

ظهرها، وحماقات زميلاتها وشقاء المنزل المشترك. أكلت

بشهيّة، وعبست حينما طلبت ابنتها زجاجة ثانية من الجعّة.

- تفرطين في الشراب.

- هذا صحيح! هيّا، اشربي معي! لمرة واحدة لا تتفوّهي

بترّاهات...

- لم تأتِ قط لرؤيتي...

- ها أنذا هنا؟ ماذا أفعل هنا؟

- دائماً هذا آخر ما تفعلينه، أليس كذلك؟ مثل والدك...

تجمّدت كاميل في مكانها.

فقلت بنبرة انتصار:

- آه! لا تحيّن أن أتحدّث عنه، أليس كذلك؟
- ماما، أرجوك... لا تذهبي بهذا الاتجاه...
- سأذهب إلى حيث أشاء. ألم تنهي طبقك؟
- كلا.

هزّت أمّها رأسها علامةً على استهجانها.

- انظري إلى نفسك... وكأنك هيكل عظمي... إن كنتِ تعتقدين بأنك تثيرين رغبة الفتیان... ..
- ماما...

- ما معنى «ماما»؟ من الطبيعي أن أهتمّ بك، نحن لا ننجب الأطفال إلى الدنيا لنراهم يذبلون!
- وأنتِ، لماذا جئتِ بي إلى الدنيا؟

في اللحظة التي نطقت فيها بهذه الجملة، أدركت كاميل أنّها قد تمادت كثيراً وأنّها في طريقها للتأهل إلى دور الثمانية. رقم بلا مفاجأة، مكرّر لألف مرّة وبتركيز شديد: ابتزاز عاطفيّ، دموع التماسيح وتهديد بالانتحار.

بكت أمّها، وعاتبته على هجرها تماماً كما فعل والدها قبل خمسة عشر عاماً، وذكرها بأنّ ليس لها قلب وسألها عن سبب بقائها في هذه الدنيا.

- أعطني سيباً واحداً للبقاء هنا، سيباً واحداً فقط؟
- لفت كاميل سيجارة لنفسها.
- هل سمعتيني؟

- نعم.

- إذا؟

...

- شكراً، عزيزتي، شكراً، هذا أبلغ جواب... ..

تأققت ووضعت قسيمي الوجبتين على الطاولة ثم انصرفت.

لم تتأثر بذلك، فلطالما وجدت في الرحيل المفاجئ شيئاً

من التعظيم، كان سقوط ستارة دور الثمانية إن صحّ التعبير.

عادةً ما تنتظر الفنانة إلى حين نفاذ الحلوى، ولكن هذه

المرّة كانت في مطعم صيني، ولم تكن الأمّ تحبّ فطائر الليتشي

ولا حلوى النوغا التي يقدّمونها... ..

نعم، عدم التأثر.

كان ذلك تمريناً صعباً، ولكنّ كاميل كانت قد صقلت

وسائل بقائها منذ زمن... .. ففعلت ما تفعله عادةً وحاولت أن تركز

لتردد ذهنياً على نفسها بعض الحقائق. بعض الجمل المبسّطة

والمفعمة بالحكمة. عكازتان صغيرتان معدّلتان للمشي السريع

كانتا تسمح لها بالاستمرار في رؤيتها... .. لأنّ هذه اللقاءات

القسرية، هذه النقاشات العبثية والهدّامة لم يكن لها أيّ معنى ما

لم تكن متأكّدة من أنّها تلائم والدتها. والحال أنّها كانت،

وللأسف، تلائم تماماً كاترين فوك. كان إذلال ابنتها يسليها

كثيراً. وحتى إذا كانت تختزل لقاءاتهما في حركة إذلالٍ ومهانة،

فإنها كانت تجد نفسها راضية عن ذلك. راضية وشبعانة. حاملّة

معها حسن نيتها المزعوم وانتصاراتها المثيرة للعواطف إلى المرّة

المقبلة.

استغرقت كاميل وقتاً إلى أن أدركت هذا الأمر، ولكنها لم تدرك ذلك بمفردها. قُدِّمَتْ لها مساعدة من جانب بعض الأشخاص من محيطها، خاصة حينما كانت لا تزال صغيرة للحكم عليها، أشخاص أعطوها مفاتيح لفهم سلوك والدتها. نعم ولكن كان ذلك في الماضي، وكلّ الذين ساعدوها لم يعودوا موجودين الآن...

واليوم، كانت تذيق الصغيرة الأمرين.  
بطريقة غريبة.

## 8

رُفِعَت الأطباق الفارغة عن الطاولة، وأصبح المطعم فارغاً من رواده. لم تتزحزح كاميل من مكانها. كانت تدخن وتطلب أكواباً من القهوة لثلاث تَطَرَد من المطعم.  
كان في نهاية الصلاة رجلٌ أدرد، كان عجوزاً آسيوياً يتكلّم ويضحك بمفرده.

كانت المرأة الشابة التي تخدمهما تقف خلف البار، تمسح كؤوساً، وتوجّه له، من حينٍ لآخر، بعض التحذيرات بلغتهما. كان العجوز يعبس ويصمت للحظة ثمّ يستأنف مونولوجه الأحمق.  
سألت كاميل:

- أستغلون؟

أجابت وهي تضع قدحاً أمام العجوز:

- كلا، فقط هذا آخر طلب، ولكن يبقى المطعم مفتوحاً.

أتريدون فنجاناً آخر من القهوة؟

- كلا، كلا شكراً. هل يمكنني أن أبقى لبعض الوقت؟
- نعم، طالما أنت هنا، سيشغله ذلك!
- أتقصدين أنني أنا من أضحكه هكذا؟
- أنت، أو أياً كان...

تفرّست كاميل في الرجل العجوز وبادلته ابتسامته.

الغمّ الذي أغرقها أمّها فيه تلاشى تدريجياً. كانت تصغي إلى ضجيج المياه وصوت القدور المنبعث من المطبخ، وإلى الراديو، وتلك الأغاني الرتيبة غير المفهومة والرنانة التي كانت الفتاة تردّها متمائلةً. راقبت الرجل العجوز الذي كان يلتقط فتائل طويلة من المعجنات بقطع من الخبز فيسيل المرق على ذقنه؛ وشعرت فجأةً بأنّها في قاعة طعام منزلٍ حقيقي... .

عدا فنجانٍ من القهوة وعلبة تبغها، لم يعد أمامها أيّ شيء. وضعتهما على الطاولة المجاورة وبدأت بمسح غطاء الطاولة.

ببطء، ببطءٍ شديد، مرّرت وأعدت تمرير راحة يدها على الورق الرديء، الخشن والمبّع.

قامت بتلك الحركة مطوّلاً.

هدأت روحها، وتسارعت دقات قلبها.

كانت خائفة.

كان عليها أن تحاول. عليك أن تحاولي. نعم ولكن، مرّ زمنٌ طويل وأنا... .

تمت:

- اخرسى، اخرسى، أنا هنا. سيسير كلّ شيء على ما

يُرام، يا عظيمتي. انظري، إمّا الآن أو أبداً... هيّا... لا تخافي...

رفعت يدها لبضعة سنتيمترات عن الطاولة وانتظرت إلى أن يتوقّف ارتعاشها. هذا جيّد، أنتِ ترين... التقطت حقيبة ظهرها ونبشت ما بداخلها... كانت موجودة.

أخرجت علبة الحلّي الخشب ووضعتها على الطاولة. فتحتها، وأخذت حجراً صغيراً مستطيل الشكل ومرّته على خدّها، كان ناعماً وبارداً. ومن ثمّ حلّت قطعة نسيج وأخرجت منها عود حبر، ففاحت منه رائحة صندل قوية. وأخيراً، مدّت سماطاً عليه أعواد الخيزران وريشتان.

كانت الريشة الأضخم مصنوعة من شعر الماعز، وكانت الأخرى أرفع بكثير ومصنوعة من وبر الخنزير.

نهضت وتناولت قارورة ماء ومفكّرتين وانحنت انحناءة خفيفة احتراماً للعجوز المعتوه.

وضعت المفكّرتين على مقعدها بحيث تستطيع أن تمدّ ذراعها من دون أن تلمس الطاولة، وصبّت بضع قطرات من الماء على الحجر الأردوازي وبدأت بهرس الحبر. بلغ صوت معلّمها أذنيها: دؤري حرك ببطء شديد، يا عزيزتي كاميل... أوه! أبطأ! ولوقتٍ أطول! ربّما لماتتي مرّة، لأنك، كما ترين، وأنتِ تفعلين هذا، تمرّنين معصمك وتهيئين روحك لأمرٍ عظيمة... لا تفكّري بأيّ شيء، لا تنظري إليّ، أيتها التعسة! ركّزي على معصمك، وسيملي عليك الخط الأوّل ووحده الخط الأوّل هو المهمّ فهو الذي سيمنح الحياة وينفخ الروح في رسمك... .

حينما أصبح الحبر جاهزاً، خالفت تعليماته وبدأت بتمرينات صغيرة على زاوية من غطاء الطاولة لتستحضر ذكريات بعيدة جداً. رسمت أولاً خمس بقع، متدرجة من الأكثر سواداً إلى الأقل سواداً لتستذكر ألوان الحبر، ثم جرّبت مختلف الأفكار واكتشفت أنها كانت قد نسيتهما كلّها تقريباً. بقي البعض منها: الوتر المحلول، الشعرة، قطرة المطر، الخيط المجدول ووبر الثور. ثمّ جاء دور العلامات. كان معلّمها قد علّمها أكثر من عشرين علامة، لم تتذكّر منها سوى أربع: الدائرة، الصخرة، الأرزّ والقشعريرة.

كفى، أنتِ جاهزة الآن... أمسكت بالريشة الأرفع بين إبهامها وإصبعها الوسطى ومدّت ذراعها فوق الغطاء وانتظرت لبضع ثوانٍ إضافية.

أغمض العجوز، الذي لم يفقد شيئاً من حيلته، عينيه وشجّعها.

استفاقت كاميل فوك من نومٍ طويل وفي عينها الساخرة عصفور دوريّ، ثمّ عصفوران، ثمّ سرب من العصافير. لم تكن قد رسمت أيّ شيء منذ عام.

\*\*\*

في طفولتها، كانت تتكلّم قليلاً، أقلّ من الآن. أرغمتها أمّها على متابعة دروسٍ في البيانو وكانت تكره ذلك. ذات مرّة، بينما كان أستاذها متأخراً، أمسكت قلماً كبيراً وأخذت ترسم. رسمت بدقّة، إصبعاً على كلّ مفتاحٍ من مفاتيح البيانو. أثار ذلك

حنق والدتها، أمّا والدها، ولتهدئة الجميع، عاد في الأسبوع التالي ومعه عنوان رسّام يعطي الدروس مرّة واحدة في الأسبوع. مات والدها بعد ذلك بفترة قصيرة، ولم تعد كاميل تفتح فيها. حتى أثناء دروسها في الرسم مع السيّد دوغتون، الذي كانت تحبّه كثيراً، لم تعد تتكلّم.

لم يغضب العجوز الانكليزي من ذلك واستمرّ في تحديد مواضيع لها، أو تعليمها تقنيات الرسم بصمت. كان يحدّد النموذج وكانت هي تقلّده فيكتفي بإشارة من رأسه ليقول نعم أو لا. كان كلّ شيء بينهما على ما يُرام في ذلك المكان فقط. حتى صمته بدا مناسباً لهما. لم يكن مضطراً للبحث عن كلماته باللغة الفرنسية وكانت هي تركّز على نحوٍ أفضل من زملائها في الدرس.

إلا أنّه ذات يوم، وبينما غادر كلّ التلاميذ الآخرين، خرق اتفاقهما الضمني ووجّه إليها الكلام بينما كانت تتسلّى بأقلام الباستيل.

- أتعرفين، يا كاميل، بمن تذكّريني؟  
هزّت رأسها.

- حسناً، أنتِ تذكّريني برسّامٍ صيني يُدعى شو تا...  
أتريدين أن أروي لكِ حكايته؟  
ردّت كاميل بالإيجاب، ولكنّه كان قد أدار ظهره لكي يُطفئ غلايته.

- لم أسمعكِ يا كاميل، ألا تريدين أن أرويها لكِ؟  
كان يحدّق فيها الآن.



- أجيبيني، أيتها الفتاة الصغيرة.

رمته بنظرة شريرة.

- عفواً؟

أجابت أخيراً.

- بلى.

أغمض عينيه علامة على الرضا، قدّم لنفسه قدحاً من الشاي، وجلس بقربها.

- حينما كان طفلاً، كان شو تا سعيداً جداً.

شرب جرعة من الشاي.

- كان أميراً من سلالة مينغ... وكانت أسرته في غاية الثراء والسلطة. كان والده وجدّه من الرسامين والنسّاحين المشهورين وورث الصغير شو تا مواهبهما. تصوّري أنّه ذات يوم، وهو لم يبلغ بعد الثامنة من عمره، رسم زهرةً، زهرة لوتس بسيطة راقدة على صفحة ماء بركة... كانت رسمته جميلة جداً، جميلة جداً بحيث قرّرت والدته تعليقها في صالون بيتهم. كانت تؤكّد أن بفضلها، كان المرء يحسّ بنسمة علية في تلك القاعة الفسيحة بل وكان يمكنه أن يشمّ العطر الفواح لتلك الزهرة حين يمرّ أمامها. هل تفهمين؟ حتى العطر! ولا بدّ أنّ أمّه لم تكن مجاملة... فمع زوج وأب فنانيين، كانت قد شاهدت الكثير من اللوحات الأخرى...

انحنى من جديد على كوبه.

- هكذا ترعرع تا، وسط اللامبالاة، والسعادة، واليقين بأنّه سيكون، هو الآخر، ذات يوم فناناً عظيماً... ولكن للأسف،

حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره، استولى آل ماندشو على السلطة وحلّوا محلّ آل مينغ. كان آل ماندشو قوماً من القساة والطغاة الذين لا يحبّون الرسامين والكتّاب، فمنعواهم من العمل. وكان ذلك أسوأ ما يمكن فرضه عليهم... لم تعد عائلة شو تا تعرف السلام قط، ومات الأب ياساً. بين ليلة وضحاها، تحول ابنه، الذي كان يحبّ اللهو والغناء والفكاهة وإلقاء القصائد الطويلة، إلى شخصٍ لا يمكن تخيّلُه... أوه! مَنْ القادم؟ سأل السيّد دوغتون، وقد لمح هرّة الذي وقف على حافة النافذة وانخرط معه، عمداً، في حديثٍ مطوّلٍ أبّله.

وأخيراً، غمغمت:

- ماذا فعل؟

أخفى ابتسامته في لحيته المشعثة وتابع وكأنّ شيئاً لم يكن:  
- قام بأمرٍ لا يمكن تصديقه. شيءٌ لن تخمّنيه أبداً... قرّر أن يسكت إلى الأبد. إلى الأبد... هل تسمعينني؟ لم يعد يتفوّه بكلمة واحدة! كان ممتعضاً من سلوك الناس من حوله، الناس الذين تنكروا لتقاليدهم ومعتقداتهم لنيل رضا آل ماندشو، ولم يعد يرغب في التكلّم إليهم. فليذهبوا إلى الشيطان! كلّهم! هؤلاء العبيد! هؤلاء الجبناء! فكتب على باب داره كلمة صمت وإذا ما حاول بعض الأشخاص التحدّث إليه رغم ذلك، كان يبسط أمام وجهه مروحة كتب عليها أيضاً كلمة صمت ويحرّكها بكلّ اتجاه لكي يتفرّهم...

كانت الفتاة ترهف إليه سمعها.

- المشكلة هي أن لا أحد يستطيع العيش من دون التعبير

عن رأيه. لا أحد... هذا مستحيل... وبالتالي فإن شوتا، الذي كان لديه مثل الجميع، مثلي ومثلك، الكثير من الأشياء التي كان عليه أن يقولها، وجد فكرة عبقرية. غادر إلى الجبال، بعيداً عن كل هؤلاء الناس الذين خانوه، وبدأ يرسم... منذ ذلك الحين، راح يعبر عن رأيه ويتواصل مع ما تبقى من العالم بهذه الطريقة: عبر رسوماته... أتريدون أن تريها؟

راح وجلب كتاباً ضخماً أبيض وأسود اللون من مكتبته ووضعه أمامها:

- انظري كم هذا جميل... كم هذا بسيط... فقط فكرة واحدة... فكرة واحدة وكفى... زهرة، سمكة، جرادة، انظري إلى هذا البطل، وكأنه غاضب وإلى هذه الجبال، هنا، وسط الضباب... انظري كيف رسم الضباب، وكأنه لا شيء، سوى الفراغ... وهذه الصيصان؟ إنها تبدو لطيفة للغاية بحيث نرغب في مداعبتها. انظري إن حبره يشبه الزغب... حبره خفيف وعذب...

ابتسمت كاميل.

- أتريدون أن أعلمكم الرسم مثله؟

هزت رأسها.

- أتريدون أن أعلمكم؟

- نعم.

حينما أصبح كل شيء جاهزاً، حينما انتهى من تعليمها كيفية مسك الريشة وشرح لها حكاية الخط الأول المهم جداً، ظلت للحظة حائرة. لم تفهم جيداً واعتقدت بأن عليها أن تنجز كل

الرسمه قطعاً واحده من دون أن ترفع يدها. كان ذلك مستحيلاً.

فكرت طويلاً في موضوع، نظرت حولها ومدت ذراعها.

رسمت خطأ طويلاً متموجاً، حدةً، حدّاً، حدّاً ثانياً،

وأنزلت ريشتها في خطّ طويلٍ متعرج وعادت إلى الخطّ المتموج الأول. ولأنّ أستاذها لم يكن ينظر إليها، استغلّت ذلك لكي

تغشّ، رفعت الفرشاة لتضيف لطفة سوداء كبيرة وستّ شطبات. فضّلت أن تخالف تعليماته بدل أن ترسم هراً بلا شوارب.

كان الهرّ مالكولم، نموذجها، لا يزال نائماً على حرف

النافذة، وأنهت كاميل، في اهتمامٍ حقيقي، رسمتها بمستطيلٍ رفيع حول الهرّ.

ثمّ نهضت وذهبت لتداعبه، وحينما عادت، لاحظت أنّ

أستاذها يحذّق فيها بطريقة غريبة، شبه شريرة:

- أنتِ مَنْ رسمتِ هذا؟

إذاً كان قد رأى أنّها قد رفعت ريشتها لعدّة مرات...

فكشّرت.

- أنتِ مَنْ رسمتِ هذا، يا كاميل؟

- نعم...

- تعالي إلى هنا من فضلك.

تقدّمت بخطوات واثقة جدّاً وجلست بجانبه.

كان يبكي:

- رائّع ما رسمته هنا، أتعلمين، إنّهُ رائّع... إنّنا نسمع مواء

هرّك المرسوم... أوهُ، يا كاميل...

أخرج من جيبه منديلاً كبيراً، مليئاً ببقع الألوان، وتمخّط بصخب.

- اسمعيني، أيتها الفتاة الصغيرة، لستُ إلا رجلاً عجوزاً ورساماً رديئاً، ولكن اسمعيني جيداً... أنا أعلم أنّ حياتك ليست سهلة، وأتخيّل بأنها ليست مسليّة دائماً في البيت، كما علمتُ من والدك، ولكن... لا، لا تبكي... تفضّلي، خذي منديلي... ولكن، هناك أمرٌ يجب أن أخبرك به: الناس الذين يكفّون عن الكلام، يصبحون مجانين. شو تا، على سبيل المثال، لم أخبرك بذلك منذ قليل، جُنّ وغدا بائساً جداً.. في غاية البؤس وفي غاية الجنون. ولم يعرف السكينة إلا عندما غدا عجوزاً. سوف لن تنتظري إلى أن تصبحي عجوزاً، أليس كذلك؟ قول لي أن كلا. أنتِ موهوبة جداً، أتعلمين؟ أنتِ أكثر موهبةً من جميع تلامذتي على الإطلاق، ولكن هذا ليس سبباً، يا كاميل... هذا ليس سبباً. لم يعد عالم اليوم كما كان عالم شو تا، وعليك أن تستعيد الكلام. أنتِ مرغمة، أتفهمين؟ وإلا سوف يحبسونك مع المجانين ولن يرى أحدٌ قط رسوماتكِ الجميلة...

قطع وصول أمّها حديثهما. نهضت كاميل ونهّتها بصوتٍ أجشٍّ ومرتجٍ:

- أنتظريني... لم أنتهي من ترتيب أغراضي بعد... ذات يوم، بعد فترة قصيرة، تلقّت طرداً غير محزومٍ جيداً، مع كلمة قصيرة:

صباح الخير،

اسمي ايلين ولسون، على الأرجح لا يعني اسمي شيئاً

بالنسبة لكِ، ولكنني كنتُ صديقة سيسيل دوغتون الذي كان أستاذك في الرسم سابقاً. يحزنني أن أخبرك بأن سيسيل قد رحل عنا منذ شهرين. أعلم أنكِ تودين أن أخبرك (اعذريني على لغتي الفرنسية الضعيفة) بأننا قد دفناه في منطقة دارتمور التي كان يحبها كثيراً في مقبرة لها إطلالة جميلة جداً. لقد وضعت ريشه وألوانه معه في القبر.

قبل موته، طلب مني أن أعطيكِ هذا الطرد. أعتقد أنه سيكون سعيداً لو أنكِ استخدمته وأنتِ تفكرين به.

ايلين و.

لم تستطع كاميل أن تتمالك دموعها وهي تكتشف لوازم الرسم الصيني من أستاذها العجوز، اللوازم نفسها التي كانت تستخدمها آنذاك...

\* \* \*

جاءت النادلة، حائرة، وأخذت الفنجان الفارغ من أمامها وألقت نظرةً على غطاء الطاولة. كانت كاميل قد رسمت عليه عدّة نباتات من الخيزران. كانت أعوادها وأوراقها أصعب ما رسمته. إنّ ورقة واحدة، ورقة صغيرة، ورقة بسيطة تتمايل في الرياح، تتطلب من هؤلاء الأساتذة سنوات من العمل، أحياناً حياةً بأكملها... العبي مع المتضادات. ليس لديك سوى لونٍ واحدٍ ومع ذلك يمكنك أن توحى بشيءٍ ما... رگزي أفضل. إن أردت أن أنقش خاتمك ذات يوم، عليك أن ترسمي أوراقاً أخفت من هذه بكثير...

إنّ الدعامه، السيئه المواصفات، تنتفخ وتشرب الحبر على نحوٍ أسرع بكثير.

سألت الشابة:

- أسمحين؟

مدّت نحوها حزمة من الأغطية البيض. تراجعت كاميل ووضعت شغلها على الأرض. أنّ العجوز، فوبخته النادلة.

- ماذا يقول؟

- إنه يحتجّ لأنه لا يستطيع رؤية ما ترسمين...

أضافت:

- إنه شقيق جدّي... وهو مشلول...

- أخبره بأنّ اللوحة المقبلة ستكون له...

عادت الفتاة نحو البار وتفوّت ببضع كلمات وجّهتها له. هدأ ونظر إلى كاميل نظرة قاسية.

تفرّسته مطوّلاً ثم بدأت ترسم، على كامل وجه الغطاء. رسمت رجلاً نحيلاً فرحاً يشبهه ويجري وسط حقلٍ للأرز. لم تكن قد ذهبت قط إلى آسيا، ولكنها ارتجلت خلفية للصورة من جبلٍ يغطّي قمته ضباب وأشجار صنوبرٍ وصخور بل والكوخ الصغير للرسام شو تا على سفح الجبل. رسمته بقبّعته من طراز نايكه وسترته، ولكنها تركت ساقيه عاريتين مرتدياً فقط تنورة تقليدية. أضافت بضع قطرات من الماء متناثرة من قدميه وعصبة من الصبية السائرين في إثره.

تراجعت قليلاً لتحكم على عملها.

كانت تفاصيل عديدة تغيظها بالطبع، ولكن في النهاية، بدت سعيدة، سعيدة فعلاً، فوضعت طبقاً تحت الغطاء كمسندٍ وفتحت عبوة القرمز وغطت ريشتها فيها. نهضت، وأفرغت طاولة العجوز ثم عادت وحملت لوحها وأفردتها أمامه.

لم يبد رد فعلٍ.

عفواً، قالت في نفسها، لا بد أنني قد أخطأت في شيءٍ

... ما.

حينما عادت حفيده شقيقه من المطبخ، أطلق أنيناً طويلاً أليماً.

قالت كاميل:

- أنا متأسفة، اعتقدتُ أن...

قامت بحركة لتقاطعه وراحت لتجلب نظارة كبيرة من خلف طاولة الشرب ودسستها تحت القبة. انحنى بطريقة احتفالية وبدأ يضحك. ضحكة طفولية، شقافة ومرحة. ثم بكى وعاد يضحك ثانية مترنحاً وشابكاً ذراعية على صدره.

- يريد أن يشرب معك الساكي الياباني.

- رائع...

جلبت قارورة، فصرخ، تنهدت وذهبت من جديد إلى المطبخ.

عادت بزجاجةٍ أخرى، متبوعة ببقية العائلة. سيّدة بالغة، رجلان في الأربعينات من عمريهما وفتى مراهق. سادت ضحكات وصرخات ومجاملات من كلّ نوع. ربّت الرجلان على كتفه وضرب الصبي كفاً بكفّ على طريقة الرياضيين.



ثم عاد كلّ إلى مكانه ووضعت الفتاة زجاجتين صغيرتين أمامهما. حيّاهما العجوز ثم أفرغ كأسه قبل أن يملأه ثانية.  
- أحذركِ، سوف يروي لكِ قصّة حياته.

قالت كاميل:

- لا مشكلة... أووه... هذا قويّ، أليس كذلك؟  
ابتعدت الفتاة ضاحكة.

باتا بمفردهما الآن. الجدّ يهذر وكاميل تُصغي إليه بانتباه وتأخذ جرعة صغيرة جداً كلّما قدّم لها القارورة.

شقّ عليها أن تنهض وتلمّ أغراضها. بينما كانت تقف بالقرب من باب الخروج، بعد أن انحنت مراراً عديدة أمام الرجل لتستأذنه بالانصراف، أقبلت الفتاة نحوها لتساعدها في سحب مقبض الباب الذي كانت تلحّ على دفعه وهي تضحك ببلاهة.

- أنتِ هنا في بيتك، اتّفقنا؟ يمكنكِ أن تأتي وتأكلي حينما تشائين. إن لم تأتي، سيغضب... ويحزن أيضاً...  
حينما وصلت إلى عملها كانت منهارة تماماً.

سألته سامية محتدة:

- يا أنتِ، هل قابلتِ رجلاً؟

اعترفت كاميل، مرتبكة:

- نعم.

- أهذا صحيح؟

- نعم.

- كلا، هذا ليس صحيحاً... وكيف هو؟ أهو ظريف؟
- ظريفٌ للغاية.
- وكم عمره؟
- اثنان وتسعون عاماً.
- كفي عن ترّهاتك، يا غبية، كم عمره؟
- حسناً، يا بنات، كما تشاؤون، اتفقنا!
- أشارت جوزي إلى ساعتها.
- ابتعدت كاميل مقهقهةً، متناقلة الخطى.

## 9

مرّت أكثر من ثلاثة أسابيع. كان فرانك، الذي يعمل يوم الأحد لساعات إضافية في مطعم، يأتي كلّ يوم اثنين لعيادة جدّته.

كانت موجودة في دارٍ للنقاهاة تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى شمال المدينة، وترقّب وصوله منذ مطلع النهار.

أما هو، فقد كان مضطراً لضبط ساعته المنبّهة. كان ينزل كشبحٍ إلى مقهى الزاوية ويشرب فنجانين أو ثلاثة من القهوة باستمرار ويركب دراجته ويأتي ليجلس بجانبها على أريكة مهترئة من الجلد الاصطناعي الأسود.

حينما جلبوا لها وجبتها، وضعت العجوز سبابتها على فمها وأشارت، بحركةٍ من رأسها، إلى الصبي الضخم المتكور على نفسه الذي كان في غرفتها. أحاطته بنظرتها وحرصت على أن تبقى بلوزته على صدره.

كانت سعيدة. كان موجوداً. موجوداً تماماً. كان لها  
فحسب...

لم تجرؤ على استدعاء الممرضة لترفع لها سريرها، أمسكت  
بشوكتها بهدوء وتناولت طعامها في صمت. أخفت أشياء في درج  
طاولتها، قطعاً من الخبز، وحصتها من الجبن وبعض الفاكهة  
لتعطيها له عندما يستيقظ. ومن ثمّ، دفعت الطاولة الصغيرة  
وشبكت يديها على بطنها وابتسمت.

أغمضت عينيها ونعست مهددةً بأنفاس حفيدها وفيض  
ذكريات ماضيها. كانت قد فقدته مرّات كثيرة في ما مضى...  
مرّات كثيرة... بدا لها أنّها أمضت حياتها بحثاً عنه... في عمق  
الحديقة، بين الأشجار، عند الجيران، مختبئاً في إسطبلاتهم أو  
جالساً أمام تلفازهم، ثمّ في المقهى بالطبع، والآن على مزقٍ من  
الورق كان قد خربش عليها أرقام هاتفٍ لم تكن قط صحيحة...  
ومع ذلك فعلت كلّ ما استطاعت إليه سبيلاً... أطعمته،  
قبلته، دلّته، طمأنته، عتفته، عاقبته وواسته، ولكن كلّ ذلك لم  
يجد في شيء... ما إن تعلّم هذا الصبي المشي، حتى لاذ  
بالفرار وعندما نبتت ثلاث شعرات في ذقنه، انتهى الأمر. رحل.

كانت تعبس أحياناً وسط هواجسها، وترتجف شفتاها.  
الكثير من الأحزان، الكثير من الإخفاقات والكثير من  
الحسرات... كانت هناك لحظات عصيبة جداً، عصيبة للغاية...  
أوه، ولكن كلا، لم يعد عليها التفكير في ذلك، فقد استيقظ،  
أشعث الشعر، رسمت خطوط الأريكة أثارها على وجهه.

- كم الساعة؟

- إنها تقارب الخامسة ...

- أوه، اللعنة، هل مضى كلّ هذا الوقت؟

- فرانك، لماذا تقول دائماً اللعنة؟

- أوه، تبا، هل مضى كلّ هذا الوقت؟

- أنت جائع؟

- لا بأس، ولكنني ظمآن ... سوف أقوم بجولة ...

وانتهى الأمر، فكّرت العجوز، انتهى الأمر ...

- وستنصرف؟

- كلا، لن أنصرف، اللعنة ... تبا!

- إن صادفت رجلاً أصهب ويرتدي بلوزة بيضاء، يمكنك

أن تسأله متى سأخرج من هنا؟

قال وهو يعبر الباب:

- نعم، نعم.

- رجلٌ طويل القامة ويضع نظارة ...

كان قد أصبح في الممرّ.

- إذا؟

- لم أشاهده ...

- ماذا؟

خاطب جدّته بلطف:

- هيا يا جدّتي ... ألن تتحبي؟

- كلا، ولكنني ... أفكّر في هرّي، في طيوري ... ثمّ إنّ

المطر يهطل منذ أسبوع وأنا قلقة على أدواتي ... لأنني لم

أرتبها، سوف تصدأ، هذا مؤكّد ...

- سوف أمرّ على البيت عند مغادرتي وسوف أوّمن عليها... .
- فرانك؟
- ماذا؟
- خذني معك... .
- أوه... لا تفتحي لي هذه السيرة في كلّ مرّة... لم أعد أحتملها... .
- استدركت وقالت:
- الأدوات... .
- ما بها؟
- يجب تزيتها... .
- نظر إليها نافخاً:
- إذا كان لديّ الوقت، مفهوم؟ حسناً، هذا ليس كلّ شيء، ولكن نحن لدينا درسنا في الجمباز... أين صاحبك المتسكع؟
- لا أدري.
- جدّتي... .
- خلف الباب.
- هيّا، انتصبي أيتها العجوز، سوف أعرض عليك طيوراً!
- أوففف، لا طيور هنا، ليس هناك سوى عقبان وجوارح... .
- ابتسم فرانك، كان يحبّ كثيراً سوء نيّة جدّته.

- هل أنتِ بخير؟

- كلا.

- مما تشكين؟

- أنا أتألم.

- أين يؤلمك؟

- كلّ جسمي.

- كلّ مكان، لا يمكن ذلك، هذا غير صحيح. أخبريني عن

مكانٍ محدّد.

- لديّ صداع.

- هذا طبيعي. كلّنا يحدث لنا ذلك... هيا أخبريني عن

رفيقاتك...

- كلا، استدر. لا أريد رؤية هؤلاء، لا أطيقهنّ.

- ذاك الرجل، العجوز الذي يرتدي قميصاً، لا بأس به،

أليس كذلك؟

- هذا ليس قميصاً، أيها الأحمق، إنها منامته، وهو فضلاً

عن ذلك لا يسمع. ومغرورٌ أيضاً...

وضعت قدماً أمام الأخرى وأخذت تغتاب رفيقاتها، وأصبح

كلّ شيءٍ على ما يُرام.

- هيا، سأنصرف...

- الآن؟

- نعم، الآن. إن أردتِ أن أهتمّ بمعزقك... سأستيقظ

باكراً غداً وليس لديّ مَنْ يجلب لي فطوري إلى السرير...

- وهل ستّصل بي؟

هزّ رأسه.

- تقول هذا ثمّ لا تفعل أبداً... .

- لا وقت لديّ.

- قل لي صباح الخير فقط وأغلق السماعة.

- حسناً. في الواقع، لا أدري إن كنتُ سأستطيع المجيء

في الأسبوع القادم... إن رئيس الطهاة الشمل يريدنا أن نذهب

معه... .

- إلى أين إذاً؟

- إلى ملهى الطاحونة الحمراء.

- أهذا صحيح؟

- كلا، هذا ليس صحيحاً! نذهب إلى ليموزان لزيارة

الصبي الذي يبيعنا حيواناته... .

- يا لها من فكرة غريبة... .

- إنّه رئيس قسمنا، يقول... إن هذا أمرٌ مهمّ... .

- سوف لن تأتي إذاً؟

- لا أدري.

- فرانك؟

- نعم... .

- الطبيب... .

- أدري، الأصعب، سأحاول أن أجده... وأنتِ، مارسي

جيداً تمارينك، اتفقنا؟ لأنّ المدلّك الطبي ليس راضياً تماماً كما

فهمت... .

وإذ رأى وجه جدّته المندهش، أضاف، مداعباً:

- ها أنتِ ترين أنني أتصل أحياناً...

رتّب العدّة، وتناول آخر حبّات الفريز المتبقية في الحديقة

ثمّ جلس لبرهة فيها. جاء الهرّ يتمسّح بساقيه مغرغراً.

- لا تقلق، أيّها الأب الضخم، لا تقلق. سوف تعود...

أخرجه رنين هاتفه النقال من غفلة. كانت فتاة على الخطّ.

تحدّث معها بشوق، ففهمت.

اقرحت عليه الذهاب إلى السينما.

سار بسرعة تفوق 170 كيلومتراً في الساعة طيلة المسافة

بحثاً عن حيلة لكي يخدعها فلا يضطرّ لحضور الفيلم. لم يكن

يحبّ السينما كثيراً. كان ينام دائماً قبل نهاية الفيلم.

## 10

نحو أواسط نوفمبر، حينما بدأ البرد يشتدّ، قرّرت كاميل

أخيراً أن تذهب إلى متجرٍ لشراء لوازم لتحسين ظروف بقائها على

قيد الحياة. أمضت فيه يوم السبت بأكمله، تجوّلت في كلّ

أقسامه، لمست الألواح الخشب، أُعجبت بالأدوات، بالمسامير،

باللواجب، بمقابض الأبواب، بقضبان الستائر، بعبوات

الدهانات، وحجرات الحمام والخلاطات الملبّسة بالكروم. ثمّ

ذهبت إلى قسم البستنة وقامت بجرد كلّ البضائع: القفازات،

الجزمات المصنوعة من الكاوتشوك، معاول الحديقة، شواية

الدجاج، قواديس البذار، وجريبات البذور من كلّ نوع. أمضت

الكثير من الوقت في مراقبة البضاعة التي يعاينها الزبائن. السيّدة



الجبلى وسط الورق المرسوم بالبّاستيل، والزوجان الشابان اللذان يتجادلان بشأن مصباحٍ جداريٍّ قبيح، أو الرجل النشيط المتقاعد قبل أوانه بحذائه من طراز TBS مع مفكرته الحلزونية في يدٍ ومازورته في الأخرى.

كانت الحياة قد علّمتها أن ترتاب في ما تعتبره يقيناً وفي المشاريع المستقبلية، ولكن كاميل كانت واثقة من أمرٍ واحد: ذات يوم، بعد زمنٍ طويل، حينما تصبح مسنة، أكبر سنّاً مما هي عليه الآن، بشعرٍ أبيض، وآلاف التجاعيد والبقع السمر على يديها سيكون لها بيت يخصّها. بيت حقيقي فيه حوض نحاس لإعداد مربيات وفطائر في علبة معدن بيضاء مخبّأة في قاع خزانة. وطاولة مزرعة طويلة وسميكة وستائر من الكريتون. ابتسمت. لم تكن لديها أيّة فكرة عن ماهية الكريتون، ولا إن كان سيعجبها ولكنها كانت تحبّ هذه الكلمات: ستائر من الكريتون... وقد تكون لديها غرفة ضيوف، مَنْ يدري؟ وربّما أصدقاء؟ حديقة أنيقة، دجاج سيعطيها بيضاً لذيذاً، قططٌ لكي تجري خلف الفئران وكلابٌ لكي تجري خلف القطط. مرّبع صغير لنبات عطرية، مدفأة، أرائكٍ محفورة وكتب من حولها في كلّ اتجاه. أغطية بيض، فوط دائرية مطرّزة، جهاز موسيقى لتصغي إلى نفس الأوبرا التي كان يسمعها والدها وموقد فحم ستطهو عليه البيض بالجزر كلّ صباح...

بيضٌ بالجزر لذيذ... أيّ شيء كان...

بيتٌ صغيرٌ كتلك البيوت التي يرسمها الأطفال ببابٍ ونافذتين من كلّ جانب. بيتٌ بالٍ، رزين، صموت، تغزوه عريشة

عنبٍ ونباتات الورود المتسلقة. بيّت على درجه نتوءات صخرية تلتصق بها تلك الحيوانات الصغيرة السود والاحمر اللون. درجٌ دافئ يختزن كلّ حرارة تجلس عليه مساءً لتنتظر عودة المالك الحزين...

ومن ثمّ ركنٌ زجاجيٌّ تستخدمه مشغلاً لها... أخيراً، لم يكن ذلك مؤكّداً.. حتى تلك اللحظة، كانت يداها تخونانها، وربّما كان من الأولى بها ألا تعتمد عليهما بعد الآن...

هل يمكن ألا تأتي الطمأنينة من هنا أخيراً؟

فجأة، تساءلت قلقة: من أين إذا؟ من أين، من أين؟

تمالكت نفسها ونادت على بائعٍ قبل أن ترتبك وتحتار في ما تقول. كان الكوخ الخشب الصغير جميلاً، ولكنها إلى ذلك الحين كانت لا تزال تعاني البرد القارص في أعماقٍ ممّرتٍ رطبٍ، وربّما يستطيع ذاك الشاب الذي يرتدي قميصاً رياضياً أصفر فاتحاً أن يساعدها. سألها:

- أتقولين إنّ الهواء ينفذ عبره؟

- نعم.

- أهو مكيفٌ سقفي من ماركة فيلوكس؟

- كلاّ إنه يرتب في كوةٍ جدارية.

- ألا تزال هكذا آلات موجودة؟

- للأسف...

- هاك، هذا ما يلزمك...

مدّ نحوها بكرة من اللباد اللاصق «لسدّ منافذ البرد في

النوافذ» المصنوع من البوليكلوريد الفينيل، المتين والكتيم والقابل للغسل. هناءً حقيقي.

- هل لديكم شبك للنوافذ؟

- كلا.

- مطرقة؟ مسامير؟

- كلا.

كانت تتبعه كجرو صغير في كل المتجر بينما كان يملأ سلته.

- ولكي أتدفأ؟

- ماذا لديك الآن؟

- مكيف كهرباء ينفصل ليلاً ويعطي رائحة عفونة!

قام بدوره بجديّة تامة وألقى عليها خطاباً بليغاً. وبنبرة الخبير المتمرس، أخذ يمدح ويشرح ويقارن بين مزايا أجهزة التكييف التي تعطي الهواء أو الأشعة أو الأشعة فوق الحمراء ومزايا الخزفيات ومكيفات الزيت وناقلات الحرارة.

أصيبت بالدوار.

- ماذا آخذ إذا؟

- ما ترينه مناسباً...

- ولكنني حائرة...

- خذي مدفأة زيت، فهي ليست غالية جداً وتدقّ جيداً.

خذيها من ماركة أوليو كالور، فهي لا بأس بها...

- هل لها عجالات؟

تردد وهو ينظر إلى البطاقة التقنية للجهاز:

- آهه .. . مثبت حرارة ألي، حبل تغذية، استطاعة قابلة للتعبير، جهاز ترطيب مدمج، وووو، عجلات! نعم يا أنتسي!
- رائع، هكذا يمكنني وضعها قرب سريري...
- آه... إن استطعتُ السماح لنفسي... أتعلمين أن فتى في السرير أمرٌ جيّد، هذا يشير الدفء...
- نعم، ولكن ليس لديه حبل تغذية...
- ابتسم قائلاً:
- كلا...
- وهي ترافقه إلى كوّته لتأخذ سند الكفالة، شاهدت مدافع مزيفة بجمر زائف وحطب زائف ولهب زائف وأثاف زائفة.
- أوه! وهذا؟ ما هذا؟
- مدفأة كهربائية، ولكن لا أنصحكِ بها، هذا نوع من الخدعة...
- بلى، بلى! أرني!
- كانت مدفأة من ماركة شيربون الانكليزية. ليس هناك سواهم ليخترعوا شيئاً بهذا القبح والرداءة. بحسب قوة موقد النار (1000 أو 2000 وات)، كانت ألسنة اللهب ترتفع أو تنخفض. كادت كاميل أن تطير فرحاً.
- هذا رائع، وكأنّها مدفأة حقيقية.
- هل رأيتِ سعرها؟
- كلا.
- 532 يورو، هذا شيءٌ تافه... آلة هشة... لا...

- مهما يكن من أمر، لا أفهم شيئاً في اليورو...  
- ولكن ذلك ليس صعباً، احسبي نحو 3500 فرنك لقاء  
جهازٍ لن يدقّك جيداً مثل كالور الذي يقدر ثمنه بـ 600  
فرنك...  
- أريده.

كان ذاك الصبي ذكياً وأغمضت عينيها كلياً كزيز الحصاد  
وهي تمدّ بطاقتها الزرقاء. ضمنت عملية الشراء خدمة التسليم  
أيضاً. وحينما أعلنت بأنّها تسكن في الطابق السابع ومن دون  
مصعد. نظرت إليها المحاسبة نظرة مواربة وأخبرتها بأنّ ذلك  
يرتبّ عليها عشرة يورو إضافية...  
أجابت وهي تضغط على رديها:  
- بلا مشاكل.

كان الصبي محقّقاً. كان هذا أمراً بسيطاً.  
نعم، كان أمراً بسيطاً، ولكنّ المكان الذي تقيم فيه لا  
يستحقّ أفضل من هذا. غرفة من خمسة عشر متراً مربّعاً فوق  
السطوح، منها ستّة أمتار فقط شاغرة، فيها حشية مطروحة على  
الأرض، وصنبور صغير للماء في ركنٍ منه أشبه بمبولة عامّة  
تستخدمه مجلى للصحون وحمّام. وفيها أيضاً مشجب لتعليق  
الثياب وصندوقان كرتونيان موضوعان فوق بعضهما يستخدمان  
كخزانة رفوف. وسخّان كهربائي موضوع على طاولة متنقلة.  
وثلاجة صغيرة تلعب أيضاً دور طاولة عمل وغرفة طعام وطاولة  
منخفضة. كرسيان صغيران بلا مساند، مصباح هالوجين، مرآة  
صغيرة، وصندوق كرتون يستخدم كخزانة مطبخ. وماذا أيضاً؟

الحقيرة الاسكتلندية التي وضعت فيها ما تبقى لها من لوازم،  
و... كلا، هذا كل شيء. كان هذا كل ما هو موجود في بيتها.  
كانت المراهيضة على الطريقة التركية في نهاية الممر إلى اليمين  
وكان الدوش فوق المراهيضة...

لم يكن لديها جيران أو ربّما كان هناك شبح حيث كانت  
تسمع أحياناً همهمة خلف الباب رقم 12. وكان على بابها قفل.  
واسم المستأجرة السابقة مثبتاً بأحرف بنفسجية جميلة: لويز  
لودوك.

خادمة صغيرة من القرن الماضي...

كلا، لم تندم كاميل على شراء مدفاتها مع أنّ سعرها كان  
يساوي نصف راتبها تقريباً...

آه! مهما يكن... باه... بالنسبة لما تفعله براتبها...  
استغرقت في أحلام اليقظة في الحافلة وهي تتساءل من بوسعها  
أن تدعو لتدشين مدفاتها...

بعد بضعة أيام، تملكها الشجاعة:

- أنت تعلم، لديّ مدفأة!

- عفواً؟ آه! آه! هذه أنت... صباح الخير يا أنستي. جوّ  
حزين، أليس كذلك؟

- لقد قلتها! ولماذا نزع قلنسوتك إذًا؟

- آه حسناً... كنت... كنت أحييك، أليس كذلك؟

- ولكن كلا، هيا اعتمرها! سوف تهلك برداً! كنت أبحث  
عنك. أردت أن أدعوك لتناول العشاء في ركن النار ذات  
مساء...

سأل بصوت مخنوق:

- أنا؟

- نعم! أنت!

- أوه، كلا، ولكنني... أوه، لماذا؟ حقاً هذا... ..

- هذا ماذا؟

قالت ذلك فجأة وهي متعبة، في حين كانا على وشك أن يتجمداً برداً أمام متجرهما المفضل.

- هذا... أوه... ..

- أهذا غير ممكن؟

- كلا، هذا... هذا شرفٌ كبير!

- آه... هذا شرفٌ كبير... ولكن كلا، سوف ترى،

سيكون الأمر بسيطاً جداً. اتفقنا إذاً؟

- حسناً، نعم... أنا... يبهجني أن أقاسمك مائدتك.. ..

- أوه... في الحقيقة هي ليست مائدة، أنت تعرف... ..

- نعم... نعم.

- هي بالأحرى نزهة... وجبة خفيفة بلا تكلف... ..

- ممتاز، أنا أعشق النزهات! يمكنني أن أجلب أيضاً

غطائي وسلّتي، إن شئت... ..

- سلّة ماذا؟

- سلّة النزهة.

- تلك التي تحتوي على آنية للمائدة؟

- في الحقيقة، 'صحون'، وملاعق وسكاكين وشوك،

وشرشفت، وأربع فوط، وفتاحة قوارير... ..

- أوه نعم، فكرة ممتازة! ليس لدي شيء من كل هذا!  
ولكن متى؟ هذا المساء؟
- حسناً، هذا المساء... أخيراً... أنا...
- أنت ماذا؟
- أعني لم أخبر شريكى في الإيجار...
- فهمت. ولكنه يستطيع المجيء أيضاً، هذه ليست مشكلة.  
سأل مندهشاً:
- هو؟ كلا، هو لا. أولاً لا أعلم إن كان... إن كان فتى  
مناسباً... أنا... أنا لا أتحدث عن أخلاقه... حتى وإن كنتُ  
لا أشاركة إياها... كلا، أفكر بالأحرى في... أوه، كما أنه  
ليس هنا هذا المساء. ولا أي مساءً آخر...
- قالت كاميل محتدة:
- لنختصر الكلام، لا تستطيع المجيء لأنك لم تخبر  
شريكك غير الموجود في كل الأحوال، أهذا صحيح؟  
ارتبك وعبث بأزرار معطفه.
- حسناً، أنا لا أرغمك، مفهوم؟ لست مضطراً للقبول،  
أنت تعلم...
- هذا لأنّ...
- هذا لأنّ ماذا؟
- كلا، لا شيء. سوف آتي.
- هذا المساء أو غداً. لأنني بعد ذلك سأعمل حتى نهاية  
الأسبوع...



غمغم:

- اتفقنا، اتفقنا، غداً... ستكونين... ستكونين موجودة،  
أليس كذلك؟  
هزت رأسها.  
- ولكن فعلاً أمرك غريب! بالطبع سأكون موجودة طالما أنا  
أدعوك!

ابتسم لها بارتباك.

- إلى اللقاء غداً إذا؟

- إلى اللقاء غداً يا أنستي.

- نحو الساعة الثامنة؟

- في الثامنة تماماً، سأدوّن ذلك.

انحنى وابتعد.

- هيه، يا أنت!

- عفواً؟

- يجب أن تصعد درج الخدمة. أقيم في الطابق السابع،  
الباب رقم 16، سوف ترى، إنه الباب الثالث إلى يسارك...  
بحركة من قبعته، أظهر لها بأنه قد فهم.

## 11

- ادخل، ادخل، ولكنك رائع!

قال خجلاً:

- أوه، هذه ليست إلا قبعة قش... كانت لشقيق جدّي،  
من أجل النزهة، فكّرتُ أنّها...

لم تصدق كاميل عينيها. كانت القبعة بهية... وكان قد مرّر من أسفل ذراعه عصاً في رأسها تُفِيحَة فضية، ويرتدي بزّة فاتحة مع عقدة عنقٍ حمراء، وقد مدّ نحوها سلّة كبيارة مصنوعة من أغصان الصفصاف.

- أهذه هي سلّتك؟

- نعم، ولكن انتظري، لدي أيضاً شيءٌ ما...

ذهب إلى عمق الممرّ وجلب باقة من الورد.

- كم هذا ظريف...

- تعلمين، هذه ليست زهوراً طبيعية...

- عفواً؟

- كلا، إنّها قادمة من أورغواي، أعتقد... كنتُ أفضل

وروداً طبيعية من الحديقة، ولكن في عزّ الشتاء، هذا... هذا...

- هذا غير ممكن.

- صحيح! هذا غير ممكن!

- هيا بنا، ادخل، تصرّف وكأنك في بيتك.

كان طويل القامة جداً بحيث اضطرّ لأن يجلس في الحال.

بذل جهداً لكي يعثر على كلماته ولكن لمرة واحدة، لم تكن

المشكلة مشكلة تعثّر في الكلام، وإنّما مشكلة... ذهول.

- هذا... هذا...

- هذا صغير.

- كلا، ولكن كيف أعبّر، هذا أنيق. نعم، هذا أنيق جداً

و... بهيّ جداً، أليس كذلك؟

ردت كاميل ضاحكة:

- بهي جداً.

ظل صامتاً للحظة.

- حقاً؟ تعيشين هنا؟

- أوه، نعم... ..

- دائماً؟

- دائماً.

- طيلة السنة؟

- طيلة السنة.

- هذه غرفة صغيرة، أليس كذلك؟

- اسمي كاميل فوك.

- طبعاً، سررتُ بكِ. فيليبيار ماركيه دي لا دوربيلير.

قال ذلك وهو ينهض حيث لامس رأسه السقف.

- كلّ هذا؟

- نعم.

- هل لديك لقب؟

- كلاً على حدّ علمي.

- هل رأيت مدفأتي؟

- عفواً؟

- هناك... .. مدفأتي... ..

قال وهو يجلس ويمدّد ساقيه أمام السنة اللهب البلاستيك:

- آه ها هي! مُمتاز. ممتاز... .. وكأننا في بيت ريفي

انكليزي، أليس كذلك؟

كانت كاميل فرحة. لم تخذع نفسها. كان ذاك الصبيّ شخصاً غريباً ولكنه كائناً ممتازاً... ..

- إنها جميلة، أليس كذلك؟

- رائعة! أتعمل جيداً؟

- لا تشوبها شائبة.

- وماذا عن الحطب؟

- أوه، أنت تعلم، بوجود العاصفة... .. يكفي الانحناء... ..

- وأسفاه! لا أعرف ذلك إلا جيداً جداً... .. سوف ترين

حطباً محرّجاً عند والديّ... .. مصيبة حقيقية... .. ولكن هنا، ما هذا؟ إنه حطب السنديان، أليس كذلك؟

- أحسنت!

تبادلا الابتسامات.

- كأسٌ من الخمر، ما رأيك؟

- هذا ممتاز.

دُهلت كاميل لمحتوى السلّة. لم ينقصها أيّ شيء. كانت الأطباق من الخزف، والملاعق والأشواك والسكاكين من الفضة المذهّبة، والأكواب من الكريستال. وكانت فيها أيضاً مملحة ومبهرة ومزيتة وفناجين للقهوة والشاي وفوط كتانية مزركشة وزبديّة للخضار وأخرى للحساء وطبق للفاكهة وعلبة لنكّاشات الأسنان وسكرية وآنية للسمك وغلاية. وكان كلّ شيء منقوشاً بشعار عائلة ضيفها.

- لم أر في حياتي شيئاً بهذا الجمال... ..

- هل فهمتَ لماذا لم أستطع المجيء البارحة... لو أنكِ تعرفين كم ساعة أمضيتُ في تنظيفها وتلميعها...

- كان يجب إخباري بذلك!

- هل تعتقدين حقاً لو أنني تذرّعت قائلاً: «ليس هذا المساء، لأنّ سلّة تحتاج إلى تنظيف»، أما كنتِ اعتبريني مجنوناً؟

تمالكت نفسها ولم تعلق بشيء.

مدّا غطاءً على الأرض وفرش السيد فيليبيار الملاعق والأشواك والسكاكين.

جلسا متربّعين، مبهتهجين، فرحين، كطفلين يبدآن مآدبتهما الجديدة. اتّبعاً آلاف الوسائل وبذلاً جهوداً هائلة لثلا يكسرا شيئاً. كانت كاميل، التي لم تكن تجيد الطبخ، قد ذهبت إلى مطعم كوي غوبيتز واختارت طبقاً متنوعاً من التراما والسلمون والسمك المملّح. ملأً بعناية كلّ صفائح الجدّ الصغيرة واستعملت لأول مرّة ما يشبه محمصة خبز مبتكرة، مصنوعة من غطاءٍ قديم وورق الألمنيوم، لتسخين المأكولات على السخّان الكهربائي. كانت الفودكا جاهزة وكان يكفي رفع السدادة لصبّها. كان دخولهما وخروجهما يبرّد الغرفة ولكن المدفأة كانت تفرقع وتلعلع بناورها الربانية.

كالعادة، شربت كاميل أكثر مما أكلت.

- ألا يزعجك إن دخّنت؟

- أرجوك، تفضّلي... في المقابل، أودّ أن أمدّد ساقتي لأنني أشعر وكأنني مخدّر بالكامل...

- تمّدّد على سريري... ..

- طب... .. طبعاً كلا، لن... .. لن أفعل شيئاً... ..

كان، في أقلّ انفعال، يفقد كلماته ويرتبك.

- بلى، هيتا! في الواقع، هي أريكة-سرير... ..

- في هذه الحالة... ..

- ألا يمكننا أن نرفع الكلفة، يا فيليبيار؟

شُحِبَ وجهه.

- أو، كلا، أنا... .. في ما يخصني، لا يمكنني ذلك، ولكن

أنت... .. أنت... ..

- كفى! خمود النيران هناك عالياً! لم أقل شيئاً! فضلاً عن

ذلك، أرى أنّ المخاطبة بصيغة الجمع أمرٌ جيد، إنّه أمرٌ جد

ظريف، جد... ..

- رائع؟

- نعم!

لم يأكل فيليبيار كثيراً هو الآخر، ولكنه كان بطيئاً جداً

وحذراً جداً بحيث توقّعت مدبّرة المنزل الصغيرة أن تبتهج بوجبة

باردة. فقد كانت اشترت أيضاً جبناً أبيض لتناوله بعد الوجبة. في

الحقيقة، كانت قد بقيت مشلولة أمام واجهة محلّ للحلوى حائرة

تماماً وغير قادرة على اختيار نوع الحلوى. أخرجت ركوتها

الإيطالية وشربت عصيرها في كوبٍ رقيقٍ جداً كانت واثقة من

أنّها تستطيع كسره قضمًا.

لم يكونا ثرثارين. لم يعد لهما عادة تقاسم وجباتهما. لم

يعد البروتوكول سارياً تماماً وشقّ على كليهما التخلّص من عزلتهما... ولكنهما كانا من ذوي التربية الحسنة وبدلاً جهوداً لكي يحسنا التصرف مع بعضهما. رَفَّها عن نفسيهما، ودقاً قدحاً بقدح وتذكراً الحارة. محاسبات سلسلة المتاجر - كان فيليبيا يحبّ الشقراء، وكانت كاميل تفضّل ذات الشعر الباذنجاني اللون- السوّاح، الألعاب النارية على برج إيفل وبراز الكلاب. وبخلاف كلّ توقّع، اكتشفت في ضيفها أنّه محدّث ممتاز، وهو يطلق باستمرار الحديث ويأخذ من هنا ومن هناك ألف موضوع تافهٍ وساخرٍ. كان مولعاً بتاريخ فرنسا واعترف لها بأنّه يقضي معظم وقته في سجون لويس الحادي عشر، وفي غرفة انتظار فرانسوا الأوّل، وإلى طاولة الفلاحين الفانديين<sup>(1)</sup> في القرون الوسطى، أو في غرفة البواب مع ماري أنطوانيت، المرأة التي يكرّ لها محبّة حقيقية. كانت تطرح فكرة أو حقبة تاريخية فيسرد لها فيضاً من التفاصيل الشائكة. الألبسة، دسائس البلاط، رفع ضريبة الملح أو سلالة الكابيتيين<sup>(2)</sup>.

كان ذلك مسلياً جداً.

شعرت وكأنّها على موقع آلان ديكو للانترنت.

نقرة وموجز.

- وهل أنت مدرّس أو شيء من هذا القبيل؟

---

(1) الفانديون: رجال الدين والفلاحون الذين قاموا ضد الثورة الفرنسية العام 1793، دفاعاً عن الدين والملكيّة.

(2) نسبة إلى هوغ كاييت مؤسس السلالة الكابيتينية التي حكمت فرنسا منذ العام 996 حتى العام 1792.

- كلا، أنا... أعني أنني... أعمل في متحف...  
- هل أنت أمين المتحف؟  
- يا لها من كلمة كبيرة! كلا ولكنني مسؤول القسم  
التجاري...

قالت متعجبة:

- آه... لا بد أن هذا أمرٌ ممتع... في أيِّ متحفٍ؟  
- بحسب الاقتضاء، أتُنقل بين المتاحف... وأنتِ؟  
- أوه، أنا... وظيفتي أقلُّ أهمية، واحسرتاه، أعمل في  
مكاتب...

حينما لمح وجهها المرتبك، حرص على ألا يطيل الحديث  
حول الموضوع.

- لديّ جبنٌ أبيضٌ لذيذ مع مربّى المشمش، هل تحبّ  
هذا؟

- نعم بسرور! وأنتِ؟  
- أنا، كلا، شكراً، لقد أفرطتُ في تناول كلِّ هذه  
المأكولات الروسية الخفيفة...

- لستِ بدينة..

وخشية أن يتفوّه بكلمة جارحة، أضاف في الحال:  
- ولكنك... ظريفة... إنَّ وجهك يجعلني أحلم بوجه ديان  
دو بواتيه..

- أكانت جميلة؟

تورّد وجهه خجلاً.



- أوه! أكثر من جميلة! أنا... أنت... ألم تذهبي قط إلى قصر آنت؟  
- كلا.

- كان عليك أن تفعلني... إنه مكانٌ مدهش قدّمه لها عشيقها، الملك هنري الثاني...  
- حقاً؟

- نعم، إنه جميلٌ جداً، إنه أشبه بنشيدٍ للحب يخلد حبّهما في كلّ مكانٍ منه. في الحجر والرخام والسبائك والخشب وعلى قبرها. ثمّ إنه مؤثّر أيضاً... إذا ما كنتُ أتذكّر جيداً، لا تزال علب مراهمها وأمشاطها موجودة هناك، في حجرة زينتها. سأصطحبك إلى هناك ذات يوم...  
- متى؟

- ربّما في الربيع؟

- في نزهة؟

- ستترك الأمر إلى ذلك الحين...  
- ظلّا صامتين للحظة. حاولت كاميل ألا يلاحظ حُقيها المثقوبين، وفعل فيليبّار الأمر نفسه بشأن البقع الشبيهة ببقع الملح، والتي تركتها الرطوبة على طول الجدران. اكتفيا باحتساء الفودكا بجرعات صغيرة.

- كاميل؟

- نعم.

- هل حقاً، تعيشين هنا كلّ يوم؟

- نعم.
- ولكن أوه... بالنسبة... أوه... للمراحيض...
- على الدرج.
- ماذا؟
- هل تريد الذهاب إليها؟
- كلا، كلا، كنتُ أسأل فقط.
- هل تهتمّ بأمرى؟
- كلا، أعني... بلى... هذا... وضعُ قاسٍ جداً، ماذا...
- هذا لطفٌ منك... ولكن لا بأس. لا بأس، اطمئنّ، ثمّ إنّ لدي الآن مدفأة جميلة!
- لم يعد بالحماس الذي كان عليه.
- كم عمرك؟ طبعاً إن لم يكن هذا سرّاً...
- ستّة وعشرون عاماً. سأبلغ السابعة والعشرين في شهر شباط (فبراير)...
- مثل أختي الصغيرة...
- ألدك أخت؟
- ليست واحدة، وإنما ستّ!
- ستّ أخوات؟
- نعم، وأخّ واحد...
- وتعيش وحيداً في باريس؟
- نعم، أعني مع شريكى في السكن...

- هل تتفاهمان جيداً؟

ولأنّته لم يجب، ألحّت عليه:

- ليس تماماً؟

- بلى، بلى... لا بأس! وفي كلّ الأحوال، لا نلتقي

أبداً...

- ماذا؟

- لنقل إنّ هذا ليس بالضبط قصر آنت!

ضحكت.

- أهو يعمل؟

- هو لا يفعل سوى هذا. يعمل، ينام، يعمل، ينام. وحينما

لا ينام يصاحب الفتيات... إنّهُ شخصية فضولية لا تجيد التعبير

عن نفسها إلا صراخاً. يشقّ علي أن أفهم ما يعجبهنّ فيه. لدي

فكرتي حول المسألة، ولكن حسناً..

- ماذا يعمل؟

- إنّهُ طبّاخ.

- حقاً؟ وهل يعدّ لك أطباقاً شهية؟

- إطلاقاً. لم أره قط في المطبخ. إلّا صباحاً لكي يستخدم

ركوتي...

- أهو أحد أصدقائك؟

- كلا! عثرتُ عليه عبر إعلان، إعلان صغير على طاولة

محاسبة مخبز مقابل للبيت: طبّاخ شاب في مطعم فير غالان

يبحث عن غرفة لقضاء قيلولته خلال فترة استراحتة بعد الظهر.

في البداية، لم يكن يأتي إلا لبضع ساعات في اليوم ومن ثم أصبح يكثر من حضوره...

- هل هذا يغيظك؟

- كلا على الإطلاق. بل أنا من اقترحتُ عليه... لأنّ

بيتي، سوف ترين، كبير... ثمّ إنّّه يجيد كلّ شيء. وهذا يناسبني جداً أنا الذي لا أجيد تبديل مصباح كهربائي... إنّّه يجيد كلّ شيء وأعتقد أنّه وغدٌ لئيم... منذ أن حضر، ذابت فاتورة الكهرباء مثل الثلج تحت الشمس...

- هل شغلّ العداد.

- إنّّه يشغلّ كلّ ما يلمسه، أشعر... لا أعرف مقدار

جدارته كطبّاخ، ولكنه كمصلّح، بارع جداً. وبما أنّ كلّ شيء منهار في بيتي... كلا... ثمّ إنني لا أزال أحبه كثيراً... لم أحظّ قط بفرصة التكلّم معه، ولكن لديّ الانطباع بأنه... لا أدري... أحياناً، أحسّ بأنني أعيش مع شخصٍ يُعدّ طفرة..

- كما هو الحال في أليان؟

- عفواً؟

- كلا. لا شيء.

لأنّ سيغورني ويفر لم تنشئ قط علاقة جنسية مع ملك، آثرت أن تهمل الموضوع...

رتّبنا البيت معاً. وإذ شاهد فيليبّار مغسلتها الصغيرة جداً، توسّل إليها أن تدعه هو ينظف الآنية. وبما أنّ متحفه مغلق يوم الاثنين، ليس لديه ما يفعله سوى ذلك في اليوم التالي...

افترقا بطريقة احتفالية.

- في المرّة القادمة، أنتِ ستأتين إلى بيتي ...
- بكلّ سرور.
- ولكن ليست لديّ مدفأة، للأسف ...
- لا تبالي! لا يحظى الجميع ببيتٍ ريفيّ في باريس ...
- كاميل؟
- نعم.
- ستحرصين على نفسك، أليس كذلك؟
- سأحاول. ولكن أنت أيضاً، يا فيليبيار ...
- أنا ... أنا ...
- ماذا؟
- يجب أن أخبركِ ... الحقيقة هي أنني لا أعمل حقاً في متحفٍ، أنتِ تعلمين .. وإنما خارجه ... أعني في حوانيت، ماذا أقول ... أنا ... أبيع بطاقات بريدية ...
- وأنا، لا أعمل حقاً داخل مكتب، أنت تعلم ... وإنما خارجه أيضاً .. أقوم بأعمال التنظيف ...
- تبادلا ابتسامة قدرية وافتراقا مرتبكين تماماً.
- مرتبكين ومرتاحين.
- كان عشاء روسياً ناجحاً جداً.

## 12

- ماذا نسمع؟
- لا تقلقي، إنّه دودوش الطويل ...

- ولكنّ ماذا يفعل؟ وكأنّه فيضانٌ يجتاح المطبخ... ..
- لا تبالي، تعالي إلى هنا... ..
- كلا، دعني.
- هيّا، تعالي... تعالي... لماذا لا تنزعين قميصك؟
- أشعر بالبرد.
- قلتُ لك تعالي.
- إنه عجيب، أليس كذلك؟
- متجمّد تماماً... ليتك رأيته يغادر قريباً، بعصاه وقبّعة المهرج خاصته... ظننتُ أنه ذاهبٌ إلى حفلة تنكرية... ..
- إلى أين يذهب؟
- لمقابلة فتاة، أعتقد... ..
- فتاة!
- نعم، أعتقد ذلك، لا أعرف شيئاً عن ذلك... لا يهْمنا ذلك... هيّا، استديري، تَبّاً... ..
- دعني.
- هيه، أوريلي، أنتِ تغطينني هكذا... ..
- أوريليا، وليس أوريلي.
- أوريليا، أوريلي، سيّان. حسناً... وجورباك، هل ستحتفظين بهما في قدميك طيلة الليل أيضاً؟

### 13

في حين كان ذلك ممنوعاً شكلياً، strictly forbidden،

وضعت كاميل ثيابها فوق حرف مدفاتها، وبقيت في السرير لأطول وقت ممكن، وارتدت ثيابها تحت لحافها ودفأت أزرار سروالها الجينز بين يديها قبل أن ترتديه.

لم يبدُ اللباد اللاصق المصنوع من البولي كلوريد الفينيل فعّالاً واضطرت لأن تبدّل مكان فراشها لثلاثا تعود تحسّ بالتيار الهوائي اللاسع لجبينها. أصبح سريرها خلف الباب ولم يبق سوى ممّ ضيق للدخول والخروج. وظلّت باستمرار تجرّه إلى هنا وهناك لكي تتحرّك في الحجرة. يا له من بؤس، يا له من بؤس، قالت في نفسها... ومن ثمّ، سارت الأمور، اصطكّت أسنانها برداً، تبوّلت في مغسلتها ممسكة بالجدار لثلاثا تجازف بانتزاعها من مكانها. أمّا بالنسبة لحماماتها التركية، فحدّث ولا حرج..

كانت متّسخة إذاً. ربّما لم تكن متّسخة وإنّما أقلّ نظافة من المعتاد. كانت تذهب لمرة أو مرتين في الأسبوع إلى بيت آل كيسلر حينما تكون متأكّدة من غيابهم. كانت تعرف مواعيد مدبرة منزلهم وكانت هذه الأخيرة تمدّها لها منشفة إسفنجية كبيرة وهي تتنهد. لم يكن أحدٌ مغفلاً. كانت تغادر دائماً مع طبقٍ صغيرٍ من الطعام أو غطاءٍ إضافي... بيد أنّ ذات يوم، ضبطتها ماتيلد بينما كانت تجفّف شعرها:

- ألا تريدين العودة للعيش هنا في وقتٍ ما؟ ألا تريدين استعادة غرفتك؟

- كلا، أشكرك، أشكركما أنتما الاثنين. أنا بخير...

- أتعلمين؟

أغمضت كاميل عينيها.

- نعم، نعم... ..
- أين تعملين؟ هل أنت بحاجة إلى المال؟ أخبرينا، يمكن لبيير أن يقرضك سلفة، تعلمين... ..
- كلا، لم أنجز شيئاً حتى الآن... ..
- وكلّ اللوحات الموجودة عند أمك؟
- لا أدري... .. يجب فرزها... .. لا أرغب في... ..
- واللوحات التي رسمت فيها صورك الشخصية؟
- ليست للبيع.
- ماذا تفعلين بالضبط؟
- رُقع... ..
- هل عبرتِ ساحة فولتير؟
- ليس بعد.
- كاميل؟
- نعم.
- ألا توقفين مجفف الشعر اللعين هذا؟ لكي نسمع بعضنا قليلاً؟
- أنا مستعجلة.
- ماذا تفعلين بالضبط؟
- عفواً؟
- ما معنى حياتك، هنا... .. ماذا تشبه حياتك الآن؟
- لكي لا تضطرّ لأن تجيب عن سؤالٍ من هذا النوع، قفزت كاميل على السلالم كلّ أربع درجات دفعة واحدة ودخلت باب أول مزين.



طلبت من الشاب الذي ظهرت صورته في المرأة فوق رأسها:

- احلق لي شعري.

- عفواً؟

- أودّ أن تحلق لي شعر رأسي، من فضلك.

- حلاقة على الصفر؟

- نعم.

- كلا. لا يمكنني فعل ذلك...

- أجل، أجل، يمكنك ذلك. هيّا ابدأ.

- كلا، لسنا في الخدمة العسكرية هنا. أريد أن أقصر

شعرك ولكن ليس على الصفر. هذا ليس نمط محلّنا... أليس كذلك يا كارلو؟

كان كارلو يقرأ مجلّة تيرسيه ماغازين خلف صندوق المحاسبة.

- ما الخطب؟

- تريد السيّدة الصغيرة أن نجزّ لها شعرها...

أشار كارلو بحركة أراذ من خلالها أن يقول إنّ ذلك لا

يعنيني، لقد فقدتُ للتوّ عشرة يورو في الطابق السابع، وبالتالي لا تغيظوني...

- خمسة ملليمترات...

- عفواً؟

- سوف أقصّه بطول خمسة ملليمترات، وإلا لن تعودي تجروئين حتى على الخروج من هنا... ..

- لديّ قبّعتي.

- لديّ مبادئي.

ابتسمت له كاميل، وهزّت رأسها علامة على الموافقة وشعرت بصريّر المقصّ على مؤخرة رأسها. تناثرت خصلات من الشعر على الأرض بينما كانت تحدّق في الفتاة المضحكة التي كانت تقابلها في المرآة. لم تتعرّف عليها ولم تعد تتذكّر ماذا كانت تشبه في اللحظة التي خلت. كانت تسخر منها. من الآن فصاعداً، سيكون أقلّ قسوة عليها الذهاب والاستحمام على الدرج وكان هذا هو الأمر الوحيد الذي يهّمها.

سألت صورتها المنعكسة في المرآة بصمت: إذا؟ أهذه هي الفكرة؟ أن أتدبّر أمري، مع احتمال أن أقبح نفسي، مع احتمال أن أنسى نفسي، لكي لا أدين قطّ لأحدٍ؟

مرّرت يدها على جمجمتها الخشنة وتملّكتها رغبة جامحة في البكاء.

- أيعجبك هذا؟

- كلا.

- لقد حدّرتك... ..

- أعرف.

- سينمو شعرك من جديد... ..

- أتعتقد ذلك؟

- أنا متأكد من ذلك.

- أهذا أيضاً أحد مبادئك...

- هل يمكنني أن أطلب منك قلماً؟

- كارلو؟

- اممم...

- هات قلماً للفتاة...

- لا تأخذ شيكاً بمبلغ أقل من خمسة عشر يورو...

- كلا، كلا، هذا لغرضٍ آخر...

أمسكت كاميل بدفترها ورسمت ما كانت تراه في المرآة.

فتاة صلعاء ذات نظرة قاسية تمسك بيدها قلم رصاصٍ حاد

تحت الأنظار اللاهية لصبغي كان يستند إلى عصا مكنسته. كتبت

تاريخ اللوحة ونهضت لكي تدفع.

- أهذا أنا، هنا؟

- نعم.

- عجباً، أنت ترسمين بطريقة مذهلة!

- أنا أحاول...

## 15

لم يكن المسعف هو نفسه من جاء في المرّة الأخيرة، وإلا

لتعرّفت إيفون عليه، وقد ظلّ يحرك من دون كلل ملعقته الصغيرة

في الفنجان:

- أهي ساخنة جداً؟

- عفواً؟
- القهوة؟ أهي ساخنة جداً؟
- كلا، لا بأس، شكراً. حسناً، جيّد، هذا ليس كلّ شيء، ولكن يجب أن أعدّ تقريرى، أنا... ..
- ظلتّ بوليت خائفة القوى في الطرف الآخر من الطاولة. كان حسابها زهيداً.

## 16

سألتهامادو:

- هل كان لديك قملٌ في رأسك؟
- كانت كاميل تلبس بلوزتها. لم ترغب في الكلام. كان هناك الكثير من الحصى والكثير من البرد وكانت ضعيفة.
- هل استأت؟
- هزّت رأسها وأخرجت عربة الحاويات وتوجّهت نحو المصاعد.

- ستصعدين إلى الطابق الخامس؟
- نعم، نعم... ..
- ولماذا دائماً أنتِ تنظفين الطابق الخامس؟ هذا غير طبيعي! لا ينبغي تركك تفعلين ذلك! هل تريدان أن أتكلّم مع رئيسة القسم؟ أنتِ تعلمين أنني لا أبالي بالصراخ! نعم! لا أبالي!

- كلا، شكراً. الطابق الخامس أو سواه، لا فرق عندي... ..
- الفتيات كنّ يتجنّبن هذا الطابق لأنّه كان طابق رؤساء الأقسام والمكاتب المغلقة. أمّا الطوابق الأخرى ذات المساحات

المفتوحة «أوبنز سبايسز» كما كانت تقول بريدار، فكان العمل فيها أسهل وتنظيفها أسرع. كان يكفي إفراغ حاويات القمامة وصفّ الأرائك على الجدران وتشغيل الشراقات. بل كان يمكن للفتاة العمل بانسراح، وتسمح لنفسها بركل الأثاث لأنه كان غير مرغوب فيه ويزدرية الجميع.

في الطابق الخامس، كانت كلّ غرفة تتطلّب مراسم مهيبة: تفريغ الحاويات، والمنافض وتفرغ فرّامات الورق، تنظيف المكاتب مع الحرص على عدم لمس أيّ شيء، وعدم تحريك أيّ أوراق من مكانها، وكذلك تنظيف الحجرات الصغيرة المجاورة ومكاتب السكرتيرات. وأولئك الفاجرات اللواتي كنّ يلصقن أوامرهنّ في كلّ مكان وكأتهنّ يتوجّهن إلى خادمتهنّ الخاصّة... سوف تفعلين لي هذا وذاك، وفي المرّة الماضية، حرّكتِ هذا المصباح وكسرتِ الشيء الفلاني... الملاحظات الجوفاء التي كانت تغيظ كارين أو سامية إلى أقصى درجة، في حين لم تكن كاميل تبالي بها أبداً. حينما كانت تجد ملاحظة قاسية جداً، كانت تكتب تحتها بلغة ركيكة عبارة: أنا ما يفهم الفرنسية وتلصقها جيداً في منتصف شاشة الحاسوب.

في الطوابق السفلى، كان ذوو الياقات البيض يرتّبون جزئياً فوضاهم، أمّا هنا، فكان كلّ شيء يُترك على حاله. لكي يُظهروا أنّهم مرهقون، وأنّهم قد غادروا منهكين بلا شكّ، ولكنهم قادرون على العودة في أيّ لحظة لاستعادة مكانتهم، منصبهم ومسؤولياتهم في القيادة العظيمة لهذا العالم. حسناً، لم لا؟ كانت كاميل تقول متنهّدة. لنقبل. لكلّ أوهامه... ولكن كان هناك شخصّ، في نهاية الممرّ، بدأ يثير حفيظتها. سواء كان شخصية

مهمة كبيرة أم لا ، فإنّ ذاك الرجل كان وسيخاً. علاوة على كونه قدراً للغاية، كان مكتبه العفن يثير الازدراء.

لعشر مرّات، ربّما لمائة مرّة، أفرغت الأقداح الطافحة بأعقاب السجائر والتقطت قطع الشطائر اليابسة من دون حتى أن تفكّر في ذلك، ولكن هذه المرّة، كلا. في ذلك المساء، لم تكن رائحة المزاج. فلملمت كل فتات ذاك الشخص، وخرقه البالية المليئة بالشعر، والعلكة الملتصوقة على حواف منفضته وأعواد ثقابه ومحارمه الورقية المكبّية، وكوّمتها على طاولته وتركت له ملاحظة: أيّها السيّد، أنت إنسانٌ قذر. أرجوك أن تترك هذا المكان أكثر نظافة قدر المستطاع. ملاحظة: أنظر إلى قدميك، هناك بجانبهما هذا الشيء المربح جداً الذي يُدعى حاوية..

وزخرفت ملاحظتها برسمة خبيثة فيها خنزيرٌ صغير يلبس يلبس رداءً من ثلاث قطع وينحني لكي يرى أيّ غرابة تختفي تحت مكتبه. ثمّ راحت تبحث عن زميلاتها لكي يساعدها في إنهاء تنظيف البهو.

سألت كارين متعجّبة:

- لماذا تفهههههه هكذا؟

- لا شيء.

- أنتِ فعلاً غريبة الأطوار...

- ماذا سنفعل بعد الآن؟

- ننظف أدرج الجناح ب..

- مرّة أخرى؟ لقد نظّفناها للتوّ!

رفعت كارين كتفيها.

- أذهب إلى هناك؟

- كلا. علينا أن ننتظر جوزي من أجل التقرير...

- تقرير ماذا؟

- لا أدري. يبدو أننا نستعمل الكثير من المواد...

- كان علينا أن نعرف... في المرة السابقة، لم نأخذ ما

يكفي منها... سأخرج إلى الرصيف، أتأتين معي؟

- الجو بارد جداً...

فخرجت كاميل بمفردها واستندت إلى فانوس.

«2/12/2003... الساعة 0:34 درجة الحرارة: 4

درجات مئوية تحت الصفر...». سار الشريط بأحرف ساطعة

على واجهة محلّ لبيع النظارات.

حينها أدركت ما كان عليها أن تردّ به على ماتيلد كيسلر في

الحال حينما سألتها هذه الأخيرة، بنبرة في غاية الانزعاج: ماذا

تشبه حياتها الآن.

«2/12/2003 الساعة 0:34 درجة الحرارة: 4 درجات

مئوية تحت الصفر...».

هذا هو.

لهذا.

## 17

- أعرف! أعرف ذلك جيداً! ولكن لماذا تهوّلين كلّ شيء

هكذا؟ أقصد أنّ هذا أمرٌ بسيط!

- اسمع يا عزيزي فرانك، أولاً، حدّثني بنبرة غير هذه النبرة، وثانياً لست مؤهلاً لتعطيني دروساً. منذ ما يقارب اثنتي عشرة سنة وأنا أهتمّ بأمرها وأمرّ لرؤيتها لعدّة مرّات في الأسبوع وأصطحبها إلى المدينة وأعتني بها. أكثر من اثنتي عشرة سنة، أتسمعني؟ وحتى الآن، لا يمكن القول بأنك كنت مهتماً بأمرها... لا كلمة شكر ولا إشارة للعرفان بالجميل ولا شيء على الإطلاق. حتى في المرّة السابقة، حينما رافقتها إلى المستشفى وأتيت كلّ يوم لزيارتها في البداية، لم تكلف نفسك عناء مكالمة هاتفية أو إرسال زهرة إليّ، أليس كذلك؟ حسناً، لقد آن الأوان لأخبرك بأنني أقوم بهذا من أجلها وليس من أجلك. لأنّ جدّتك إنسانة صالحة... صالحة، أتفهم؟ أنا لا ألومك أيّها الصبي الصغير، أنت شاب، وتقيم بعيداً ولك حياتك، ولكنك تعرف، أحياناً، هذا يزعجني، كلّ هذا يزعجني. يزعجني... أنا أيضاً، لديّ أسرتي، اهتماماتي ومشاكلي الصحية الصغيرة، ولذلك أخبرك بكلّ وضوح: عليك أن تقوم بمسؤولياتك الآن...

- أتريدين أن أفسد حياتها وأن أتركها في مأوى فقط لأنّها نسيت قدراً على النار، أهذا ما تريدين؟

- هيّا! أنت تتحدّث عنها وكأنّك تتحدّث عن كلب.

- كلا، ليس الأمر كذلك! وأنّ تعلمين جيداً عن ماذا أتحدّث! تعلمين جيداً إذا ما وضعتها في مأوى للمحتضرين العجزة، سوف لن تتحمّل الصدمة! سحقاً! لقد شاهدت المهزلة التي فعلتها بنا في المرّة الماضية!



- لست مضطراً لتكون فظاً، أتعلم؟

- اعذريني، سيّدة كارمينو، اعذريني... ولكنني أعرف أكثر إلى أين وصلت... أنا... أنا لا أستطيع أن أتصرّف معها بهذه الطريقة، أفهمين؟ بالنسبة لي، وكأنني أقتلها...

- إذا ما ظلّت وحيدة، هي من ستقتل نفسها...

- وماذا إذا؟ ألن يكون ذلك أفضل؟

- هذه طريقتك في رؤية الأمور، ولكنني لا أوافقك في هذا. لو لم يصل ساعي البريد في اللحظة المناسبة في المرّة الماضية، لاحترق البيت بأكمله والمشكلة هي أن الساعي لن يكون موجوداً على الدوام، لا الساعي... ولا أنا أيضاً. ولا أنا أيضاً، يا فرانك... لقد أصبح كلّ هذا العبء ثقيلاً... هذه مسؤوليات تفوق طاقتي... كلّما أصل إلى بيتكم، أتساءل عمّا سأجده، والأيام التي لا أمرّ فيها عليها، لا أستطيع أن أنام. حينما اتّصل بها ولا تردّ علي، يجعلني ذلك مريضةً وأذهب إليها دائماً لأرى ما قد تكون أقدمت عليه من سوء تصرّف. لقد أفسد الحادث عقلها ولم تعد اليوم نفس المرأة. تتجوّل بثوب النوم طيلة النهار، لم تعد تأكل، لم تعد تتكلّم، لم تعد تقرأ بريدتها... البارحة فقط، وجدتها أيضاً مطروحة في الحديقة... كانت متجمّدة تماماً، المسكينة... كلا لم أعد أحتمل، أنا دائماً أتخيّل الأسوأ... لا يمكننا تركها على هذه الحالة... لا يمكننا عليك أن تفعل شيئاً...

- ...

- فرانك؟ ألو؟ هل أنت معي؟

- نعم... ..
- يجب الرضوخ للواقع، يا عزيزي... ..
- كلا. سوف أضعها في ملجأ طالما ليس لديّ من خيار، ولكن لا ينبغي أن تطلبي مني الرضوخ، هذا غير ممكن.
- ملجأ، مأوى محتضرين، سجن... لماذا لا تقول «دار التقاعد» بكل بساطة؟
- لأنني أعلم جيداً كيف سينتهي الأمر... ..
- لا تقل هذا. هناك أماكن ممتازة. والدة زوجي على سبيل المثال، إنها... ..
- وأنتِ يا إيفون؟ ألا يمكنكِ التكفّل بذلك؟ سوف أدفع لكِ أجرِكِ... .. وأعطيكِ كلّ ما تريدين... ..
- كلا، هذا لطفٌ منك، ولكن كلا، أنا كبيرة في السنّ. لا أريد القيام بذلك، لديّ أصلاً عزيزي جيلبير لأهتمّ به... ثمّ إنها تحتاج إلى متابعة طبية... ..
- اعتقدتُ أنها كانت صديقتكِ؟
- وهي كذلك.
- إنها صديقتكِ، ولكن لا يضيركِ رميها في القبر... ..
- فرانك، اسحب فوراً كلّ ما قلته للتوّ!
- أنتنّ جميعاً هكذا... أنتِ، أمّي، الأخريات، الجميع! تقلن بأنكّنّ تحبين الناس، ولكن ما أن يُطلب منكّنّ أن تشمّرن عن سواعدكن، لا يعود هناك أحد... ..
- أرجوك، لا تضعني في نفس مصاف أمك! آه، هذا لا أقبه! كم أنت جاحد، يا ولدي... جاحدٌ وشرير!

أغلقت الساعة.

كانت الساعة الثالثة ولكنه عرف بأنه سوف لن يستطيع أن

ينام.

كان منهكاً.

ضرب الطاولة بيده، ضرب الجدار، ضرب كل شيء كان

في متناول يده.

ارتدى ثيابه ليذهب ويركض ويجلس على أول مقعد يصادفه.

صدرت منه في البداية كلمة آخ قصيرة، وكأن أحدهم قد

قرصه. ثم ارتخى كل جسمه. بدأ يرتجف من قمة رأسه حتى

أخمص قدميه، شعر بأن صدره ينفلق وأطلق زفيراً هائلاً. لم يشأ

أن ينهار ولكنه لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه وبكى كطفل

مسكين، كشخص يتهياً لضرب إنسانٍ أحبه أبداً، أحبه أبداً.

تلوى على نفسه، وقد سحقه الحزن وتلطخ بالمخاط

والدموع.

حينما اقتنع في النهاية بأن ليس هناك ما يفعله لإيقاف كل

هذا، لفّ بلوزته حول رأسه وشبك ذراعيه.

كان متألماً وشعر بالبرد وبالخجل.

ظلّ تحت رشاش الحمام، مغمض العينين ومرخيّ الوجه

إلى أن نفذ الماء الساخن. جرح نفسه وهو يحلق ذقنه. لم يشأ أن

يفكر في الأمر. ليس الآن، ليس الآن. فمقاومته كانت ضعيفة،

وإذا ما استسلم، ستنهش الآلاف من الصور رأسه. لم ير جدته

قط في أيّ مكان عدا هذا البيت. في الحديقة صباحاً، وفي

مطبخها لبقية الوقت وجالسة قرب سريرها في المساء...

في طفولته، كان يعاني من الأرق ويرى كوابيس ويصرخ ويناديها ويؤكد لها بأنه حينما أغلقت الباب، انزلت ساقاه إلى حفرة وأنه اضطرّ لأن يتشبّث بقضبان السرير كي لا يلحق بهما. اقترح عليها جميع المعلمين استشارة طبيب نفسي، وهزّ الجيران رؤوسهم ونصحوها بأن تأخذه إلى طبيبٍ شعبي لإعادة أعصابه إلى نصابها. أمّا زوجها، فقد أراد أن يمنعه من النمو. كان يقول لها: أنتِ مَنْ دَلَلْتِه! أنتِ مَنْ أَفْسَدْتِ هذا الصبي! تَبّاً له! عليك أن تحبّيه أقل! عليك أن تتركه يبكي لبعض الوقت، وأن يتبول على نفسه، وسترين أنه ينام... .

كانت تقول نعم نعم بلطف للجميع ولم تكن تصغي لأحد. كانت تعدّ له كوباً من الحليب الساخن ممزوجاً بالسكر وماء زهر الليمون، وتسند رأسه بينما يشرب وهو جالس على كرسي. وتجلس بجانبه وهي تنتهد مشبوكة الذراعين وتغفو معه. وقبله غالباً. لم تكن حالته خطيرة، طالما هي موجودة، كانت الأمور تسير سيراً حسناً.

كان بوسعه أن يمدّد ساقيه... .

قال فرانك:

- أعلمك بأنه لم يعد هناك ماء ساخن... .
- آه، هذا مزعج... أنا مشوّش الذهن، أنت... .
- ولكن كَفّ عن الاعتذار، سحَقاً! أنا من أفرغت الماء الساخن، اتَّفَقنا؟ أنا من فعلت ذلك. فلا تعتذرا!
- عفواً، اعتقدتُ أنّ... .
- أوه، أنت تغيظني؟ إذا أردت أن تتملّق دائماً فهذه مشكلتك في نهاية المطاف... .

غادر الغرفة وراح يهندس هندامه. كان عليه من كلّ بد أن يشتري بدلات جديدة، ولكن لم يكن لديه الوقت، لم يكن لديه الوقت أبداً، الوقت لفعل أيّ شيء، اللعنة!

لم يكن لديه في الأسبوع سوى يوم واحد، وسوف لن يذهب لقضائه في دارٍ للعجزة في بيتوشنوك ليشاهد جدّته تنوح! كان الآخر قد جلس في أريكته مع كلّ شهاداته ونياشينه.

- فيليبيار...

- عفواً؟

- اسمع... أوه... أعذر الآن... أنا... لديّ الآن مشاغل، وأنا غاضب... كما أنني قد هلكت...

- لا أهمية لهذا...

- بلى، هذا مهمّ.

- ما هو مهمّ، هو أنك يجب أن تقول «اعذرنى» وليس «أعذر». لا يمكنك أن تعتذر لوحدك، هذا غير سليم لغويّاً...

حدّق فيه فرانك للحظة قبل أن يهزّ رأسه:

- أنت فعلاً شخصٌ غريب...

وقبل أن يعبر الباب، أضاف:

- هيه أنت، انظر في الثلاجة، لقد جلبتُ لك شيئاً. لم أعد أعرف ما هو. لحم بظّ، أعتقد...

رفض فيليبيار بلطف.

وقف في المدخل يرغي ويزبد لأنّه لا يجد مفاتيح درّاجته.

أدى خدمته من دون أن ينبس ببنت شفة ولم يتدمّر حينما

جاء رئيس القسم وأخذ من يديه قدرًا ليثير اهتمامه. وكثر على أسنانه حينما أعادوا إليه شريحة بظّ لأنها غير مشويّة جيّدًا، وحكّ لوح التسخين بقوة لينظّفه جيّدًا من كلّ ما علق بمعدنه.

ترك المطبخ وانتظر في ركنٍ أن ينتهي رفيقه كيرماديك من فرز شراشفه وإحصاء أطباقه. حينما رآه هذا الأخير، جالسًا في ركن وهو يتصفّح جريدة موتو جورنال، سأل ساخرًا:

- ماذا يريد الطاهي المحترف؟

قلب ليستافيه رأسه إلى الخلف ووضع سبابته على فمه.

- أنا قادم، ثلاثة أعمال بسيطة أخرى وسأكون عندك...

كانا ينويان القيام بجولة على الحانات، ولكن فرانك كان مغمى عليه ثمالةً عند الخروج من الحانة الثانية. في تلك الليلة، وقع ثانية في حفرة، ولكن ليست حفرة طفولته. إنها حفرة أخرى.

## 18

- حسنًا، إذًا، كان ذلك لأعتذر، ماذا أقول... أقصد، لكي أطلبها منك...

- لتطلب منّي ماذا، يا غلام؟

- اعتذاراتي...

- لقد سامحتك، اذهب... لم تكن تفكّر بكلماتك، أعرف ذلك جيّدًا، ولكن مع ذلك يجب أن تنتبه... أنت تعلم، يجب الاعتناء بالناس الصادقين معك... حينما تصبح مسنًا، سوف ترى أنّك لن تصادف الكثير منهم...

- هل تعلمين، لقد فكّرت بما قلّته لي البارحة، وحتى إذا

- كان من الصعب عليّ قول ذلك، أعرف جيداً أنّك محقّة... .
- طبعاً أنا محقّة... . أعرف المسّتين جيداً، أعاني ذلك كلّ يوم... .
- إذاً أوه... .
- ماذا؟
- المشكلة هي أنني لا أملك الوقت للاهتمام بذلك، أعني أن أجد مكاناً وكلّ هذا... .
- أتريد أن أتكفّل بذلك؟
- يمكنني أن أدفع لكِ ساعاتكِ، أنتِ تعلمين... .
- لا تعاود بذاءاتك، يا صغيري، أودّ كثيراً أن أساعدك ولكن أنتِ، عليك أن تخبرها بذلك. أنتِ مَنْ عليه أن يشرح لها الوضع... .
- هل ستأتين معي؟
- أتمنّى ذلك، إن كان هذا يناسبك، ولكنها تعرف تماماً ما رأيي بها... . منذ أن أوهمتها... .
- يجب أن نجد لها شيئاً مناسباً، إذا؟ مع غرفة جميلة وخاصّة حديقة كبيرة... .
- هذا مكلف جداً، أنت تعلم... .
- كم يكلف؟
- أكثر من مليون شهرياً... .
- أوه... . انتظري، إيفون، عن آية عملة تتحدّثين، هنا؟
- اليورو هي العملة المعتمدة الآن... .

- أوه، اليورو... أنا، أحدثك كعادتي في الحديث ومن أجل بيتٍ مناسب، يجب رصد أكثر من مليون فرنك فرنسي قديم شهرياً...  
... ..

- فرانك؟

- هذا... هذا ما أكسبه...

- عليك الذهاب إلى صندوق الإعانة العائلية لتطلب إعانة سكن، وترى كم يمثل تقاعد جدّتك، وثمّ ترفع ملفّ APA إلى المجلس العام...  
... ..

- وما هو APA؟

- هذه إعانة للأشخاص المعدمين أو المعوقين.

- ولكنها... ليست معوّقة فعلاً، أليس كذلك؟

- كلا، ولكن عليها أن تلعب اللعبة حينما يرسلون إليها خبيراً. لا ينبغي أن تبدو قويّة البأس، وإلا سوف لن تحصلوا على شيءٍ يُذكر...  
... ..

- أوه، اللعنة، ما هذه الفوضى... عفواً.

- أرفض السماع.

- لن يكون لدي قط الوقت لتعبئة كل تلك الأوراق... هلاً مهّدت لي الأرضية قليلاً؟

- لا تقلق، سوف أطرح الموضوع على النادي يوم الجمعة القادم، وأنا متأكّدة من تحقيق النجاح!

- أشكرك، سيّدة كامينو...  
... ..



- لا شكر على واجب... هذا أقل ما يجب فعله، هيا... ..
- حسناً، حسناً، سأذهب للعمل... ..
- يبدو أنك تطبخ الآن كرئيس للطهاة؟
- مَنْ أخبرك بهذا؟
- السيّدة مانديل... ..
- آه... ..
- أوه لا لا، لو تعرف، لا تزال تتحدّث عن ذلك! لقد أعددت لهم أرانب برية على الطريقة الملكية، ذلك المساء... ..
- لم أعد أتذكّر.
- هي لا تزال تتذكّر، هل يمكنك أن تصدقني! أخبرني، يا فرانك؟
- ماذا؟
- أعلم أنّ هذا ليس شأني، ولكنّ أمك؟
- ما بها أمّي؟
- لا أدري، ولكنني كنتُ أقول في نفسي ربّما يجب الاتصال بها، هي الأخرى يمكنها أن تساعدك في دفع المبلغ... ..
- هنا، أنتِ الفظّة، يا إيفون، أنتِ تعرفينها جيداً... ..
- الناس يتغيّرون أحياناً... ..
- لكن ليس هي.
- ... ..
- كلا، ليس هي... حسناً، سأنصرف، أنا متأخر... ..
- إلى اللقاء، يا صغيري.
- لحظة من فضلك؟
- ماذا؟

- حاولي أن تجدي شيئاً أقلّ كلفة بقليل... ..

- سأرى، سأخبرك... ..

- شكراً.

كان الجوّ بارداً جداً ذلك اليوم الذي فرح فيه فرانك باستعادته لدفء المطبخ ووظيفته الشاقّة. كان رئيس الطهاة على مزاجٍ رائع. كان عدد الزبائن كبيراً وكان قد علم توّاً بأنّه سيلقى استحساناً من مجلّة تخصصية.

- مع هذا الطقس، سنقدّم هذا المساء، يا أطفال، كبد الإوز! آه، لقد تمّ الانتهاء من إعداد السّلطات والخضراوات وكلّ هذه الأمور! أريد شيئاً جميلاً ولذيذاً وأريد أن يخرج الزبائن من هنا في غاية الرضا! هيا! أوقدوا لي النار، يا صفاري!

## 19

شقّ على كاميل النزول على السلالم. كانت آلام جسدية تكبّحها وتعاني من صداعٍ نصفيٍّ فظيع. شعرت وكأنّ أحداً يغرس سكيناً في عينيها اليمنى ويقلّب نصلها فيها كلّما أتت بحركة. حينما وصلت إلى البهو، تمسّكت بالجدار لتستعيد توازنها. كانت ترتجف وتلهث. فكّرت في أن تعود وتنام ولكنّ فكرة صعودها سبعة طوابق من جديد بدت لها أكثر مشقّة من الذهاب إلى العمل. على الأقلّ، في المترو، ستستطيع الجلوس... ..

في اللحظة التي عبرت فيها الرواق، اصطدمت بدبّ. كان جاراها الذي يرتدي عباءة طويلة مبطنّة بالفرو.

اعتذر قائلاً:

- أو عفواً يا سيّدي، أنا...

رفع عينيه.

- كاميل، أهذه أنتِ؟

وإذ لم تمتلك القدرة على أيّ محادثة وديّة، مرّت من تحت ذراعه.

- كاميل! كاميل!

دست أنفها في وشاحها وأسرعت الخطى. وقد أرغمها هذا الجهد على أن تتكئ إلى حائط لثلا تقع.

- كاميل، هل أنتِ بخير؟ يا إلهي، ولكن... ماذا فعلتِ

بشعركِ؟ يا له من منظرٍ فظيع! شعركِ؟ شعركِ الجميل جداً...

- يجب عليّ الانصراف، لقد تأخّرت...

- ولكن البرد قارص، يا صديقتي! لا تمشي حاسرة

الرأس، أنتِ تجازفين بحياتكِ... تفضّلي، خذي قبّعتي العسكرية على الأقلّ...

بذلت كاميل جهداً لكي تبسم.

- أهي لعمّك أيضاً؟

- تَبّاً لك، كلا! بل لوالد جدّي، الذي رافق ذاك الجنرال

الصغير في حملاته على روسيا...

ألبسها قبّعته وأسدلها حتى حاجبيها.

أرغمت نفسها على أن تمزح قائلة:

- أتعني أنّ هذه القبّعة قد شاركت في معركة أوسترليتز؟

- تماماً! ومعركة بياريزينا أيضاً، واحسرتاه... ولكنك شاحبة تماماً... هل أنت متأكدة من أنكِ على ما يُرام؟  
- متعبة بعض الشيء...

- أخبريني، كاميل، ألا تبردين كثيراً هناك في الطابق العلوي؟

- لا أدري... حسناً، أنا... سأذهب... شكراً على القبّعة.

بعد أن تخذّرت بدفء القطار، نامت ولم تستيقظ إلا في نهاية الخط. جلست بعكس اتجاه سير القطار وأنزلت قبعتها على عينيها لتبكي من شدّة الإنهاك. أوه، هذه القبّعة القديمة، تفوح منها رائحة عفنٍ فظيعة...

حينما نزلت أخيراً في المحطة المناسبة، كان البرد الذي استبدّ بها قارصاً جداً بحيث اضطرت للجلوس تحت سقف موقفٍ للحافلات. تمدّدت فيه وطلبت من الشاب الذي كان بجانبها أن يوقف لها سيارة أجرة.

صعدت إلى بيتها زحفاً على الركبتين ووقعت من طولها على فراشها. لم تكن قادرة على أن تتجرّد من ثيابها وفكّرت، لبرهة، في الموت حالاً. مَنْ سيعلم بأمرها؟ مَنْ سيهتمّ لذلك؟ مَنْ سيبيكها؟ كانت ترتجف من الحرارة وغظاها عرقها ككفنٍ جليدي.

## 20

استيقظ فيليبيار نحو الساعة الثانية فجراً يريد أن يشرب كوباً من الماء. كان بلاط المطبخ بارداً جداً وكانت الريح تصفع

مرَبَّعات النافذة. حدِّق للحظة في الجادة المقفرة وهو يدمدم بمقتطفات من أغاني طفولية... ها قد أقبل الشتاء، قاتل الناس الفقراء... كان ميزان الحرارة الداخلي يشير إلى ستِّ درجات مئوية تحت الصفر. ولم يستطع الامتناع عن التفكير بتلك المرأة المسكينة في الطابق العلوي. أتكون نائمة؟ وماذا فعلت بشعرها، منكودة الحظِّ هذه؟

كان عليه أن يفعل شيئاً. لم يكن بوسعها أن يتركها على تلك الحالة. ولكنَّ تربيته وعاداته الحسنة وحشمتها كانت تربكه في نقاشات مملة لا متناهية في داخل نفسه...

هل من المناسب إزعاج فتاة في وقتٍ متأخِّرٍ من الليل؟ كيف ستفسِّر ذلك؟ وأخيراً هل يمكن ألا تكون لوحدها؟ وماذا لو كانت عارية؟ أوه، كلا... فضل ألا يفكِّر في ذلك... وكما في مسلسل تانان الكوميدي، تشاجر الملاك والشيطان على الوسادة المجاورة لوسادته.

وفي النهاية... كانت الشخصيات مختلفة بعض الشيء... قال ملاك يرتعش برداً: «هيا، لقد ماتت هذه الفتاة الصغيرة برداً...»، وردَّ عليه الآخر، منقبض الجناحين: «أنا أعرف جيداً يا صديقي، ولكن هذا لن يحدث. سوف تحصل على أخبارها غداً صباحاً. نم الآن، أرجوك».

حضر نزاعهما الصغير من دون أن يشارك فيه، استدار عشر مرَّات، عشرين مرّة، رجاها أن يسكتا، وانتهى إلى سرقة وسادتهما لثلا يواصلان الجدل.

في الساعة الثالثة وأربع وخمسين دقيقة، بحث عن نعليه في العتمة.

منحه شعاع الضوء المتسرّب من أسفل بابها الشجاعة.

- آنسة كاميل؟

ثمّ بصوتٍ أقوى بقليل:

- كاميل؟ كاميل؟ أنا فيليبيار...

لا جواب. حاول لآخر مرّة قبل أن يسلك طريقه. كان قد وصل إلى نهاية الممرّ، حينما سمع صوتاً مخنوقاً.

- كاميل، أنتِ هنا؟ لقد قلتُ عليكِ و... أنا...

أنتِ كاميل:

-... الباب... مفتوح...

كان بيت الدرج بارداً كالصقيع. شقّ عليه الدخول بسبب الفراش واصطدم بكومة من الخرق. انحنى ورفع غطاءً، ثمّ غطاءً آخر، ثمّ فراشاً وأخيراً سقط على وجهه. كانت مبلّلة.

وضع يده على جبينها.

- أنتِ في حمّى شديدة! لا يمكنكِ البقاء هكذا... لا

هنا... ولا وحيدة... وماذا عن مدفأتكِ؟

- لا قدرة لي على نقلها...

- هل تسمحين لي باصطحابكِ معي؟

- إلى أين؟

- إلى بيتي.

- لا رغبة لي في التحرك...

- سأحملكِ بين يديّ.

- كأمية فاتنة؟

ابتسم لها :

- هيا بنا إذاً، أنتِ محمومة إلى درجة أنكِ تهذين الآن...  
سحب الفراش إلى وسط الغرفة، ونزع حذاءها الضخم  
ورفعها بغاية اللطف.

- واحسرتاه، لستُ قوياً كأَميرٍ حقيقي... أوه... هل  
يمكنك أن تلقِي ذراعيكِ حول رقبتِي، من فضلك؟  
أرخت رأسها على كتفه، فدوّخته الرائحة الحادّة الفاتحة من  
رقبتها.

لم يكن نقلها يسير على ما يرام. كان يصدم حسناؤه عند  
المنعطفات وكاد أن يقع عند كلّ درجة. لحسن الحظ، كان قد  
فكّر في أخذ مفتاح باب الخدمة ولم يكن عليه أن ينزل سوى  
ثلاثة طوابق. عبر المكتب، والمطبخ، وأوشك أن يوقعها لعشر  
مرّات في الممرّ ووضعها في النهاية على سرير عمّته ايدمي.

- اسمعيني، عليّ أن أكشف عنك قليلاً، أتصوّر... أنا...  
أقصد حضرتك... أقصد أنّ هذا مبرك جداً، ماذا...

كانت قد أغمضت عينيها.

حسناً.

وجد فيليبيار ماركيه دي لا دوربيلير نفسه في موقفٍ حرجٍ  
للغاية.

فكّر في مآثر أجداده، ولكنّ اتفاقية عام 1793 والاستيلاء  
على شوليه وشجاعة كاتلينو وبسالة لا روش جاكلان، بدا كلّ  
ذلك فجأةً شيئاً بسيطاً...

كان الملاك الغاضب جاثماً الآن على كتفه مع دليل البارونة ستاف تحت ذراعه. نذر نفسه له: «إذاً، يا صديقي، أنت راضٍ عن نفسك الآن، أليس كذلك؟ آه، إنه في أحسن حال، فارسنا المقدم! تهانني، حقاً... والآن؟ ماذا سنفعل، الآن؟». كان فيليب تائهاً تماماً. غمغمت كاميل:

- ... ماء ...

هرع منقذها إلى المطبخ، ولكن مفسد البهجة كان بانتظاره على حافة البالوعة: «ولكن، نعم! تابع... وماذا عن التين إذاً؟ ألن تذهب لمصارعة التين؟»، فأجابه فيليب: «هيه أنت، اخرس!»، وعاد إلى مريضته وقد ارتاح قليلاً. في النهاية لم يكن الأمر معقداً جداً. كان فرانك هو المحق، أحياناً تكون شتيمة مناسبة أجدى من خطابٍ طويل. بعد أن انتعش بهذه الطريقة، جعلها تشرب واستجمع شجاعته: عراها.

لم يكن ذلك بسيطاً لأنها كانت مغلّفة أكثر من بصلة. نزع أولاً معطفها، ثم سترتها الجينز. ثم جاء دور بلوزة، وبلوزة ثانية، بياقة ملفوفة وأخيراً ما يشبه قميصاً بكمين طويلين. حسناً، قال في نفسه، لا يمكنني أن أتركها لها، ربّما أستطيع عصره وتنشيفه... حسناً، لا يهمّ، سوف أرى... أقصد حمالة نهدية... يا للهول، بحقّ كلّ قديسي السماء! لم تكن ترتدي حمالة! سريعاً، بسط الشرشف على صدرها. حسناً... إلى الأسفل الآن... كان أكثر حرية. سحب بكلّ قواه ساقبي بنطالها. حمداً لله، لم يسلت سروالها الداخلي الصغير معه...

- كاميل؟ هلّ لديك القدرة على أن تستحمي؟



لا جواب.

هزّ رأسه استهجاناً، ذهب إلى الحمام، ملأ إبريقاً بالماء الساخن وسكب فيه قليلاً من ماء الكولونيا ولبس في يده قفاز حمّام.

الشجاعة، أيها الجندي!

حلّ الشرشف ورطبها بطرف القفاز أولاً، ثمّ بشكل أكثر جرأة.

فرك رأسها، رقبتها، وجهها، ظهرها، إبطيها، نهديها طالما اضطرّ لذلك، ثمّ هل يمكن اعتبارهما نهدين؟ بطنها وساقها. بالنسبة للبقية، لعمرى، سوف ترى... عَصَرَ القفاز ووضعه على جبينها.

كانت بحاجة إلى أقراص أسبرين الآن... أمسك بشدّة بدرج المطبخ الذي أفرغ كلّ محتوياته على الأرض. عجباً! أسبرين، أسبرين...

وقف فرانك على عتبة الباب، مرّ يده تحت قميصه الرياضي وأخذ يحكّ أسفل بطنه. قال متثائباً:

- ماذا يحدث هنا؟ ما كلّ هذه الفوضى؟

- أبحث عن أسبرين...

- في خزانة الحائط...

- شكراً.

- هل رأسك يؤلمك؟

- كلا أريده لصديقة...

- زميلتك في الطابق السابع؟

- نعم.

ضحك فرانك هازناً:

- انتظر، أكنتَ معها، هناك؟ كنتَ هناك في الطابق

العلوي؟

- نعم. تقدّم، من فضلك...

- توقّف، لا أصدّق ذلك... حسناً، إذا أنت صبيٌّ بكر؟

كانت تعليقاته الساخرة تتبعه في الممرّ:

- هيه؟ أصابتك بالصداع النصفى منذ الليلة الأولى، أهذا

صحيح؟ سحقاً، لقد أخطأت السيد يا صبي...

أغلق فيليبيار الباب من خلفه، استدار ودمدم بوضوح:

«اسكت، أنت أيضاً...».

انتظر أن يأخذ قرص الأسبرين مفعوله، ثمّ أزعجها للمرّة

الأخيرة. خال له أنّه قد سمعها تهمس «بابا...» إلا إذا كانت

تقول «لا... لا...» لأنها على الأرجح لم تعد ظمّانة. لم يكن

يعرف.

بلّ القفاز ثانية، سحب الشرف وظلّ في مكانه للحظة.

كان مندهلاً، مدعوراً وفخوراً بنفسه.

نعم، كان فخوراً بنفسه.

## 21

أوقظت كاميل بموسيقى U2. ظنّت في البداية أنّها في

منزل آل كيسلر وعادت إلى النوم. غمغمت قائلة كلا، كلا، هذا

غير ممكن... لا بيير ولا ماتيلد ولا خادمتهما لا يستطيعون

التخلّص من بونو بكامل حجمه بهذه الطريقة. كان هناك خللٌ ما، هنا. . . فتحت عينيها ببطء وأنت من ألم رأسها وانتظرت في العتمة لعلّها تتعرّف على شيءٍ ما.

ولكن أين كانت؟ ماذا. . .؟

أدارت رأسها. لم يستجب جسدها. رفضت عضلاتها ومفاصلها والبقية الباقية من لحمها أدنى حركة. صرّت على أسنانها ونهضت لبضعة سنتيمترات. ارتجفت وطفحت من جديد بالعرق.

كان دمها ينبض في صدغيها. انتظرت للحظة، جامدة ومغمضة العينين، لكي يسكن الألم.

فتحت برقة عينيها وعرفت أنّها كانت في سرير غريب. كان الضوء بالكاد يرشح من بين فرجات المصاريع الداخلية للباب وكانت ستائر واسعة من القטיפه، نصف فالتة عن سكتها، تتدلّى بائسة من كلّ جانب. كانت تقابلها مدفأة من الرخام تعلوها مرآة منقّطة بالكامل. كانت الغرفة مفروشة بنسيج مزهر لم تستطع تمييز ألوانه. كانت هناك لوحات في كلّ مكان. وصور شخصية لرجالٍ ونساء بالزي الأسود بدوا مندهشين مثلها من وجودها في هذا المكان. ثمّ التفتت نحو طاولة السرير فرأت دورقاً منقوشاً في غاية الجمال وبجانبه كوبٌ من خردل سكوبيدو. كانت تموت عطشاً وكان الدورق مليئاً بالماء ولكنها لم تجرؤ على لمسه: ترى في أيّ قرنٍ ملء؟

تبّاً، أين كانت ومنّ قادها إلى هذا المتحف؟

كانت هناك ورقة مثنيّة فوق شمعدانٍ صغير: «لم أجرؤ على

إزعاجك هذا الصباح. ذهبتُ إلى العمل. سأعود نحو الساعة السابعة. ثيابك مطوية فوق الكرسي. هناك لحم بظ في الثلاجة وقارورة مياه معدنية عند قدم السرير. فيليبيا».

فيليبيا؟ ولكن ماذا كانت تفعل في سرير ذاك الصبي؟  
النجدة.

رَكَزَتْ ذهنها لعلها تجد بقايا فجورٍ مستبعد، ولكن ذكرياتها لم تذهب أبعد من جادة برون... هناك كانت جالسة منكمشة على نفسها تحت موقفٍ للحافلات وطلبت من رجلٍ طويل القامة يرتدي معطفاً داكناً أن يوقف لها سيارة أجرة... أكان فيليبيا؟ كلا... كلا، لم يكن هو، وإلا لتذكرته...

كان أحدهم قد أوقف الموسيقى. وسمعت أيضاً وقع خطي وهمهمات وباباً يُصَفَق، ثم باباً ثانياً ولم يعد هناك أي شيء. ساد الصمت.

كانت لديها رغبة جامحة ولكنها انتظرت لحظة أخرى، منتبهة إلى أدنى ضجة وخائفة من فكرة تحريك هيكلها البائس. دفعت الأغطية ورفعت اللحاف الذي بدا لها أكثر ثقلاً من حمارٍ نافق.

حينما لامست أرضية الغرفة، التوت أصابع قدميها. كان بابوجان من جلد الجدي ينتظرانها عند حافة السجادة. نهضت ورأت أنها ترتدي بيجاما رجالية، انتعلت المشايتين ووضعت سترتها الجينز على كتفيها.

أدارت مقبض الباب بهدوء ووجدت نفسها في ممرٍ شاسع، مظلم، طوله على الأقل خمسة عشر متراً.

بحث عن المغاسل ...

كلّاً، هناك خزانة، وهنا غرفة أطفال فيها سريران توأمان وحصان أرجوحة مقروضٌ بأكمله بالعثّ. هنا... لا تعرف... ربّما مكتب؟ كان هناك الكثير من الكتب الموضوعه على طاولة أمام النافذة التي بالكاد يدخلها الضوء. كان سيفٌ ووشاحٌ معلقان على الجدار وكذلك ذيل حصان معلقٌ بطرف حلقة من الصُفُر. ذيلٌ حقيقي لحصانٍ حقيقي. كان شيئاً خاصّاً ثميناً كُرفات قديس... .

هنا! المراحيض!

مصراع الباب من الخشب وكذلك مقبض خرطوم الماء. وحوض المرحاض، نظراً لعمره، لا بدّ أنّه قد رأى أجيالاً من المؤخّرات... تردّدت كاميل قليلاً في البداية، ولكن لا، كان كلّ شيء يعمل بطريقة ممتازة. كان صخب انبجاس الماء من الخرطوم مفاجئاً. وكأنّ شلالات نياغارا قد سقطت فوق رأسها... .

داخت، ولكنّها واصلت رحلتها في البحث عن علبة أسبرين. دخلت إلى غرفة تسودها فوضى عارمة. ثياب متناثرة في كلّ مكان وسط مجلّات وعلب فارغة وأوراق مبعثرة: بطاقات دفع، نشرات مطبخ، كراريس صيانة GSXR وكذلك نشرات مختلفة من الخزينة العامّة. كان قد وُضِعَ على السرير الجميل من طراز لويس السادس عشر فراشٌ شنيع مرّقع وكانت مبخرة موضوعة على الخشب المطعم لطاولة السرير. حسناً، كانت رائحة حيوانية تفوح من الداخل... .

المطبخ في نهاية الممرّ. حجرة باردة، رمادية، حزينة، بلاطها قديم باهت اللون منمّق بمسامير مزخرفة الرأس، سوداء اللون. طاولات العمل من المرمر والخزانات جميعها تكاد تكون خاوية. لا شيء ينبئ بأنّ أناساً يعيشون هنا سوى هدير ثلاجة قديمة... عثرت على أنبوبة أقراص الأسبرين، أخذت كأساً من قرب المجلى، وجلست على كرسيّ من الفورميكا. كان ارتفاع السقف مدوّخاً وأثار بياض الجدران انتباهها. لا بدّ أنّ هذا طلاءً قديمٌ جداً، ذو أساسٍ رصاصيّ، وأنّ السنوات قد منحته طبقة ناعمة من الأكسيد. لم يكن متكسّراً ولم يكن شبيهاً ببياض قشر البيض، وإنّما أشبه ببياض الأرزّ بالحليب أو مُحلّيات لا طعم لها تقدّمها مطاعم الجنود... أجرت في ذهنها بعض العمليات ووعدت أن تعود ذات يوم ومعها مصباحان أو ثلاثة لتراه بشكلٍ أوضح. تاهت في الشقّة واعتقدت أنّها سوف لن تعثر ثانية على غرفتها. ارتمت على السرير وفكّرت للحظة في أن تتصل بالثرثرة الأخرى التي تعمل لدى توكلين ونامت في الحال.

## 22

- كيف حالك؟
- أهذا أنت يا فيليبيا؟
- نعم...
- أنا في سريرك، هنا؟
- سريري؟ ولكن، ولكن... ولكن كلا، هيّا... أبداً  
أنا...

- أين أنا؟

- في شقة عمّتي ايديمي، العمّة مي، بالنسبة للمقربين...  
كيف تشعرين بحالكِ، عزيزتي؟

- منهكة. وكأنّ محدلة قد دهستني...

- لقد استدعيْتُ طبيباً..

- أوه، ولكن كلا، لا داعي لذلك!

- لا داعي لذلك؟

- أوه... أجل... لقد أحسنت صنعاً... سوف أحتاج إلى

إجازة من العمل على أية حال...

- لقد سخّنت الحساء...

- لستُ جائعة...

- أرغمي نفسكِ على تناول الطعام. يجب أن تستردي

صحتكِ بعض الشيء وإلا لن يكون جسمك قادراً على دفع

الفيروس خارج الحدود... لماذا تبسمين؟

- لأنك تتحدّث وكأنتك تتحدّث عن حرب المائة عام...

- أتمنى أن تكون الفترة أقصر من ذلك! آه، تفضّلي،

أسمعين؟ لا بدّ أنّه الطبيب...

- فيليبيار؟

- ماذا؟

- لا أملك شيئاً، ليس معي... لا دفتر شيكات ولا نقوداً،

لا شيء...

- لا تقلقي. سنتحدّث في ذلك لاحقاً... في لحظة توقيع

اتفاقية السلام...

- إذا؟
- إنها نائمة.
- ماذا؟
- أهي فرد من عائلتك؟
- صديقتي...
- كيف تكون صديقتك؟
- ارتبك فيليبيار:
- حسناً، إنها... إنها جارتني، إنها جارة صديقة.
- أتعرفها جيداً؟
- كلا، ليس جيداً.
- أتعيش بمفردها؟
- نعم.
- عبس الطيب.
- أهنالك ما يقلقك؟
- يمكننا قول ذلك... هل لديك طاولة؟ مكان أستطيع الجلوس عليه؟
- قاده فيليبيار إلى المطبخ. أخرج الطيب رزمة وصفاته.
- أتعرف كنتها؟
- فوك، أعتقد...
- تعتقد أم أنك متأكد من ذلك؟



- عمرها؟
- ستة وعشرون عاماً.
- أنت متأكد؟
- نعم.
- أهي تعمل؟
- نعم، نعم في شركة للصيانة.
- عفواً؟
- تنظف المكاتب... ..
- هل نتحدّث عنها نفسها؟ المرأة الشابة التي ترقد في  
السريّر الكبير ذي الطراز البولوني في نهاية الممرّ؟
- نعم.
- هل تعرف كيف تستخدم وقتها؟
- إنّها تعمل ليلاً.
- ليلاً؟
- أقصد، مساءً... .. حينما تخلو المكاتب... ..
- تجراً فيليبّار على السؤال:
- تبدو مستاءً؟
- أنا كذلك. إنّها على الأرجح صاحبتك... .. على الغالب،  
حقاً... .. هل أدركت ذلك؟
- كلا، أقصد بلى... .. كنتُ أرى أنّ لديها وجهاً ناعماً،  
ولكنني... .. أقصد أنني ذهبت أبحث عنها البارحة مساءً فقط لأنّ  
ليس لديها تدفئة ولأنّ... ..

- اسمعني، سوف أخبرك بالأمر صراحةً: نظراً لشحوبها ولوزنها ولضغط دمها، كان عليّ أن أنقلها إلى المستشفى على الفور، ولكن حينما ذكرتُ هذا الاحتمال، استبدّ بها هلعٌ شديد بحيث... أقصد ليس لديّ ملفّ، أتفهم؟ لا أعرف لا ماضيها ولا سوابقها ولا أريد أن أتسرّع، ولكن حينما تتحصّن حالتها، عليها أن تخضع لسلسلة من الفحوصات، هذا حتمي...  
كان فيليب يلو يلو يديه.

- بانتظار ذلك، هناك أمرٌ مؤكّد: عليك أن تعيد إليها نشاطها، أن ترغمها على أن تتغذّى وأن تنام، وسوى ذلك... حسناً، سأمنحها حالياً إجازة لعشرة أيام. وهذه الوصفة من أجل دوليبران وفيتامين ب، ولكنني، أكرّرها لك: كلّ هذا لا يحلّ محلّ طبقٍ من لحم الأضلاع نصف المشوي، وطبقاً من المعجنات والخضار والفاكهة الطازجة، أفهمت؟  
- نعم.

- هل لها عائلة في باريس؟  
- لا أدري. وماذا عن الحمى المستبدّة بها؟  
- إنّها نزلة بردٍ شديدة. لا شيء يمكننا فعله... سوى انتظار أن يمرّ هذا... احرص على ألاّ تتغطّى كثيراً، وجنّبها التيارات الهوائية وألزمها السرير لبضعة أيام...  
- حسناً...

- والآن أنت من تبدو قلقاً! ربّما أكون قد سوّدت الصورة، ولكنّها ليست بهذه القتامة في الواقع... ستحرص عليها، أليس كذلك؟

- نعم.
- أخبرني، أهذا بيتك؟
- آه، نعم...
- كم مساحته؟
- أكثر من ثلاثمائة متر مربع بقليل...
- حسناً! ربّما أبدو لك متطفلاً، ولكن ماذا تعمل في حياتك؟
- سفينة نوح.
- عفواً؟
- كلا، لا شيء. بكم أدين لك؟

## 24

- كاميل، هل نمت؟
- كلا.
- انظري، لدي مفاجأة لك...
- فتح الباب ودفع أمامه مدفأتها الزائفة.
- اعتقدتُ أنّ هذا سيسعدك..
- أوه... هذا لطفٌ منك، ولكنني سوف لن أبقى هنا، أنت تعرف... سوف أصعد إلى غرفتي غداً...
- كلا.
- كيف كلاً؟
- سوف تصعدين مع مقياس للضغط، وبانتظار ذلك،

- ستمكثين هنا لكي ترتاحي، الطبيب هو الذي طلب ذلك،  
ومنحك إجازة لعشرة أيام... ..
- كلّ هذا؟
- نعم... ..
- يجب أن أرسلها... ..
- ماذا؟
- ورقة الإجازة... ..
- سأجلب لك مغلفاً.
- كلا، ولكن... لا أريد البقاء طويلاً، أنا... لا أريد.
- أتفضلين الذهاب إلى المستشفى؟
- لا تمزح معي بهذا الخصوص... ..
- أنا لا أمزح، يا كاميل.
- شرعت تبكي.
- سوف تمنعهم، إذا؟
- هل تتذكرين حرب رجال الدين والفلاحين؟
- أوه... ليس أكثر من هذا، كلا... ..
- سوف أعيرك كتباً... وموقتاً، تذكري أنك في بيت آل  
ماركيه دي لا دوربيلير وأنا لا نخشى رجال الشرطة هنا.
- رجال الشرطة؟
- الجمهورية. يريدون أن يضعوك في مستشفى حكومي،  
أليس صحيحاً؟
- بالتأكيد... ..

- إذاً ليس لديكِ ما تخشينه. سأسكب زيتاً يغلي من أعلى بيت الدرج.

- أنت مخبول تماماً.

- كلنا فيه شيء من الخبل، أليس كذلك؟ أنتِ، مثلاً، لماذا حلقتِ شعركِ؟

- لأنه لم تعد لديّ القدرة قط على أن أغسل شعري على الدرج... .

- هل تتذكرين ما قلته لكِ بشأن دايان بواتيه؟

- نعم.

- إذاً، لقد وجدتُ مؤخراً شيئاً ما في مكتبتني، انتظري... .

عاد مع كتاب جيبي مغبرّ اللون، جلس على حافة السرير وتنحنح:

- كان كلّ البلاط - عدا مدام ايتاناب، بالطبع (سأخبرك بالسبب بعد قليل) - متفقاً على أنّها في غاية الجمال. كان الناس يقلّدون مشيتها، وحرركاتها، وزينتها. كانت تصلح، من جهة أخرى، لترسيخ أصول الجمال التي كانت النساء كلّهنّ يسعين بشدة، خلال مائة عام، إلى التشبه بها:

ثلاثة أشياء بيض: البشرة، الأسنان، البدان.

ثلاثة أشياء سود: العينان، الحاجبان، الأهداب.

ثلاثة أشياء حمراء: الشفتان، الخدّان، الأظافر.

ثلاثة أشياء طويلة: القامة، الشعر، البدان.

ثلاثة أشياء قصيرة: الأسنان، الأذنان، القدمان.

ثلاثة أشياء ضيقة: الفم، الخصر، مقدّم القدم.

ثلاثة أشياء ضخمة: الذراعان، الفخذان، بطة الساق.

ثلاثة أشياء صغيرة: حلمتا الثديين، الأنف، الرأس.

هذا كلامٌ جميل، أليس كذلك؟

- وترى أنني أشبهها؟

- نعم، أقصد في بعض المعايير...

كان محمّرّ الوجه مثل حبة طماطم.

- ليس... ليس كلّ شيء بالطبع، ولكنك... ترين، هذه

مسألة مظهر، مسألة أناقة، مسألة... مسألة...

- أنت من جرّدتني من ثيابي؟

كانت نظارته قد سقطت على ركبتيه، وأخذ يتمت... يتمتم

كما هي عادته دائماً.

- أنا... أنا... نعم أقصد، أنا... أنا... في غاية... في

غاية العفة، أعدد... أعدك بذلك، لقد غطّ... غطيتك أولاً،

أنا...

مدّت له نظارته التي تثبت على الأنف.

- هيه أنت، لا تضع نفسك في هكذا حالات! أريد فقط أن

أعرف، هذا كلّ شيء... أوه... هل كان الآخر حاضراً؟

- م... من هو؟

- الطباخ...

- كلا. بالطبع كلا، هيا...

- أحبّ هذا أكثر... أووووه... رأسي يؤلمني بشدة... ..

- سأنزل إلى الصيدلية... هل تحتاجين إلى شيءٍ آخر؟

- كلا. شكراً.

- ممتاز. آه، نعم، يجب أن أخبركِ... ليس لدينا هاتف

هنا... ولكن إن أردتِ أن تتصلي بأحد، لدى فرانك هاتف نقال في غرفته و...  
- لا بأس، شكراً. أنا أيضاً لديّ هاتف نقال... عليّ فقط

أن أجلب الشاحن من الطابق العلوي...  
- سوف أذهب لو أردتِ...  
- كلا، كلا، يمكننا الانتظار...  
- ليكن.

- فيلييار؟

- نعم؟

- شكراً.

- هيا بنا...  
ظلّ واقفاً أمامها بينطاله القصير جداً، وسترته المطبّقة عليه  
وذراعيه الطويلتين جداً.

- إنها المرّة الأولى منذ زمنٍ طويل التي يهتم بي أحدٌ بهذا الشكل...  
- هيا بنا...  
- أجل، هذا صحيح... أعني... من دون أن ينتظر

مقابلاً... لأنك... أنت لا تنتظر شيئاً، أليس كذلك؟  
كان مستاءً:

- كلا، ولكن ماذا... ماذا... ستخيلين؟  
 كانت قد أغمضت عينيها من جديد.  
 - لا أتخيل شيئاً، لقد أخبرتك بذلك: ليس لديّ أيّ شيء  
 أعطيه.

## 25

- لم تعد تعرف في أيّ يومٍ كانت، أهو السبت؟ أهو الأحد؟  
 لم تكن قد نامت هكذا منذ سنوات.  
 مرّ فيليبّيار عليها ليعرض عليها قطعة من الحساء.  
 - سأنهض. سأتي للوقوف معك في المطبخ...  
 - أنتِ متأكّدة؟  
 - نعم! في النهاية لستُ مصنوعة من السكر!  
 - اتّفقنا، ولكن لا تأتي إلى المطبخ، فالجو فيه باردٌ جداً.  
 انتظريني في الصالون الأزرق الصغير...  
 - عفواً؟  
 - آه، نعم، هذا صحيح... يا لحماقتي! لم يعد أزرق  
 اللون الآن لأنّه فارغ... الغرفة المشرفة على الممرّ، هل رأيتِ؟  
 - هناك حيث توجد أريكة؟  
 - أوه، أريكة، هذا مبالغٌ فيه... فرانك هو الذي عثر عليها  
 ذات مساء على الرصيف ورفعها مع أحد أصدقائه... إنّها قبيحة  
 جداً ولكنها مريحة، أعترف بذلك...  
 - أخبرني، يا فيليبّيار، ما هو هذا المكان بالضبط؟ في بيت



مَنْ نكون، هنا؟ ولماذا تعيش وكأنك في منزلٍ مملوكٍ بوضع اليد؟

- عفواً؟

- كما لو كنتَ مخيمًا؟

- أوه، هذه حكاية ميراثٍ دينيةٍ للأسف... مثلما نجدها في كلِّ مكان... حتى في أحسن العائلات، أنتِ تعلمين...  
بدا منزعجاً بحق.

- نحن هنا في بيت جدتي لأمي التي توفيت في السنة الماضية وبانتظار أن يسوّى أمر الإرث، طلب مني والدي المجيء والإقامة هنا، تجنّباً لـ... ماذا سمّيتها قبل قليل؟  
- «واضعو اليد»؟

- نعم، «واضعو اليد»! ولكن ليس هؤلاء الصبية الذين يشكّون الدبابيس في أنوفهم، كلا، وإنما رجالٌ أفضل كسوةٍ وأقلّ أناقةً بكثير: أبناء عمومتنا الجرمانيين...

- هل يطلّ أبناء عمومتكم على هذا المكان؟

- بل أعتقد أنهم قد صرفوا المال الذي ظنّوا أنّ الفقراء قد سحبوه! فاجتمع مجلسٌ من العائلة عند الكاتب العدل، كان من نتيجته تعييني بواباً، ناطوراً، وحارساً ليلياً. طبعاً، كان هناك بعض محاولات التخويف في البداية... فقد سُرق الكثير من الأثاث كما استطعت التأكد من ذلك، وفتحتُ غالباً الباب للحجّاب والبوابين، ولكن يبدو كلّ شيء وقد استعاد النظام الآن. الآن، الكاتب العدل والمحامون هم الذين عليهم تسوية هذه القضية المضنية...

- كم من الوقت ستبقى هنا؟

- لا أدري.

- وهل يوافق والداك على أن تستضيف أناساً مجهولين مثل

الطباخ ومثلي؟

- بالنسبة لك، أتصوّر أنّ لا داعي لأن يعلما بذلك... أمّا

بالنسبة لفرانك، فعلى العكس، لقد أراحهما وجوده معي... .

فهما يعلمان كم أنا مضغوط... ولكن، حسناً، فهما لا يعلمان،

ولحسن الحظ، شيئاً عن وضعه. يعتقدان بأنني التقيتُ معه عن

طريق الخورنية!

ضحك.

- أكذبتَ عليهما؟

- لنقل إنني كنتُ أقله... مراوغاً معهما... .

كانت قد هزلت كثيراً بحيث تستطيع أن تدرّس أطراف

قميصها تحت بنطالها الجينز من دون أن تحلّ أزراره.

كانت أشبه بشبح. كسّرت في المرأة الكبيرة لغرفتها لتثبت

لنفسها العكس، عقدت وشاحها الحريري حول رقبتها، وارتدت

سترتها وجازفت في تلك المتاهة الهوسمانية<sup>(1)</sup> التي لا تصدّق.

انتهى بها المطاف بأن وجدت الأريكة الشنيعة الغائرة

وقامت بجولة في المكان لتكتشف الأشجار المغطاة بطبقة رقيقة

من الجليد في شان مارس.

---

(1) نسبة إلى أسلوب البارون جورج أوجين هوسمان (1809-1891)، محافظ

السين بين أعوام 1853-1869، الذي قام بإعداد وإدارة برنامج إعادة بناء

العاصمة باريس بناءً على طلب نابليون الثالث في عهد الإمبراطورية الثانية.

(المترجم)

بينما كانت تعود، بهدوء، ولا يزال ذهنها مكدراً ويدها في جيبها، انتفضت ولم تستطع الامتناع عن إطلاق صرخة قصيرة. كان رجلٌ طويل القامة، مرتدياً بالكامل البسة من الجلد الأسود وينتعل جزمة ويعتمر قبعة، يقف خلفها تماماً. قالت أخيراً:

- أوه، مرحباً... ..

لم يجب الآخر بشيء ودار على أعقابهِ.

نزع قبّعتهُ في الممرّ ودخل إلى المطبخ وهو يحكّ رأسه:

- هيه يا فيلو، قل لي، من هذا اللوطي في الصالون؟ أهو

أحد أصحابك الكشافة أم ماذا؟

- عفواً؟

- اللوطي الواقف خلف أريكتي... ..

فقد فيليبيار، الذي كان متوتراً بسبب فداحة مصيبته

المطبخية، قليلاً من لا مبالاته الأرسقراطية، وقال مصححاً:

- اللوطي، كما تقول، يُدعى كاميل، إنها صديقتي وأرجوك

أن تتصرّف بتهذيب لأنني أنوي أن أستضيفها هنا لبعض

الوقت... ..

- أوه، لا بأس... .. لا تفعل هكذا... .. أقلت إنّها فتاة؟ هل

تقصد الماكر نفسه؟ النحيل الضامر الأقرع؟

- هي فعلاً فتاة... ..

- أنت متأكد؟

أغمض فيليبيار عينيه.

- أهذا هو، صاحبك؟ أقصد أهذه هي؟ أخبرني إذاً، ماذا أعددت لها، هنا؟ كرنب مخلّل؟
- تخيّل، هذا حساء... ..
- هذا؟ حساء؟
- تماماً. حساء الكرّاث والبطاطس من عند لبيغ... ..
- هذه قذارة. فضلاً عن ذلك، لقد تركتها تحترق، ستكون كريهة ومنفرة... .. ماذا أضفت إليها؟
- أضاف هذا السؤال الأخير فزعاً وهو يرفع الغطاء عن القدر.
- أوه... .. جبن من ماركة البقرة الضاحكة وقطع من لبّ الخبز... ..
- لماذا فعلت ذلك؟
- إنّه الطيب... .. هو الذي طلب منّي إنعاشها... ..
- حسناً، ليتها تنتعش بهذه العصيدة الكريهة! في رأيي، ستقتلها بدل ذلك، نعم... ..
- عند هذا، أخذ علبة جعة من الثلاجة، وأغلق على نفسه باب غرفته.
- حينما عاد فيليبيار إلى محميته، كانت لا تزال قلقة وحائرة بعض الشيء:
- أهذا هو؟
- غمغم فيليبيار وهو يضع الصينية الكبيرة على صندوق من الكرتون:
- نعم.

- ألا ينزع أبداً قبعته؟

- بلى، ولكن حينما يعود مساء الاثنين، يكون دائماً رديئاً جداً... عموماً، أتحاشى مصادفته في ذلك اليوم...

- أهذا لأنّ لديه الكثير من العمل؟

- كلا، فهو لا يعمل يوم الاثنين... لا أدري ماذا يفعل... يغادر في الصباح الباكر جداً ويعود سيئ الخلق... أعتقد أنّها مشاكل عائلية... تفضلي، اسكبي لنفسك الحساء وهو ساخن...

- أوه... ما هذا؟

- حساء.

قالت كاميل وهي تحاول أن تحرك العصيدة الغريبة:

- آه؟

- حساء على طريقيتي... نوعٌ من حساء الخضر الروسي إن شئت...

ردّدت ضاحكة:

- آاه... ممتاز... ..

مرّة أخرى، كان عصبياً.



## القسم الثاني





# 1

- هل لديك دقيقتان من الوقت؟ يجب أن نتحدّث مع بعضنا ...

كان فيليبير يتناول دائماً شوكولا على الفطور وكانت متعته هي إطفاء الغاز تماماً قبل أن يطفح الحليب. وكان ذلك، علاوة على كونه طقساً وهوساً، انتصاره اليومي. مفخرته ونصره غير المرئي. كانت فورة الحليب تخدم فيبدأ النهار: إنه يسيطر على الوضع.

ولكن في ذاك الصباح، وإذا كان مشتت الذهن، بل ومنزعجاً من اللهجة التهجمية لشريكه في السكن، أدار المفتاح الخاطيء. فار الحليب وطفغ رائحة كريهة فجأةً على جوّ الغرفة.

- عفواً؟

- قلت: يجب أن نتحدّث مع بعضنا.

أجاب فيليبير بهدوء وهو يضع غلاية الحليب المبلّلة:

- فلتحدّث، أنا أصغي إليك ...

- كم من الوقت ستبقى هذه هنا؟

- العفو، ماذا قلت؟

- أوه، دعنا من خبثك؟ فتاتك؟ كم من الوقت ستبقى هنا؟

- ستبقى هنا قدر ما تشاء...

- أنت مغرم بها، أليس كذلك؟

- كلا.

- كاذب. أرى جيداً مناورتك الصغيرة... أساليبك الجميلة

ومظاهرك الإقطاعية وكلّ هذه الأمور...

- أتغار؟

- سحقاً، كلا! لا ينقصني سوى هذا! أن أغار من كومة

عظام؟ هيه أنت، ليس مكتوباً هنا، القس بيير!

قال ذلك وهو يشير إلى جيبه.

- لا تغار مني، بل منها. ربّما تشعر بأنك محاصرٌ هنا قليلاً

وحريرتك محجوزة؟

- إذأ، هنا، على الفور... العبارات الكبيرة... كلما تفتح

فمك، وكأنّ كلماتك لا بدّ أن تبقى مكتوبة في مكانٍ ما بحيث

يكون لها وقعٌ حسنٌ فيه...

...

- مهلاً، أنا أعلم أنّك في بيتك، أعلم ذلك جيداً. هيا...

ليست هذه هي المشكلة. تدعو منّ تشاء، وتستضيف منّ تشاء،

بل وتقيم مآدب خيرية إن كان هذا يلائمك، ولكن سحقاً، أنا لا

أعلم... كُنّا نشكّل فريقاً صغيراً متفاهماً نحن الاثنين، أليس

كذلك؟

- أهذا ما تراه؟

- نعم هذا ما أراه، صحيحٌ أنا لي طبعي وأنت لك كلّ  
وساوسك الواهية، ومهاراتك، وقلقلك الاستحواذية القهرية،  
ولكن على العموم، كانت الأمور تسير سيراً حسناً حتى اليوم...  
- ولماذا تتغيّر الأمور؟

- بففف... يبدو جيداً أنك لا تعرف الفتيات، أنت...  
احذر، لا أقول هذا لكي أجرحك، إيه؟ ولكن هذا صحيح،  
ماذا... تضع فتاةً في مكانٍ ما ويتحوّل ذلك فوراً إلى  
ماخور... يتعقّد كلّ شيء، ويصبح كلّ شيء مزعجاً بل وحتى  
أوفى الأصدقاء ينتهون بالحرّد، أنت تعلم... لماذا تسخر من  
هذا؟

- لأنك تعبّر عن رأيك مثل... مثل راعي بقر... لم أكن  
أعلم أنني كنت... كنتُ صديقك.

- حسناً، سأتجاوز الموضوع. فقط أعتقد أنّه كان بوسعك  
أن تحدّثني في الأمر مسبقاً، هذا كلّ شيء.

- كنتُ سأحدّثك في الأمر.

- متى؟

- الآن، هنا، مع كوب الحليب، لو أنك أتحت لي الفرصة  
لإعداده...

- أعتذر... أقصد لا، سحفاً، لا يمكنني الاعتذار  
بمفردتي، أهذا صحيح؟

- تماماً.

- هل ستذهب إلى العمل؟

- نعم.

- أنا أيضاً، هيّا بنا. سأشتري لك شوكولا في الأسفل...

بينما كانا في الباحة، قال فرانك آخر ما لديه:

- فضلاً عن ذلك، نحن لا نعرف مَنْ تكون هذه... بل ولا

نعرف من أين جاءت هذه الفتاة...

- سأريك من أين جاءت... اتبعني.

- لا تعتمد عليّ لكي أصعد الطوابق السبعة مشياً على

القدمين...

- بلى. سأعتمد عليك بالضبط. اتبعني.

منذ أن تعارفا، كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب فيها

فيليبير شيئاً منه. تدمّر قدر استطاعته وتبعه على درج الخدمة.

- اللعنة، كم الجوّ بارد في الداخل!

- هذا لا شيء... انتظر إلى أن نصبح تحت الأسقف...

حلّ فيليبير القفل ودفّع الباب.

ظلّ فرانك صامتاً لبضع ثوانٍ.

- أهنا تسكن؟

- نعم.

- أنت متأكّد من ذلك؟

- تعال، سأريك شيئاً آخر...

قاده إلى نهاية الممرّ، ركل باباً آخر مخلّعاً وأضاف:

- هذا حمّامها... في الأسفل، المرحاض، وفوقه،

الدوش... اعترف بأنّ هذا شيءٌ مبتكر...

نزلا السلالم بصمت.

- لم يستأنف فرانك الكلام إلا بعد فنجانة الثالث من القهوة:  
- حسناً، أمرٌ واحدٌ فقط إذاً... اشرح لها وضعي، كيف  
سأنام بعد الظهر وكلّ هذه الأمور...  
- نعم، سوف أخبرها. سنخبرها نحن الاثنان. ولكن في  
رأبي، سوف لن يطرح هذا الأمر مشكلة لأنها ستنام هي  
أيضاً...  
- لماذا؟  
- إنها تعمل ليلاً.  
- ماذا تفعل؟  
- أعمال منزلية.  
- عفواً؟  
- إنها مديرة منزل...  
- أنت متأكد؟  
- ولماذا ستكذب عليّ؟  
- لا أدري، أنا... هذا جائز، قد تكون فتاة تُطلب  
للمنادمة هاتفياً...  
- لكنت أفضل... أفضل حالاً، أليس كذلك؟  
- نعم، أنت محقّ... أنت، لست مغفلاً!  
أضاف ذلك وهو يصفع بقوة ظهره.  
- ان... انتبه؛ لقد أوقعت فطيرتي، غب... غبي... انظر،  
لقد انتزعت...  
- لماذا؟

لم يهتمّ فرانك، كان يقرأ عناوين صحيفة لوباريزيان  
الموضوعة على الطاولة.

تناقشا معاً.

- أخبرني!

- ماذا؟

- أليست لدى هذه الفتاة عائلة؟

أجاب فيليبير وهو يعقد وشاحه:

- أنت تعرف، لطالما تحاشيتُ طرح هذا السؤال عليك... ..

رفع الآخر بصره لبيتسم له.

لدى الوصول إلى أفران المطبخ، طلب من مساعده أن

يسكب له حساء الأضلاع.

- هيه أنت؟

- ماذا؟

- حساءٌ لذيذ، إيه؟

## 2

قرّرت كاميل ألا تعود تأخذ نصف القرص من الليكسوميل  
الذي وصفه لها الطبيب كلّ مساء. من جهة، لم تعد تطيق تلك  
الحالة من شبه الغيبوبة التي تجد نفسها فيها، ومن جهة أخرى،  
لم تكن تريد أن تدمن عليه. طيلة فترة طفولتها، شاهدت والدتها  
في حالة هستيرية من فكرة النوم من دون تناول أقراصها وظلّت  
تلك النوبات تراودها باستمرار.

كانت قد خرجت من قيلولة طويلة، ولم تكن لديها أدنى فكرة عن الوقت ولا كم الساعة ولكنها قرّرت أن تستيقظ وتتحرّك وترتدي ثيابها لتصعد أخيراً إلى غرفتها وترى إن كانت مستعدة لأن تستأنف حياتها المتواضعة في الحالة التي تركتها عند مغادرتها.

لدى عبورها المطبخ لكي تصل إلى دَرَج الخادِمات، رأت كلمة مكتوبة مدسوسة تحت قارورة فيها سائلٌ مصفّر اللون. يُسخّن في طنجرة، ولكن لا تدعوه يغلي. تُضاف العجينة حينما يبدأ السائل بالارتجاج ويترك الخليط يُطهى لأربع دقائق وهو يُحرّك بهدوء.

لم تكن الكتابة بخَط فيليبير.

كان قفل بابها قد انثزع والقليل الذي كانت تملكه على هذه الأرض، آخر متعلقاتها، مملكتها الصغيرة، كان كلّ شيء قد أُتلف.

هرعت بعفوية نحو الحقيبة الحمراء الصغيرة التي أفرغت محتوياتها على الأرض. كلا، كان الوضع سليماً، لم يأخذوا أيّ شيء وكانت أوراق رسوماتها لا تزال موجودة...

ملوية الفم ومعتصرة القلب، أخذت ترتّب المكان بعض الشيء لترى ما كان ناقصاً...

لم يكن ينقصها أيّ شيء والسبب هو أنّها لم تكن تملك شيئاً. أجل، كانت تملك مذباغ - منبّه... ها هو... كلّ هذه المجزرة كانت في سبيل عملية تصليحٍ أرغمتها على شراء خمسين كرة من صينيّ...

لملمت ثيابها وكدّستها في صندوقٍ من الكرتون وانحنت لكي تمسك بحقيبتها وتغادر من دون عودة. انتظرت إلى أن تصبح على الدرج لكي تخفّف من انفعالها بعض الشيء.

حينما وصلت إلى أمام المكتب، تمخّطت ووضعت كلّ متاعها على الدرج وجلست على درجة لتلفّ سيجارة. كانت السيجارة الأولى منذ وقت طويل... انطفأت إنارة الدرج، ولكن لم يكن ذلك أمراً خطيراً، بل على العكس.

على العكس، غمغمت، على العكس...

فكّرت في تلك النظرية الضبابية التي تزعم بأنّه طالما يغرق المرء لا يسعه أن يحاول القيام بأيّ شيء وأنّ عليه أن ينتظر ملامسة القاع لكي يضرب تلك الضربة الصغيرة من كعبه التي، وحدها، تتيح له الصعود من جديد إلى سطح الماء... حسناً.

- كان الأمر على ما يرام، هنا، أليس كذلك؟

ألقت نظرةً على صندوقها الكرتون، ومرّرت يدها على وجهها ذي التقاطيع البارزة وتنحّت جانباً من طريق دويبة كانت تجري بين شقين.

- أوه... طمئني... هل كان الأمر على ما يرام، هناك؟

حينما دخلت إلى المطبخ، كان هو من قفز:

- آه! أنتِ هنا؟ اعتقدتُ أنّك قد نمتِ...

- مرحباً.

- ليستافيه فرانك.



- كاميل.
- أ... أ رأيتِ كلمتي؟
- نعم، ولكنني...
- أتقلين أغراضك؟ أحتاجين لمساعدة؟
- كلا، أنا... أنا، والحق يُقال، لا أملك أكثر من هذا... لقد تمّ السطو على منزلي.
- سحفاً.
- نعم، كما قلت... لا أرى كلمات أخرى، هناك... حسناً، سأذهب وأنام ثانية، هناك، لأنني دائخة و...
- هل تريدان أن أعدّ لك المرق؟
- عفواً؟
- المرق؟
- أيّ مرق؟
- قال بنزق:
- الحساء!
- أوه عفواً... كلا. شكراً. قبل كلّ شيء، سأنام لبعض الوقت...

صرخ فيها بينما أصبحت في الممرّ:

- هيه أنتِ! إن كنتِ دائخة فهذا لأنك لا تتناولين ما يكفي من الطعام!

تنهّدت. الدبلوماسية، الدبلوماسية... بدا ذاك الشخص لطيفاً، وكان الأولى بها ألا تفوّت المشهد الأوّل. فعادت إلى المطبخ وجلست إلى طرف الطاولة.

- أنت محقّ.

تمتم. كان عليها أن تعلم... بالطبع كان محقّقاً...  
وسحقاً... سوف يتأخّر الآن...

أدار لها ظهره وراح يستعجل في تناول الطعام.

سكب محتوى الطنجرة في صحن عميق وأخرج من الثلاجة  
قطعة من سوبالان فتحها بلطف. كان شيئاً أخضر اللون منشوراً  
فوق الحساء الذي كان البخار يتصاعد منه.

- ما هذا؟

- كزبرة.

- وهذه الشرائط الصغيرة من المعكرون، ماذا تسمونها؟

- دُرر اليابان.

- أوه، أهذا صحيح؟ اسمها جميل...

أخذ بلوزته وشفق باب المدخل وهو يهزّ رأسه:

- أوه، أهذا صحيح؟ اسمها جميل...

فتاة في غاية البلاهة.

### 3

تنهّدت كاميل وأمسكت بالصحن تلقائياً وهي تفكّر بسارقها.  
من وجه هذه الضربة؟ شبح الممرّ؟ زائرٌ شارد؟ أيكون قد مرّ من  
السطوح؟ هل سيعود؟ هل كان عليها أن تتحدّث في الأمر مع  
بيير؟

منعتها الرائحة، أو بالأحرى الأبخرة المتصاعدة من

الحساء، من التفكير في الأمر لوقت أطول. هممم، هذا مذهل وكادت أن تضع فوطتها على رأسها لتقوم بعملية استنشاق. ولكن ماذا كان يوجد في داخله؟ كان لون الحساء متميّزاً. كان ساخناً، دسماً، مسمرّاً مائلاً إلى اللون الذهبي الشبيه بصفرة الكدُميوم... كان منظره بالفقاعات نصف الشفافة والسنان الزمرّدية للعشب المثورة عليه ممتعاً للنظر... ظلّت لعدّة ثوانٍ واقفة بإجلالٍ أمام الصحن والملعقة معلّقة في الهواء، ثمّ شربت أوّل جرعة من الحساء بكلّ هدوء لأنّه كان ساخناً جداً.

وجدت نفسها في نفس حالة مارسيل بروست: «مصغية إلى ما كان يحدث من أمرٍ غير مألوف في داخلها»؛ وأكملت صحنها بورع وهي تغمض عينيها بين ملعقة وأخرى.

أ يكون ذلك ببساطة لأنها كانت تتصوّر جوعاً من دون أن تدري ذلك، أو ربّما لأنها كانت ترغب نفسها على ابتلاع أنواع الحساء المعلّبة التي كان يقدّمها لها فيليبير منذ ثلاثة أيام وهي ممتعضة، أو ربّما أيضاً لأنها قلّت من التدخين، ولكن على أيّ حال، كان هناك أمرٌ مؤكّد: في حياتها، لم تستمتع بهذا القدر بتناول الطعام بمفردها. نهضت لتذهب وترى إن كان قد بقي شيءٌ من الحساء في قاع الطنجرة. كلاً للأسف... رفعت صحنها إلى فمها لثلاثا تترك فيه قطرة واحدة، تلمّظت، وغسلت الصحن والملعقة وأمسكت بالعلبة الفارغة وكتبت عليها «لذيذٌ جداً!» وهي ترسم بعض الفقاعات على كلمة فرانك، ثمّ اندست في السرير ووضعت يدها على بطنها الممدودة جيّداً.

شكراً أيّها اليسوع الصغير.

انقضت نهاية نقاهتها بسرعة. لم تر قط فرانك، ولكنها  
عرفت متى يكون موجوداً: أبواب مصفقة، جهاز التسجيل،  
التلفاز، أحاديث حميمة على الهاتف، ضحكات مجلجلة وشتائم  
مقدعة، لم يكن أي شيء من كل هذا طبيعياً، كانت تشعر به.  
كان يثور ويترك حياته تدوي في الأركان الأربعة للشقة مثل كلب  
يتبول في كل مكان لكي يحدّد مكان تواجده. في بعض الأحيان،  
راودتها الرغبة في الصعود إلى غرفتها لتستعيد استقلاليتها ولا  
تعود تدين لأحدٍ بشيء. وأحياناً أخرى، كانت ترفض الفكرة.  
كانت ترتعد لمجرد فكرة أن تنام من جديد على الأرض وأن  
تصعد الطوابق السبعة متشبّثة بالسلم لثلاثاً تقع.

كان الموقف معقّداً.

لم تعد تعرف أين كان مكانها ثم إنها أحبّت كثيراً فيليبير  
أيضاً... لماذا ينبغي عليها دائماً أن تجلد ذاتها وتحظّم رباطها  
وهي تكزّ على أسنانها؟ أم من أجل استقلالها؟ أنتِ تتحدّثين عن  
غزو... لم يكن لديها سوى هذه الكلمة على شفيتها منذ  
سنوات، ثم ماذا في النهاية؟ إلى أين تريد الوصول؟ إلى ذلك  
الكوخ لتمضي فترات ما بعد الظهيرة وهي تدخن سيجارة تلو  
الأخرى مجترّة مصيرها؟ كان ذلك مؤثراً. ستبلغ السابعة  
والعشرين من عمرها ولم تحتفظ بشيء مفيد حتى الآن. لا  
أصدقاء ولا ذكريات ولا أي سبب لأدنى تعاطفٍ مع ذاتها. ما  
الذي حدث؟ لماذا لم تنجح في ضمّ يديها وفي الاحتفاظ بشيئين  
أو ثلاثة أشياء على شيء من القيمة بين راحتيها؟ لماذا؟

كانت حالمة. كانت مرتاحة. وعندما جاء ذاك القرد الأميركي الكبير وجعلها تقرأ، حينما أغلقت الباب بهدوء ورفعت أبصارها إلى السماء لأنّ اللصّ الآخر كان يصغي إلى موسيقى «الزولو» خاصتها، ابتسمت له ونجت للحظة من عين العاصفة. كانت قد استأنفت الرسم.

هكذا.

لا لشيء. لذاتها. للمتعة فقط.

أمسكت بكرّاسٍ جديد. الكرّاس الأخير. طوّعته وشرعت في رسم كلّ ما يحيط بها: المدفأة، ونقوش السجاد، ورتاج النافذة، وابتسامات الثنائي سامي وسكويبدو، والإطارات، واللوحات، والجذع المنقوش للمرأة والمعطف الطويل القاسي للرجل. رسمت طبيعة صامتة لثيابها مع إيزيم حزامها المسترسل على الأرض، والغيوم، وأثر دخان طائرة عابرة، وقمم الأشجار خلف الزخارف الحديد للشرفة، وصورة شخصية لها في السرير. بسبب بقع على المرأة وبسبب شعرها القصير، كانت تشبه صبيّاً مصاباً بجذري الماء...

رسمت من جديد كما كانت تتنفس. كانت تقلّب الصفحات من دون تفكير وتتوقّف فقط لكي تصبّ القليل من الحبر الصيني في كوبٍ صغير وتعيد تعبئة مضخّة قلمها. لم تشعر بنفسها بهذا القدر من الهدوء والحيوية منذ سنوات...

ولكن، ما كانت تحبّه أكثر من أيّ شيءٍ آخر، هي مواقف فيليبير. كان مأخوذاً للغاية بقصصها، كان وجهه يصبح فجأةً معبراً جداً، ومتقدماً جداً أو حزيناً جداً (آه! هذه المسكينة ماري أنطوانيت...) بحيث كانت تطلب منه الإذن لكي ترسمه.

طبعاً، تمتم قليلاً بشأن الشكل ثم سرعان ما نسي صخب الريشة التي كانت تجري على الورق.  
أحياناً، كان المقطع يقول:

- ولكنّ مدام ايتاناب لم تكن عاشقة من نوع مدام شاتوبريان، لم يعد الحبّ الجسماني يكفيها قط. إنها تحلم قبل كلّ شيء بالحصول على الهبات لها ولعائلتها. والحال أنّ لديها ثلاثين أختاً وأختاً... شرعت في العمل، بشجاعة...

«إنّها بارعة، وأجادت الاستفادة من كلّ لحظات التوقّف التي تركتها لها الحاجة إلى الاستراحة بين عناقين، لتنتزع من الملك، المنتشي واللاهث، كلّ التعيينات أو الترقيات التي تريدها.

وفي النهاية، تقلّد جميع آل بيسلو وظائف مهمة وعموماً كنسية لأنّ عشيقته الملك كانت «متديّنة»...

«أنطوان سيغان، خالها، أصبح قسّ فلوري - سور - لوار، أسقف أورليان، كاردينالاً، وأخيراً مطران تولوز. شارل دو بيسلو، شقيقها الثاني، حصل على دير بورغوي وأسقفية كوندوم...».

رفع رأسه:

- أسقفية كوندوم... اعترفي أنّ هذا مضحك...

وأسرعت كاميل إلى رسم تلك الابتسامة، ذلك الانبهار المسليّ لصبيّ كان يقلّب صفحات تاريخ فرنسا كما يتصفّح آخرون مجلّة عادية.

أو كان يقول:

- ... وإذ أصبحت السجون غير كافية، فتح كاربيه،

المستبدّ المطلق السلطة، والمحاط بمساعدين جديرين به، سجوناً جديدة واستولى على سفنٍ في الميناء. وسرعان ما فتكت الحمى الصفراء بآلاف الأشخاص المعتقلين في ظروفٍ فظيعة. وإذ لم تعمل المقصلة بالسرعة الكافية، أمر الحاكم الطاغية بإعدام الآلاف من السجناء رمياً بالرصاص وضّم إلى فصائل الإعدام «كتيبة دافنين». ثم ولأنّ السجناء ظلّوا يتوافدون على المدينة، اخترع أحواض الإغراق.

من جهته، كتب العميد فيسترمان: «لم تعد هناك مقاطعة فاندي، مواطنون جمهوريون. لقد ماتت، تحت سيفنا الحرّ، بنسائها وأطفالها. لقد دفنتها المستنقعات في غابات سافناي. بحسب الأوامر التي أمرتني بها، قمْتُ بسحق الأطفال تحت حوافر الخيل ونكَلْتُ بالنساء اللواتي على الأقل سوف لن ينجبن بعد الآن قطاع طرق. لم أترك سجيناً يعتب عليّ».

ولم يعد هناك أيّ شيء يرسم سوى ظلّ على وجهٍ مضطرب.

- أترسمين أم تصغين إليّ؟

- أصغي إليك وأرسم...

- فيسترمان ذاك... هذا الوحش الذي خدم بلده الجميل

الجديد تماماً بكثيرٍ من الحماسة، تخيلني إذاً أنّه سيُعتقل مع دانتون بعد ذلك ببضعة أشهر وسيُقطع رأسه معه...

- لماذا؟

- اتهم بالتخاذل... كان رجلاً بارداً...

في أحيانٍ أخرى، كان يطلب الإذن للجلوس في كرسيّ

منجّد بقرب السرير وكان الاثنان يقرآن بصمت.

- فيليبير؟

- اممم... .

- بطاقات البريد؟

- نعم... .

- هل سيستغرق هذا وقتاً طويلاً؟

- عفواً؟

- لماذا لا تجعل منها مهنتك؟ لماذا لا تحاول أن تصبح مؤرخاً أو أستاذاً؟ سيكون لك الحق في الغوص داخل كل هذه الكتب خلال ساعات عملك، بل وستقبض أجراً على القيام بذلك!

وضع كتابه على المخمل الرث لركبتيه العظمتين ورفع نظارته ليفرك عينيه:

- لقد حاولت... . لدي إجازة في التاريخ وتقدمت ثلاث مرّات لمسابقة الدخول إلى مدرسة الشرائع، ولكنني رسبت في كلّ دورة... .

- ألم تكن مؤهلاً؟

احمرّ خجلاً:

- أوه بلى! أقصد... . أعتقد ذلك بتواضع، ولكنني... . لم أستطع قط تجاوز امتحان... . أنا مغمومٌ جداً... . في كلّ مرّة، أفقد النوم، والرؤية، وشعري، بل وأسناني! وكل سُبلي. أقرأ الموضوعات وأعرف الإجابات ولكنني أعجز عن كتابة سطر. أقف مذهولاً أمام ورقة الاختبار... .



- ولكنك حصلت على الشهادة الثانوية؟ وإجازتك الجامعية؟
- نعم، ولكن بأيّ ثمن... وليس من المرّة الأولى أبداً... ومن ثمّ كان ذلك سهلاً بالفعل في نهاية المطاف... نلتُ إجازتي الجامعية من دون أن أضع قدمي قطّ في جامعة السوربون، ومن دون أن أذهب للاستماع إلى المحاضرات العظيمة لكبار الأساتذة الذين كنتُ معجباً بهم والذين لم تكن لهم أيّ علاقة ببرنامجي... .
- كم كان عمرك؟
- ستّة وثلاثين عاماً.
- ولكن، بوجود إجازة، قد تستطيع أن تدرّس في هذه الفترة، أليس كذلك؟
- هل تتخيليني في قاعةٍ مع ثلاثين تلميذاً؟
- نعم.
- كلا. إنّ مجرد فكرة أن أتوجّه لجمهورٍ، مهما يكن محدوداً، تجعلني أتصّبب عرقاً بارداً. أنا... أعاني من مشكلة... مشكلة التكيف الاجتماعي، أعتقد... .
- ولكن في المدرسة؟ حينما كنتُ صغيراً؟!
- لم أذهب إلى المدرسة إلّا بدءاً من السادسة من عمري. وذهبت إلى مدرسة داخلية، وعلاوة على ذلك... كانت سنة فظيعة. كانت أسوأ سنوات عمري... وكأنه ألقى بي في بركة كبيرة وأنا لا أجيد السباحة... .
- وبالتالي؟

- وبالتالي لا شيء. ما زلتُ لا أجد السباحة.
- بالمعنى الحقيقي أم بالمعنى المجازي؟
- بالمعنيين، سيدي الجنرال.
- ألم يعلمك أحدُ السباحة؟
- كلا. لماذا أتعلّمها؟
- أوه... لكي تسبح...
- ثقافياً، نحن ننحدر من جيلٍ من جنود المشاة ومن جهة أخرى، أنتِ تعلمين...
- ما هذا الكلام؟ لا أحدثك عن شنّ معركة! أحدثك عن الذهاب إلى شاطئ البحر! ثم لماذا لم تذهب إلى المدرسة في عمرٍ أبكر؟
- كانت أمي هي التي تدرّسنا...
- مثل والدّة سان لويس؟
- تماماً.
- ماذا كانت تُدعى؟
- بلانش دو كاستيل.
- هكذا. ولماذا؟ كنتم تسكنون بعيداً جداً؟
- كانت هناك مدرسة قروية في القرية المجاورة، ولكنني لم أبقَ فيها إلا بضعة أيام...
- لماذا؟
- لأنها كانت قروية بحق...
- آه! دائماً حكاية رجال الشرطة هذه، هذا صحيح؟

- هذا صحيح ...

- ولكن كان ذلك منذ قرنين! لقد تطوّرت الأمور منذ ذلك الحين!

- تغيّرت، هذا أكيد. ولكن تطوّرت ... أنا ... لست متأكّداً من ذلك ...

...

- هل صدمتك؟

- كلا، كلا، أنا أحترم ... أحترم ...

- مبادئ؟

- نعم، إن شئت، إن كانت هذه الكلمة تناسبك، ولكن

ماذا تفعل إذاً لكي تعيش؟

- أبيع بطاقات بريد!

- هذا جنون ... هذا شيء من البلاهة ...

- أنت تعلمين، مقارنة مع والديّ، أنا متطوّر ... جداً، كما

تقولين، لقد أخذت مسافةً عنهما بعد كلّ حساب ...

- كيف هما والداك؟

- بحالٍ جيدة ...

- أهما متحجّران؟ محتطّان؟ غارقان في قارورة من

الفورمالين مع زهور الزنبق؟

- في الواقع هناك شيء من هذا ...

- طمئنّي، ألا يتنقلان على كرسيّ يحمله حمّالون؟!

- كلا، ولكن هذا لأنّهما لم يعودا يعثران على حمّالين!

- ماذا يفعلان؟

- عفواً؟

- ما هو عملهما؟

- من ملاكي الأراضي.

- فقط؟

- هذا عملٌ كثير، تعلمين...

- ولكن أوه... أنتم أثرياء جداً؟

- كلا. على الإطلاق. بل على العكس...

- هذه الحكاية لا تُصدّق... وكيف خرجت من المدرسة

الداخلية.

- بفضل غافيو.

- ومنَ يكون هذا؟

- هذا ليس شخصاً، وإنما قاموسٌ لاتيني ثقيل جداً دستته

في حقيبتني المدرسية واستخدمته وكأنه مقلاع. كنتُ أمسك

بحقيبتني من حمّالته وألّوح به... أصرخ بصوتٍ عالٍ! كنتُ

أهاجم العدو...

- فإذا؟

- إذا، ماذا؟

- واليوم؟

- حسناً عزيزتي، اليوم المسألة بسيطة جداً، أمام ناظريك

نسخة رائعة من Homo Dégénéraris أي الإنسان غير الجدير

بالحياة وسط المجتمع، المختل، الأخرق، والبالى تماماً.

كان يضحك.

- وماذا ستفعل؟

- لا أدري.

- ستراجع طبيباً نفسياً؟

- كلا، ولكنني التقيتُ فتاةً هناك حيث أعمل، فتاة مجنونة

مضحكة ومتعبة ألحت عليّ بمرافقتها ذات مساء إلى درسها في

المسرح. وقد تحرّرت عن كلّ الأطباء النفسيين المحتملين والذين

يمكن تخيلهم وأكدت لي أنّ هذا هو المسرح الأكثر فاعلية...

- حقاً؟

- هذا ما تقوله...

- ولكن عدا ذلك، لا تخرج أبداً؟ ليس لديك أصدقاء؟

ولا أيّ صلة بأحد؟ لا... لا صلات مع القرن الحادي

والعشرين؟

- كلا. ليس إلى هذا الحدّ... وأنت؟

## 5

استعادت الحياة إذاً مجراها. تحدّثت كاميل البرد عند هبوط

الليل، واستقلّت المترو بالاتجاه المعاكس للحشود المثابرة

وتأمّلت في كل تلك الوجوه المنهكة.

تلك الأمهات النائمت فاغرات الفم على زجاج النوافذ

المغطى بالبخار قبل الذهاب لجلب أبنائهن من مناطق شبيهة

بالسرادق في الدائرة السابعة. وأولئك السيّدات بمجوهراتهن

الرخيصة واللواتي يقلّبن بجفاء صفحات مجلّتهنّ تبلي سيت جور

(Télé 7 Jours) وهنّ يبّلن سبابتهنّ المدبّية، أولئك السادة بأحذيتهم الموكاسان الرشيقة وجواربهم الطريفة الذين يسلّطون الضوء على عروض مستبعدة وهم يلهثون بصخب. وأولئك الموظفون الشبان من ذوي البشرة الدهنية الذين يتلهون بتكسير القرמיד على أجهزة كومبيوتر محمولة مشتراة بالتقسيط...

وكلّ الآخرين، الذين ليس لديهم أيّ شيء يقومون به سوى التشبّث غريزياً بأعمدة الاستناد لكي لا يفقدوا توازنهم... الذين لا يرون شيئاً ولا أحداً. ولا إعلانات عيد الميلاد - أيام ذهبية، هدايا ذهبية، سلمون بلا مقابل وكبد إوزّ بأسعار الجملة -، لا صحيفة جارهم، ولا الرعيد الآخر بيده الممدودة وأنيه الأخرنّ المبتذل، ولا حتى تلك الشابة الجالسة قبالتهم تماماً، المنهمكة في رسم نظراتهم الكثبية وثنايا معاطفهم الرمادية...

ومن ثمّ، تبادلت كلمتين أو ثلاث كلمات عادية مع ناطور العمارة، وبدّلت ثيابها ممسكة بعربتها، ارتدت بنظراً دافئاً عادياً وبلوزة من النيلون الفيروزي مكتوبٌ عليها محترفون في خدمتكم وتدقّات شيئاً فشيئاً وهي تنشط كمتفانية قبل أن تأخذ من جديد جرعة من البرد، وعددأ لا يُحصى من السجائر والمetro الأخير.

حينما لمحتها، دسّت جوزي الرائعة قبضتها عميقاً في جيبها ورمتها بابتسامة هازئة رقيقة.

قالت متدمّرة:

- نحيلة جداً... ها هنا شبّح... لقد خسرتُ عشرة

يورو...

- عفواً؟

- رهانٌ مع الفتيات... اعتقدتُ أنك لن تعودى...

- لماذا؟

- لا أدري، شيءٌ ما شعرتُ به هكذا... ولكن حسناً، لا مشكلة، سوف أدفع، إذاً! هيا، هذا ليس كل شيء، ولكن يجب الذهاب إلى هناك. مع هذا الطقس الرديء، يجعلوننا نفر من كل شيء. هذا ما يجعلنا نتساءل إن تعلم أولئك الناس في حياتهم أن يقدموا لأنفسهم حصيراً... أرني هذا، أرأيت البهو؟

كانت مامادو تجر جر قدميها:

- أوه، لقد نمتِ هذا الأسبوع مثل طفلٍ رضيعٍ بدين، أهذا صحيح؟

- كيف عرفتِ؟

- بسبب شعرك. لقد نما بسرعة كبيرة...

- أنتِ بخير؟ لا تبدين بصحة جيدة؟

- لا بأس، لا بأس...

- ألدكِ هموم؟

- أوه هموم... لدي أطفال مرضى، زوجٌ يقامر بأجره، وشقيقة زوجي تثير أعصابي، وجارٌ يتغوّط في المصعد، والهاتف مقطوع، ولكن عدا ذلك أنا بخير...

- لماذا فعل ذلك؟

- مَنْ؟

- الجار؟

- لا أعرف لماذا، ولكنني حدّرتَه وفي المرّة القادمة، سأطعمه

غائطه! يمكنكِ تصديقي في هذا! وهذا يجعلك تهزلين...

- وما بهم أطفالك؟

- أحدهم يسعل والآخر يعاني من التهابٍ معوي... حسناً، هيا... لنكف عن الحديث عن كل هذا لأنّ هذا يؤلمني جداً وحينما أتألم، لا أعود أصلح لأيّ شيء...

- وشقيقك؟ ألا يستطيع معالجتهم بكلّ تئامه؟

- والشعر؟ ألا تعتقدين بأنّه قد يراه رابحاً أيضاً؟ أوه، كلا،

لا تحدّثيني عن هذا الذي لا يصلح لشيء، هيا...

لا بدّ أنّ خنزير الطابق الخامس قد أغضب وكان مكتبه شبه مرتّب. رسمت كاميل ملاكاً في ظهره جناحان يخرجان من برّته وحوله هالة جميلة.

في الشقّة أيضاً، بدأ كلُّ يأخذ معالمه. تحوّلت حركات الضيق التي ظهرت في البداية، ورقصة الباليه المتعثرة تلك، وكلّ حركاتهما القلقة، إلى إيقاعٍ رزين وروتيني لعلاقتهما.

كانت كاميل تستيقظ في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح، ولكنها كانت تهيّأ دائماً لتكون في غرفتها نحو الساعة الثالثة حينما يعود فرانك. كان هذا الأخير يغادر ثانية نحو الساعة الخامسة والنصف ويصادف أحياناً فيليبير على الدرج. كانت تشرب معه كوب شاي أو تتناول عشاءً خفيفاً قبل أن تذهب وتعمل بدورها ولا تعود أبداً قبل الساعة الواحدة فجراً.

لم يكن فرانك ينام قط في تلك الساعة، كان يستمع إلى الموسيقى أو يشاهد التلفاز. وتنساب روائح العشب الفائحة من تحت باب غرفته. فتساءل كيف استطاع الحفاظ على هذا الإيقاع



لرجلٍ طائشٍ وسرعان ما تجد الجواب: لم يحافظ عليه.

فكان ذلك الإيقاع، حتماً، ينكسر أحياناً. فيطلق صرخةً وهو يفتح باب الثلاجة لأنّ الأطعمة غير مرتّبة أو غير مغلّفة جيّداً، فيضعها على الطاولة وهو يقلب إبريق الشاي وينعتهما بكلّ الألقاب:

- اللعنة! كم مرّة يجب أن أقول لكما؟ الزبدة، يجب وضعها في زبديّة لأنّها تلتقط كلّ الروائح! والجُبِن أيضاً! الفيلم الغذائي لم يُصوّر للكلاب، سحفاً! وهذا، ما هذا؟ خسّ؟ لماذا تركتّماه في كيسه البلاستيك؟ البلاستيك، يُفسد كلّ شيء! لقد قلت لك ذلك من قبل، يا فيليبير! أين كلّ العلب التي جلبتها لك ذاك اليوم؟ حسناً، وهذا؟ الليمون الحامض، هنا... ماذا يفعل في خانة البيض؟ إنّ ليمونة مخدوشة تهترئ أو تنقلب على صحن. ثمّ كان يغادر مع جعته وينتظر المجرمان انفجار الباب لكي يستأنفا مجرى حديثهما:

- ولكنها حقاً قالت: «إن لم يعد هناك خبز، أعطوهم فطائر الحلوى...».

- طبعاً لا... لم تلفظ قط حماقة كهذه... كانت امرأة ذكية جداً، تعلمين...

طبعاً، سيكونان قد وضعوا فنجانيهما متنهّدين وأجابها بأنّه كان غاضباً من صبيّ لا يأكل هنا أبداً ولا يستخدم هذا الجهاز إلا لتخزين صناديق البيرة... ولكن كلا، لا يستحقّ الأمر عناء ذلك.

لأنّه كان صيّاخاً، إذاً فليصح.

فليصح ...

ثم إنه لم يكن ينتظر سوى هذا. أدنى فرصة لكي ينقضّ عليهما. عليها هي بشكلٍ خاصّ. كان يضعها نصب عينيه ويغيطها كلما صادفها. عبثاً أمضت معظم وقتها في غرفتها، فقد كانا يحتكّان ببعضهما أحياناً فتتعرّض لمضايقاته التي كانت، بحسب مزاجها، إما تعكّر صفوها أو تنتزع منها ابتسامة خفيفة.

- هيه، أنتِ، ماذا هناك؟ لماذا تهزئين؟ منظري هو الذي لا يروق لكِ، أليس كذلك؟

- كلا، كلا. لا لشيء، لا لشيء...

وكانت تسارع للانتقال إلى أمرٍ آخر.

كانت تأخذ حذرهما في الغرف المشتركة. فترك ذلك المكان النظيف جداً كما ترغبون في رؤيته حين دخولكم إليه، وتحبس نفسها في الحمّام حينما يكون غائباً، وتخفي كلّ لوازم زينته، وتمسح طاولة المطبخ جيداً وتفرغ منفضته في كيس بلاستيك تحرص على عقده قبل وضعه في الحاوية، وتحاول أن تبدو رزينة قدر المستطاع، وتتساءل أخيراً إن كانت سوف لن تذهب أبكر مما هو متوقّع...

ربّما تبرد، لا يهمّ، ربّما لا تعود تصطدم بهذا المغفل، وهذا أفضل.

قدّم فيليبير اعتذاره:

- ولكن يا كا... كاميل... أنتِ جميلة... وأكثر ذكاءً بكثير من أن تد... تدعي نفسك تتأثرين بهذا... بهذا الرجل الضخم جداً، هيّا... أن... أنتِ فوق كلّ هذا في نهاية

- كلا بحق. أنا في نفس المستوى بالضبط. ولذلك، أتلقّى كل شيء في وجهي.

- كلا! بالطبع لا! لستما من طينة واحدة، في النهاية! هل سبق لكِ و... وشاهدتِ كتابته؟ هل سبق لكِ وسمعتِه يضحك وهو يصغي إلى بذاءات مقدّم البرامج الواهن ذاك؟ هل سبق لكِ ورأيتِه يقرأ غير النشرة المخصّصة للدراجات النارية المستعملة؟ مه... مهلاً، ولكن كأنّ عمر هذا الصبي سنتان على المستوى العقلي! ليس له في الأمر يد، المس... المسكين... أت... أتصوّر أنّه قد دخل إلى مطبخ وهو صغير جداً ولم يخرج منه أبداً منذ ذلك الحين... وبالتالي، ار... ارجعي... وكوني أكثر تسامحاً، أك... أكثر «بروداً» كما تقولين...

- ...

- هل تعلمين بماذا أجابتنني والدتي حينما تجرأت على أن أذكر - باز... بازراء - جزءاً يسيراً من الأهوال التي تعرّضتُ لها من قبل رفيقي الصغير في الغرفة؟  
- كلا.

- «اعلم، يا بنيّ، أنّ لعاب الضفدع لا يبلغ الحمامة البيضاء»، هذا ما قالته لي...  
- وهل خفّف عنك ذلك؟  
- إطلاقاً! على العكس!  
- جيّد، أنت ترى...

- نعم، ولكنك، لستِ كذلك. لم تعود في الثانية عشرة من عمرك، ومن ثمّ ليس من الوارد شرب بول سوقيّ بليد...  
...

- هل أرغموك على فعل ذلك؟

- للأسف...

- ثم نعم، أفهم أنّ الحمامة البيضاء، إيه...

- كما قلتِ، الحما... الحمامة البيضاء، لم تمرّ أبداً.

ثمّ مازحها وهو يشير إلى جوزة عنقه:

- من جهة أخرى، ما زلتُ أحسُّ به هنا.

- نعم... سوف نرى...

- ثمّ الحقيقة. إنّها مرّة وأنّ تعرفينها كما أعرفها: إنّها

غ... غيور. غيورٌ كنمر. ضعي نفسك في مكانه أيضاً... كانت

الشقّة له لوح... لوحه، يتجول فيها حينما يشاء وكيفما يشاء،

غالباً بالسروال الداخلي أو خلد... خلف فتاة حمقاء متيمّة. كان

بوسعه أن يصيح وأن يشتم وأن يتجسّأ على هواه. وكانت علاقتنا

تنحصر في بضعة أحاديث عملية حول حالة الصنابير أو خزين

ورق التواليت...

«لم أكن أخرج من غرفتي تقريباً أبداً وكنتُ أضع سدادات

قطنٍ في أذنيّ حينما أحتاج إلى التركيز. كان الملك، هنا... إلى

درجة أنّه لا بدّ قد شعر بأنّه في بيته... ثمّ فجأة، حضرت. ليس

عليه أن يسدّ فتحة بنطاله فحسب بل علاوة على ذلك عليه أن

يخضع لتواطئنا، يسمعنا نضحك أحياناً ويلتقط نتفاً من أحاديثنا

التي لا بدّ أنّه لا يفهم شيئاً منها... لا بدّ أنّ هذا صعب... صعبٌ

عليه، ألا تعتقدين ذلك؟

- لم أشعر بأنني شغلت هذا القدر من المكان...

- كلا، على العكس، أن... أنتِ حذرة جداً، ولكنك

تريدين أن... أن أخبرك... أعتقد أنّك تخدعيني...

قالت متعجبة:

- عجباً! أنا؟ أنا أخدعه؟ آمل أنك تمزح؟ لم أشعر قط  
بأنني بهذه السخافة...

- إله... إنه ليس مثقفاً، هذه حقيقة، ولكن هذا الشخص  
ليس غيبياً، وأنت لست من نفس نوع صديقاته الصغيرات، أنت  
تعلمين... هل صادفت إحداهن خلال وجودك هنا؟  
- كلا.

- إذاً، سوف ترين، هذا، هذا مذهش، حقاً... مهما  
يكن، أرجوك، كوني فوق العراك. افعلي ذلك من أجلي، يا  
كاميل...

- ولكنني سوف لن أبقى هنا لمدة طويلة، تعرف ذلك  
جيداً...

- ولا أنا. ولا هو، ولكن إلى ذلك الحين، لنحاول أن  
نعيش في حسن جوار... العالم مرعب كفاية من دوننا، أليس  
كذلك؟ ثم إنك تجع... تجعليني أتلعث حينما تتفوهين  
بحما... حماقات...

نهضت لكي تطفئ الغلاية.

- يبدو أنك لم تقتنعي...

- بلى، بلى، سأحاول. ولكن، حسناً، لست موهوبة جداً  
في علاقات القوّة... عموماً أستسلم قبل أن أبحث عن  
المبررات...

- لماذا؟

- لأنّ.
- لأنّ هذا أقلّ تعباً؟
- نعم.
- هذه ليست استراتيجية صحيحة، صدّ.. صدّقيني. على المدى الطويل، هذا سيدمركّ.
- لقد دمّرني هذا.
- بشأن الاستراتيجية، سأحضر مؤتمراً مثي.. مثيراً حول الفنّ العسكري لنابليون بونابرت في الأسبوع القادم، أتريدون أن ترافقيني؟
- كلا، ولكن هيا، تفضّل، أنا أصغي إليك: حدّثني عن نابليون..
- آه، هذا موضوع واسع.. أترغبين في شريحة من اللي.. الليمون؟
- مهلاً، يا ظريف! لم أعد ألمس الليمون! لم أعد ألمس شيئاً..
- تهدّدها بصمت:
- فو.. فو.. فوق العراك، قلّت ذلك.

## 6

ماوى الزمن المستعاد للعجزة، مكانٌ سيهلك فيه الجميع، كان ذلك فعلاً مقبولاً كاسم.. مهما يكن...

كان فرانك على مزاج سيئ. لم تعد جدّته توجّه له الكلام منذ أن عاشت هنا واضطرّ لأن يعصر دماغه لكي يجد أشياء

يرويهما لها. في المرّة الأولى، فوجئ فرانك وراقبا بعضهما ككليين من خزف طيلة فترة ما بعد الظهر... وفي النهاية، تسمّر أمام النافذة وعلّق بصوت مرتفع على ما يحدث في موقف السيارات: العجائز الذين يُنقلون في سيارات والذين يُنزلون منها والأزواج الذين يتشائمون والأطفال الذين يركضون بين السيارات، الصبي الذي تلقى صفة خفيفة والفتاة التي تبكي وسيارة بورش ذات السطح القابل للطي، وسيارة دوكاتي، وسيارة بي إم دبليو 5 الجديدة وحركة عربات الإسعاف المتواصلة جيئة وذهاباً. نهارٌ مثيرٌ حقاً.

كانت السيّدة كارمينو هي التي تكفلت بعملية نقل الجدة من المستشفى وقد وصلت بسهولة يوم الاثنين الأوّل من دون أن تشكّ للحظة في ما كان ينتظرها...

المكان أولاً... لأسبابٍ مالية، رجع إلى دار عامّة للعجزة بنيت على عجلٍ على تخوم المدينة بين أحد مطاعم سلسلة بوفالو غريل ومكبّ للنفايات الصناعية. منطقة تنظيم متّفق عليها، منطقة لا حول ولا قوّة لها، منطقة لها أولوية التمدين، قذارة. كتلة كبيرة من القذارة وضعت وسط مكانٍ ما. تاه ودار لأكثر من ساعة وسط المهاجع العملاقة وهو يبحث عن اسم شارع لم يكن موجوداً ويقف عند كلّ مستديرة في محاولة لحلّ طلاس مخططات غير مفهومة، وحينما وقف في النهاية ورفع قبّعته، كاد أن يُرْفَع عن الأرض بفعل ريح عاصفة. «كلا، ولكن، ما هذا الهذيان؟ منذ متى يُسكّن العجائز وسط التيارات الهوائية؟ لطالما سمعتُ أنّ الريح تنهش رؤوسهم، أنا... أوه اللعنة... أخبروني

أنّ هذا غير صحيح... أنّها ليست هنا... الرحمة... أخبروني  
أنني مخطئ... ..

كانت الحرارة لاهبة مهلكة، وحالما اقترب من غرفتها،  
شعر بأنّ حلقه يضيق، يضيق، يضيق إلى درجة أنّه احتاج إلى  
بضع دقائق ليتمكّن من التفوّه بكلمة. كلّ هؤلاء العجائز  
القبيحين، الحزانى، الموهنين، المتأوهين، النائحين، بضجيج  
أحذيتهم القديمة وأطقم أسنانهم الاصطناعية وصخب رشفهم  
للسوائل، ويطونهم الضخمة وأذرعهم الموميائية. هذا الذي في  
أنفه أنبوب، والآخر الذي يزقزق كالعصافير وحيداً في زاويته،  
وتلك، المنكمشة تماماً على نفسها على كرسيها المتحرك وكأنّها  
خارجة من نوبة تكلّز... تُشاهد حتى جوربيها وحفاضها... ..

وهذه الحرارة، اللعينة! لماذا لا يفتحون النوافذ أبداً؟  
لقتلهم على نحوٍ أسرع؟

حينما عاد في المرّة التالية، أبقى على قبّعته إلى أن وصل  
إلى الغرفة 87 لئلا يرى كلّ تلك المناظر، ولكنّ ممرّضة صدمته  
وأمرته برفعها مباشرةً لأنه يخيف نزلاءها.

لم تعد توجّه له جدّته الكلام، ولكنّها تنظر إليه لكي تتحدّاه  
وتشعره بالخجل: «إذا؟ أنتَ فخورٌ بنفسك، يا صغيري؟ أجنبي،  
أنتَ فخورٌ بنفسك؟»، هذا ما كانت تردّده عليه بصمت بينما كان  
يرفع الستائر ويلقي نظرة على دراجته.

كان شديد التوتر ويعجز عن النوم. ظلّ يجرّ الأريكة إلى  
جانب سريرها، ويبحث عن الكلمات، عن الجمل، عن  
الطرائف، عن الترهات ومن ثمّ، يقرّ بعجزه، ويدير التلفاز. لم



يكن ينظر إليها، كان ينظر إلى رقائق الساعة خلف رأسها ويعدّ عكسياً زمن بقائه معها: بعد ساعتين سأغادر، بعد ساعة سأغادر، بعد عشرين دقيقة...

استثنائياً، جاء يوم الأحد في ذلك الأسبوع، لأنّ بوتلان لم يكن بحاجة إلى خدماته. عبّر البهو كالإعصار، مكتفياً بهزّ كتفيه حينما اكتشف الديكور الجديد الصاخب جداً وكلّ أولئك العجائز المساكين المعتمرين لقبّعات مدبّية.

سأل السيّد التي استقلّت المصعد معه:

- ماذا يحدث، أهذا كرنفال؟

- يتمّ الإعداد لعرض صغير بمناسبة أعياد الميلاد... أنت حفيد السيّد ليستافيه، أليس كذلك؟

- نعم.

- جدّتك ليست متعاونة تماماً...

- حقاً؟

- كلا. هذا أقلّ ما يقال... إنها عنيدة جداً...

- كنتُ أعتقد بأنّها ليست هكذا إلّا معي. ظننتُ أنّها أكثر مرونةً معكم...

- أوه، إنّها لطيفة معنا. إنّها جوهرة. في لطفٍ مدهش. ولكن الأمور تسير بشكلٍ سيئٍ مع الآخرين... لا تريد أن تراهم وتفضّل ألا تأكل شيئاً. على أن تنزل إلى قاعة الطعام المشتركة...

- ماذا إذا؟ ألا تأكل؟

- بلى، لقد خضعنا لها... إنها تأكل في غرفتها...  
لأنها لم تكن تنتظره إلا في اليوم التالي، فوجئت ولم تحظ  
بفرصة ارتداء بزّة السيّدة العجوز المهانة. لمرة واحدة، لم تكن  
في سريرها، مستلقية بحالة سيئة ومستقيمة كوتد، بل كانت  
جالسة أمام النافذة تخيّط شيئاً ما.

- جدّتي؟

أف، ستكون قد أرادت أن تتخذ هيئتها البائسة ولكنها لم  
تستطع الامتناع عن أن تبتسم له.

- أتشاهدين المنظر الطبيعي؟

كادت أن تقول له الحقيقة: «أتسخر منّي؟ أيّ منظر؟ كلا.  
كنتُ أترقبك، يا عزيزي. أمضي أيامي بانتظارك... حتى حينما  
أعلم أنك سوف لن تأتي، أقف هنا. أقف دائماً هنا... أنت  
تعلم، تعرّفت الآن على ضجيج الدراجة النارية من بعيد وانتظرت  
أن ترفع قناعك لكي أندسّ في سريرى وأستقبلك...»، ولكنها  
عدلت عن ذلك واكتفت بالدمدمة.

جلس عند قدميها واتكأ على جهاز التدفئة.

- كيف حالك؟

- امممم.

- ماذا تفعلين؟

...

- هل أنتِ مستاءة منّي؟

...

ظلاً صامتين لأكثر من ربع ساعة، ثم حكّ رأسه، أغمض

عينه، تنهّد، وحاد عن مكانه قليلاً ليجد نفسه أمامها تماماً،  
وقال بصوتٍ رتيب:

- اسمعيني، يا بوليت ليستافيه، اسمعيني جيداً:

«كنتِ تعيشين وحيدة في منزلٍ كنتِ تعشقينه وكنتُ أنا أيضاً  
أعشقه. في الصباح، تستيقظين في الفجر وتحضّرين القهوة  
وتشربينها وأنتِ تنظرين إلى لون الغيوم لتعرفي الطقس الذي  
سيكون. ثمّ كنتِ تعيشين عالمكِ الصغير، أليس كذلك؟ هرّك،  
هررة الجيران، طيور أبي الحنّاء، طيور القرقب، وكل أنواع  
عصافير الدوري. كنتِ تمسكين بمقصّكِ وتقومين بتزيين منزلكِ  
بزهورك قبل أن تترتني. كنتِ تلبسين وتنتظرين مرور ساعي البريد  
أو اللّحّام. ميشيل الضخم، ذلك الغشّاش الذي كان يعطيكِ دائماً  
شرائح وزنها 300 غرام حينما كنتِ تطلبين شرائح وزنها 100  
غرام في حين كان يعلم أنّكِ لم تعودي تملكين أسناناً... أوه!  
ولكنكِ لم تكوني تقولين شيئاً. كنتِ تخافين كثيراً أن ينسى أن  
يزمّر الثلاثاء التالي... وكنتِ تسلقين ما تبقى لكِ تعطي نكهة  
لحسائك المرّكز. نحو الساعة الحادية عشرة، كنتِ تأخذين قفّكِ  
وتذهبين إلى مقهى الأب غريفو لتشتري صحيفتكِ وخبزكِ البالغ  
900 غرام. منذ زمنٍ طويلٍ ما عدتِ تأكلين منه، ولكنكِ مع ذلك  
كنتِ تأخذينه... بحكم العادة... أو للطيور... كنتِ غالباً  
تصادفين صديقة قديمة قرأت قبلكِ الزاوية الصحافية المخصّصة  
للوفيات فتحدّثكِ عن موتكِ متحسّرة. ثمّ كنتِ تزودينها بأخباري،  
حتى وإن كنتِ لا تملكينها... بالنسبة لأولئك الناس كنتُ شهيراً  
مثل بوكوز، أليس صحيحاً؟ كنتِ تعيشين وحيدة منذ ما يقارب

عشرين عاماً، ولكنكِ واطبتيِ على أن تضعي شرسفاً نظيفاً وتمدّي آنية جميلة وكوباً ذا قائم وأزهاراً في مزهريّة. إذا ما كنتِ أتذكّر جيداً، كنتِ تضعين، في الربيع، شقائق النعمان، وفي الصيف أزهار مرغريت وفي الشتاء، كنتِ تشتري باقة من السوق وأنتِ ترددين عند كلّ وجبة بأنّها قبيحة وبأنّك قد دفعتِ ثمنها غالياً جداً... بعد الظهر، كنتِ تأخذين قيلولّة قصيرة على الأريكة وكان قَطكِ الضخم يقبل بالمجيء والتمدّد على ركبتيك للحظات. وكنّتي تنهين ما بدأتِ به في الحديقة أو في بستان الفاكهة في نفس الصباح... لم تكوني تزرعين فيه الشيء المهمّ، ولكنّه مع ذلك كان يغذّيكِ بعض الشيء وكنّتي تفرحين حينما كانت ايفون تشتري الجزر من المتجر. بالنسبة لكِ، كان ذلك قَمّة العار...

كانت السهرات أكثر طولاً، أليس كذلك؟ كنتِ تأملين أن أتصل ولكنني لم أتصل، فتديرين التلفاز وتنتظرين أن تنتهي كلّ تلك الحماقات. توقظكِ الإعلانات متوتّبة. تجولين في البيت وأنتِ تشدّين وشاحكِ على صدركِ وتغلقين مصاريع النوافذ. وذلك الضجيج، ضجيج المصاريع التي كانت تصرّ في العتمة، لا تزالين تسمعيه اليوم وأنا أعرف ذلك لأنّ الأمر هو نفسه بالنسبة لي. أقيم الآن في مدينة متعبة جداً بحيث لم يعد يُسمع أيّ شيء، ولكن ذلك الضجيج، ضجيج المصاريع الخشب وضجيج باب السقيفة، كان يكفي لأن أرهف السمع حتى أسمع...

صحيحٌ أنّني لم أكن أتصلُ بكِ ولكنني كنتُ أفكّر فيكِ،

أنتِ تعلمين... وفي كلِّ مرّة كنتُ آتي فيها لرؤيتكِ لم أكن بحاجة لتقارير القديسة ايفون التي كانت تنتحي بي جانباً وهي تلامس ذراعي لتدرك أنّ كلّ هذا ذاهب... لم أكن أجروء على أن أقول لكِ أيّ شيء، ولكنني كنتُ أرى جيداً أنّ حديقتكِ لم تعد نظيفة كما كانت وأنّ بستانكِ لم يعد كما كان... كنتُ أرى جيداً أنّك أكثر تأنقاً وأنّ شعركِ قد اكتسب لوناً غريباً فعلاً وأنّ تنورتكِ مقلوبة. كنتُ ألاحظ أنّ موقدكِ متسخٌ وأنّ البلوزات القبيحة جداً التي كنتِ تنسجينها لي كانت مليئة بالثقوب وأنّ فردتي جوربيكِ كانتا مختلفتين وأنكِ كنتِ تصطدمين بكلِّ مكان... نعم، لا تنظري إليّ هكذا، يا جدّتي... لطالما رأيتُ كدماتكِ التي حاولتِ إخفاءها تحت ستراتكِ...

كان بوسعي أن أفاتحكِ بكلِّ هذا قبل الآن بكثير... أن أرغمكِ على مراجعة أطباء وأن أوبّخكِ لكي تكفّي عن إرهابكِ نفسكِ بهذه المجرفة القديمة التي لم تعودى تستطيعين حتى رفعها. كان بوسعي أن أطلب من ايفون أن تتابعكِ وتراقبكِ وترسل إليّ نتائج تحاليلكِ... ولكن كلا، قلتُ لنفسي إنّ من الأفضل أن أدعكِ وشأنكِ وأنّ في اليوم الذي لن تعود الأمور تسير على ما يُرام، حينها على الأقل سوف لن تندمي، ولا أنا أيضاً... على الأقل ستعيشين بطريقة جيّدة. سعيدة. حتى النهاية.

والآن، جاء هذا اليوم، ها نحن فيه... وعليكِ أن تتأقلمي، يا عزيزتي. وبدل أن تخصميني، عليكِ بالأحرى أن تفكّري في الحظّ الذي تتمتعين به في أن تعيشي لأكثر من ثمانين عاماً في دارٍ بهذا الجمال... و...

... ومن ثمّ لستِ منصفة معي. هل الذنب ذنبي إن كنتُ بعيداً وإن كنتُ وحيداً؟ هل الذنب ذنبي إن كنتِ أرملة؟ هل الذنب ذنبي إن لم يكن لكِ أولادٌ آخرين سوى أمي العوهاء لكي يهتموا بكِ اليوم؟ هل الذنب ذنبي إن لم يكن لدي أخوة وأخوات لكي نتقاسم أيام زيارتكِ؟

كلا، هذا ليس ذنبي. ذنبي الوحيد هو اختياري لمهنة بهذه القذارة. ليس لي سوى العمل كمغفل. لا يمكنني فعل أيّ شيء، والأسوأ، كما ترين، هو أنني لا أجيد فعل أيّ شيءٍ آخر ولو أردتُ ذلك... لا أدري إن كنتِ تعرفين ولكنني أعمل يومياً عدا الاثنين، ويوم الاثنين، آتي لرؤيتك. هيا، لا تدعي الدهشة... لقد أخبرتكِ بأنني يوم الأحد أعمل لساعاتٍ إضافية لكي أدفع اقساط دراجتي النارية، وبالتالي ترين، ليس لديّ يومٌ واحد لكي أبقى نائماً حتى الضحى، أنا... أستيقظ، كلّ صباح، في الثامنة والنصف، وفي المساء، لا أغادر العمل أبداً قبل منتصف الليل... ولذلك، أضطرّ لأن أنام بعد الظهر لكي أتحمّل عبء العمل.

انظري إذاً، هذه هي حياتي: حياةٌ لا تعني شيئاً. لا أفعل شيئاً. لا أرى شيئاً. لا أعرف شيئاً. والأسوأ هو أنني لا أفهم شيئاً... في هذا الماخور، ليس هناك سوى شيءٍ وحيدٍ إيجابي، شيءٍ وحيد، هذه الغرفة التي كنتُ أשמئزُّ منها عند هذا الشخص الغريب الذي غالباً ما أحدثكٍ عنه. النبيل، أتعرفين؟ حسناً، حتى هذا الأمر ساء اليوم... لقد جلب لنا فتاةً وهي تعيش معنا

الآن... وهي علاوة على ذلك ليست حتى صاحبتة! لا أدري إن كان هذا الرجل سيعجب بها ذات يوم، أو عذراً، أقصد إن كان سيخطو الخطوة... كلا، إنها مجرد فتاة مسكينة أخذها في كنفه. والآن، بات الجوّ كدرأً جداً في الشقّة وسأكون مضطراً لأن أجد لنفسي شيئاً آخر... حسناً، ولكن هذا ليس بالأمر الصعب، لقد سبق وانتقلت لعدّة مرات بحيث بات الأمر مألوفاً بالنسبة لي... سوف أتدبر أمري... في المقابل، بالنسبة لك، لا أستطيع تدبّر الأمر، أتفهمين؟ لمرة واحدة، أعمل مع رئيسٍ جيّد، وأنا أروي لك دائماً كيف يصرخ ويزعق ولكن هذا لا يمنع كونه شخصاً محترماً. ليس مخادعاً بل وشخص طيّب... أشعر بأنني أتطور فعلاً معه، أتفهمين؟ وبالتالي، لا يمكنني أن أتركه دائماً لوحده، على الأقلّ ليس قبل شهر يوليو (تموز). لقد حدّثته بشأنك، وأخبرته بأنني أرغب في العمل في بلدتي لكي أكون قريباً منك، وأنا أعرف أنّه سيساعدني، ولكنني بالمستوى الذي بلغته اليوم، لم أعد أرضى بأيّ عملٍ كان. إذا عدتُ إلى هنا، فسيكون ذلك لكي أعمل مساعداً لرئيس الطهاة في مطعم فاخر، أو رئيساً للطهاة في مطعم أقلّ مستوى. لم أعد أريد العملَ خادماً، لقد أعطيتُ بما فيه الكفاية... وبالتالي عليك أن تصبري وتكفّي عن النظر إليّ بهذه الطريقة وإلا سأقولها لك بصراحة: لن أعود آتي لرؤيتك.

«أكرّرها لك، ليس لديّ إلاّ يوم واحد أعطل فيه في الأسبوع، وإذا كان هذا اليوم سيحبطني نفسياً، سأكون في وضع كارثي... علاوة على ذلك، ستحلّ الأعياد قريباً، وسأعمل أكثر من المعتاد، وعليك أن تساعدني في هذا أيضاً، سحفاً...»

مهلاً، أمرٌ أخير... هناك سيّدة طيّبة أخبرتني بأنك لا ترغبين في رؤية الآخرين، لاحظي جيداً، أنا أفهمك لأنّ زملاءك ليسوا شباناً، ولكنك تستطيعين على الأقلّ أن تؤمّني أصغرهم سنّاً... هذا ليس صعباً، هناك بوليت أخرى، موجودة هنا، مختبئة في غرفتها وهي ضائعة أيضاً مثلك... ربّما هي الأخرى تريد أن تتحدّث عن حديقتها وأحفادها المدهشين، ولكن كيف تريد أن تعثر عليكِ إن كنتِ تمكثين هنا، تحردين مثل مراهقة؟».

كانت تنظر إليه، مذهولةً.

- ها قد ارتحت. لقد قلتُ كلّ ما في قلبي والآن لم يعد بوسعي أن أنهض لأنّ قف... ردفاي يؤلماني. مفهوم؟ ماذا تخطّطين؟

- أهذا أنت، يا فرانك؟ أحقاً هذا أنت؟ هذه هي المرّة الأولى في حياتي، أسمعك تتحدّث طويلاً بهذا المقدار... ألسنتُ مريضاً؟

- كلا، لسنتُ مريضاً، أنا متعبٌ فقط. أنا مرهق، أفهمتِ؟ حدّقت فيه مطوّلاً ثمّ هزّت رأسها وكأنّها قد خرجت أخيراً من غفلتها. أزاحت ما كانت تشتغل عليه:

- أوه، هذا لا شيء... هذا لناديج، فتاة لطيفة تعمل هنا في الصباح. أنا ارتق لها بلوزتها... هلاً مررت الخيط في الإبرة، لأنني لم أجد نظارتي؟

- ألا تريد الجلوس في سريرك لكي أجلس على الأريكة؟ ما أن ارتخي حتى نام.



- غَطَّ في نومٍ عميق.
- أيقظه ضجيج صينية الطعام.
- ما هذا؟
- إنه العشاء.
- لماذا لم تنزلي؟
- العشاء يقدّم دائماً في أسرّتنا مساءً...
- ولكن كم الساعة الآن؟
- الخامسة والنصف.
- ما هذا الهديان؟ أيطعمونكم في الخامسة والنصف؟
- نعم، هذه هي العادة في يوم الأحد. لكي يُتاح لهم الانصراف باكراً...
- أوف، ولكن ما هذا؟ رائحة عفونة، أليس كذلك؟
- لا أعرف ما هذا وأفضّل ألا أعرف...
- ما هذا؟ أهذا سمك؟
- كلا، يُقال عنها بالأحرى بريشة البطاطس، ألا تصدّق؟
- توقّفي، لهذا رائحة السمك... وهذا، ما هذا، هذا الشيء الكستنائي؟
- فاكهة مطبوخة بالسكر...
- أليس كذلك؟
- أجل، أعتقد...
- أنتِ متأكّدة؟
- أوه، لم أعد أعرف...

- كانا عند هذا الحدّ من تحقيقهما حول الطعام، حينما  
ظهرت المرأة الشابة:
- هل قُضي الأمر؟ هل هذا طيّب؟ هل انتهيت من الطعام؟  
قاطعها فرانك:
- مهلاً من فضلك، لقد جلبت لها الطعام منذ دقيقتين  
فقط... اتركي لها الوقت الكافي لتأكل بهدوء!
- أغلقت الأخرى الباب بجفاء.
- الأمور هكذا كلّ يوم، وتكون أسوأ يوم الأحد... إنهنّ  
مستعجلات على المغادرة... لا يمكننا إغاظتهنّ، أفهمت؟  
مسحت السيّدة العجوز أنفها.
- أوه يا جدّتي المسكينة... ولكن ما كلّ هذه الفوضى...  
يا لها من فوضى...  
طوت مندِيلها.
- فرانك؟
- نعم.
- أطلب منك المغفرة...
- كلا، أنا من أطلب المغفرة. لم يسر أيّ شيء كما أردت.  
ولكن هذا ليس أمراً خطيراً، سأبدأ بالاعتقاد منذ...  
عادت المرأة الشابة وسألت:
- هل يمكنك أن آخذ الصينية الآن؟
- نعم، نعم، هيا...  
أضاف فرانك:

- هنتي رئيسة الطباخين، يا آنستي، كان حقاً طعاماً لذيذاً... ..
- حسناً، حسناً... .. سوف أنصرف، إيه؟
- أتريد الانتظار إلى أن أرتدي قميص النوم؟
- هيا.
- ساعدني كي أنهض.
- سمع هدير مياهٍ في الحمام واستدار باحتشام بينما كانت تندسّ بين أغطيتها.
- أطفئ الإنارة يا عزيزي... ..
- أنارت قنديل السرير.
- تعال، اجلس هنا، لدقيقتين... ..
- دقيقتان إيه؟ مكان إقامتي ليس قريباً... ..
- دقيقتان.
- وضعت يدها على ركبته وسألته آخر سؤالٍ توقعه:
- أخبرني، هذه الفتاة التي حدثتني عنها للتوّ... .. تلك التي تعيش معكما... .. كيف هي؟
- إنها بليدة، مغرورة، نحيلة وعوواء مثل زميلها... ..
- عجباً... ..
- إنها... ..
- إنها ماذا؟
- وكأنها فتاة متعلمة... .. كلا، ليس وكأنها، إنها فتاة متعلمة. هي وفيليبير، يظللان محبوسين في قمقمهما وككلّ

الدارسين، هما قادران على التحدّث لساعات عن أمورٍ يسخر الجميع منها ولكن الغريب في الأمر هو أنّها مدبّرة منزل...  
- حقّاً؟

- في الليل... ..

- في الليل؟

- نعم... .. قلتُ لكِ، إنّها غريبة... .. ولو ترين كم هي نحيفة... .. سوف يُعتَصِر قلبك شفقةً عليها... ..

- ألا تأكل؟

- لا أعرف عن ذلك شيئاً. لا أبالي بذلك.

- ما اسمها؟

- كاميل.

- وكيف تكون؟

- لقد سبق وأخبرتكَ.

- وجهها؟

- هيه، لماذا تسأليني عن كلّ هذا؟

- لأستبقيك لوقتٍ أطول... .. كلا، لأنّ هذا يهمني.

- حسناً، شعرها قصير جداً، تقريباً على الصفر، كستنائي

اللون... .. عيناها زرقاوان، على ما أعتقد. لا أعرف بالضبط... ..

إن لونهما فاتح على كلّ حال. إنّها... .. أوه، ثم قلتُ لكِ إنني لا أبالي بها!

- وأنفها؟

- طبيعي.

...-

- أعتقد أنّ لديها نمشاً أيضاً... إنّها... لماذا تضحكين؟
- لا لشيء، أصغي إليك...
- كلا، سأنصرف، أنتِ تثيرين حفيظتي...

## 7

- أكره شهر سبتمبر (أيلول). وكلّ هذه الأعياد، إنّها تنهكني...
- أعرف، يا ماما. هذه المرّة الرابعة التي ترددين لي ذلك مذ حضرت إلى هنا...
- ألا ينهكك ذلك؟
- وإلا؟ هل ذهبتِ إلى السينما؟
- ماذا تريدنني أن أفعل في السينما؟
- هل نزلتِ إلى ليون بمناسبة عيد الميلاد؟
- مرغمة... أنتِ تعرفين خالك... إنّهُ يسخر من حالي ولكن إن تخلفت عن دجاجته الرومية، يجعل من ذلك حكاية... هل ستصاحبينني هذه السنة؟
- كلا؟
- لماذا؟
- أنا أعمل.
- سألت بلهجة تهكمية:
- أتكتسين أبر التنوّب؟

- بالضبط.
- أتسخرين مني؟
- كلا.
- لاحظني جيداً، أنا أفهمك... إن انتظار كل هؤلاء المغفلين حول حطبة ميلاد لبؤس كبير، أليس صحيحاً؟
- أنتِ تبالغين، إنهم ظرفاء.
- أوف... اللطف، هذا أيضاً يرضيني، تفضلي...  
قالت كاميل وهي تدقق في الفاتورة:
- أنا من دعوتك، يجب أن أغادر...  
سألته أمها أمام مدخل المترو:
- أخبريني إذاً، هل قصصت شعرك؟
- كنتُ أتساءل إن كنتِ ستلاحظين ذلك...  
- هذا حقاً بشع. لماذا فعلتِ هذا؟  
نزلت كاميل السلالم بسرعة كبيرة.  
بسرعة الريح.

## 8

عرفتُ أنها كانت موجودة حتى قبل أن تراها. من خلال الرائحة.

أثار نوعٌ من العطر اللذيذ والحلو قلبها. توجّهت نحو غرفتها بخطى سريعة ولمحتهما في الصالون. كان فرانك مطروحاً أرضاً ويضحك عالياً وهو ينظر إلى فتاةٍ تتخلّع في مشيتها. وكان قد رفع صوت الموسيقى إلى النهاية.

أَلَقْتُ عَلَيْهِمَا التَّحِيَةَ عَرَضاً:

- مساء الخير.

وهي تغلق بابها، سمعته يدمدم: «هَيَّا، لا تبالي، لا شأن لنا بها، قَلْتُ لِكَ... هَيَّا، تحركي أكثر، ماذا...».

لم تكن موسيقى وإنما صخبٌ. شيءٌ من الجنون. كانت الجدران والأركان والأرضية تهتز. انتظرت كاميل بضع ثوانٍ إضافية وجاءت تقاطعهما:

- يجب أن تخفّض هذا الصوت... سنقع في مشاكل مع الجيران... .

توقّفت الفتاة في مكانها وأخذت تقهقه.

- هيه، يا فرانك، أهذه هي؟ أهذه هي؟ هيه أنت؟ أنتِ الكونشيتا؟

حدّقت كاميل فيها مطوّلاً. كان فيليبير محقّقاً: كان ذلك مدهشاً.

مزيجٌ مركّزٌ من الحماقة والسوقية. نعلان متّصلان بالساق، بنطال جينز مزخرف، حمالة نهدين سوداء. بلوزة مخرّمة، شفتان من الكاوتشوك، كانت اللوحة كاملة.

- نعم، هذه أنا.

ثمّ توجّهت كاميل إلى فرانك:

- اخفض الصوت، من فضلك... .

- أوه! أنتِ تزعجيني... اذهبي... اذهبي وتغوّطي في

سلّتك... .

- أليس فيليبير موجوداً؟

- كلا، إنه مع نابليون. هيا، قلنا لكِ اذهبي ونامي.

ضحكت الفتاة بصوتٍ أعلى.

- أين المراحيض؟ هيه أنتِ، أين المراحيض؟

- اخفض الصوت وإلا سأطلب رجال الشرطة.

- ولكن نعم، ليكن، اطلبهم وكفّي عن إزعاجنا. هيا!

انصرفي، قلتُ لكِ!

أيّ حظّ، كانت كاميل قد أمضت لتوّها بضع ساعات مع

والدتها.

ولكن فرانك لا يستطيع أن يعرف هذا... ..

لا حظّ، إذًا.

دارت على أعقابها، دخلت إلى غرفته وداست على

ماخوره، فتحت النافذة، فصلت جهاز التسجيل ورمته من الطابق

الرابع.

عادت إلى الصالون وقالت بهدوء:

- لا بأس. لم أعد بحاجة لأن أطلبهم.

ثم استدارت وقالت:

- هيه أنتِ... .. أغلّقي فمكِ أيتها العاهرة سوف تبتلعين

ذبابة.

أغلّقت الباب على نفسها بالمفتاح. طبل وزمّر وصرخ وزعق

وتهدّدها بالثأر منها أسوأ ثأر. خلال ذلك الوقت، نظرت إلى

نفسها بالمرآة مبتسمةً وفوجئت بصورتها الشخصية المثيرة. للأسف



لم تكن في حالةٍ تسمح لها برسم أيّ شيء كان. كانت يداها مبلّتين جداً...

انتظرت أن تسمع الباب يُصفق لكي تغامر في الذهاب إلى المطبخ، وتأكل بعض الطعام وتذهب إلى النوم. أخذ بثأره وسط عتمة الليل.

نحو الساعة الرابعة، استيقظت كاميل على الجلبة الآتية من الغرفة المجاورة لها. كان ينخر وكانت تئنّ. كان يئنّ وكانت تنخر.

نهضت وظلّت واقفة للحظة وسط العتمة وهي تتساءل إن لم يكن من الأفضل أن تلمّ أغراضها على الفور وتعود إلى منزلها. كلا، همست، كلا، سيسعده ذلك كثيراً...

يا لها من جلبة، يا إلهي، يا لها من جلبة... لا بدّ أنّهما يتكلّفان، هذا مستحيل، لا بدّ أنّه يطالبها بأن تبالغ... مهلاً، أهي مزوّدة بألة تأوّه هذه الداعرة الغبية أم ماذا؟ لقد غلبها.

كان قراره قد اتّخذ.

لم يعد بوسعها أن تنام ثانيةً.

استيقظت باكراً في اليوم التالي وانشغلت بصمت. ربّبت سريرها وطوت أغطيبتها وبحثت عن كيسٍ كبير لتأخذها إلى المغسلة. لملمت أغراضها وكدّستها في نفس صندوق الكرتون الصغير الذي جلبتها فيه. كانت منزعجة. لم تكن منزعجة لصعودها إلى الطابق العلوي وإنّما لتركها تلك الغرفة... رائحة الغبار، الضوء، الخفقان الخافت للستائر الحريري، الفرقعات، الستارة المعدنية، ونعومة المرأة. ذلك الشعور الغريب بوجودها

خارج الزمن... بعيدة عن العالم... كان أجداد فيليبير قد انتهوا إلى تقبلها وكانت قد تسلّت برسمهم بطريقة مختلفة وفي أوضاع مختلفة. خصوصاً المركز العجوز، بدا أكثر غرابة مما كان متوقّعا. أكثر ابتهاجا... أكثر شبابا... أطفأت المدفأة وتحسّرت على غياب ركوة للقهوة. لم تجرؤ على دفعها في الممرّ فتركها أمام باب الغرفة.

ثم أخذت كراستها، وأعدت لنفسها كوباً من الشاي وعادت وجلست في الحّمّام. كانت قد عازمت على أن تأخذها معها. كانت أجمل قطعة في البيت.

نقلت كلّ أغراض فرانك، مزيل الرائحة من طراز اكس دو مينن الرجالي، فرشاة أسنانه القديمة، شفرات الحلاقة من طراز بيك، مرهم البشرة الحساسة - وكان هذا أفضل أغراضه - وثيابه التي كانت تفوح منها رائحة الشياطين. وألقت بكلّ شيء في مغطس الحّمّام.

في المرّة الأولى التي دخلت فيها هذا المكان. لم تستطع الامتناع عن إطلاق كلمة تعجّب صغيرة «أوه!»، وشرح لها فيليبير أنّ الأمر كان يتعلّق بطراز من طرز مؤسسات بورشر يعود إلى العام 1894. نزوة من أمّ جدّه التي كانت الأكثر تأنقاً من بين باريسيات العصر الجميل. أكثر تأنقاً من سواها بحيث كان جدّه يندهش حينما يذكرها ويروي طيشها ومجونها...

حينما تمّ تنصيب المدفأة، اجتمع كلّ الجيران لكي يشتكوا خوفاً من أن تُمرّر عبر السقف، ثمّ لكي يبدو إعجابهم بها وينهبوا بها. كانت الأجمل في العمارة بل ربّما في الحيّ...

كانت سليمة، قديمة ولكنها سليمة.

جلست كاميل على سلّة البياضات المتسخة ورسمت شكل البلاط والأفاريز والمنقوشات والمغطس الكبير بقوائمه الأربع الشبيهة بقوائم أسد بالبرائن، وصنابير الكروم القديمة، ورشاش الماء الضخم الذي لم يقذف شيئاً منذ الحرب العالمية الأولى، وحمّالات الصابون المتسعة مثل أجران الماء المقدّس، وحمّالات المناشف نصف المخلووعة. العبوات الفارغة، شوكينغ دي شيا باريللي، ترانسباران دوبيغان أو شيك دو مولينوكس، علب مسحوق الأرزّ من ماركة ديفان، السوسن الأزرق الممتدّ على طول حوض الاغتسال والمغاسل المتقنة والمزخرفة والمحمّلة بالكثير من الزهور والطيور بحيث احتارت على الدوام في وضع حقيبة زينتها البشعة على الرفّ المصفرّ. كان حوض المراحيض قد اختفى، ولكن حوض طرادة الماء كان لا يزال مثبتاً على الجدار وأنهت جردها برسم طيور السنونو المرفرفة هناك في العلى منذ أكثر من قرن.

أوشك دفترها أن ينتهي. كانت لا تزال فيه صفحتان أو ثلاث...

لم تمتلك الشجاعة على تصفّحه ورأت فيه ما يشبه إشارة. فنهاية الدفتر هي نهاية العطلة.

غسلت كوبها وغادرت المكان مغلقة الباب بكلّ هدوء. في حين كانت شرافقها ترفرف، ذهبت إلى متجر دارتي أسفل متجر مادلين واشترت جهاز تسجيل لفرانك. لم تشأ أن تدين له بأيّ شيء. لم تحظ بالوقت لترى ماركته وركنت لمساعدة البائع.

كانت تحبّ كثيراً هذا، الركون للمساعدة..

حينما عادت، كانت الشقة فارغة. أو صامتة. لم تحاول أن تعرف. وضعت صندوق الكرتون من طراز سوني أمام باب جارها في الممرّ، ووضعت الشراشف على سريرها القديم، حيث معرض الأجداد، أغلقت مصراعَي الباب وجرجرت المدفأة إلى المكتب. لم تعثر على المفتاح. حسناً، وضعت صندوقها الكرتون فوق المدفأة وكذلك غلايتها، وغادرت إلى عملها.

حينما حلّ المساء وبدأ البرد يفعل فعله المحزن، شعرت بأنّ فمها يجفّ وبطنها يصبح قاسياً: بذلت جهداً تخيلياً كبيراً لثلا تبكي وانتهت إلى الاقتناع بأنّها كانت مثل والدتها: ساخطة على الأعياد.

عملت بمفردها وبصمت.

لم تعد ترغب كثيراً في السفر. كان عليها أن تعود إلى الواقع. ولم تنجح في ذلك.

كانت ستصعد إلى هناك في الطابق العلوي، في غرفة لوزير لودوك الصغيرة، وتضع حقيبتها. أخيراً.

انتزعتها كلمة موجزة على مكتب السيّد لانسيانغوريه من أفكارها القذرة. كانت عبارة سوداء ومتراصة تسأل:

- مَنْ أَنْتِ؟

وضعت بتّاخ الملمّع وخرق المسح، وجلست في أريكة جلدية كبيرة وبحثت عن ورقتين بيضاوين.

على الأولى رسمت ما يشبه شخصية بات هيبولير الكرتونية، أشعث وأدرد. والذي كان يستند على مكنسة وهو يتسم بخبث.

وتخرج من جيب بلوزته شراباً حمراء مكتوبٌ عليها، توكلين، محترفون، الخ. وكان يؤكّد: حسناً، هذا أنا...

وعلى الورقة الأخرى، رسمت فتاة فاتنة من سنوات الخمسينات. يدها على وركها، مزمومة الفم، تلفت ساقاً على ساق، صدرها مضغوطة في صدرٍ جميلة من الدانتيل. كانت تمسك بريشة وتكتب: ولكن كلا، لنر... هذه أنا...

استخدمت قلماً من ماركة ستابيلو لتلوّن خديها باللون الوردى...

بسبب هذه الحماقات، تخلفت عن آخر رحلة للمترو، وعادت سيراً على القدمين. باخ، كان ذلك أفضل... إنها إشارة أخرى... كادت أن تلامس القاع، ولكن ليس تماماً، أكان ذلك صحيحاً؟

جهداً آخر.

بضع ساعات أخرى في البرد وسيكون الأمر جيداً. حينما دفعت بوابة العربات، تذكّرت أنها لم تكن معها مفاتيحها وأنّ عليها وضع أغراضها على درج الخدمة. وربّما كتابة كلمة موجزة لمضيفها؟

توجّهت نحو المطبخ، وضدّمت لرؤية ضوءٍ فيه. إنّه بالتأكيد السيد ماركيه دو لا دوربيلير، الفارس ذو الوجه الحزين، وفي فمه بطاطس ساخنة، وسيلقي عليها حججه الواهية لاستبقائها. لبرهية، فكّرت أن تعود على أعقابها. لم تتوقّر على الشجاعة لتصغي إلى أفكارها المضطربة. ولكن حسناً، نظراً لاحتمال ألاّ تموت هذه الليلة، كانت بحاجة إلى جهاز التدفئة خاصته...

وقف عند الطرف الآخر من الطاولة وهو يلعب بعلبة البيرة  
الموضوعة أمامه.

أغلقت كاميل يدها على مقبض الباب وشعرت بأن أظافرها  
تغور في راحة كفّها.

قال لها:

- كنتُ أنتظركِ.

- حقاً؟

- نعم... .

...

- ألا تريدان الجلوس؟

- كلا.

ظلاً هكذا، صامتتين، لوقتٍ طويل.

سألت أخيراً:

- ألم ترَ مفاتيح الدَرَج الصغير؟

- في جيبِي... .

تنهّدت:

- أعطني إياها.

- كلا.

- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن تغادري. أنا مَنْ سأُسحب... . إن غبِيتِ

عن هنا، سيخاضمني فيليبير حتى مماته... . اليوم فقط، حينما

رأى صندوق الكرتون، صدع رأسي ومنذ ذلك الحين، لم يبارح غرفته... وبالتالي سأنصرف. ليس من أجلك، وإنما من أجله. لا يمكنني أن أفعل به هذا. سيعود مثلما كان وهذا ما لا أريده. إنه لا يستحقّ هذا. لقد ساعدني حينما كنتُ في ضيقٍ ولا أريد الإساءة إليه. لم أعد أريد أن أراه يتألّم ويتلوّى كدودة كلما طرح أحدهم عليه سؤالاً، لم يعد هذا ممكناً... كانت حالته قد تحسّنت قليلاً قبل وصولك ولكن مذ أتيت أصبح شبه طبيعي وأنا أعرف أنّه قد قلل من تناول الأدوية... لست بحاجة لأن ترحلي... أنا، لديّ صديقٌ يمكنه أن يأويني بعد الأعياد...  
خيّم الصمت.

- هل يمكنني أن آخذ منك علبة بيرة؟  
- تفضلي.

سكبت كاميل لنفسها كوباً وجلست قبالة.

- هل يمكنني أن أشعل لنفسي عقب سيجارة؟

- تفضلي، قلتُ لك. تصرفي وكأنني لم أعد موجوداً... ..

- كلا، لا يمكنني فعل هذا. هذا مستحيل... .. حينما تكون

في غرفة، يكون الجوّ مكهرباً، يكون هناك الكثير من العدوانية بحيث لا يسعني أن أكون طبيعية، و... ..

- وماذا؟

- وأنا مثلك، تخيّل، أنا متعبة. لا لنفسي الأسباب،

أتصوّر... أنا أعمل أقلّ، ولكن الأمر مشابه. هذا شيءٌ آخر

ولكنّه مشابه. رأسي هو المتعب، أفهمت؟ علاوة على ذلك، أريد

أن أغادر. لقد أدركتُ جيداً أنّني لم أعد قادرة على أن أعيش

حياة مشتركة وأنا... ..

- أنت؟

- كلا لا شيء. أنا متعبة، لقد قلت لك. وأنت، لا يمكنك التحدّث مع الآخرين بطريقةٍ طبيعية. يجب أن تصيح دائماً وأن تهاجمهم... أتصوّر أنّ هذا بسبب مهنتك، وأنّ جوّ المطابخ هو الذي أثر فيك... لا أعرف شيئاً عن ذلك... ومن ثمّ لا أبالي والحقّ يُقال... ولكنّ، هناك أمرٌ واحدٌ مؤكّد: سوف أعيد إليك حياتك الخاصّة.

- كلا، أنا من سأهجركم، ليس لديّ الخيار، لقد أخبرتك... بالنسبة لفيلو، أنتِ أهمّ، أصبحتِ أكثر أهمية مني...  
أضاف ضاحكاً:

- إنّها الحياة.

وللمرّة الأولى، نظرا في عيني بعضهما بعضاً.

- كنتُ أغذّيه أفضل منك، هذا مؤكّد! ولكن، ليس لدي حقاً أيّ شيءٍ أفعله بالشعر الأبيض لماري-أنطوانيت... إذا... لا شيءٍ أفعله، وهذا هو سبب هلاكها... آه، في الحقيقة! شكراً على جهاز التسجيل...

كانت كاميل قد نهضت:

- إنه تقريباً نفس جهازك السابق، أليس كذلك؟

- بالتأكيد...

قالت بصوتٍ كئيب:

- رائع. حسناً، والمفاتيح؟



- أية مفاتيح؟

- هيا ...

- أصبحت أغراضك من جديد في غرفتك وقد أعددت لك سريرك.

- بغطاء من جانب واحد؟

- تبا، ولكنك فعلاً مزعجة، إيه؟

كانت ستغادر المطبخ حينما أشار إلى دفتر رسمها:

- أنتِ مَنْ رسمتِ هذا؟

- أين وجدته؟

- هيه ... بعض الهدوء ... كان هنا، على الطاولة ... كنتُ

فقط أشاهده وأنا أنتظرك ...

كانت ستأخذ الدفتر حينما أضاف:

- إذا قلتُ لكِ كلاماً لطيفاً، ألن تعطيني؟

- حاول دائماً ...

أخذ الدفتر، قلب بضع صفحات، ثم وضعه وانتظر بضع

ثوانٍ إضافية، إلى أن التفتت. ثم قال:

- هذا رائع، أتعرفين ... فائق الجمال ... فائق الإتقان في

الرسم ... هذا ... أقصد، أقول لكِ هذا ... لستُ خبيراً بهذا

الشأن، إيه؟ ولكن منذ ما يقارب الساعتين وأنا أنتظرك هنا، في

هذا المطبخ القارص ولم أشعر بالوقت يمضي. لم أشعر بالملل

للحظة واحدة. لقد شاهدتُ كلّ هذه الوجوه، عزيزي فيلو

وكلّ هؤلاء الناس ... كيف التقطتهم، كيف جمّلتهم ...

والشقة... منذ أكثر من عام وأنا أعيش هنا وكنْتُ أعتقد بأنّها فارغة، أقصد لم أكن أرى شيئاً... وأنتِ، أنتِ... أقصد، هذا في غاية الروعة...

...-

- ولماذا تبكين الآن؟

- الأعصاب، أعتقد...

- ها هو شيءٌ آخر... أتريدين علبة بيرة أخرى؟

- كلا شكراً. سأذهب لأنام.

بينما كانت في الحمام، سمعته يطرق بقوة باب غرفة فيليبير ويقول:

- «هيا، يا بني! هذا جيد. سوف لن تطير منك! يمكنك أن

تذهب وتبوّل الآن!».

خُيِّل لها أنّ المركيز يبتسم لها بين ندمائه وهي تطفئ مصباحها ونامت في الحال.

## 10

أصبح الجوّ لطيفاً. ساد شيءٌ من البهجة، ومن الرقة، كان هناك شيءٌ ما في الهواء (something in the air). كان الناس يركضون في كلّ مكان للعشور على هدايا وكانت جوزي قد جدّدت صبغة شعرها. أظهر بريقٌ أسمرٌ محمّرٌ في غاية الجمال فتنتها وهي تضع نظارة. كما كانت مامادو قد ابتاعت شعراً مستعاراً رائعاً. كانت قد أعطت لهنّ ذات مساء درساً في التزيين، بين طابقيين، في حين كنّ أربعتهنّ يضربن قديحاً بقديح وهنّ يشربن قارورة الخمر الفوّار التي دُفِعَ ثمنها من الرهان.

- ولكن كم من الوقت بقيت عند المزيّن حتى نتفت كلّ جينك هكذا؟
- أوه... ليس طويلاً... ساعتان أو ثلاث ساعات ربّما... كانت هناك تسريحات تستغرق وقتاً أكثر بكثير، تعرفين... بالنسبة لعزيزتي سيّسي، يستغرق هذا أكثر من أربع ساعات...
- أكثر من أربع ساعات! وماذا تفعل خلال كلّ هذا الوقت؟ أتبقى هادئة؟
- بالطبع لا، لا تكون هادئة! تفعل مثلنا، تمزح، تأكل وتصغي إلينا ونحن نروي حكاياتنا... نحن نروي الكثير من الحكايات... أكثر منك بكثير...
- وأنتِ يا كارين؟ ماذا فعلتِ بمناسبة عيد الميلاد؟
- ازداد وزني كيلوغرامين. وأنتِ يا كاميل ماذا فعلتِ بمناسبة عيد الميلاد؟
- نقص وزني كيلوغرامين... كلا، أنا أمزح...
- أكنتِ مع العائلة؟
- كذبت عليهنّ:
- نعم.
- قالت جوزي الرائعة وهي تنقر على ميناء ساعتها:
- حسناً هذا ليس كلّ شيء.
- قرأت على طاولة المكتب:
- ما اسمك؟

ربّما يكون هذا محض صدفة، ولكنّ صورة زوجته وأطفاله كانت قد اختفت. كان متوقّعاً جداً، هذا الفتى... رمت الورقة وأدارت المكنسة الكهربائية.

في الشقّة أيضاً، كان الجوّ أقلّ جموداً. لم يعد فرانك ينام هنا وكان يمرّ كالسهم حينما يعود ليستلقي بعد الظهر. حتى إنّ لم يخرج جهاز التسجيل من علته.

لم يلمح فيليبير أدنى تلميح إلى ما كان قد دُبّر ذات مساءً من خلف ظهره حيث ذهب إلى ضريح نابليون. كان صبيّاً لا يستطيع تحمّل عناء أيّ تغيير. كان توازنه متعلقاً بخيط رفيع وبدأت كاميل فقط تتحقّق من خطورة تصرّفه حينما جاء يبحث عنها في تلك الليلة... كم سيكون قد أرغم نفسه... فكّرت من جديد في ما قال لها فرانك بخصوص أدويته...

أخبرها بأنّه قد أخذ عطلة وأنّه سيغيب حتى أواسط كانون الثاني (يناير).

- ستذهب إلى قصرِك؟

- نعم.

- أيسعدك ذلك؟

- أعتقد ذلك، أنا سعيدٌ بلقاء أخواتي...

- ما أسماءهنّ؟

- آن، ماري، كاترين، إيزابيل، أليانور وبلانش.

- يا لها من أسماء أميرات...

- نعم...

- واسمك؟

- أوه، أنا... أنا البَطّ الصغير القبيح... ..

- لا تقل هذا يا فيليبير... أتعرف، لا أفهم أيّ شيء من حكاياتك عن الارستقراطية ولم أكن قط حساسةً جداً حيال التفاصيل، كي أكون صادقةً معك، بل وجدتُ أنّ هذا مضحكٌ بعض الشيء... قديمٌ... بعض الشيء، ولكن، هناك أمرٌ مؤكّد: أنت أمير. أميرٌ حقيقي.

احمرّ خجلاً:

- أوه، نبيلٌ صغير، نبيلٌ ريفيٌ صغير في الأكثر... ..

- نبيلٌ صغير، نعم، هذا صحيح كلياً... أخبرني، أتعتقد أننا سنستطيع أن نرفع الكلفة بيننا في السنة القادمة؟  
- آه! ها هي مرّة أخرى ثوروتي العزيزة! دائماً ثورات... ..  
أنا، سيشقّ عليّ أن أرفع الكلفة معك... ..

- أمّا أنا فلا. أوّد كثيراً أن أخاطبك: فيليبير، أشكرك على كلّ ما فعلته من أجلي، لأنك لا تعرف ذلك، ولكنك بالتأكيد أنقذت حياتي... ..

لم يُجب بشيء. مرّة أخرى خفض نظره.

## 11

استيقظت باكراً لترافقه إلى المحطّة. كان متوتراً جداً بحيث أخذت من يده بطاقته ليدخلها في مكانها. ذهباً لشرب كوبٍ من الشوكولا الساخنة ولكنّه لم يلمس فنجانها. كلّما كانت ساعة المغادرة تقترب، كانت ترى وجهه ينقبض. كانت تشنّجات وجهه

تعاوده وأصبح من جديد الشخص المسكين الذي قابلته في  
المتجر الكبير. الرجل الطويل والمرتبك الذي اضطرّ لأن يبقي  
يديه في جيبه لئلا يخدش وجهه إذا ما عدّل نظارته.

وضعت يدها على ذراعه:

- هل أنت بخير؟

- نعم... نعم، مم... ممتاز، أنتِ ترا... تراقبين

الساعة، أليس... أليس كذلك؟

قالت:

- هسسسس، هيبببب... كلّ شيء على ما يُرام، هنا... كلّ

شيء على ما يُرام...

حاول أن يوافقها الرأي.

- أيوتّرك إلى هذا الحدّ أن ترى عائلتك؟

أجاب بالنفي في الوقت الذي كان يشير بالإيجاب برأسه:

- كك... كلا.

- فكّر بأخواتك الصغيرات...

ابتسم لها.

- مَنْ هي أحبّهنّ إليك؟

- إنّها... إنّها الصغرى...

- بلانش؟

- نعم.

- أهي جميلة؟

- إنّها... أكثر من جميلة... إنّها.. إنّها لطيفة معي...

كانا عاجزين عن التعانق، ولكنّ فيليبير أمسكها من كتفها على رصيف المغادرة، وقال:

- سوف... سوف تحرصين على نفسك جيداً، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل ستذهبين لـ... لتقابلي عائلتك؟

- كلا... .

تساءل عابساً:

- حقاً؟

- أنا ليست لديّ أختٌ صغيرة... .

- آه... .

ومن خلال نافذة القطار، خاطبها بلهجة واعظة:

- وخاصةً لا تدعي نفسك تتأثرين بعزيزنا ايسكورفييه، إيه! طمأنته:

- طيب، طيب.

أضاف شيئاً آخر ولكنها لم تسمعه بسبب صخب مكبّر الصوت. أجابت بنعم، نعم، وانطلق القطار.

قرّرت أن تعود مشياً على القدمين وأخطأت الطريق من دون أن تدرك ذلك. بدل أن تنعطف إلى اليسار وتنزل إلى جادة مونبارناس لتصل إلى المدرسة العسكرية ظلّت تسير بخطّ مستقيم لتجد نفسها في شارع رين. كان ذلك بسبب المحلّات التجارية والأشرطة المزخرفة والرسوم المتحركة... .

كانت كحشرة، تنجذب بالضوء والدم الحارّ لحشود الناس. رغبت أن تكون كذلك، أن تكون مثلهم، مستعجلة، هائجة، منشغلة. رغبت أن تدخل إلى المتاجر وتشتري أشياء بسيطة تدلّل بها من تحبّ. أبطأت خطوها: مَنْ كانت تحبّ في الحقيقة؟ هيا بنا، هيا بنا، استدركت وهي ترفع ياقة سترتها، لا تبدئي من فضلك، هناك ماتيلد وبيار وفيليبير وزميلاتك في المماسح... هنا، في هذا المتجر للمجوهرات، سوف تجدين بالتأكيد زينة رخيصة لمamadو، المغناج جداً... وللمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، فعلت نفس ما يفعله الجميع وفي نفس الوقت الذي يفعله الجميع: تنزّهت وهي تحصي شهرها الثالث عشر... للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، لم تكن تفكّر بالغد. ولم يكن هذا مجرد عبارة. كان ذلك الغد المقصود. اليوم التالي.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، بدا لها أنّ اليوم التالي... مواجهته ممكنة. نعم هذا هو بالضبط: مواجهته ممكنة. كان لديها مكان تحبّ العيش فيه. مكانٌ غريبٌ وفريد، تماماً مثل الناس الذين يقيمون فيه. جسّت مفاتيحها في جيبها وفكّرت من جديد في الأسابيع المنصرمة. كانت قد تعرّفت على كائنٍ لا أرضي. كائنٌ كريم، مختلّ، كان يقف هناك، على بعد ألف مكان فوق السحابة ولم يبدو أنّه جذب أيّ إعجاب منها. وكان هناك الجهلول<sup>(1)</sup> الآخر أيضاً. حسناً، الأمور ستكون أكثر تعقيداً معه... عدا حكاياته عن الدراجين والطناجر، كان يشقّ عليها

(1) طائر من القواطع مرقط يعيش قرب الماء. (المترجم).



التفاهم معه. ولكن على أيّ حال، هل تأثر بدفتر رسمها، أي... متأثر، كما كانت تفهم... متسائل لنقل. كان ذلك أكثر تعقيداً وربما يكون أكثر بساطة: كانت طريقة الاستخدام مختصرة جداً.

نعم، كانت قد تقدّمت، فكّرت وهي تسير في إثر المتسكّعين الفضوليين.

في نفس الفترة من السنة الماضية، كانت في حالة يرثى لها بحيث كانت عاجزة عن أن تلفظ اسمها لفتيان السامو الذين ضمّوها وكذلك السنة التي قبلها. عملت كثيراً بحيث إنّها لم تدرك أنّ عيد الميلاد قد حلّ؛ وإذ حرص «وليّ نعمتها» على أن يذكّرها بذلك خشية أن تفقد الإيقاع... ماذا إذا، كان بوسعها أن تقول ذلك، أليس كذلك؟ كان بوسعها أن تلفظ هذه الكلمات المعدودة التي نطقت بها منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ جداً: إنّها بصحّة جيّدة، وتشعر أنّها بخير، وأنّ الحياة جميلة. أوف، لقد قيل هذا. هيا، لا تخجلي، يا غبية. لا تلتفتي. لم يسمعك أحد تهمسين بهذه الحماقات، اطمئني.

كانت جائعة. دخلت إلى مخبزٍ واشترت بعض الخبز المحلّى. أرغفة صغيرة مثالية، خفيفة ومحلّاة. لعقت مطوّلاً أطراف أصابعها قبل أن تجرّو على العودة إلى متجرٍ وتجد أشياء تافهة للجميع. عطرٌ لماتيلد، وحليّ للفتيات، وزوج من القفازات لفيليبير وسيجارٌ لبيار. هل يمكننا أن نكون أقلّ تقليدية بحشمة؟ كلا. كانت هذه هدايا عيد الميلاد الأكثر تفاهةً في العالم وكانت هدايا ممتازة.

أنهت جريها قرب ساحة سان-سولبيس ودخلت إلى مكتبة.

هناك أيضاً، كانت هذه المرّة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ... لم تعد تجرؤ على المغامرة في هكذا مكان. كان ذلك صعباً على الشرح، ولكن ألمها ذلك كثيراً، كان... كان هذا... كلا، لم يسعها أن تقول هذا... هذا الإرهاق، هذا الجبن، هذا الخطر الذي لم تعد تريد التعرّض له... الدخول إلى مكتبة، الذهاب إلى السينما، مشاهدة العروض أو إلقاء نظرة على واجهات المعارض الفنية، كان ذلك ملامسة لسطحيتها، لجُبْنِها، وتذكّرُ بأنّها قد رمت الإسفنج ذات يومٍ يائسةً وأنّها لم تعد تجده منذ ذلك الحين...

الدخول إلى أيّ مكانٍ من هذه الأمكنة، والذي يأخذ شرعيته من حساسية بعض الأشخاص، كان يذكّرُها بأنّ حياتها غير مجدّية...

آثرت فروع متاجر فرانبري.

من يستطيع أن يتفهّم هذا؟ لا أحد.

كان صراعاً داخلياً. الأكثر خفية من بين جميع الصراعات. والأكثر تعذيباً أيضاً. وبكم من ليالي الخدمة والعزلة وسخرة المراحيض عليها أن تعاقب نفسها حتى تصل إلى نهايته؟

تجنّبت في البداية فرع الفنون الجميلة الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب لأنّها كانت قد أكثرت من التردّد إليه حينما جرّبت أن تدرس في مدرسة تحمل الاسم نفسه، كما أنّها لم تكن تنوي الذهاب إليه. كان الوقت مبكّراً جداً. أو أكثر تأخراً على نحوٍ أدقّ. كان ذلك أشبه بحكاية ضربة الكعب الصغيرة... أكانت في لحظة من حياتها حيث لم يعد عليها الاعتماد على مساعدة السادة الكبار؟

منذ أن كانت في عمرٍ يسمح لها بمسك قلم رصاص، ردَّد على مسامعها بأنها موهوبة. موهوبة جداً. موهوبة للغاية. واعدة جداً، ماكرة جداً أو مدللة جداً. هذه المدائح، الصادقة أحياناً والمبهمة أحياناً أخرى، لم توصلها إلى أيِّ مكان. واليوم حيث لم تعد صالحة سوى لملء دفاتر رسم مثل علقه، كانت تقول في نفسها بأنها ستبادل كنز مهارتها بقليلٍ من الطهارة. أو بحجر أردواز سحري... هوب! لم يعد هناك أيُّ شيء هناك في الطابق العلوي. لا تقنية ولا مراجع ولا مهارة، لا شيء. سنبدأ كلَّ شيء من الصفر.

إذاً قلمٌ... يُمسك بين السبابة والإبهام... كلا، يُمسك كما تشائين. ثم هذا ليس صعباً، لا تعودي تفكرين بذلك. لم تعد يدك موجودتين. هذا يحصل في مكانٍ آخر. كلا، هذا لن يجدي هنا، إنَّه في غاية الجمال. لم يُطلب منك أن تفعلي شيئاً جميلاً، أنتِ تعلمين... لا شأن للناس بالشيء الجميل. لهذا لدينا رسومات الأطفال والورق المصقول للمجلات. إذاً ارتدي قفازات، أنتِ، أيتها العبقريَّة الصغيرة، أيتها الصدفَّة الفارغة، أجل، قلتُ لك ارتديها، وربَّما في النهاية، سوف ترين، سوف ترسمين دائرة غير متقنة تكاد تكون كاملة... .

تسكَّعت بين الكتب. شعرت بأنها تائهة. كان هناك الكثير من الكتب، وكانت قد أضاعت خيط الواقع منذ زمنٍ طويلٍ بحيث كانت كل تلك العصائب الحمر تسبب لها الدوَّار. نظرت إلى الأغلفة وقرأت الملخَّصات وتحقَّقت من أعمار الكتاب وعبست حينما وجدت أنَّهم كانوا أصغر منها سنّاً. لم يكن ذلك منهجاً

ذكياً للانتقاء. توجّهت نحو رفّ كتب الجيب. كانت نوعية الورق الرديئة والطباعة السيئة تخفّف من خوفها. كان غلاف هذا الكتاب، شابّ بنظارة شمسية، قبيح جداً، ولكنّ البداية أعجبها:

إذا كان عليّ أن أردّ حياتي إلى حقيقة وحيدة، فهذا هو ما سأقوله: كنتُ في السابعة حينما سار ساعي البريد على رأسي. ما كان لأيّ حادثٍ آخر أن يكون شخصيتي أكثر. حياتي الفوضوية، العوجاء، دماغي المعلول، وإيماني بالله، صراعاتي بأفراحها وأتراحها، كلّ هذا، بطريقة أو أخرى، ينبع من تلك اللحظة، حيث، ذات صباحٍ صيفي، سحقت العجلة الخلفية اليسرى لسيارة البريد رأسي الطفولي على الحصى الملتهبة لمستودع سان كارلوس.

نعم، لم يكن ذلك سيئاً... علاوة على ذلك، كان الكتاب مربّعاً وسميكاً وكثيفاً. كانت فيه حوارات ومقاطع من رسائل مستنسخة وعناوين فرعية جميلة. استمرّت في تصفّحه، وفي نهاية الثلث الأوّل منه تقريباً، قرأت هذا المقطع:

«غلوريا، قال باري، متخذاً لهجته المتصنّعة. ها هو ابنك ادغار. إنّه ينتظر منذ زمنٍ طويل اللحظة التي يلتقي بك فيها».

نظرت أمي في كلّ الاتجاهات إلّا باتجاهي. «هل لا يزال لدينا بيرة؟»، سألت أمي باري بصوتٍ خفيضٍ مزماري اعتصر أحشائي.

تنهّد باري وراح يجلب علبةً أخرى من البيرة من الثلاجة. «هذه آخر علبة، سوف نذهب ونجلب المزيد منها في ما بعد».

وضعها على الطاولة أمام أمي، ثم هزّ بخفة مسند كرسيها، وأعاد عليها: «غلوريا، هذا ابنك، إنه هنا».

هزُّ مسند الكرسي، أتكون هذه هي التقنية؟  
حينما وقعت على هذا المقطع، نحو نهاية الكتاب، أغلقته،  
واثقة:

بصراحة، ليس لديّ أيّ أهليّة. أخرج مع كراسي ويصرّح  
الناس بكلّ ما يضمرون. أدقّ أبوابهم ويروون لي حياتهم،  
انتصاراتهم الصغيرة، غضبهم وحسراتهم الخبيثة. أمّا كراسي،  
الذي لا يكون على كلّ حال سوى للحيلة، فكنت أضعه عموماً  
في جيبِي، وأصفي إليهم بأناة إلى أن يقولوا كلّ ما عندهم  
ليقولوه. بعد ذلك، كان يأتي الأسهل. أعود إلى البيت، أجلس  
أمام آتني الكاتبة من طراز Hermès Jubilé وأقوم بما أقوم به منذ  
ما يقارب عشرين عاماً: أكتب كلّ التفاصيل المهمّة.

رأسٌ مهشّم في سنّ الطفولة، وأمّ مرتبكة، وكراسٌ صغير  
في قاع الجيب...

يا له من خيال...  
أبعد من ذلك بقليل، رأّت الألبوم الأخير لرسومات سانبيه.  
نزعت وشاحها ووضعت مع معطفها بين ساقها لتتفرّج براحة  
أكثر. قلبت الصفحات ببطء، وككلّ مرّة، تورّد خذاها. لم تحبّ  
قط شيئاً بقدر ما أحبّت هذا العالم الصغير للحالين الكبار، دقّة  
الخطوط، تعابير الوجوه، نساء الضواحي، مظلات سيّدات  
مسنّات والشاعرية اللامتناهية للأماكن. كيف رسم؟ أين وجد كلّ  
هذا؟ وجدت ثانية الشموع العسلية والمباخر والمذبح الباروكي

الكبير لمتزمتتها الصغيرة المفضّلة. هذه المرّة، كانت جالسة في عمق الكنيسة، أمسكت بهاتفٍ نقّال واستدارت واضعة يدها أمام فمها: «ألو، مارت؟ أنا سوزان، أنا في كنيسة القديسة أولالي دو لا ريدانبسيون، هل تريد أن أطلب لك شيئاً؟».

بعض العسل.

بعد ذلك يبضع صفحات، التفت نحوها رجلٌ كان يسمعها تضحك لوحدها، بيد أنّ ذلك لم يكن شيئاً مهماً. كانت سيّدة ضخمة تتحدّث إلى بائع حلوى منهمك في عمله. كان البائع يعتمر قبّعة مجعّدة، وله وجهٌ منورٌ على نحوٍ غامض وبطنٌ مكوّرٌ رائعة. كانت السيّدة تقول: «مرّ الزمن، لقد رممتُ حياتي، ولكنك تعرف يا روبرتو، لم أنسك قط...»، وكانت تعتمر قبّعة على شكل قالب الحلوى، نوعٌ من حلوى البافارية بالقشطة شبيهة تماماً بالتي كان السيّد قد أعدّها للتوّ... .

لم يكن هناك تقريباً أيّ شيء، بقعتان أو ثلاث بقع متناثرة من الحبر. ومع ذلك، كانت تُرى وهي ترفّ أهدابها بشيءٍ من الذبول المحزن، مع اللامبالاة القاسية للائي يعرفن أنّهنّ لا يزلن مرغوبات... .

صغيرات شبيهات بأفا غاردنر دو بوا-كولومب، نساء شوّم صغيرات مغسولات بغسول الريجيكولور.

ستّة خطوطٍ صغيرة ليقول كلّ هذا... كيف رسم؟

وضعت تلك التحفة من يدها وهي تفكّر أنّ العالم ينقسم إلى قسمين: الذين يفهمون رسومات سانبيه والذين لا يفهمونها.

كانت ساذجة ومانوية<sup>(1)</sup> جداً بحيث بدت لها هذه النظرية مناسبة تماماً. ولأخذ مثالٍ على ذلك، كانت تعرف شخصاً كان، كلما تصفّح عدداً من مجلة باري-ماتش ولمح صورة من الصور الكوميديّة، لا يستطيع الامتناع عن الاستهزاء: «لا أرى حقّاً ما يُضحك في هذا... لا بدّ أن يشرح لي أحدهم ذات يوم ممّ يجب أن يضحك المرء...». لا حظّ، كان ذاك الشخص أمّها. كلاً... لا حظّ...

في طريقها إلى صناديق الدفع، صادفت نظرة فويار. هنا أيضاً، لم يكن ذلك تعبيراً: كان ينظر إليها هي، ببساطة.

صورة ذاتية بعضا وقبّعة من القش... كانت تعرف هذه اللوحة ولكنها لم تر قط صورةً بهذا الحجم الكبير. كان غلاف كاتالوغ ضخّم. إذًا، أياكون هناك معرضٌ الآن؟ ولكن أين؟

أكد لها أحد البائعين:

- في القصر الكبير.

- حقّاً؟

كانت صدفة عجيبة... فهي لم تكفّ عن التفكير فيه طيلة الأسابيع الماضية... غرفته ذات الطنافس المطلية، الوشاح المرمي على أريكة القيلولة، الناموسيات المطرّزة، السجّاد المتشابك والضوء المنساب من المصابيح... لأكثر من مرّة، راودتها هذه الفكرة، فكرة أن تجد نفسها داخل لوحة لفويار...

(1) نسبة إلى مذهب ماني الفارسي. (المترجم).

نفس ذلك الإحساس بالبطن الدافئة، شعور الشرنقة،  
اللازمي، المطمئن، الخائق، والمرهق أيضاً...  
تصفحت نسخة الدليل وفوجئت بنوبة من الإعجاب الشديد.  
كانت جميلة جداً... جميلة جداً... صورة ظهر المرأة...  
صدارها الوردى، فستانها الضيق والطويل الأسود، وذاك  
الانسجام الرائع بين وركيها... كيف استطاع أن يُترجم هذه  
الحركة؟ هذا الانسجام الدقيق لوركي امرأة أنيقة تُرى من الظهر؟  
من دون أن يستخدم أي شيء سوى القليل من اللون  
الأسود؟

كيف أصبحت هذه التحفة ممكنة؟

كلّما كانت العناصر المستخدمة نقيّة، كان العمل أكثر نقاءً.  
في الرسم، هناك وسيلتان للتعبير: الشكل واللون، كلّما كانت  
الألوان أكثر نقاءً، كلّما كان جمال العمل أكثر نقاءً...  
كانت هذه مقتطفات من نشرة التعليقات.

أخته النائمة، عنق ميزيا سيرت، المرضعات في حدائق  
صغيرة عامّة. زخارف أثواب الفتيات الصغيرات، صورة مالارميه  
الشخصية بقلم الرصاص، دراسات على صورة إيفون برانتان،  
ذاك الوجه اللطيف الجارح، والصفحات المخربشة لمفكرته،  
ابتسامة لوسي بيلان، صديقتة الصغيرة... إنّ تجميد ابتسامة هو  
أمر مستحيل ومع ذلك كان قد نجح في ذلك... منذ ما يقارب  
قرن، بينما جئنا نقاطعها في قراءتها، ابتسمت لنا تلك المرأة  
الشابة بلطف وبدت وكأنّها تقول لنا: «آه، أهذا أنت؟» بحركة  
متعبة بعض الشيء من رقبتها...



وهذه اللوحة الصغيرة، هناك، لم تكن تعرفها... إنها ليست لوحة بالأحرى، إنها مجرد ورق مقوى... الإوزة... هذا رائع، هذا الشيء... أربعة رجال، اثنان منهم بزيّ السهرة ويعتبران قبعتي تشريفات يحاولان الإمساك بإوزة ساخرة... هذه الكتل من الألوان، شدة التباينات، وتنافر المنظورات... أوه! لا بدّ أنّه قد تسلى كثيراً ذلك اليوم!

بعد ساعة كاملة وبعد أن آلمتها رقبتها، رفعت أخيراً أنفها ونظرت إلى السعر: آخ، تسعة وخمسون يورو... كلا. لم يكن ذلك معقولاً. ربّما في الشهر القادم... بالنسبة لها، كانت لديها فكرة أخرى: مقطوعة موسيقية سمعتها من الراديو في صباحٍ آخر وهي تكنس المطبخ.

حركات لها علاقة بالأسلاف، مكنسة من العصر الحجري، بلاط متهالك تماماً، كانت تدمدم بين قبعتين نسائيتين، حينما جاء صوت سوبرانو ينزع، واحدة بعد الأخرى، شعرات ساعديها. اقتربت من مقدّمة البرنامج مستعيدة أنفاسها:

(Nisi Dominus, Vivaldi, Vespri Solenni per la Festa dell'Assunzione di Maria Vergine...).

حسناً، بعد الحلم بما فيه الكفاية، والذهول بما فيه الكفاية، والإنفاق بما فيه الكفاية، حان وقت الانصراف إلى العمل...

كان ذاك المساء أطول بسبب شجرة الميلاد التي نصبته لجنة المشاريع في إحدى الشركات المكلفة بذلك. هزت جوزي رأسها استهجاناً وهي ترى كلّ الفوضى، وأخذت مامادو عشرات

حبات المندرين وبعض المكسرات لأطفالها. وقد تخلفن جميعهن عن آخر مترو ولكن لم يكن ذلك خطيراً: سوف تدفع شركة توكلين أجور سيارة الأجرة لجميعهن! واختارت كل واحدة منهن سائقها مقهقهةً وتمنين لبعضهن عيد ميلاد سعيداً مسبقاً لكون كاميل وسامية وحدهما تقيّدتا بالرابع والعشرين من الشهر.

## 12

في اليوم التالي، يوم الأحد، تناولت كاميل الغداء في بيت آل كيسلر. كان من غير الممكن الانقطاع عن ذاك البيت. لم يكونوا سوى ثلاثهم وكان الحديث مرحاً. لم تكن هناك أسئلة حساسة، ولا أجوبة غامضة، ولا حالات صمتٍ مضجرة. كانت هدنة عيد ميلادٍ حقيقية. أجل! في لحظة، حينما سألت ماتيلد عن ظروف حياتها في غرفة خدمتهم، اضطرت كاميل أن تكذب قليلاً. لم تشأ أن تذكر انتقالها من الغرفة. ليس بعد... الحذر... لم يكن المزعج الصغير قد رحل وكان يمكنه أن يتسبب بدراما نفسية أخرى...

قالت وهي تلوّح بهديتها:

- أعرف ما هذا...

- كلا.

- بلى!

- هيّا إذأ، قولي... ما هذا؟

كانت العلبة مغلفة. حلّت كاميل شريط الربط، ووضعتها

أمامها.

كان بيار يشرب الحليب. لو أنّها فقط تستطيع التصالح مع  
ذاك الأبله... ..

حينما انتهت، أدارت رسمتها نحوه: قَبَعَة القش، اللحية  
الصهباء، العينان الشبهتان بزّين كبيرين لسروالٍ داخلي، السترة  
الداكنة، إطار الباب والمقبض المبروم، وكأنّها قد استنسخت  
الغلاف حرفياً.

استغرق بيار بعض الوقت قبل أن يفهم:

- كيف رسمت؟

- لقد أمضيتُ، البارحة، أكثر من ساعة وأنا أرنو إليه.

- هل رسمت ذلك من قبل؟

- كلا.

- أوف... ..

ثمّ:

- هل تعافيت؟

- بعض الشيء... ..

- هكذا؟ الكلب الصغير المدرّب؟

سألها وهو يعرض أمامها صورة ادوار فويار.

- كلا، كلا... .. أنا... .. أنا أملأ دفاتر الرسم... .. أقصد

تقريباً... .. لا شيء... .. أمور صغيرة، ماذا... ..

- هل تسليّن فقط؟

- نعم.

اختلج بيار:

- آآاه ممتاز... هل ستعرضين عليّ ما رسمتِه؟

- كلا.

قاطعتهما ماتيلد الدبلوماسية جداً:

- وكيف حال والدتك؟ ألا تزال على حافة الهاوية؟

- بل في قاعها... .

- إذآ لذا كلّ شيء على ما يُرام، أليس كذلك؟

ابتسمت كاميل:

- على أحسن ما يُرام.

أمضوا ما تبقى من السهرة في الحديث عن الرسم. علّق بيار على عمل فويار، بحث تشابهات، وأجرى مقارنات وتاه وسط استطرادات لا متناهية. لمرّات عديدة، نهض ليذهب ويجلب من مكتبته براهين على حدّة ذهنه، وبعد برهة، اضطرتّ كاميل لأن تجلس على حافة الأريكة لتترك مكانها لموريس (دونيس)، لبيار (بونار)، لفيليكس (فالوتون) ولهنري (دو تولوز-لوتريك).

كان، بصفته تاجراً، صعباً، ولكنّه، بصفته هاوياً متنوّراً، كان يشيع سعادة حقيقية. بالتأكيد، كان يتفوّه بحماقات - ومنّ لا يتفوّه بها في مجال الفنّ؟ - ولكنّه كان يقولها بطريقة جيّدة. تشاءبت ماتيلد وأنهات كاميل قارورة الشمبانيا (Piano ma sano).

حينما كاد وجهه يتوارى خلف النفثات الملتفة من دخان سيجاره، اقترح عليها من جديد أن يصحبها من جديد بالسيارة. رفضت. كانت قد أفرطت في الطعام وكان عليها أن تمشي لمسافة طويلة.

كانت الشقة فارغة وبدت لها واسعة جداً، أغلقت على نفسها باب غرفتها وأمضت النصف الثاني من السهرة وهي تتأمل هديتها.

نامت لبضع ساعات في فترة الصباح وانضمت إلى زميلتها أبكر من العادة، كان ذلك مساء عيد الميلاد وكانت المكاتب تفرغ في الساعة الخامسة. كانتا تعملان بسرعة وصمت. غادرت سامية أولاً وظلت كاميل للحظة تمزح مع الحارس الليلي:

- ولكن بشأن اللحية والقلنسوة، هل كنت مرغماً؟  
- كلا، كانت هذه مبادرة ذاتية مني لإضفاء شيء من المرح على الجو!

- وهل تم ذلك؟

- بففف، ماذا تقولين... كان الجميع غير مكترئين... لم يؤثر ذلك سوى على كلبتي... لم يتعرف عليّ. تهجم عليّ، هذا الأبله... أقسم لك، لديّ كلاب غيبّة، ولكن هذا زيتهم...

- ما اسمه؟

- ماتريكس.

- أهي كلبة؟

- كلا، لماذا؟

- أوه... لا لشيء... حسناً، مرحباً، يا ماتريكس.

قالت ذلك متوجّهة إلى الكلب الضخم من فصيلة دابلمان النائم عند قدميه.

- لا تتوقّعي أن يجيبك، لا يفهم شيئاً، أقول لكِ ...

ضحكت كاميل:

- لا، لا، لا أتوقع ...

هذا الشخص، كان لوحده يضاهي الثنائي الكوميدي لوريل

وهاردي.

كانت الساعة تقارب العاشرة مساءً. وكان الناس رشيقيين، يهرولون في كلّ اتجاه وأذرعهم محمّلة بالهدايا. النساء كنّ يعانين من الألم في أقدامهنّ المحصورة في أحذيتهنّ الملمّعة، والأطفال يتراكضون هنا وهناك، والرجال يدقّون في مفكّراتهم أمام الهواتف الداخلية للعمارات.

تابعت كاميل كلّ هذا بلهو. لم تكن مستعجلة، ووقفت في الطابور أمام واجهة مطعم أنيقٍ للوجبات السريعة لكي تتناول غداءً لذيذاً. أو بالأحرى قارورة من شراب. عدا ذلك، كانت مرتبكة كثيراً... أخيراً، أشارت للبائع على قطعة من لحم الماعز ورغيفين صغيرين من الخبز بالجوز. باه... كان ذلك فقط لتتناوله مع نيذ بويك...

فتحت قارورتها ووضعتها ليس بعيداً من جهازٍ للتدفئة لكي تدفئ خمرتها. ومن ثمّ، جاء دورها. ملأت مغطس الحمام بالماء الساخن وظلّت فيه لأكثر من ساعة كاملة وأنفها على مستوى الماء الساخن. ارتدت منامتها، وجوربين سميكين واختارت بلوزتها المفضّلة. بلوزة من الكشمير الباهظ الثمن... من بقايا عصرٍ كامل... فكّت جهاز التسجيل خاصّة فرانك، وضعته في الصالون، وأعدّت لنفسها ركناً وأطفأت كلّ الأنوار والتفت على

نفسها تحت لحافها الريشي في الأريكة القديمة. تصفحت كراس الأغاني، نيسي دومينوس<sup>(1)</sup>، كان على الأسطوانة الثانية. حسناً، صلاة المساء من أجل الصعود، لم يكن القداس المناسب بالضبط وعلاوة على ذلك، كانت ستستمع إلى المزامير من دون ترتيب، كان ذلك أمراً بسيطاً...

أوه، ثم أي أهمية لذلك؟

أي أهمية لذلك؟

ضغطت على زرّ جهاز التشغيل، وأغمضت عينيها: كانت في الفردوس...

وحيدة، في هذه الشقة الفارغة وفي يدها قارورة من شراب الآلهة، كانت تسمع صوت الملائكة. حتى لآلئ الثريا كانت تهتزّ جبوراً.

(Cum dederit dilactis suis somnum.

Ecce, haereditas Domin filii: merces fructus ventris).

كان هذا المقطع رقم 5، والمقطع رقم 5، كان عليها أن تستمع إليه لأربع عشرة مرّة.

وفي المرّة الرابعة عشرة، انفجر قفصها الصدري إلى ألف قطعة.

ذات يوم، بينما كانا بمفردهما في السيارة، سألته لماذا يصغي دائماً إلى نفس الموسيقى، أجابها والدها: «الصوت

(1) الاسم الذي يُطلق على المزمور الرقم 127. (المترجم).

البشري أجمل من كل الأجهزة، إنه الأكثر تأثيراً... وحتى أمهر الموسيقيين في العالم سوف لن يستطيع أن يمنحك الانفعال الناجم عن صوتٍ جميل... هذه هبة ربّانية لنا... هذا أمرٌ ندرکه ونحن نشيخ، يبدو لي... أقصد، أنا على أيّ حال، استغرقتُ بعض الوقت إلى أن أقررتُ بذلك، ولكن، أخبريني... أتريدين شيئاً آخر؟ أتريدين أغنية أمّ الأسماك؟».

كانت قد شربت نصف القارورة، وأدرجت الأسطوانة الثانية، حينما أشعل الضوء.

كان ذلك مربعاً، وضعت يديها أمام عينيها وبدأت لها الموسيقى فجأةً في غير محلّها. الأصوات غير اللائقة، شبه المخنخنة. في ثانيتين، تواجد الجميع في المطهر.

- حسناً، أنتِ هنا؟

- ...

- ألسِ في بيتكِ؟

- هناك في الطابق العلوي؟

- كلا، في بيت والديك... ..

- كلا، أنت ترى... ..

- هل اشتغلتِ اليوم؟

- نعم.

- آه عذراً... عذراً... اعتقدتُ أنّ لا أحد هنا... ..

- لا بأس... ..

- وماذا تفعلين؟ أهذا ألبوم كاستافور؟



- كلا، هذا قدّاس... .

- آه حقاً؟ هل أنتِ مؤمنة؟

كان عليها من كلّ بد أن تقدّمه لحارسها الليلي... سيخوض  
الاثنان معركة... أفضل حتى من عجزة المسلسل التلفزيوني  
... Muppet Show

- كلا، ليس بشكلٍ خاصّ... هلا أطفأت الضوء، من  
فضلك؟

اعتذر منها وغادر الغرفة ولكن الأمر لم يكن كما كان. كان  
الجوّ الأسر للموسيقى قد قوطع. واستفاقت من السكره، وحتى  
الأريكة لم تعد على شكل سحابة. ومع ذلك حاولت أن تتركز،  
أمسكت بالكّراس من جديد وبدأت من حيث كانت:  
(Deus in adiutorium meum intende).

يا ربّ، أعني!

نعم، كان هذا هو المعنى بالضبط.

كان الأحمق الآخر يبحث على ما يبدو عن شيء ما في  
المطبخ ويزعق منتقماً من كلّ أبواب الخزانة:

- قولي إذاً، ألم تري جفتين صفراوين من ماركة تابروير؟

يا للشقاء...

- الكبيرتان؟

- نعم.

- كلا. لم ألمسهما...

- آه، أزعجيني... لا نعثر أبداً على أيّ شيء في هذا

الكوخ... ماذا تفعلين بأنية المائدة؟ أتلتهمينها أم ماذا؟

ضغطت كاميل على زرّ التوقّف متنهدة:

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً متطفاً؟ لماذا تبحث  
عن جفنة تابروير صفراء في الساعة الثانية فجراً من ليلة الميلاد؟  
- لأنني. أحتاج إليها.

حسناً، كان الأمر هنا شنيعاً. نهضت وأوقفت جهاز  
التسجيل.

- أهذا جهازي؟

- نعم... لقد سمحتُ لنفسي...

- سحقا، إنه في غاية الجمال... قل لي إذا أنك لست  
غاضبة منّي!

- كلا، لستُ غاضبة منك، قل لي إذا... ..

فتح واسعاً عينيه الشبهتين بعيني سمكة المغرب:

- لماذا ترددين كلامي، هنا؟

- لا شيء. عيد ميلاد سعيد يا فرانك. هيّا تعال، سنبحث

عن جفتك... .. هناك، أنظر فوق المايكروويف...

عادت وجلست في الأريكة بينما كان منهمكاً في ترتيب

الثلاجة. ثمّ عبر الغرفة من دون أن يتفوّه بكلمة وذهب لكي

يستحمّ. اختبأت كاميل خلف كأسها: على الأرجح ستكون قد

أفرغت أنبوية الماء الساخن...

- سحقا، ولكن منْ أخذ كلّ الماء الساخن، اللعنة؟

عاد بعد نصف ساعة، مرتدياً بنطال الجينز وعاري الصدر.

بلا مبالاة، انتظر لحظة إضافية قبل أن يرتدي بلوزته...

كانت كاميل تبسم: لم تعد مقاصده تخفى عليها...

سألها وهو يشير إلى الطاولة:

- هل يمكنني؟

- تصرّف وكأنك في بيتك...

- لا أصدّق، تأكلين؟

- جبناً وعنباً...

- وقبل ذلك؟

- لا شيء...

هزّ رأسه:

- هذا جبنٌ لذيذٌ جداً، أنت تعرف... وعنبٌ لذيذٌ جداً...

ونبيذٌ لذيذٌ جداً أيضاً... أتريد بعضاً منها؟

- كلا، كلا، شكراً...

أوف، اعتقدت، إن مقاسمته زجاجة النبيذ قد تؤلم

نهديتها.

- كيف حالك؟

- عفواً؟

كرّر:

- أسألك كيف حالك؟

- أوه... نعم... وأنت؟

- متعب...

- هل ستعمل غداً؟

- كلا.

- هذا جيد، هكذا تستطيع أن ترتاح...

- كلا.

حديثٌ رائعٌ...

اقترب من الطاولة الخفيفة. أخذ علبة للأقراص المدمجة

وأخرج مخدراته:

- هل ألفت لك سيجارة منه؟

- كلا، شكراً.

- صحيح أنك جديّة...

قالت وهي تقدّم كأسها:

- أنا اخترتُ شيئاً آخر.

- أنتِ مخطئة.

- لماذا، هل الكحول أسوأ من المخدّر؟

- نعم. ويمكنك أن تصدّقيني لأنني رأيتُ في حياتي

سكّيرين، أنتِ تعلمين... ثم إنّ هذا ليس مخدّراً وإنما عبارة عن

مهدئ... إنه مثل (Quality Street) بالنسبة للكبار...

- لو تقول ذلك...

- ألا تريدان أن تجرّبي؟

- كلا، أنا أعرف نفسي... أنا متأكّدة من أنني سأحبّه!

- وإذاً؟

- إذاً لا شيء... صحيح أنني أعاني من مشكلة القوّة

المحرّكة... لا أدري كيف أشرح ذلك... غالباً ما أشعر بأنّ زراً

ينقصني... شيئاً أضبط به العيار... أذهب غالباً بعيداً في اتجاه

أو آخر... لا أستطيع قط إيجاد التوازن الصحيح وينتهي الأمر

دوماً على نحوٍ سيئ، ميولي...

فوجئت بنفسها. لماذا هذه الثقة بالنفس؟ تُرى أهي سكرةٌ خفيفة؟

- حينما أشرب، أفرط في الشراب، حينما أدخن، أقتل نفسي، حينما أحبّ، أفقد رشدي، وحينما أعمل، أستقتل... لا أجد فعل أيّ شيء على نحو طبيعي، بهدوء، أنا... .

- ومتى تكرهين؟

- هذا ما لا أعرفه...

- كنتُ أعتقدُ أنّك تكرهيني؟

ابتسمت:

- ليس بعد، ليس بعد... سوف ترى حينما يحدث ذلك... سوف ترى الفارق...

- حسناً... إذا؟ هل انتهى قداسك؟

- نعم.

- إلى ماذا سنستمع الآن؟

- أوه... الحق يُقال، لستُ متأكدة تماماً من أننا سنحَبّ الأشياء نفسها...

- ومع ذلك ربّما يكون لدينا شيءٌ مشترك... مهلاً... دعيني أفكر... أنا متأكّدة من أنني سأجد مغنياً ستحيّنه أيضاً...

- هيّا حاول...

رَكَز على إعداد وصلته. حينما أصبحت جاهزة، ذهب إلى غرفته ثم عاد وقرضن أمام جهاز التسجيل.

- ما هذا؟

- فحُّ للفتيات... .

- أهذا ريشار كوكسيانت؟

- كلا... .

- خوليو ايغليسياس؟ لويس ماريانو؟ فريديريك فرانسوا؟

- كلا.

- هربيرت ليونار؟

- هس... .

- آه! لقد عرفت! روش فوازين!

(I guess I'll have to say... This album is dedicated to you...).

- لا!!!!!!!!!!!!... .

- بلللللى... .

- مارقان؟

قال مباعداً بين ذراعيه:

- هيه! لقد قلتُ لكِ فحُّ للفتيات... .

- أنا أعشق... .

- أدري... .

- هل نحن قابلون للتنبؤ بهذا القدر؟

- كلا لسبِّ قابلة للتنبؤ لسوء الحظِّ، ولكن مارقان، يفعل

ذلك دائماً، لم أصادف فتاةً لا تنهار... .

- ولا واحدة؟

- ولا واحدة، ولا واحدة، ولا واحدة... . بالتأكيد أجل!

ولكنني لا أتذكّر. لا يُحسِنُ... أو لم نحظّ بفرصة الذهاب إلى ذلك الحدّ...

- أعرفت الكثير من الفتيات؟

- ما معنى عرفت؟

- هيه! لماذا رفعته؟

- لأنني أخطأت، ليس هذا ما أردتُ وضعه...

- ولكن بلى، دعه! هذا مغنيّ المفضّل! (Sexual

Healing)، أليس كذلك؟ أوففف، إذا أنتم، أنتم قابلون

للتنبؤ... هل تعرف حكاية هذا الألبوم على الأقلّ؟

- أيّ ألبوم؟

- (Here my dear).

- كلا، لا أستمع إلى هذا كثيراً...

- أتريد أن أرويها لك؟

- مهلاً... سأستقرّ في مكاني... أعطني مخدّة...

أشعل لفافته وتمدّد على الطريقة الرومانية مسنداً رأسه على

راحة يده.

- أنا أصغي إليك...

- حسناً، أوه... لستُ مثل فيليببير، إذاً، سأرويها لك

إجمالاً... إذاً (Here my dear) يعني تقريباً: تفضّل، ها هي

عزيزتي... كان الحبّ العظيم الأوّل لمارفان فتاة تُدعى أنا

غوردي. يُقال: إنّ الحبّ الأوّل هو دائماً الحبّ الأخير، لا

أدري إن كان هذا صحيحاً، ولكن بالنسبة له على الأقلّ، من

الواضح أنه ما كان ليصبح كما هو عليه لو لم يصادفها... كانت شقيقة أحد أركان شركة موتون للتسجيلات، أعتقد أنه مؤسسها: بيري غوردي. كانت مشهورة جداً في الوسط الفني، وكان هو ينشط لإثبات ذاته. كان ينضح موهبةً، وهو بالكاد يبلغ العشرين من العمر بينما كانت هي بضعف عمره تقريباً حينما التقيا. حسناً، صعقة حبّ، شغف، أغنية عاطفية، خطوبة وكلّ ما تبقى. وكانت الانطلاقة... هي مَنْ جعلته شهيراً، ووضعتة على السكّة الصحيحة، وساعدته ووجّهته وشجّعتة الخ. كانت بمثابة بيغماليون بالنسبة له، إن شئت...

- بمثابة ماذا؟

- بمثابة شيخٍ روعي، مدرّبٍ رياضي، وقود له... عانيا كثيراً للظفر بطفلٍ وانتهيا إلى تبني طفل، ثمّ جرت الأمور بسرعة، وفي العام 1977 بدأ رباطهما الزوجي يتحلّل. كان هو قد اشتهر كثيراً وأصبح نجماً معبوداً... وكان طلاقهما، ككلّ حالات الطلاق، مدوّياً. تصوّر، كانت الرهانات مدهشة... كان ذلك عنيفاً ولتهدئة الجميع وتصفية حساباتهما، اقترح محامي مارفان أن تذهب كلّ عائدات ألبومه القادم إلى حساب زوجته السابقة. وافق القاضي وتحمّس نجمنا المعبود للفكرة: كان في ذهنه أن يعدّ على عجلٍ ألبوماً لكي يتخلّص من هذه السُخرة... ولكنه لم يستطع... لا يمكن للمرء أن يبغض حكاية حبّ بهذه الطريقة. أقصد... أن هناك مَنْ بوسعهم فعل ذلك ولكن ليس هو... كلّما فكّر أكثر كلّما قال في نفسه إنّ المناسبة جميلة جداً... أو مرثية جداً... وبالتالي، انغلق على نفسه وألّف هذه



الأعجوبة الصغيرة التي تروي كلّ حكايتها: لقاؤهما، شغفهما، العيوب الأولى، طفلتهما، الغيرة، الحقد، الغضب... أتسمع هنا؟ الغضب حينما يفسد كلّ شيء؟ ثمّ الهدوء وبدء حبّ جديد... هذه هدية فائقة الجمال، ألا ترى ذلك؟ لقد تفانى تماماً، أخرج أفضل ما لديه من أجل ألبوم لن يدرّ عليه قرشاً واحداً في نهاية المطاف...

- هل أعجبها ذلك؟

- أعجب من، هي؟

- نعم.

- كلا، كرهت ذلك. جنّ جنونها غضباً ولامته لوقتٍ طويل على نشره لحياتهما الخاصّة على الملأ... تفضّل، ها هو الألبوم: (This is Anna's Song)... أتسمع كم هذا جميل... اعترف أنّ ليس لهذا رائحة الانتقام، إنّه... إنّه الحبّ...

- نعم...

- جعلك هذا مطرّقاً في التفكير...

- أتؤمنين بذلك؟

- بماذا؟

- بأنّ الحبّ الأوّل هو دائماً الحبّ الأخير؟

- لا أدري... أتمنى ألا أوّمن بذلك...

استمعنا إلى الأسطوانة حتى نهايتها من دون أن يتبادلا الكلام.

- حسناً، هيّا... الساعة تقارب الرابعة، سحقاً... سأكون

لا أزال حياً، غداً...

نهض.

- ستذهب إلى عائلتك؟

- إلى ما تبقى منها، نعم... .

- ألم يتبقّ لك الكثير منها؟

- هكذا.

قالها وهو يقرب إبهامه وسبابته من عينها.

ثمّ سألتها:

- وأنتِ؟

- هكذا.

أجابت وهي تمرّر يدها فوق رأسها.

- حسناً، حسناً... أهلاً وسهلاً بك في النادي... هيا... .

طابت ليلتك... .

- أتمام هنا؟

- أيزعجك ذلك؟

- لا، لا، فقط لكي أعرف... .

استدار:

- هل تنامين معي؟

- عفواً؟

- لا، لا، فقط لكي أعرف.

تلوّى من الضحك.

## 13

حينما استيقظت، نحو الساعة الحادية عشرة، كان قد غادر.

أعدت لنفسها إبريقاً كبيراً من الشاي وعادت إلى سريرها.

إذا كان عليّ أن أردّ حياتي إلى حقيقة وحيدة، فهذا ما سأقوله: كنتُ في السابعة حينما سار ساعي البريد على رأسي... تملّصت من حكايتها في نهاية فترة ما بعد الظهر لتذهب وتشترى تبغاً. إنه يوم عطلة وسيكون ذلك صعباً، ولكن لا يهمّ، كان ذلك مجرد ذريعة لتدع الحكاية تتضح ولكي تحظى بمتعة اللقاء بصديقها الجديد بعد ذلك بقليل.

كانت الشوارع العريضة للدائرة السابعة مقفرة. سارت طويلاً لكي تجد مقهى مفتوح الأبواب، واستغلّت ذلك لتتصل بمنزل خالها. تبددت شكاوى والدتها (أفرطت في تناول الطعام، الخ) وسط فيض العواطف العائلية البعيدة.

كان هناك الكثير من أشجار التنوب على الرصيف... ظلّت للحظات تشاهد بهلوانات العجلات في ساحة تروكاديرو وتحسّرت على عدم جلبها لدفتر رسمها معها. أكثر من شقلياتهم، التي كانت غالباً متكلّفة ولا أهمية لها، كانت تحبّ عدّدهم الرائعة: ألواح قفز مرتجّة، مخاريط صغيرة لامعة، عُلب فارغة مصفوفة، ألواح مقلوبة وألف طريقة أخرى لتهشّم الفم إذا ما فقد أحدهم توازنه...

فكّرت في فيليبير... تُرى ماذا يفعل في هذه اللحظة بالضبط؟

سرعان ما غابت الشمس ولفح البرد كتفيها. طلبت شطيرة من أحد مشارب البيرة الفارهة القريبة من المكان ورسمت على الغطاء الورقي الوجوه المتقرّزة لصبيان الحيّ الذين كانوا يقارنون بين الشيكات المهداة من أمهاتهنّ الطيّبات، ممسكين بخصور فتياتٍ منبهرات، يشبهن لعبة باربي.

قرأت بضع كلمات أخرى لإدغار مانث وعبرت نهر السين  
من جديد وهي ترتعش.

كانت العزلة تهلكتها.

العزلة تهلكني، كانت تردّد على نفسها بصوتٍ خفيض،  
العزلة تهلكني...

ربّما الذهاب إلى السينما؟ بففف... ومع مَنْ سأتكلم عن  
الفيلم بعد ذلك؟ ما جدوى الأحاسيس إذا كانت للذات الوحيدة؟  
أمسكت برتاج الباب لتفتحه وأصيبت بالإحباط حينما وجدت  
الشقة فارغة.

قامت ببعض الترتيبات في أثاث البيت ثمّ أمسكت من جديد  
بكتابها. كان الرجل العظيم يقول إنّ ما من حزينٍ لا يستطيع كتاباً  
تخفيفه. هيّا لنرّ...

حينما سمعت صرير القفل، تظاهرت باللامبالاة وضمتّ  
ساقها تحتها وهي تتلوّى على الأريكة.

كان برفقة فتاة. فتاةٌ أخرى. أقلّ جاذبية.

مرّاً سريعاً في الممرّ وأغلقا باب غرفته عليهما.

وضعت كاميل الموسيقى من جديد لكي تغطّي على لهوهم  
ومرحهم.

احم...

لعبة الكرات. هكذا تُسمّى، أليس كذلك؟ لعبة الكرات.

في النهاية، أخذت كتابها ولجأت إلى المطبخ في آخر  
الشقة.

بعد ذلك بوقتٍ قليل، فاجأت حديثهما في المدخل. سألت مندهشةً:

- إذا أُلن تأتي معي؟

- كلا، أنا منهنك، لا رغبة لديّ في الخروج...

- مهلاً، أنت مزعج... أنا تخلّيتُ عن كلّ عائلتي لأكون

معك... لقد وعدتني بأننا سنذهب لتناول العشاء في مكانٍ

ما...

- قلتُ لكِ إنني منهنك...

- على الأقلّ، نذهب ونشرب قدهاً...

- أنتِ ظمّانة؟ أتريدين علبة بيرة؟

- ليس هنا...

- أوه... ولكن كلّ المحلّات مغلقة اليوم، وأنا سأعمل

غداً!

- لا أعتقد ذلك... لم يعد لديّ سوى أن أنصرف، أليس

كذلك؟

أضاف بنبرة الّطف:

- هيا، لا توبّخيني... مرّي غداً مساءً إلى المطعم...

- متى؟

- نحو منتصف الليل...

- نحو منتصف الليل... لا يهّم... هيا بالسلامة،

اذهب...

- هل حردتِ؟

- بالسلامة.

لم يتوقع أن يجدها في المطبخ ملفوفة في لحافها الريشي.

- أكنتِ هنا؟

رفعت عينيها من دون أن تجيب.

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- عفواً؟

- مثل خسيصة.

- ليس تماماً.

قال غاضباً:

- أجل، أجل، أرى ذلك جيّداً. هل من مشكلة؟ هل من

شيءٍ خيبك هنا؟

- هيه، كفى... دعني وشأني... لم أقل لك شيئاً. لا شأن

لي بحياتك. افعل ما تشاء! لستُ والدتك!

- جيّد! أفضل هذا...

سأل وهو يبحث في الثلاجة:

- ماذا سنأكل؟ لا شيء بالطبع... لم يعد هناك أيّ شيء

هنا... ماذا تأكلان أنتِ وفيليبير؟ تأكلان كتبكما؟ تأكلان

الذباب؟

تنهّدت كاميل ولملمت أطراف وشاحها الكبير.

- ستخرجين؟ هل أكلتِ؟

- نعم.

- آه صحيح وكأنتكِ قد سمنتِ بعض الشيء...

قالت ملتفتة إليه :

- هيه، لا أتدخل في حياتك فلا تتدخل في حياتي، اتفقنا؟  
ربما ما كان عليك أن تذهب وتعيش مع صديقٍ بعد الأعياد؟  
أجل، هذا صحيح، أليس كذلك؟ حسناً، لم يبق لنا إذاً سوى  
أسبوعٍ واحدٍ نبقى فيه معاً... وعلينا أن ننجح في ذلك. اسمع  
إذاً، سيكون من الأفضل ألا نتبادل الكلام...

بعد ذلك بقليل، دقّ باب غرفتها.

- نعم؟

رمى علبة على سريرها.

- ما هذه؟

كان قد خرج.

علبةٌ مربعةٌ طرية. كانت الورقة بشعة، مجعّدة تماماً وكأنّها  
قد استُخدمت عدّة مرّات وتفوح منها رائحة غريبة. رائحة عفونة.  
صينية مطعم...

فتحتها كاميل بحذر واعتقدت في البداية أنّها ممسحةٌ  
إسفنجية. هدية مشبوهة من مدّعي الجمال المجاور. ولكن، كلا،  
كان وشاحاً، طويلاً جداً، رخواً جداً بل سيئ النسج: ثقبٌ،  
وخيّطٌ، وعقدتان، ثقبٌ، خيّطٌ وهكذا. أتكون هذه نقطة جديدة؟  
كانت ألوانه خاصّة...

كان الطرد مرفقاً بكلمة قصيرة.

كتبتها معلّمة من بداية القرن، بحبرٍ أزرق باهت، مرتجفة

وتعتذر:

أنستي،

لم يعرف فرانك أن يقول لي ما هو لون عينيك فوضعتُ قليلاً من كل شيء. أتمنى لك عيد ميلاد سعيداً.

بوليت ليستافيه

عَضَّت كاميل على شفتها. مع كتاب آل كيسلر، الذي كان يُعدّ مفيداً لكونه لا يزال يتضمّن شيئاً من قبيل «إيه، نعم، هناك مَنْ ينجزون أثراً فنياً...»، كانت تلك هديتها الوحيدة.

أه كم كانت قبيحة... أه كم كانت جميلة... ..

وقفت منتصبة على سريرها ودغدغت حول رقبتها على طريقة ثعبان بوا لتسلية المركز.

بو بو بي دو أووواه... ..

مَنْ تكون بوليت؟ أهي أمّه؟

أكملت قراءة كتابها وسط العتمة.

حسناً. كان عيد الميلاد قد انتهى.

## 14

من جديد الدورة نفسها: الرقاد، المترو، العمل. لم يعد فرانك يوجّه إليها الكلام وهي تجنّبته قدر المستطاع. في الليل، نادراً ما كان يحضر.

تحركت كاميل قليلاً. ذهبت لتشاهد بوتيشللي في لوكسمبورغ، زاو وو-كي في المعرض الوطني ولكنها رفعت عينها إلى السماء حينما رأت رتل الانتظار بشأن فويار. ثمّ كان هناك في المقابل غوغان! يا له من خيار صعب! كانت هناك



مأخوذة بين مدينة الرسم بون-آفين والمركز وساحة فانتميل...  
كان ذلك فظيلاً...

وأخيراً، رسمت الناس الواقفين في الطابور، وسقف القصر الكبير ودرج القصر الصغير. اقتربت منها يابانية ألحّت ترجوها أن تذهب معها لشراء حقيبة من محلات فويتون. مدّت إليها أربع أوراق من فئة خمسمائة يورو وتململت وكأنّ المسألة كانت مسألة حياة أو موت. باعدت كاميل بين يديها:

«Look... Look at me... I am too dirty...».

قالت ذلك وهي تشير إلى جزمتيها الضخمتين وبنطالها الجينز الفضفاض، وبلوزتها الكبيرة كبلوزة سائق شاحنة، ووشاحها الغريب، والمعطف العسكري الذي أعاره إياها فيليب... ..

«They won't let me go in the shop...».

عبست الفتاة، لفت أوراقها النقدية من جديد واقتربت من شخصٍ آخر على بعد عشرة أمتار.

ومن جرّاء ذلك، سلكت جادة مونتايين. لكي ترى.

كان الحراس الليليون مدهشين حقاً... .. كانت تكره هذا الحيّ الذي يُظهر فيه المال ما هو أقلّ إمتاعاً: الذوق الرديء، السلطة، والعجرفة. أسرع الخطي أمام واجهة محلات مالو: الكثير من التذكارات. وعادت عبر الأرصفة.

في العمل، لم يكن هناك ما يُذكر. كان البرد لا يزال قارصاً لا يُحتمل حينما أنهت تسجيل حضورها على قائمة الدوام.

عادات بمفردها، وأكلت بمفردها، ونامت بمفردها،  
واستمعت إلى فيفالدي وهي تلف ذراعيها حول ركبتيها.  
كانت لدى كارين خطة لسهرة ليلة رأس السنة. لم تكن  
راغبة أبداً في الذهاب إليها ولكنها كانت قد دفعت ثلاثين يورو  
لقاء الاشتراك لكي تنعم بالسلام وتجد نفسها في طريق مسدود.  
وبّخت نفسها:

- يجب الخروج.

- ولكنني لا أحبّ هذا...

- لماذا لا تحبّين هذا؟

- لا أدري...

- أتخافين؟

- نعم.

- ممّ؟

- أخاف أن يهزّ لبابي... ثم... أشعر أيضاً بالخروج

حينما أتوه داخل نفسي... أتجول... هذا أيضاً أمرٌ عظيم...

- أتريدين أن تضحكي؟ هذا أمرٌ صغيرٌ جداً! هيا، تعالي،

إنّ لبابك ينثر رائحة ننتة...

كان هذا النوع من المناقشة بينها وبين وجدانها المسكين

ينهك دماغها طيلة ساعات...

حينما عادت، ذاك المساء، وجدته على السّلم:

- أنسيّت مفاتيحك؟

...

- هل أنت هنا منذ وقتٍ طويل؟

قام بحركة منزعجة أمام فمه ليدكرها بأنه لا يستطيع التكلّم. هزّت كتفيها. لم تعد في سنّ اللعب بهكذا ترّهات.

راح لينام من دون أن يستحمّ، من دون أن يدخن، من دون أن يسعى لإزعاجها. كان متضايقاً.

خرج من غرفته في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي، ولم يكن قد سمع صوت منبهاها بل ولم يتوقّر على القدرة لكي يحتجّ. كانت في المطبخ، جلس قبالتها، صبّ لنفسه فنجاناً من القهوة واستغرق لحظة قبل أن يقرّر شربه.

- كيف حالك؟

- متعب.

- ألا تأخذ أبداً عطلة؟

- بلى. الأيام الأولى من شهر كانون الثاني (يناير)... لكي

أبدّل سكني...

نظرت عبر النافذة.

- هل ستكونين هنا نحو الساعة الثالثة عصراً؟

- لكي أفتح لك الباب؟

- نعم.

- نعم.

- ألا تخرجين أبداً؟

- بلى. يحصل لي ذلك أحياناً، ولكن الآن، سوف لن

أخرج بما أنّك لا تستطيع العودة...

هزّ رأسه مثل شبح.

- حسناً، عليّ أن أذهب وإلا سأعرّض نفسي للعقاب...

نهض لكي يغسل قدحه.

- ما هو عنوان والدتك؟

تجمّد أمام المجلى.

- لماذا تسأليني هذا السؤال؟

- لكي أشكرها...

شعر وكأنّ في حلقة قَطَا:

- تشكككك... تشكرينها على ماذا؟

- حسناً... أشكرها على الوشاح.

أجاب مصحّحاً، وقد ارتاح:

- آاه... ولكن هذه ليست والدتي من أهدتك إياه وإنّما

جدّتي! ليس هناك سوى جدّتي تنسج بهذه الجودة!

ابتسمت كاميل.

قال لها:

- هيه، لست مضطّرة لكي تضعي هذا الوشاح، تعرفين...

- أحبه كثيراً...

- لم أستطع الامتناع عن الانتفاض حينما عرّضته عليّ...

ضحك.

- مهلاً، هذا لا شيء... سوف ترين وشاح فيليبير...

- وما هو لونه؟

- برتقالي وأخضر.

- أنا واثقة من أنه سيضعه... سوف يتحسّر ببساطة على  
عدم قدرته على لثم يدها لكي يشكرها...  
- نعم، هذا ما قلته في نفسي وأنا أغادر... إنها فرصة لأن  
تكونا أنتما الاثنان... أنتما الشخصان الوحيدان اللذان أعرفهما  
في العالم القابلان لأن ترتديا هذه الأشياء القبيحة جداً من دون  
أن تَبْدُوا مضحكين...  
حدّثت فيه:

- هيه، هل تعلم أنك تفوّتت بكلام لطيفٍ هنا؟  
- أهذا لطفٌ أن أصفكما بمهرّجين؟  
- آه عفواً... اعتقدتُ أنك كنت تتكلّم عن طبقتنا  
الطبيعية...

استغرق لحظة قبل أن يجيبها:

- كلا، كنتُ أتكلّم عن... عن حريرتكما، أنا أو من...  
بهذه الفرصة التي تحظيان بها في أن تعيشا في لا مبالاة تامّة...  
في تلك اللحظة، رنّ هاتفه النقال. لا حظّ، لمرة واحدة  
كان يحاول أن يقول شيئاً فلسفياً...

«أنا قادم، يا ريس، أنا قادم... حسناً، حسناً، أنا  
جاهز... طيب، جان-لوك ليس له سوى أن يقوم بذلك، إنه...  
مهلاً، يا ريس، أنا أحاول أن أوبّخ فتاةً أكثر ذكاءً مني بكثير،  
وبالتالي، هذا يستغرق وقتاً أكثر من المعتاد... ماذا؟ كلا، لم  
أتصل به بعد... مهما يكن، لقد أخبرتك بأنه لن يستطيع القيام  
بذلك... أنا أعلم أنهم جميعاً مرهقون، أعلم ذلك... حسناً،  
سأهتمّ بالأمر... سنأتصل به في الحال... ماذا؟ الكفّ عن  
الاهتمام بالفتاة؟ نعم، أنت محقّ بالتأكيد، يا ريس...»

أخبرها وهو يتسم لها ابتسامة ساذجة:

- كان هذا رئيس قسمي.

قالت مندهشة:

- حقاً؟

نظف قدحه، غادر المكان وأمسك بالباب بإحكام لئلا يُصفق.

نعم كانت هذه الفتاة ساذجة ولكنها لم تكن حمقاء وكان هذا هو الأمر الجيد.

مع أيّ امرأةٍ أخرى، كان ليغلق السماعه وينتهي الأمر. في حين أنه معها، أخبرها بأنّ المتّصل كان رئيس قسمه لكي يُضحكها، وهي كانت خبيثة جداً بحيث تظاهرت بأنها مذهولة لتعيد إليه طُرفته. كان الحديث معها أشبه بلعب كرة الطاولة: كانت تمسك بالمضرب وترسل إليك ضربات ساحقة في زوايا لم تتوقّعها، فكنت تشعر بأنك أقلّ غباءً.

نزل السلالم وهو يمسك بحرف الدرج وسمع طقطقة المسننات والتروس فوق رأسه. مع فيليبير، كان الأمر مشابهاً، كان يحبّ كثيراً أن يتناقش معه بسبب هذا الأمر...

لأنه، كان يعرف أنه ليس همجياً بالقدر الذي يبدو عليه، ولكنّ مشكلته كانت تكمن فقط في الكلمات... تخونه الكلمات دائماً وبالتالي يضطرّ لأن يتوتّر لكي يفصح عن مراده... هذا صحيح، كان ذلك مزعجاً حقاً، اللعنة!

ولكلّ هذه الأسباب كان يزعجه أن يغادر... ماذا سيفعل حينما يصبح في بيت كيرماديك؟ الإفراط في الشراب والتدخين ومشاهدة أفلام DVD وتصفّح المجلات في المراحيض؟

رائع.

العودة إلى خانة العشرين عاماً.

أكمل دوامه بشرود.

الفتاة الوحيدة في الكون القادرة على أن ترتدي وشاحاً

نسجته جدته وتبقى جميلة، سوف لن تكون قط له.

كانت الحياة حمقاء...

مرّ على محلّ الحلوى قبل أن يغادر، وبخ نفسه لأنه لم

يكن قد اتّصل بتلميذه السابق وعاد لكي ينام.

لم ينم سوى ساعة واحدة فقط لأنه كان عليه الذهاب إلى

المغسلة. لملم كلّ ثيابه ورتّبها في غطاء فراشه الريشي.

## 15

حتماً...

كانت لا تزال موجودة، هناك. جالسةً بالقرب من الآلة رقم

7 مع حقيبة بياضات مبلّلة بين ساقها. كانت تقرأ.

جلس قبالتها من دون أن تلاحظ حضوره. كان ذلك يُبهره

دائماً... كيف كانت وفيليبير قادرين على التركيز... كان ذلك

يذكره بإعلان، رجلٌ يتناول بهدوء جبن بورسان في حين ينهار

العالم من حوله. كانت أمورٌ كثيرة تذكره بإعلانٍ ما... كان ذلك

بالتأكيد لأنه كان يشاهد التلفاز كثيراً في طفولته...

لعب لعبةً صغيرة: تخيّل أنك قد عدتَ إلى مغسلة

لافوماتيك العفنة هذه في جادة بوردونيه في 29 كانون الأول

(ديسمبر) في الساعة الخامسة بعد الظهر ورأيت هذا الشبح للمرّة

الأولى في حياتك، ماذا كنت ستقول في نفسك؟

عدّل جلسته في كرسيه البلاستيك وغطى يديه ببلوزته وأغمض عينيه.

أولاً، كنت لتعتقد أنّ هذا رجلٌ. كما اعتقدت في المرة الأولى. ربّما ليس مجنوناً، وإنّما شخصٌ مخنّث جداً... وبالتالي، كنت ستكفّ عن النظر إليها برغبة. ومع ذلك... كانت الشكوك لتراودك رغم كلّ شيء... بسبب يديها، بسبب رقبتها، بسبب طريقتها الفريدة في تمرير ظفر إبهامها على شفرتها السفلى... نعم، كنت لتتردّد... أتكون فتاة؟ فتاةً ترتدي كيساً. وكأنّها تسعى لإخفاء جسدها؟ ربّما ستحاول النظر باتجاهٍ آخر ولكنك لن تستطيع الامتناع عن العودة إليها. لأنّ هناك شيئاً ما، هنا... كان الهواء خاصّاً حول هذا الشخص. أو ربّما الضوء؟ نعم. كان الأمر كذلك.

لو أنّك عدتَ إلى مغسلة لافوماتيك العفنة هذه في جادة بوردونيه في 29 كانون الأول (ديسمبر) في الساعة الخامسة بعد الظهر ورأيت هذا الشبح تحت ضوء المصابيح الكابي، لقلت في نفسك مباشرة هذا الكلام: سحقا... ملاك...

رفعت رأسها في تلك اللحظة، رأتها، للحظة لم تُظهر أي ردّ فعل، وكأنّها لم تتعرّف عليه، وفي النهاية ابتسمت له. أوه، تقريباً لا شيء، ابتسامة خفيفة، إشارة عرفانٍ صغيرة بين روادٍ...  
- أهذه أجنحتك؟

- عفواً؟

- كلا، لا شيء...

توقّفت إحدى الآلات المجقّفة عن الدوران وتنهّدت ملقياً



نظرة على ساعة الحائط. اقترب متسكعاً من الآلة، أخرج منها بلوزة وقميص نوم ممزقاً تماماً.

كان هذا هو المهم... تأكدت نظريته بالوقائع... لا تضع أيّ فتاة طبيعية حوائجها للتجفيف بعد حوائج متسكع وكان يعرف عمّ يتكلم: كان له ما يقارب خمسة عشر عاماً من الخبرة في المغاسل الآلية...

تفحص وجهها.

لم تكن هناك أدنى حركة تراجع أو تردد، ولا أثر للعبوس. نهضت، وضعت ألبستها في الآلة وسألته إن كان بوسعه أن يبدل لها ورقة نقدية بقطع نقدية أصغر.

ثمّ عادت إلى مكانها وأمسكت بكتابها.

كانت محبطة بعض الشيء.

كان الناس الكاملون مزعجين.

قبل أن تستغرق في القراءة، سألته:

- أخبرني...

- نعم.

- لو أهديت آلة غسيل تقوم بالتنشيف أيضاً إلى فيليبير

بمناسبة عيد الميلاد، هل تعتقد بأنك ستمكّن من تركيبها قبل أن

تغادر؟

...

- لماذا تبسم هكذا؟ هل تفوّهت بحماقة؟

- كلا، كلا...

قام بحركة بيده :

- لا يمكنك أن تدركي ...

قالت وهي تربّت بالسبابة والوسطى على فمها :

- هيه، أنت تفرط في التدخين الآن، أليس كذلك؟

- في الواقع، أنت فتاة عادية ...

- لماذا تقول لي هذا الكلام؟ طبعاً أنا فتاة عادية ...

...

- هل أنت خائب الظن؟

- كلا.

- ماذا تقرئين؟

- إنه كتاب أسفار ...

- أهو ممتع؟

- رائع ...

- ماذا يروي؟

- أوه ... لا أدري إن كان هذا سيستهويك ...

قال ساخراً :

- كلا، أقول لك ذلك صراحةً، هذا لا يستهويني أبداً،

ولكنني أحب أن تحكي ... تعلمين أنني عدتُ وأصغيت إلى

أسطوانة مارفان البارحة ...

- حقاً؟

- نعم.

- وإذاً؟

- حسناً، المشكلة هي أنني لم أفهم شيئاً... ولذلك سأذهب للعمل في لندن... كي أتعلّم الانكليزية...  
- متى ستسافر؟
- في الحالة الطبيعية، كان عليّ أن أحجز مكاناً بعد فصل الصيف، ولكنني الآن في وضعٍ مربكٍ بسبب جدّتي... بسبب بوليت...  
- ما بها؟
- بففف... لا أرغب في الحديث عن ذلك... بدل ذلك، اروي لي كتاب الأسفار خاصّتك...  
قرب كرسيه منها.
- هل تعرف ألبريشت دورر؟  
- الكاتب؟
- كلا. الرّسام.  
- لم أسمع قط عنه...  
- بلى، أنا متأكّدة من أنّك قد شاهدت بعض رسوماته...  
هناك لوحات شهيرة جداً... أرنبّ برّي... أعشاب طائشة...  
هندباء برّية...  
.....-
- بالنسبة لي، إنّه معبودي. أقصد... لديّ الكثير من اللوحات، ولكنّه هو معبودي الأوّل... هل أنت لديك معبودوك؟  
- آه...  
- في عملك؟ لا أدري، أنا... ايسكوفيه، كاريم، كورنونسكي؟

- آه... ..

- بوكوس، روبوشون، دوكاس؟

- آه، تقصدين قدوات! نعم لديّ مَنْ أقتدي بهم ولكنهم

ليسوا معروفين... أقصد أقلّ شهرة... أقلّ صخباً، ماذا... هل تعرفين شايل؟

- كلا.

- باكو؟

- كلا.

- سانديرنس؟

- لوكاس كارتون سابقاً؟

- نعم... كيف عرفت؟

- مهلاً، أنا أعرفه هكذا، بالاسم، ولكنني لم أذهب إليه

أبدأ<sup>(1)</sup>...

- إنّه رجلٌ طيّب... لديّ كتابٌ في غرفتي... سأطلعك

عليه... هو وياكو، بالنسبة لي، هما من الأساتذة... وإذا كانا

أقلّ شهرة من الآخرين، فذلك فقط لأنهما في مطبخهما...

أقصد، لقد أخبرتكِ بذلك، لا أعرف شيئاً عن ذلك... هذه هي

الفكرة التي كوّنتها لنفسي... ربّما أنا أخدع نفسي تماماً...

- ولكن مع ذلك تتكلمون بين بعضكم كطباخين؟

- ليس كثيراً... لسنا ثرثارين جداً، تعلمين... نكون

منهكين جداً وغير قادرين على الثرثرة. نعرض على بعضنا أشياء،

---

(1) هي تقصد مطعماً بهذا الاسم في حين هو يتحدّث عن شخصية. (المترجم).

مهارات يدوية، تبادل الأفكار، ووصفات الوجبات التي نعلقها هنا وهناك، ولكن نادراً ما تتجاوز أحاديثنا هذه الأمور...  
- هذه خسارة...

- لو كنّا نجيد التعبير عن أنفسنا ونصوغ جملاً جميلة، لما عملنا في هذه المهنة، هذا واضح. أقصد أنني كنتُ سأتوقّف في الحال عن هذا العمل.

- لماذا؟

- لأنّ... ليس لهذا العمل أيّ قيمة... هذا نوعٌ من العبودية... هل استعرضت حياتي؟ إنها حياة تافهة. حسناً... أو... لا أريد أبداً الحديث عن نفسي... إذاً، وماذا عن كتابك؟

- نعم، كتابي... بدقّة، هو عبارة عن المذكرات اليومية التي كتبها دورر خلال رحلته إلى هولندا بين عامي 1520 و... 1521. هو نوعٌ من الكراسة أو المفكرة... إنه الدليل على أنني مخطئة في اعتباره معبودي. الدليل على أنّه هو أيضاً شخصٌ عادي. شخصٌ كان يحسب قروشه ويغضب حينما يتبيّن له أنّه قد خُدِع من قبل رجال الجمارك، ويهمل دائماً زوجته ولا يستطيع الامتناع عن خسارة الأموال في القمار. شخصٌ ساذجٌ، نهّمٌ، ذكوريٌّ، وأيضاً متعجرفٌ بعض الشيء... ولكن حسناً، كلّ هذا ليس مهمّاً جداً، على العكس، كان هذا يجعله إنساناً أكثر...  
... أو... هل أتابع؟

- نعم.

- عند الانطلاق، كانت رحلة بدأها بباعثٍ قويٍّ، أي نجاته

ونجاة عائلته والناس الذين كانوا يعملون معه في المشغل... إلى ذلك الحين كان تحت حماية الإمبراطور ماكسيميليان الأول. رجلٌ مصابٌ بداء العظمة طلب منه طلباً غير معقول: أن ينجز له تمثالاً وهو على رأس موكبٍ مهيب لكي يخلّده إلى الأبد... عملٌ سوف يُطع بعد ذلك بعدة سنوات وسيكون طوله أكثر من أربعة وخمسين متراً... هل تتخيل هذا الأمر؟

«بالنسبة لدورر، كانت تلك فرصة ليغتنمها... سنواتٌ من العمل المضمون... لسوء الطالع، مات الإمبراطور ماكسيميليان بعد ذلك بوقتٍ قصير، ومن جرّاء ذلك، تعرّض دخله السنوي للخطر... فكانت المأساة... وبالتالي، ها هو صاحبنا ينطلق في الطرقات مع زوجته وخادمتها لكي يذهب ويُهيج شارل كوينت، الإمبراطور المقبل، ومارغريت دوتريش، ابنة حاميه السابق، لأنّه كان يجب من كلّ بدّ أن يتجدّد ذلك الدخل الرسمي...»

«كانت هذه هي الظروف... إذاً كان في البداية متوتراً بعض الشيء ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون سائحاً ممتازاً. منذهلاً بكلّ شيء، بالوجوه، بالعادات، بالأزياء، زائراً أترابه، زائراً الفنانين، معجباً بعملهم، زائراً كلّ الكنائس، مبتاعاً كدساً من الأشياء التافهة المنقولة حديثاً من العالم الجديد: ببغاء، سعدانٌ أفريقي، قوقعة سلحفاة، فروغٌ من المرجان، قرفة، خفٌّ من جلد الأيل، الخ. كان كصبيّ مراهق مع كلّ هذا... بل قام برحلة طويلة لكي يذهب لرؤية حوتٍ جانحٍ متحلّل على شاطئ بحر الشمال... وطبعاً، كان يرسم. مثل مجنون. كان في الخمسين من عمره، وفي ذروة فنّه وأياً كان يرسم: ببغاء، أو أسداً، أو

فيل بحر، أو شمعداناً أو إشارات مورس أو صورة صاحب نُزله،  
إنه... إنه... إنه...

- إنه ماذا؟

- حسناً تفضّل، أنظر... ..

- كلا، كلا، لستُ خبيراً!

- ولكن لا حاجة لأن تكون خبيراً! أنظر إلى هذا العجوز،  
هنا، مثلما تخيّلته... وهذا الفتى الوسيم، أترى كم هو فخور؟  
كم يبدو واثقاً بنفسه؟ وكأنّه أنت، أنظر... نفس العجرفة، نفس  
المنخرين المتّسعين...

- آه، حقاً؟ أترينه وسيماً؟

- سحته منفرة بعض الشيء، أليس كذلك؟

- إنّ ذلك بسبب القبّعة... ..

قالت مبتسمةً:

- آه، نعم... أنت محقّ، لا بدّ أنّها القبّعة... ..

- وهذه الجمجمة؟ أليست غير معقولة؟ وكأنّها تزدرينا،  
وكانّها تستفزّنا: «إيه... ولكنكم أيضاً، يا أولاد... هذا ما  
ينتظركم...».

- دعني أرى.

- هنا. ولكن ما أفضله، هي صورته الشخصية، وما يقتلني،  
هو المرح الذي يرسمها به. هنا، خلال هذه الرحلة، المسألة  
مسألة تبادل مصالح، لا شيء سوى المقايضة: مهارتك مقابل  
مهارتي، صورتك الشخصية مقابل عشاء، قبّعة، زينة رخيصة

لزوجتي أو معطف من جلد الأرنب... بالنسبة لي، كنتُ لأعشق العيش في ذلك العصر... أرى أنّ المقايضة اقتصاداً رائع... ..

- وكيف تنتهي هذه الحكاية؟ هل كسب المال؟

- نعم. ولكن بأيّ ثمن... لقد ازدرتة مارغريت البدينة، وذهبت إلى حدّ رفض الصورة الشخصية لوالدها التي أثارت ملبسة مؤسفة لهذه البلهاء... من جرّاء ذلك، بادلها بغطاء سرير! فضلاً عن ذلك، عاد مريضاً، فقد التقط وباءً حينما ذهب لرؤية الحوت النافق... أعتقد أنّها حمّى المستنقعات... تفضّل، أنظر، هناك آلة شاغرة، هناك... ..

نهض متنهداً.

- أديري وجهك، لا أريد أن تري ملابسك الداخلية.

- أوه، لا أحتاج لأن أراها لكي أتخيّلها... بالنسبة لفيليبير، لا بدّ أنّه يرتدي سراويل داخلية مخطّطة، أمّا أنت، فأنا متأكّدة من أنّك ترتدي تلك السراويل الداخلية القصيرة من ماركة هوم التي تشدّ على الجسم والتي توجد كتابات على أحزمتها.

- كم أنت قوية... هيّا، مع ذلك أغمضي عينيك... ..

تحركّ بنشاط، جلب عبوة المسحوق واتكأ على آلة الغسيل:

- ولكن كلا، لست قوية إلى هذه الدرجة، وإلاّ لما عملتِ

مدبّرة منزل، كنتِ لفعلت مثل هذا الشخص، وعملتِ... ..

ساد الصمت.

- أنت محقّ... لست قوية إلا في مجال السراويل

الداخلية... ..



- وهذا لا بأس به، أليس كذلك؟ ربّما هناك فسحة ينبغي أخذها... هل لديك فراغٌ في الحادي والثلاثين من الشهر؟
- هل تعرض عليّ حضور حفلة؟
- كلاً. أعرض عليك عملاً.

## 16

- لكن لماذا لا؟
- لأنني لا أصلح لشيء!
- مهلاً، ولكن سوف لن يُطلب منك أن تطبخي! وإنما فقط المساعدة في التحضير...
- وما هو التحضير؟
- هو كلّ ما تحضّرينه مسبقاً لكسب الوقت أثناء اشتداد وتيرة العمل...
- وما الذي ينبغي عليّ القيام به؟
- أن تقشري الكستناء، وتنظفي الفطر الأصفر، وتكشطي وتترعي بذور الزبيب، وتغسلي الخضراوات... أقصد أن تقومي بالعديد من الأعمال التافهة...
- لسْتُ متأكّدة حتى من النجاح في ذلك...
- سوف أعلمك كلّ شيء، وسأشرح لك جيّداً ما عليك القيام به.
- سوف لن يكون لديك الوقت لذلك...
- كلاً. ولذلك سوف أشرح لك مسبقاً. سوف أجلب معي بعض المخدرات إلى الشقّة وسأعلمك أثناء استراحتي...

...-

- هيا... سيكون من المفيد لك أن تري العالم... أنت لا تعيشين سوى مع الأموات، ولا تتحدّثين إلا مع أشخاص لم يعودوا هنا لكي يردّوا عليك... أنت وحيدة طيلة الوقت... من الطبيعي أن تكون أمورك سيئة...

- أموري سيئة؟

- نعم.

- اسمعي... أطلب هذا منك كخدمة... لقد وعدتُ رئيس قسمي بأنني سأجد أحداً يساعدنا، ولم أجد أحداً... أنا محرّج...  
...-

- هيا... محاولة أخيرة... وبعد ذلك سأنصرف ولن تعودي ترينني أبداً في حياتك...  
...-

- كنتُ أنتظر حضور حفلة...

- متى ينبغي عليك أن تكوني هناك؟

- لا أدري، ربّما نحو الساعة العاشرة...

- لا مشكلة. ستذهبن إليها. سأدفع لك أجرة السيارة...  
...-

- حسناً...

- شكراً. أديري وجهك مرّة أخرى، لقد جفت ثيابي الداخلية.

- عليّ أن أنصرف... لقد تأخرت...

- حسناً إلى اللقاء غداً...

- ستنام هنا هذا المساء؟

- كلا.

- هل خاب أملك؟

- أوه، كم أنت ثقييل..

- مهلاً، أقول هذا من أجلك، إيه! لأنه بالنسبة إلى

السراويل الداخلية، ليس من المؤكد بأنك محقة، أتعرفين؟

- مهلاً، ولكنك لو تعلم كم لا أبالي بسراويلك الداخلية!

- إنها غلطتك... ..

## 17

- هل نذهب؟

- أنا أصغي إليك. ما هذا؟

- عمّ تتحدّثين؟

- عن الصندوق الصغير.

قال متنهداً:

- آه هذه؟ هذه علبة سكاكيني. ريش الرسم خاصّتي إن

شئت... .. إن فقدتها، لن يعود لي فائدة في شيء. أترين بماذا

تتعلّق حياتي؟

- منذ متى تملكها؟

- بففف... .. مذ كنتُ صغيراً جداً... .. جدّتي هي من اشترتها

لي بمناسبة حصولي على شهادة CAP المهنية... ..

- هل يمكنني مشاهدتها؟

- نفضلي.

- حدّثني...

- عن ماذا؟

- في ماذا تُستخدم... أحبّ كثيراً أن أتعلّم...

- حسناً... السكين الكبير، هو سكين المطبخ أو سكين

الشفيف، وهو يستخدم لكلّ شيء، وذو النصل المستطيل هو

للعظم والمفاصل أو لتشفية اللحم، أمّا الأصغر حجماً، فهو

سكين وظيفي حيث نجده في جميع المطابخ، خذيه، سوف

تحتاجين إليه... أمّا الطويل فيُستخدم لتشريح وترقيق الخضار

وفرمها ناعمةً، وهذا الصغير يُستخدم لقطع الأعصاب وتقشير

اللحم وإزالة الشحوم عنه، وتوأمة ذو النصل القاسي هو لنزع

العظام عنه، وهذا السكين الرفيع جداً، هو لفصل شرائح

السّمك، وهذا الأخير يُستخدم لتقطيع الجونبون إلى شرائح...

- وهذه القطعة تُستخدم لشحذها...

- نعم.

- وهذا؟

- هذا، هذا لا شيء... هذا يستخدم لإعداد زينة الأطباق

فقط، ولكنني لم أعد أستخدمة منذ زمنٍ طويل...

- ماذا تفعل به؟

- أشياء مدهشة... سوف أعرضها عليك في يومٍ آخر...

حسناً، هل أنتِ جاهزة؟

- نعم.

- أنظري جيداً، إيه؟ أعلمك بأنّ حبّات الكستناء قد غُمرت في ماءٍ ساخن وبالتالي أصبح تقشيرها أسهل... طبعاً، عليك ألا تتلفينها... يجب أن تبقى عروقها الرفيعة سليمة وظاهرة... بعد القشرة، هناك هذه الطبقة القطنية وعليك أن تزيلها بأقصى درجات الحرص... .

- ولكن هذا عملٌ طويلٌ جداً!

- ولهذا نحتاج إليك... .

كان صبوراً. ثمّ شرح لها كيف تنظّف الفطر بقماشة مبلّلة وكيف تكشط عنه التراب من دون أن تتلفه.

وجدت ذلك مسلياً. كانت ماهرة اليدين. أعاظها أن تكون بطيئة جداً مقارنة به ولكنها تسلّت. تدرجت حبّات الزبيب بين أصابعها وسرعان ما التقطتها لكي تنزع منها البذور بحدّ السكين.

- حسناً، بالنسبة لما تبقى، سنكمل غداً... سيسير الأمر

بشكلٍ جيّد بالنسبة للخضراوات وسواها

- سيدرك رئيس قسمك في الحال أنني عديمة الفائدة... .

- هذا مؤكّد! ولكن لا خيار له... كم هو قياس خصرك؟

- لا أدري.

- سوف أجد لك فوطة وسترة... وكم هي نمرّة حذائك؟

- 40.

- هل لديك أحذية رياضية؟

- نعم.

- إنها ليست مثالية، ولكنها تصلح لمرة واحدة... .

لَقَّتْ سِجَارَةَ فِي حِينِ كَانَ هُوَ يَرْتَبُ الْمَطْبِخَ.

- أَيْنَ سَتَكُونُ حَفْلَتِكَ؟

- فِي بُوَيْبِي... فِي بَيْتِ فِتَاةٍ تَعْمَلُ مَعِي...

- أَلَا يَخِيفُكَ أَنْ نَبْدَأَ غَدًا فِي التَّاسِعَةِ صَبَاحًا؟

- كَلَّا.

- أَنْبِهْكَ إِلَى أَنَّهُ سَوْفَ لَنْ تَكُونَ هُنَاكَ سِوَى اسْتِرَاحَةِ

قَصِيرَةٍ... سَاعَةً كَأَقْصَى حَدٍّ... لَا تَوْجَدُ خِدْمَةَ فِي مَنْتَصَفِ

الظُّهْرِ وَلَكِنَّا سَنَحْضُرُ أَكْثَرَ مِنْ سَتَيْنِ طَقْمِ مَائِدَةٍ فِي الْمَسَاءِ.

وَجِبَةٌ كَامِلَةٌ لِلْجَمِيعِ... سَتَكُونُ الْوَجِبَةُ دَسْمَةً... مَائَتَانِ وَعِشْرُونَ

يُورُوا عَنِ كُلِّ شَخْصٍ، أَعْتَقِدُ... سَأُحَاوِلُ أَنْ أَصْرِفَكَ بَاكِرًا قَدْرَ

الْمَسْتِطَاعِ، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ بِأَنَّكَ سَتَمَكْتِثِينَ حَتَّى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ مَسَاءً

عَلَى الْأَقْلَى...

- وَأَنْتِ؟

- بَفَفٍ... أَنَا، أَفْضَلُ أَنْ لَا أَفَكِّرَ مَجْرَدَ تَفْكِيرِ فِي ذَلِكَ...

سَهْرَاتِ الْعِيدِ، إِنَّهَا دَائِمًا أَشْغَالٌ شَاقَّةٌ... وَلَكِنْ حَسَنًا، الْأَجُورُ

جَيِّدَةٌ... وَسَأَطْلُبُ لَكَ أَيْضًا مَبْلَغًا جَيِّدًا...

- أَوْهَ، لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَشْكَلَةُ...

- أَجَلْ، أَجَلْ، هَذِهِ هِيَ الْمَشْكَلَةُ. سَوْفَ تَرِينَ غَدًا مَسَاءً...

## 18

- يَجِبُ أَنْ نَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ... سَوْفَ نَشْرَبُ قَهْوَةً هُنَاكَ.

- وَلَكِنْ هَذَا الْبَنْطَالُ فَضْفَاضٌ جَدًّا!

- لَا يَهْمُ.

عبراً شان دي مارس عدواً.

فوجئت كاميل بالحركة والتركيز السائدين في المطبخ.

فجأة أصبح الجوّ حاراً جداً...

- ها هي، يا ريس. عاملة صغيرة طرية العود...

دمدم الآخر وصرفهما بإشارة من قفا يده. قدّمها فرانك إلى

موظفٍ كبير لم يستيقظ تماماً بعد:

- إذاً، هذا سيباستيان. إنه خزانة الأطعمة. وهو أيضاً

رئيسك ومعلمك الكبير، اتفقنا؟

- سررتُ بلقائك.

- اممم... ولكنك لن تكوني على صلةٍ به وإنما

بمعاونه...

ثمّ متوجّهاً إلى الفتى:

- ما اسمه؟

- مارك.

- أهو موجود؟

- في الغرف الباردة...

- حسناً سأدعها في عهدتك...

- ماذا تجيد؟

- لا شيء. ولكن سترى، إنها تعمل جيداً.

وغادر لكي بيدل ثيابه في غرف تبديل الملابس.

- هل علمك بشأن الكستناء؟

- نعم.

قال لها وهو يشير إلى كومة كبيرة منها:

- حسناً، ها هي.

- هل يمكنني الجلوس؟

- كلا.

- لماذا؟

- لا تُطرح أسئلة في المطبخ، وإنما يُقال: «نعم، سيدي»،

أو «نعم، يا ريس».

- نعم، يا ريس.

نعم أيها البليد الضخم. ولكن لماذا قبلت بهذه الوظيفة؟

كانت ستنجز العمل بشكلٍ أسرع لو أنها جلست... .

لحسن الحظّ، كانت غلاية قهوة تعمل. وضعت فنجانها على

رفّ وأخذت تعمل.

بعد ذلك بربع ساعة - كانت يداها تؤلمانها - سألتها

أحدهم:

- كيف حالك؟

رفعت رأسها وظلّت منذهلة.

لم تتعرّف عليه. بنطالٌ بلون النيكل، وسترةٌ مكوية بعناية

بصقّين من الأزرار الدائرية وقد طُرّز اسمه عليها بأحرفٍ زرق،

ووشاخٌ صغيرٌ مستدق الطرفين في رقبته، ووزرة وممسحة

نظيفتان، طاقيّة جميلة على رأسه. هي التي لم تكن قد شاهدته

قط إلا في الحياة البائسة، وجدته هذه المرّة وسيماً جداً.

- ماذا هناك؟



- لا شيء. أراك وسيماً جداً.

وهو، هذا الأبله الكبير، هذا الجبان، هذا المتبجح،  
مصارع الثيران القصير الريفي بخطمه الكبير، بدراجته النارية  
الضخمة التي تنام على مقعدها الخلفي ألف فتاة غبية، نعم،  
هو، لم يسعه الامتناع عن الاحمرار خجلاً.

ولكي تنقذه من ارتبأكه، أضافت:

- هذا بالتأكيد سحر البرّة النظامية.

- نعم، هذا... هذا هو بالتأكيد...

ابتعد وهو يوتّخ شخصاً ويشتمه في طريقه.

لم يكن أحداً يتكلّم. وكانت تُسمع فقط أصوات غلغلة  
السكاكين وقرقعة القصات وزقزقة الأبواب الصفّاقة والهاتف  
الذي كان يرنّ كلّ خمس دقائق في مكتب رئيس الطهاة.

كانت كاميل، المبهورة، مشتتة بين التركيز لثلا تعرّض نفسها  
للتوبيخ ورفع رأسها لثلا تفوّت أيّ شيء. كانت ترى فرانك من  
بعيد وهو يدير لها ظهره. بدا لها أكثر طولاً وهدوءاً مما هو عليه  
في العادة. بدا لها وكأنّها لا تعرفه.

بصوتٍ خفيض، سألت زميلها في التقشير:

- ماذا يعمل فرانك؟

- أيّ فرانك؟

- فرانك ليستافيه.

- إنه مختصّ بإعداد المرق ويُشرف على اللحوم.

- هل هذا عملٌ شاقّ؟

رفع زميلها ذو الوجه المبتور عينيه نحو السماء وقال:  
- طبعاً. إنه العمل الأكثر مشقّة. بعد رئيس الطهاة  
ومساعده، يأتي هو في المرتبة الثالثة في فريق المطبخ... .

- أهو طيّب؟

- نعم. إنه بليد ولكنه طيّب. بل ويمكنني القول بأنه فائق  
الطيبة. ثم إنك ستبين أنّ رئيس الطهاة يتوجّه دائماً إليه وليس إلى  
مساعده... . رئيس الطهاة يشرف على عمل مساعدته ويراقبه في  
حين يشاهد ليستافيه وهو يعمل... .

- ولكن... .

- هسّ... .

حينما ضرب رئيس الطهاة يداً بيد ليعلن حلول وقت  
الاستراحة، رفعت رأسها عابسةً. كانت تعاني الألم في رقبتهـا  
وظهرها ورسغيها ويديها وساقها وقدميها وكذلك أماكن أخرى  
ولكنها لم تعد تتذكّر أين.

سألها فرانك:

- هل ستناولين الطعام معنا؟

- هل أنا مرغمة؟

- كلا.

- إذاً، أفضل أن أخرج وأتمشى قليلاً... .

- كما تشائين... .

سألها:

- هل أنت بخير؟

- نعم. ولكنّ الجوّ حار... تعملون بقسوة...  
 - أتسخرين؟ نحن لا نعمل شيئاً اليوم، حتى ليس هناك  
 زبائن!  
 - حسناً...  
 - ستعودين بعد ساعة؟  
 - حسناً.  
 - لا تخرجي فوراً، انتظري إلى أن تبردي قليلاً وإلا  
 ستُصابين بالبرد.  
 - حسناً.  
 - أتريدين أن آتي معكِ؟  
 - كلا، كلا، أريد أن أكون وحيدة...  
 - يجب أن تأكلي شيئاً ما، إيه؟  
 - نعم بابا.  
 رفع كتفيه:  
 - هسس...  
 طلبت شطيرة بانيني رديئة من كشكٍ للسيّاح وجلست على  
 مقعد تحت برج إيفل.  
 كانت مشتاقة إلى فيليبير.  
 أدخلت رقم هاتف القصر إلى هاتفها النقال.  
 ردّ صوتٌ طفولي:  
 - أنا أليّنور دو لا دوريلبير، مع مَنْ أتشرّف بالحديث؟  
 احتارت كاميل.

- أوه... هل يمكنني التحدّث إلى فيليبير، من فضلك؟
- نحن على المائدة. هل يمكنني أخذ رسالة منك؟
- أليس موجوداً؟
- بلى، ولكننا على المائدة. لقد أخبرتكِ بذلك للتوّ... ..
- آه... حسناً... حسناً... كلا، لا شيء، أخبريه بأنني أقبله وأتمنى له سنة سعيدة... ..
- هل يمكنك إخباري باسمك؟
- كاميل.
- كاميل باختصار؟
- نعم.
- ممتاز. إلى اللقاء أيتها السيّدة باختصار.
- إلى اللقاء أيتها الحقيرة الصغيرة.
- ولكن ما معنى ذلك؟ ما هذه الفوضى؟
- فيليبير المسكين... ..
- في خمسة أحواض مياه مختلفة؟
- نعم.
- وتصبح نظيفة!
- نعم هذا صحيح.
- أمضت كاميل وقتاً عصيباً في فرز الخضراوات وتنظيفها.
- كان عليها أن تتفحص كلّ ورقة وتصنّفها وتعاينها بشكلٍ دقيق. لم تكن قد رأت مثيلاً لذلك، إذ كانت هناك أحجام مختلفة وأشكال مختلفة وألوان مختلفة.

- ما هذه؟

- بقلة.

- وهذه؟

- أوراق السبانخ.

- وهذه؟

- جرجير.

- وهذه؟

- نبتة فيكوييد الجلديدية.

- هذا اسمٌ جميل . . .

سألها جاراها:

- أين نشأت؟

لم تواصل الإجابة.

ثم نظّفت أعشاباً ناعمة وجفّفتها بورقٍ ماصّ. كان عليها أن تضعها في أوانٍ خزفية غير قابلة للصدأ وأن تغلّفها بعناية قبل أن توزّعها على رفوفٍ باردة. كسرت جوزاً وبنديقاً وقشّرت تيناً وفصفت كمية كبيرة من الفطر الأصفر وكوّرت كرات صغيرة من الزبدة بين ملعقتين محرزتين. كان عليها ألا تخطئ وأن تضع فوق كلّ صفيحة كرة من الزبدة الحلوة وأخرى من الزبدة المالحة. شكّت في لحظة بأنها قد أخطأت واضطّرت لأن تتذوّق الزبدة برأس السكين. تقزّزت، لم تكن تحبّ الزبدة أبداً وضاعفت من انتباهها لئلا تخطئ ثانية. ظلّ النُدُلُ يقدّمون القهوة الايطالية لمن يطلبها وشعرت بأنّ الضغط يزداد في كلّ دقيقة.

لم يعد البعض يفتحون أفواههم، وكان آخرون يشتمون همساً وكان رئيس الطهاة يقوم بدور الساعة الناطقة:  
- الساعة الخامسة وثمان وعشرون دقيقة، أيها السادة...  
السادة وثلاث دقائق، أيها السادة... السادسة وسبع عشرة دقيقة، أيها السادة...

بدا وكأنه يتعمّد توتيرهم إلى أقصى حدّ... ..

لم يعد لديها ما تفعله فاستندت إلى طاولة العمل ورفعت إحدى قدميها ثمّ الأخرى لتريح ساقها. كان الشخص الذي بجوارها منهمكاً في إعداد زخرفات من المرق حول شريحة من كبد الإوزّ على أطباقٍ مستطيلة الشكل. بحركة هوائية، هزّ ملعقة صغيرة وتنهد وهو ينظر إلى زخارفه. لم يكن الأمر مرضياً أبداً. ولكن مع ذلك كانت الأطباق جميلة... ..

- ماذا تريد أن تفعل؟

- لا أدري... .. شيئاً مبتكراً بعض الشيء... ..

- هل يمكنك أن أحاول؟

- هيّا حاولي.

- أخشى أن أفسد الأمر... ..

- كلا، كلا، يمكنكِ المحاولة، هذه بقايا قديمة، تركتها

فقط لكي أتدرب عليها... ..

كانت المحاولات الأربع سيئة، في المحاولة الخامسة، تلقّت الشاء.

- آه، هذا ممتاز... .. هل يمكنك أن تفعلي ذلك ثانية؟

ضحكت:

- كلا، أخاف كثيراً... ولكن... أليس لديك محاقن أو شيء من هذا القبيل؟
- أوه... .
- جيوب صغيرة على شكل غمد؟
- بلى. انظري في الدرج... .
- هلاً ملأته لي؟
- ماذا ستفعلين به؟
- مجرد فكرة، هكذا... .
- انحنت، أخرجت لسانها ورسمت ثلاث إوزات صغيرة.
- استدعى الآخر رئيس الطهارة لكي يعرض الرسمة عليه.
- ما هذه الترهات؟ هيا... لسنا هنا في ديزني، يا أولاد! ابتعد وهو يهز رأسه.
- هزت كاميل كتفيها، مرتبكة، واستدارت تهتم بخضراواتها.
- ظلّ يدمدم متدمراً من نهاية القاعة:
- هذا ليس طبخاً... هذا مجرد زينة... وهل تعرفون الأسوأ؟ هل تعرفون ما يقتلني؟ يقتلني أنّ هؤلاء المأفونين سيعشقون... اليوم، هذا ما يريده الناس: الزينة! أوه، ثم إنّ هذا يوم عيد في نهاية المطاف... هيا يا أنستي، سوف تسعديني بأن تلوثي لي نحو ستين طبقاً بترهاتك... بسرعة يا صغيري!
- همس إليها:
- أجيبي بـ «نعم، يا ريس».

- نعم، يا ريس!

ناحت كاميل:

- سوف لن أتمكن من ذلك أبداً...

- ليس عليك سوى أن تنجزي واحدة منها في كلّ مرّة...

- على اليسار أم على اليمين؟

- على اليسار، سيكون ذلك أكثر منطقياً.

- هذا مزعج بعض الشيء، أليس كذلك؟

- كلا، هذا ممتع... في كلّ الأحوال، لم يعد لديك من

خيار الآن.

- كان من الأفضل لو أنني سكت...

- المبدأ رقم واحد. كنت لتعلمت ذلك على الأقل...

تفضلي، ها هو العصير اللذيذ.

- لماذا هو أحمر اللون؟

- بسبب الشمندر... هيا، سأمرر إليك الأطباق...

تبادلا مكانيهما. كانت ترسم وكان يقطع الكبد إلى شرائح،

يحضرها ويرش عليها ملحاً وبهاراً خشناً ثم يمرر الطبق إلى

شريك ثالثٍ يعدّ السلطة بحركات شخص خبير.

- ماذا يفعل الجميع؟

- سيأكلون... سوف نذهب لاحقاً... نحن سنفتتح

الحفلة، وسننزل حينما يحين دورهم... هل ستساعديني في

إعداد المحار أيضاً؟

- هل يجب فتحه؟!



- كلا، كلا، فقط تزيينه... في الواقع، هل أنتِ مَنْ  
قشّرتِ التفاح الأخضر؟

- نعم. إنه هناك... أوه، سحقا وكأنه ديك رومي...

- عفواً، سأكف عن التحدّث معكِ.

مرّ فرانك بقربهما عابساً. وجدهما طائشين جداً، أو  
مبتهجين جداً.

لم ترق له تلك المسألة كثيراً..

سأل ساخرًا:

- هل نتسلّى جيّدًا؟

- نفعل ما بوسعنا...

- طمئيني... ألا يدفئ هذا العمل على الأقلّ؟

- لماذا قال لك هذا؟

- دعك، هذا شأنٌ بيننا... الذين يمنحون الدفء يشعرون

بأنهم يقومون بمهمّة سامية، في حين أننا، نحن، حتى وان عانينا  
من ألم شديد، سوف يظلمون يحتقروننا. نحن لا نمدّ يدنا على  
النار... هل تعرف ليستافيه جيّدًا؟

- كلا.

- آه نعم، لقد فاجأني هذا أيضاً...

- بماذا؟

- لا، لا شيء...

بينما ذهب الآخرون لتناول العشاء، شطف رجلان أسودان  
أرضية المطبخ ومرّرا مكاشط لعدّة مرات لتنشيفها بأسرع ما

يمكن. كان رئيس الطهاة يتحدث مع شخصٍ فائق الأناقة في مكتبه.

- أهذا زبون؟

- كلاً إنّه المسؤول عن تقديم الطعام... ..

- ولكنّه يبدو راقياً... ..

- كلّ موظفي الصالة وسيمون... .. في بداية الخدمة، نحن من نكون نظيفين وهم يكونون بـ «التيشيرتات»، وكلّما يمضي الوقت، تنقلب الآية: تتسخ ثيابنا وتصبح قدرة جداً، أمّا هم فيمرون من أمامنا مثل أسماك الشبوط بشعرهم المجعد وبيزاتهم الأنيقة... ..

جاء فرانك يراها بينما كانت تنهي الصفّ الأخير من الأطباق:

قال فرانك لزميلها:

- يمكنك الانصراف إن شئت... ..

- أوه، كلا... .. لم أعد أرغب في المغادرة الآن... .. سأشعر بأنني قد فوّتّ المشهد... ..

- هل لا يزال لديها عملٌ تقوم به؟

- كما تشاء هي! يمكنها أن تأخذ الموقد... ..

سألت كاميل:

- أيّ موقد؟

- أقصد تلك المشواة التي تعلو وتهبط... .. هل تريدين الاشتغال بالخبز المحمّص؟

- لا مشكلة... آه... بالمناسبة، هل لديّ متسعٌ من الوقت لكي أحمّصَ لنفسي شريحةً من الخبز؟
- هيا، انزلي.
- رافقها فرانك.
- هل أنتِ بخير؟
- أنا بحالة رائعة. إنّ سياستيان هذا لطيفٌ جداً... هاه... -
- لماذا أنتِ عابسة هكذا؟
- لأنني... أردتُ أن أتحدّث مع فيليبير لأتمنى له عاماً سعيداً وردّت عليّ فتاة سوقية صغيرة... مهلاً، أنا سأتصل به... -
- كلا. سيكونون مرّة أخرى إلى المائدة في هذا الوقت... دعيني أتصل... -
- ألو... اعذرني على إزعاجك، أنا فرانك دي ليستافيه، شريك فيليبير في السكن... نعم... هذا صحيح... صباح الخير يا سيّدي... هل يمكنني التكلّم معه، أرجوك، يتعلّق الأمر بسخّان الماء... نعم... صحيح... إلى اللقاء يا سيّدي... غمز كاميل التي ابتسمت وهي تنفث دخان سيجارتها.
- فيلو! أهذا أنت يا أرني السمين؟ عامٌ سعيد يا كنزي! لن أقبلك ولكنني سأعطيك أميرتك. ماذا؟ ولكن ليس لنا أيّ شأن

بسّخان الماء! هيّا، عامّ سعيد! أتمنى لك صحّة جيّدة وقلّباتي  
الكثيرة لأخواتك. أقصد... فقط اللواتي لهنّ أئداء ضخمة، إيه!  
أمسكت كاميل بالسماعة متغضّنة. كلا ليست هناك أيّ  
مشكلة في سّخان الماء. نعم، وأنا أيضاً أقبلّك. كلا، لم  
يحجزها فرانك في خزانة. نعم، هي أيضاً، تفكّر غالباً فيه. كلا،  
لم تذهب بعد لأخذ عيّنات من الدم للتّحليل. نعم، أنت أيضاً يا  
فيلبير، أتمنى لك صحّة جيّدة... .

أضاف فرانك:

- كان صوته جميلاً، أليس كذلك؟

- لم يتلعثم إلّا ثماني مرّات.

- ما أقوله صحيحاً.

حينما عادا إلى موقعيهما، تغيّرت الأمور. الذين كانوا قد  
رفعوا قبّعاتهم، وضعوها من جديد، ووضع رئيس الطهاة بطنه  
على المصطبة وشبك ذراعيه فوقها. لم يعد يُسمَع همسٌ في  
المطبخ.

- إلى العمل، أيّها السادة... .

ساد النظام القاعة. انهمك كلّ في عمله حريصاً على ألاّ  
يضايق جاره. كانت الوجوه مضطربة. وانتشرت شتائم مكتومة هنا  
وهناك. ظلّ البعض هادئاً وبدا آخرون، مثل ذاك الياباني، على  
حافة الانفجار.

انتظر عمال الخدمة متقاطرين أمام المصطبة بينما كان رئيس  
الطهاة ينحني على كلّ صحن ويتفحصه بدقّة. وكان الصبيّ  
الواقف قبّالته يمسكُ بمنشفة صغيرة لكيّ يمسح الآثار المحتملة

للأصابع أو للمرق على حواف الأطباق، وحينما كان الرئيس يهز رأسه، كان نادلاً يرفع الصينية المفضضة الكبيرة وهو يصرّ على أسنانه.

انشغلت كاميل بالمقבלات مع مارك. كانت تضيف أشياء إلى الأطباق كالتوابل وسواها. لم تعد تجرؤ على طرح الأسئلة. ثم رتبت قطع الثوم البرّي.

- أسرع، ليس لدينا الوقت الكافي هذا المساء...

وجدت قطعة من خيط لتشدّ بنطالها واستاءت لأنّ قبعتها الورقية لم تكفّ عن النزول على عينيها. أخرج جاراها دباسة صغيرة من علبة سكاينه:

- تفضلي...

- شكراً.

ثم أصغت إلى أحد النذّل الذي شرح لها كيفية إعداد شرائح من الخبز المحلّي على شكل مثلثات عبر قطع أطرافه.

- كيف تريد درجة تحميصه؟

- أريده محمّصاً جيّداً...

- هيا، أعدّ لي نموذجاً. أظهر لي اللون الذي تريده بالضبط...

- اللون، اللون... لا يُرى هذا من اللون، هذه مسألة استشعار...

- حسناً، أنا أمشي بحسب اللون، أعدّ لي إذاً نموذجاً وإلا سأكون متوتّرة جداً.

استلمت مهمتها بجدية كبيرة ولم تُباغت. كان الندل يأخذون خبزها المحمص في ثنانيا فوطه. لا بد أنها كانت ستسعد بمجاملة صغيرة: «أوه! كاميل، يا له من خبز محمص مدهش هذا الذي تعدينه لنا!»، ولكن لا بأس...

كانت ترى فرانك، دائماً من الظهر، وكان منهمكاً فوق أفرانه مثل عازفٍ أمام آله: ضربة غطاءٍ هنا وضربة غطاءٍ هناك، لعقة هنا ولعقة هناك. لم يكف الطويل النحيف، الذي كان مساعد رئيس الطهاة على ما استطاعت أن تفهم، عن طرح الأسئلة عليه، وهو قلماً أجاب عليها. كانت جميع طناجره من النحاس وكان مضطراً لأن يستعين بقطعة قماش سميكة لكي يمسك بها. لا بد أن أصابعه قد احترقت أحياناً لأنها شاهدته يهزّ يده قبل أن يضعها في فمه.

كان رئيس الطهاة متوتراً. هنا، لا تجري الأمور بالسرعة الكافية. هنا تجري الأمور بسرعة أكثر من اللازم. هذا الطعام ليس ساخناً جداً. هذا الطعام ناضج أكثر من المطلوب. لا يكف عن ترداد: «علينا أن نركّز، أيها السادة، علينا أن نركّز!».

كلّما استرخى فريق عمله أكثر، كلما ازداد هياجاً. كان الأمر مؤثراً. رأتهم ينضحون عرقاً ويحكّون رؤوسهم بأكتافهم كالقبط لكي يمسحوا العرق عن جباههم. كان وجه الصبي الذي يعمل على المشواة على نحوٍ خاصٍّ محمراً قرمزيّاً وكان يرضع من قارورة ماء جيئةً وذهاباً بين دواجنه. (طيور بأجنحة، بعضها أصغر من الدجاج بكثير، وبعضها الآخر بضعف حجم الدجاج...).

- لقد هلكنا... كم درجة الحرارة، هنا، برأيك؟

- لا أدري... هناك فوق الأفران، لا بد أن درجة الحرارة تبلغ على الأقل أربعين درجة مئوية... ربما خمسين درجة؟ من الناحية الجسدية، هذه أقسى الأعمال... تفضلي، خذي هذا إلى الغسيل... انتبهي جيداً لئلا تصدمي أحداً...

حملت وهي ترى جبل الطناجر والصواني والقذور والقصعات غير القابلة للصدأ، والمصافي وقصعات القلي المصفوفة بتوازن في حاويات الأواني. لم يعد هناك رجل أبيض واحد في المكان، والصبي الذي توجهت إليه أخذ منها ما بيديها وهو يهز رأسه. بدا واضحاً أنه لم يكن يفهم أي كلمة فرنسية. ظلت كاميل للحظة ترمقه، وككل مرة تجد فيها نفسها أمام شخصٍ مقتلعٍ من جذوره في أقاصي الأرض. أخذت قناديلها الصغيرة الشبيهة بالقناديل البسيطة للأم تيريزا تومض بعصبية: من أين جاء؟ من الهند؟ من باكستان؟ وكيف كانت حياته لكي يجد نفسه هنا؟ اليوم؟ أية سفن؟ أي تهريب؟ أية آمال؟ بأي ثمن؟ أي إهمال وأي قلق؟ أي مستقبل؟ أين كان يعيش؟ مع كم من الأشخاص؟ وأين كان أطفاله؟

حينما أدركت أن حضورها يوتره، غادرت وهي تهز رأسها.

- من أين ينحدر الرجل الذي يجلي الأواني؟

- من مدغشقر.

أول خدعة.

- هل يتحدث الفرنسية؟

- طبعاً! إنه هنا منذ عشرين عاماً!

هيا، اذهبي إلى النوم أيتها المتظاهرة بالتقوى...

كانت متعبة. كان هناك على الدوام شيءٌ جديد لكي تقشره أو تقطّعه أو تنظّفه أو ترتّبه. يا لها من فوضى... ولكن كيف يلتهمون كلّ هذا؟ ما معنى أن يملأ المرء كرشه إلى هذه الدرجة؟ سوف ينفجرون! 220 يورو، كم يساوي هذا المبلغ؟ ما يقارب 1500 فرنك... بف... يمكن للمرء أن يقدّم لنفسه كلّ ما يشاء بهذا الثمن... وإذا ما أحسن التدبير، يمكنه التفكير برحلة قصيرة... إلى إيطاليا مثلاً... والجلوس إلى طاولة على رصيف مقهى والتعلّل بحديث فتيات جميلات يروين لبعضهنّ بالتأكيد حماقات كلّ فتيات الدنيا نفسها وهنّ يرفعن إلى شفاههنّ فناجين سميكة من القهوة الحلوة دائماً..

كلّ هذه الرسومات، كلّ هذه الأماكن، كلّ هذه الوجوه، كلّ هذه القطط البليدة، وكلّ الأعاجيب التي يمكن للمرء أن يخزنها بهذا الثمن... كتب، أسطوانات، بل وألبسة، وقد تكفينا طيلة حياتنا، في حين هنا، خلال بضعة ساعات، سينتهي كلّ شيء، ويُلْتَهَم ويُهَضَم ويُخلى...

كانت مخطئة في تفكيرها بهذه الطريقة، وكانت تعرف ذلك. كانت واضحة. وكانت قد بدأت تكفّ عن الاهتمام بالطعام في طفولتها لأن توقيت الوجبات كان مرادفاً للكثير من الآلام. لحظات ثقيلة الوطأة على فتاة صغيرة وحيدة وحساسة. فتاة صغيرة وحيدة مع والدة تدخّن مثل إطفائيّ وترمي على المائدة طبقاً مطبوخاً بلا حنان: «كلي! هذا مفيد للصحة!» تؤكّد على هذه الكلمات وهي تشعل سيجارة. فتاة وحيدة مع والديها،



وتتحاسى النظر إليهما قدر المستطاع لئلا تعلق في شباكهما: «يا كاميل، كم تشتاقين إلى والدك حينما يكون غائباً؟ إيه، أهذا صحيح؟».

بعد ذلك، فات الأوان... فقدت الشهية... مهما يكن من أمر، في مرحلة ما، لم تعد والدتها تُعدّ أيّ طعام... فأصيبت بنقص الشهية كما يتغطى وجه آخرين بحبّ الشباب. أزعجها الجميع بسبب ذلك، ولكنها أجادت باستمرار التخلص من ذلك. لم ينجحوا قط في إحراجها لأنها كانت رشيدة، إذ لم تعد تريد تلك المراهقة أيّ شيء من عالمهم الرديء، ولكنها حينما كانت تجوع كانت تأكل. طبعاً كانت تأكل وإلا لما كانت حيّة تُرزق اليوم! ولكن ليس معهم. في غرفتها. كانت تشرب لبناً رائباً أو تأكل فاكهة أو مزيج الشوفان باللوز والعسل وهي تفعل شيئاً آخر... وهي تقرأ أو تحلم أو ترسم شعراً أو تنسخ كلمات أغاني جان جاك غولدمان.

طرّبي.

نعم، كانت تعرف نقاط ضعفها وكانت ساذجة في حكمها على أولئك الذين يحظون بسعادة التحلّق حول مائدة. ولكن مع ذلك... 220 يورو لقاء وجبة واحدة، ومن دون حساب الخمر، كان ذلك فعلاً شيئاً من العته، أليس كذلك؟

عند منتصف الليل، تمنى لهم رئيس الطهاة عاماً سعيداً وقدّم لكلّ منهم قدحاً من الشمبانيا:

- عامّ سعيد يا آنسة وشكراً لك على البطّات التي رسمتها... أخبرني شارل بأنّ الزبائن قد سُروا بها... كنتُ

أعرف ذلك للأسف... عامٌ سعيد سيّد ليستافيه... غير شخصيتك الخنزيرية في العام 2004 وسوف أزيد لك...

- كم ستزيد لي، يا ريس؟

- آه! سأزيد لك من احترامي!

- عامٌ سعيد يا كاميل... ألن... ألن نقبل بعضنا؟

- أجل، أجل، سنقبل بعضنا طبعاً!

قال سياستيان:

- وأنا؟

أضاف مارك:

- وأنا أيضاً... هيه، ليستافيه! اركض بسرعة إلى

طاولتك، هناك شيءٌ ما يطفح!

- هذا صحيح يا ديكون. حسناً، أوه... لقد أنهت عملها،

أليس كذلك؟ ربّما يمكنها الجلوس؟

أضاف رئيس الطهاة:

- فكرة ممتازة، تعالي إلى مكثبي يا عزيزتي...

- كلا، كلا، أريد البقاء معكم حتى النهاية. أعطوني شيئاً

أفعله...

- حسناً، سننتظر الآن الحلواني... سوف تساعدني في

تزيين أطباقه...

جمعت رقائق رقيقة كورق السيجارة، متجمّدة، مدعوكة،

ومجمّدة بألف طريقة، واستعملت ذرارة الشوكولا وقشور البرتقال

وفاكهة محفوظة وخليطاً من العصير والكستناء المجمّد. كان

الحلواني يشاهدها مضموم اليدين ويردد: «أنتِ فنانة! هذه فنانة!». وكان رئيس الطهاة ينظر إلى هذا الإسراف في التزيين نظرة أخرى: «حسناً، لا بأس لأننا في هذه الليلة، ولكن الجمال ليس كل شيء... نحن لا نطبخ لإظهار الجمال، تَبّاً لكم!».

كانت كاميل تبتسم وهي تبرش القشدة الانكليزية فوق العصير الأحمر.

- هيه أنتِ، كلا... ليس الجمال كل شيء!

كانت تعلم ذلك جيداً...

نحو الساعة الثانية فجراً، أصبح البحر أكثر هدوءاً. لم يعد رئيس الطهاة يترك قارورة الشمبانيا وكان بعض الطباخين قد رفعوا قبعاتهم. كانوا جميعاً منهكين ولكنهم بذلوا جهداً أخيراً لكي ينظّفوا المكان وينسحبوا منه بأسرع ما يمكن. أفردوا كيلومتراتٍ من ورق الصرّ لتغليف كلّ شيء وتدافعوا أمام الغرف الباردة. علّق الكثيرون منهم على الخدمة وحلّلوا نتائجهم: ما أخفقوا فيه ولماذا، وخطأ مَنْ كان ذلك وكيف كانت المأكولات... وكمصارعين لا يزالون يدخّنون لم يتمكّنوا من فكّ منصّتهم والانكباب عليها لكي ينظّفوها أفضل ما يمكن. بدا لها أنّ ذلك وسيلة لتفريغ ضغطهم والكفّ عن إجهاد أنفسهم تماماً...

ساعدتهم كاميل حتى النهاية. كانت مقرّفة وتنظّف رفاً في السلاجة.

ومن ثمّ أسندت ظهرها إلى الحائط وراقبت حلقة الصبيان حول ماكينات القهوة. كان هناك صبيّ يدفع عربة ضخمة تحمل

حلوى وشوكولا وأعشاباً ذات روائح زكية ومربيات ومربعات صغيرة من الحلوى وسواها... هممم... كانت ترغب أيضاً في سيجارة...

- سوف تتأخرين عن حفلتك...

استدارت ورأت شخصاً عجوزاً.

بذل فرانك جهداً لكي يحافظ على سحته ولكنه كان منهكاً، مبللاً، محدباً، شاحباً، محمرّ العينين ومهزول القسمات.

- وكأنك أكبر من عمرك بعشر سنوات...

- ممكن. لقد هلكت... لم أنم كفاية ثم إنني لم أعد هكذا وليمة من قبل... دائماً الصحن نفسه... هل تريد أن أوصلك إلى بوييني؟ لديّ قبعة أخرى... عليّ فقط أن أعد طلباتي وسنذهب.

- كلا... لم يعد هذا يعني لي شيئاً... سيكون الجميع ثملين حينما أصل... ما هو مسلّ، هو أن نسكر مع الآخرين، وإلا يكون الأمر محبطاً بعض الشيء...

- حسناً، أنا أيضاً، سأعود، لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي...

قاطعهما سياستيان:

- هل ننتظر ماركو وكيرماديك وملتقي بعد ذلك؟

- كلا، أنا متعب... سأعود...

- وأنت، يا كاميل؟

- إنها متعبة أيضاً...

قاطعته:

- أبدأ، أقصد، بلى، ولكنني مع ذلك أرغب في حضور  
الحفلة!

سأل فرانك:

- أنت متأكدة؟

- نعم، يجب أن نستقبل السنة الجديدة استقبالاً جيداً...  
كي تكون أفضل من سابقتها، أليس كذلك؟  
- كنتُ أعتقد أنك تكرهين الحفلات...  
- هذا صحيح، ولكن هذا قراري الصحيح الأول تخيل:  
«في العام 2003، لم أكن أوّمن بذلك، في العام 2004،  
سأكون لعوباً!».

أضاف فرانك متنهداً:

- إلى أين ستذهبين؟

- إلى ملهى كيتي...

- أوه، كلا، ليس إلى هناك... تعرفين جيداً.

- حسناً، إلى لافيجي إذاً...

- ولا إلى هناك.

قال سياستيان:

- أوه، أنت مزعج يا ليستافيه... بذريعة أنك قد تشاجرت  
مع كلّ النادلّات، لم يعد بوسعنا الذهاب إلى أيّ مكان! مَنْ  
منهنّ في ملهى كيتي؟ المدينة التي كانت تلثغ؟  
ردّ فرانك ساخطاً:

- لم تكن تلثغ!

- كلا، حينما كانت ثملة كانت تتكلم بشكلٍ طبيعي ولكنها كانت تلثغ قبل أن تشرب، أنا أصف لك... حسناً، حسناً مهما يكن من أمر، فهي لم تعد تعمل هناك...

- أنت متأكد؟

- نعم.

- والصهباء؟

- ولا الصهباء كذلك. هيه، ولكنك لا تبالي، أنت معها،

أليس كذلك؟

ردت كاميل ساخطة:

- كلا، ليس معي!

- حسناً... أوه... أنتما تتدبران أمركما، ولكننا سنلتقي

هناك حينما سيكونون قد أنهوا الحفلة...

- أتريد الذهاب إلى هناك؟

- نعم ولكنني أريد أن أستحم أولاً...

- حسناً، سأنتظرك. أنا لن أعود إلى الشقة وإلا سأنهار...

- هيه؟

- ماذا؟

- قبل قليل، لم تقبليني...

قالت كاميل وهي تطبع قبلة صغيرة على جبينه:

- تفضل، ها هي...

- أهذا كل شيء؟ اعتقدت أنك، في العام 2004، لعوب؟

- هل اتخذت قراراً واحداً من قراراتك؟

- كلا.

- ولا أنا.

## 19

لأنها كانت أقل إرهاقاً منهم أو لأنها كانت تتحمل الكحول أكثر منهم سرعان ما اضطرت أن تطلب شيئاً آخر غير البيرة لكي تضحك بطريقة منتظمة. شعرت بأنها قد عادت عشر سنوات إلى الوراء، إلى عهدٍ كانت لا تزال بعض الأشياء تبدو لها بديهية... الفن، الحياة، المستقبل، موهبتها، عاشقها، مكانتها، وفوطتها الدائرية وكلّ هذه الأشياء التافهة...

لعمري، لم يكن ذلك مزعجاً...

- هيه، يا فرانك، لن تشرب هذا المساء أم ماذا؟

- لقد هلكت...

- هيا بنا، لست أنت... ألسنت في عطلة أيضاً؟

- بلى.

- إذا؟

- لقد كبرتُ في السنّ...

- هيا، اشرب جرعة... سوف تنام غداً...

مدّ كأسه من دون اقتناع: كلا، لن ينام غداً. غداً، سيذهب إلى الزمن المستعاد، مأوى العجزة، ويتناول الشوكولا الكريهة مع جدّتين أو ثلاث جدّات مهجورات، وسيلعبن بأطقم أسنانهنّ الصناعية في حين أنّ جدّته ستنظر عبر النافذة متحسرة.

الآن، كان يعاني من ألم في البطن.  
آثر ألا يفكر في ذلك وأفرغ كأسه دفعةً واحدة.  
نظر إلى كاميل برقة. كان نمشها يظهر أو يختفي بحسب  
الساعات، وكانت تلك ظاهرة غريبة جداً...  
كانت قد أخبرته بأنه وسيم وهي الآن تُعجب بهذا الأحمق  
الكبير، بففف... كلّ النساء هكذا...  
كان فرانك ليستافيه فاقداً للروح المعنوية، بل وراودته رغبة  
خفيفة في البكاء...

- إذا؟ ما الذي لا يسير على ما يرام، يا عزيزي؟

- آه... من أين أبدأ؟

عملٌ دنيء، حياةٌ دنيئة، جدّة في الغرب وانتقالٌ محتمل من  
البيت. النوم ثانية على فراشٍ عفنٍ، وإضاعة ساعة عند كلّ  
استراحة. لن أعود أرى فيليبير بعد الآن. لن أعود أدغدغه لكي  
أعلّمه كيف يدافع عن نفسه وكيف يردّ وكيف يغضب وكيف  
يفرض وجوده. لن أعود أناديه قطني الصغير المصنوع من السكر.  
لن أعود أفكر أن أضع بجانبه قصعة مناسبة. لن أعود أدهش  
الفتيات بسريره الشبيه بسرير ملك فرنسا وبحمّامه الشبيه بحمّام  
الأميرة. لن أعود أسمعهما، كاميل وهو، وهما يتحدّثان عن  
حرب 1914 وكانتهما قد عاشا أحداثها، أو عن لويس الحادي  
عشر وكأنه قد شرب معهما كأساً. لن أعود أراقبها، لن أعود  
أرفع أنفي وأنا أفتح الباب لأعرف، من خلال رائحة سيجارتها،  
إن كانت موجودة في البيت. لن أعود أهرع إلى دفتر رسمها ما  
أن تدير ظهرها لكي أشاهد رسوماتها التي رسمتها خلال اليوم.  
لن أعود أنام وأرى برج إيفل مناراً كقنديل السهر. ثمّ البقاء في



فرنسا والاستمرار في فقد كيلوغرام عند كلّ فترة خدمة واستعادته بشرب البيرة بعد ذلك مباشرة. الاستمرار في الطاعة. دائماً. طيلة الوقت. لم يكن قد فعل سوى هذا: الطاعة. والآن، كان محاصراً إلى... هيا، أخبره إلى متى! حسناً، نعم، هذا هو... إلى أن تصفق الباب... وكأنّ حياتها لم تكن تنتظم إلا بشرط وحيد هو إيلامه المتواصل...

سحقاً، ولكنه ألمٌ لذيذ! ألا يمكنك أن تثور الآن إلا عليّ أنا؟ هذا صحيح، ماذا، حصلت الآن على حصّتي...

إنّ جزمتي مليئة بالقذارة، يا أولاد، إذاً هيا انظروا إلى مكانٍ آخر إن كنتُ موجوداً فيه... هذا جيد. لقد دفعْتُ الثمن.

ركلته من تحت الطاولة:

- هيه... هل أنت بخير؟

قال:

- عامٌ سعيد.

- ألسّت بخير؟

- سأنام. تصبحين على خير.

## 20

لم تتأخّر. كما لم يكن هؤلاء الأولاد آلة تسجيل... كانوا جميعاً يردّدون على الدوام بأنّهم يعملون في مهنة الأغبياء... أوه... والسبب في ذلك... ثمّ كان السيّد سيباستيان قد حمّاها... لكي يحظى بفرصة النوم معها، لا بدّ أن يكون هذا الأبله لطيفاً منذ الصباح. ومن هذا نتعرّف على التحرّكات الجيدة: للصبية الذين يكونون ظرفاء حتى قبل أن يطرحوك أرضاً...

وجدته منكمشاً على نفسه في الأريكة.

- هل نمت؟

- كلا.

- ألسنت على ما يُرام؟

أنّ قائلاً:

- في العام 2004، سأدع نفسي أنهار.

ابتسمت قائلةً:

- أحسنت...

- منذ ثلاث ساعات وأنا أبحث عن قافية مناسبة... لقد

فكرت كثيراً بـ: في العام 2004، أميل للخضرة، ولكنك

ستكونين قد فكرت بأني سأتقياً فوق الأريكة...

- يا لك من شاعر...

سكت. كان متعباً جداً وعاجزاً عن اللعب.

- أسمعنا شيئاً من الموسيقى الجميلة كالتي كنتِ تُصغين

إليها ذاك اليوم...

- كلا. إن كنتِ حزينا، سوف لن يريحك ذلك...

- لو تضعين ألبوم كاستافور، هل ستمكثين لبعض الوقت؟

- الوقت الذي يستغرقه تدخين سيجارة...

- لقد نجحتُ.

ووضعت كاميل، للمرة المائة والثامنة والعشرين، نيسي

دومينوس ليفالدي...

- ماذا تروي هذه الأغنية؟

- مهلاً، سوف أخبرك... الربّ يغمر أصدقاءه في رقادهم...
- رائع.
- هذا جميل، أليس كذلك؟
- تثاءب:
- لا، لا، لا أدري... لا أفقه شيئاً في ذلك... .
- هذا غريب، هذا ما قلته لي بشأن دورر يومذاك. ولكن هذا لا يُحفظ! هذا جميل، وهذا كلّ شيء.
- بلى، رغم ذلك، شئت أم أبيت، هذا يُحفظ... .
- ...
- هل أنتِ مؤمنة؟
- كلا. أقصد، بلى... حينما أسمع هذا النوع من الموسيقى، حينما أدخل إلى كنيسة جميلة جداً أو حينما أشاهد لوحة تهزّ مشاعري، بِشارةً على سبيل المثال، ينتفخ قلبي إلى درجة الشعور بأنني أوّمن بالله، ولكنني أخدع نفسي: أنا أوّمن بفيفالدي، بباخ، بهاندل، أو بفرا أنجيليكو... هؤلاء هم الآلهة... أما الآخر، العجوز، فهو ذريعة... وهذه هي الميزة الوحيدة التي أجدها فيه: إنه قويٌّ جداً بحيث ألهمهم جميعاً كلّ هذه الروائع... .
- أبتهج كثيراً حينما تتحدّثين معي... أشعر بأنني أصبح أكثر ذكاءً... .
- لا تقل هذا... .

- بلى، هذا صحيح...

- لقد أفرطت في الشراب.

- لا ليس كثيراً...

- تفضل واسمع... هذا أيضاً جميل... هذا أكثر بهجةً

بكثير... هذا ما أحبه في القداديس: تأتي اللحظات السعيدة،

مثل أغاني غلوريا وسواها، دائماً لتنتقل من لحظة ثقيلة

الوطأة... كما هو الحال في الحياة...

ساد صمتٌ طويل.

- هل نمت، الآن؟

- كلا، أنتظر أن تنهي سيجارتك...

- أنت تعلم، أنا...

- أنتِ ماذا؟

- أعتقد بأن عليك أن تبقى. أعتقد أن كل ما قلته لي عن

فيلبير بخصوص مغادرتي ينطبق عليك أيضاً... أعتقد أن رحيلك

سيحزنه كثيراً وأنتك ضمانة لتوازنه الهش، مثلي تماماً...

- أوه... الجملة الأخيرة، هل يمكنك تكرارها بوضوح؟

- ابق.

- كلا... أنا... أنا مختلفٌ جداً عنكما... لا تُخلط

المماسح بالفوط<sup>(1)</sup> كما تقول جدتي...

---

(1) في القرن السابع عشر كان النبلاء يستخدمون فوطاً أثناء تناول الطعام وكان

الخدم يستخدمون مماسح الطاوات، وهذه المقولة تُستخدم للتعبير عن

الخلط بين الطبقات الاجتماعية. (المترجم).

- نحن مختلفون، هذا صحيح، ولكن إلى أي حد؟ ربّما أكون مخطئة ولكن يبدو لي أننا نشكّل فريقاً جميلاً من مكسوري الأجنحة، أليس كذلك؟

- صدقتِ ...

- ثمّ، ما معنى أننا مختلفون؟ أنا التي لا أجيد سلق بيضة، قضيت النهار كلّه في المطبخ وأنت الذي لا تسمع سوى الآلات التقنية تنام الآن على أنغام فيفالدي... إنّ حكايتك عن المماسح والقوط شيءٌ تافه لا معنى له... إنّ ما يمنع الناس من العيش معاً هو حماقتهم، وليس اختلافهم... على العكس، لولاك لما عرفتُ ورقةً من البقلة...

- وفي ماذا سيفيدك هذا...

- هذا أيضاً شيءٌ من الحماقة. بماذا «يفيدني»؟ لماذا دائماً مفهوم المردودية هذا؟ لا يهمني إن كان هذا يفيدني أم لا، ما يسليني هو أن أعرف أنّ هذا موجود...

- أنتِ ترين بأننا مختلفون... سواء كنتِ أنتِ أو فيلو، لستما في العالم الحقيقي، ليس لديكما أيّ فكرة عن الحياة، عن كيفية الصراع من أجل البقاء وكلّ هذه الأمور... أنا لم أشاهد قط مثقّفين من قبلكما، ولكنكما مطابقان تماماً للفكرة التي كوّنتها لنفسني عن الأمر...

- وما هي فكرتك؟

حرّك يديه:

- كانت: زقزقة أيتها العصافير الصغيرة والفراشات الجميلة! زقزقة كم هي صغيرة وظريفة... هل ستستعيد فصلاً يا عزيزي؟

نعم، يا عزيزي، بل فصلين! سيَجَنِّبني هذا أن أنزل من جديد...  
أوه! كلا! لا تنزل ثانية، العفونة شديدة في الأسفل!

نهضت وأوقفت الموسيقى.

- أنت محقّ، سوف لن ننجح في ذلك... من الأفضل أن  
ترحل... ولكن دعني أقول لك كلمتين قبل أن أتمنى لك سفراً  
سعيداً: الأولى تخصّ المثقفين بالضبط... من السهل السخرية  
من كلامهم... نعم، إنّ ذلك في غاية السهولة... غالباً لا  
يكونون معضلين فضلاً عن أنّهم لا يحبّذون العراك... كما لا  
يثيرهم ضجيج الجِزَم والميداليات وسيارات الليموزين الفارهة،  
وبالتالي نعم، الأمر ليس صعباً جداً... يكفي أن تنزع من أيديهم  
كتابهم أو قيثارتهم أو قلمهم الرصاص أو آلتهم للتصوير فلا يعود  
أيّ أحرقي من بين هؤلاء صالحاً لأيّ شيء... من جهة أخرى،  
إنّ أوّل ما يقوم به الطغاة هو هذا: كسر النظارات أو حرق  
الكتب أو منع الحفلات الموسيقية، فهذا لا يكلفهم غالباً وقد  
يجنّبهم الكثير من المضايقات لاحقاً... ولكنك ترى، إذا كان  
المرء مثقفاً فهذا يعني أنّه يريد أن يتعلّم وأن يكون فضولياً  
ويقظاً، يريد أن تدهشه الأشياء وأن تثير مشاعره وأن يحاول فهم  
كيفية تماسك كلّ ما حوله ويسعى لأن ينام وقد أصبح أقلّ غباءً  
من الأمس، وبالتالي نعم، أنا أدعي ذلك تماماً: لستُ مثقفة  
فحسب بل أيضاً أنا فخورة بأن أكون كذلك... فخورة للغاية،  
بل... ولأنني مثقفة كما تقول، لا يسعني الامتناع عن قراءة  
صحفك عن الدراجات النارية التي أجدها في المراهيض وأعرف  
أنّ الدراجة الجديدة من طراز أر 1200 ج.أس. مزوّدة بجهاز

الالكتروني صغير لكي تسير بالبنزين الفاسد.. آه!

- وبماذا ستخبريني أيضاً؟

- وكمثقة سرقْتُ منك قصصك المصوّرة عن جو بار تيم  
أمس وقد جعلني ذلك أفهقه طيلة فترة ما بعد الظهيرة... الأمر  
الثاني، هو أنك لست مؤهلاً لإلقاء المواعظ علينا، يا غلامي  
العزیز.. أعتقد بأن مطبخك هو العالم الحقيقي؟ بالطبع لا.  
على العكس تماماً، أنتم لا تخرجون أبداً، وتبقون دائماً مع  
بعضكم. أنت ماذا تعرف عن العالم؟ لا شيء. منذ خمسة عشر  
عاماً وأنت تعيش حبيس مواعيدك الثابتة وتراتبيتك الهزلية  
الصغيرة وهريرك اليومي. أتكون قد اخترت هذه المهنة من أجل  
هذا؟ لكي لا تغادر قط حضن أمك ولكي توقن بأنك ستكون  
دائماً وسط الدفء والطعام الوفير... هيا اعلم... أنت تعمل  
عملاً شاقاً أكثر منا، هذا أمرٌ بديهي، ولكننا، كمثقفين، نكلّف  
نفسنا عناء هذا العالم. بنظام مرصوص، ننزل كلّ صباح. فيليبير  
إلى حانوته، وأنا إلى طوابقي، ولا تبالي بأننا نتعرض لهذا الأمر  
فقط لتعرض له. ومقولتك هذه عن الحياة.. Life is a jungle.  
struggle for life وكلّ هذا الكلام الفارغ نحن نحفظه عن ظهر  
قلب... بل ونستطيع أن نعطيك دروساً إن شئت... هنا، تصبح  
على خير، ليلة هائلة وسنة سعيدة.

- عفواً؟

- لا شيء. كنتُ أقول إنك لم تكوني لعباً جداً...

- كلا، أنا سُرسة.

- ما معنى هذه الكلمة؟

- افتح قاموساً وستجد معناها... ..

- كاميل؟

- نعم.

- قل لي كلمة لطيفة... ..

- لماذا؟

- لنبدأ السنة بداية جيّدة... ..

- كلا. لستُ صندوق جوك<sup>(1)</sup>.

- هيا... ..

استدارت:

- إذا دع المماسح والقوط في نفس الدرج، فالحياة أكثر

تسلية حينما يكون هناك شيء من الفوضى... ..

- وأنا؟ ألا تريدان أن أقول لك شيئاً لطيفاً لكي نبدأ السنة

بداية جيّدة؟

- كلا. بلى... .. هيا.

- أتعرفين... .. لقد كان خبزك المحمص رائعاً... ..

---

(1) آلة باسم مخترعها يضع الناس نقوداً فيها ليستمعوا إلى ما يشاؤون.

(المترجم).



## القسم الثالث



# 1

كانت الساعة تتجاوز الحادية عشرة بقليل حينما دخل إلى غرفته صباح اليوم التالي. أدارت له ظهرها. كانت لا تزال في الثوب الفضفاض (الكيمونو) جالسة أمام النافذة.

- ماذا تفعلين؟ أترسمين؟

- نعم.

- ماذا ترسمين؟

- اليوم الأوّل من السنة...

- أرني.

رفعت رأسها وعضّت على نواجذها لثلا تضحك.

كان يرتدي بزّة عتيقة جداً، من ماركة هوغو بوس الدارجة في ثمانينات القرن الماضي، فضفاضة ولماعةً بعض الشيء، مع كثافيات على طريقة غرندايزر، وقميصاً من الفيسكوز الأصفر الفاتح وربطة عنقٍ مبرقشة. وكان الجوربان متجانسين مع القميص وكان حذاءه المصنوع من جلد الخنزير المعالج بمحلول النشادر يؤلم قدميه كثيراً.

سأل متذمراً:

- ماذا هناك؟

- لا، لا شيء، أنت... أنت في غاية الأناقة...

- هذا لأنني دعوتُ جدتي لتناول الغداء في المطعم...

انفجرت ضاحكة:

- آه حسناً... ستكون فخورة جداً بالخروج مع صبيّ وسيمٍ

مثلك...

- لو تعلمين كم يجتني هذا...

- أهي بوليت؟ صاحبة الوشاح؟

- نعم. ولهذا أنا هنا... ألم تقولي لي بأنّ لديك شيئاً ما

لها؟

- بلى. تماماً.

نهضت وغيّرت مكان الأريكة وراحت تفتش في حقيبتها

الصغيرة.

- اجلس هنا.

- لأفعل ماذا؟

- هديّة.

- هل سترسميني؟

- نعم.

- لا أريد.

- لماذا؟

...

- ألا تعرف؟

- لا أريد أن ينظر إليّ أحد.

- سأرسمك سريعاً جداً.

- كلا.

- كما تشاء... اعتقدتُ أن صورة شخصية صغيرة لك

ستسعدنا... إنها حكاية ردّ الهدية، أتعلم؟ ولكنني لن ألحّ

عليك. لن ألحّ أبداً. هذه ليست عادتي...

- حسناً، إذاً ارسمي بسرعة، إيه؟

- ولكن هذا غير مناسب.

- ماذا؟

- هذه البزّة... ربطة العنق هذه، وكلّ هذا الزي غير

مناسب... هذا يغيّر شخصيتك.

قال هازئاً:

- أتريدين أن ترسميني عارياً؟

أجابت من دون أن يرفّ لها رمش:

- آه نعم، سيكون هذا جيداً! شابّ جميل عار...

- أتمزحين؟

كان مرعوباً.

- أجل، أنا أمزح... تبدو كبيراً جداً في السنّ! ثمّ لا بدّ

أنك كثيف الشعر...

- أبداً! أبداً! أنا مشعّر كأيّ شخصٍ عادي!

ضحكت.

- هيا. انزع على الأقلّ السترة وربطة العنق...

- بفف. لقد أمضيت ثلاث ساعات في عقدها... ..
- انظر إليّ. لا، ليس هكذا... .. وكأنّ في مؤخرتك مكنسة، استرخ، لن أكلك، أيّها الغبي، سأرسمك.
- قال راجياً:
- أوه، نعم... .. ارسميني، يا كاميل، ارسميني... ..
- ممتاز، حافظ على هذه الابتسامة البلهاء. هذا هو المطلوب تماماً.
- هل انتهى الأمر؟
- تقريباً.
- لقد ضقتُ ذرعاً. حدّثيني. اروي لي حكاية لتمضية الوقت... ..
- عمّن تريد أن أحدثك، هذه المرّة؟
- عن نفسك... ..
- ...
- ماذا ستفعلين اليوم؟
- سأقوم بترتيب البيت... .. وسأكوي بعض الثياب أيضاً... ..
- ثم سأذهب وأتنزه... .. النهار جميل... .. سأنتهي بالتأكيد في مقهى أو في صالة شاي... .. أتناول كعكاً بنكهة الريحان... .. الشهية... ..
- وبقليلٍ من الحظ، سيكون هناك كلبٌ... .. الآن أعدّ مجموعة لكلاب صالونات الشاي... .. لديّ كرّاسة خاصّة بهم، كرّاسة صغيرة فائقة الجمال من ماركة موليسكين... .. سابقاً، كانت لديّ كرّاسة خاصّة بالحمام... .. أنا بارعة في رسم الحمام. لقد رسمت

- حمام مونتارتر، وحمائم ساحة الطرف الأغر في لندن أو حمائم فينيسيا ...
- أخبريني ...
- نعم ...
- لماذا لا زلتِ وحيدة؟
- لا أدري.
- ألا تحبين الرجال؟
- ها نحن ... إن فتاة لا تستجيب لسحرك الذي لا يُقاوم هي طبعاً سحاقية، أهذا صحيح؟
- كلا، كلا، كنتُ أتساءل فقط ... ترتدين ألبسة قبيحة وتحلقين شعركِ على الصفر، وكلّ هذه الأمور ...
- ساد الصمت.
- بلى، بلى، أحبّ الصبيان كثيراً ... والفتيات أيضاً، لاحظ جيداً، ولكنني أفضل الصبيان ...
- هل سبق لكِ ونمتِ مع فتيات؟
- أوه لا لا ... مرّات كثيرة!
- أتمزحين؟
- نعم. هيّا، هذا جيّد. يمكنك أن ترتدي ثيابك.
- أرني.
- سوف لن تتعرّف على نفسك. الناس لا يتعرّفون قط على أنفسهم ...
- لماذا رسمتِ بقعة كبيرة هنا؟

- إنه الظلّ.
- حقاً؟
- هذا يُسمى تصويرًا مائيًا... .
- حقاً؟ وما هذا؟
- أسلافك.
- حقاً؟
- خاب ظنّك، أليس كذلك؟ تفضّل، خذ هذه أيضاً... .
- هذه رسمَةٌ أنجزتها في اليوم الذي كنت تلعب فيه على البلاي ستايشن... .
- بدرت منه ابتسامة كبيرة:
- إذًا، نعم! هذا أنا!
- أنا أحبّ الأول أكثر، ولكن لا بأس... ما عليك إلا أن تدسّها في ظرفٍ لكي ترسلها... .
- أعطني ورقةً.
- لماذا؟
- لأنه. أنا أيضاً، يمكنني أن أرسمك إذا أردتُ... .
- رسم حلزوناً. قوقعة حلزون وفي قاعها نقطة سوداء صغيرة.
- لم يبدر منها ردّ فعلٍ.
- النقطة الصغيرة، هي أنتِ.
- لقد... لقد فهمت... .
- ارتعشت شفتاها.
- انترع الورقة من بين يديها:



- هيه! هوه! كاميل، هذا فقط لكي نضحك! هذا أمرٌ تافه!

قالت وهي تضع يدها على جبينها:

- نعم، نعم. هذا أمرٌ تافه، أدرك ذلك جيداً... هيا،

انصرف الآن، سوف تتأخر...

ارتدى بزّة العمل في المدخل وسحب الباب وهو يعتمر

قلنسوته.

النقطة الصغيرة، هي أنتِ..

هذا الشخص مغفلٌ جداً.

## 2

لمرة واحدة لم يكن يجرجر معه حقيبة ظهرٍ مليئة بالذخيرة،

انحنى على خزان الوقود وترك السرعة تفعل فعلها المذهل:

الساقان ملتصقتان والذراعان ممدودتان والصدر دافئ والقلنسوة

جاهزة، برم قبضته إلى أقصى حدّ ليترك الضجر والملل خلفه

ولثلا يعود يفكر بأيّ شيء.

قاد بسرعة. بسرعة فائقة. سرعة جنونية. سرعة مذهلة.

منذ زمنٍ بعيد، كانت لديه دراجة نارية بين ساقيه ونوع من

الحكّة في راحة يده، ومنذ زمنٍ بعيد، لم يفكر قط بالموت

كمشكلة جدّية. طالما أنّه لن يعود موجوداً لكي يتعذّب، فأيّ

أهمية للموت في الحقيقة؟

ما إن أصبح معه القليل من المال، حتى استدان لكي

يشترى آلات كبيرة جداً على دماغه الصغير، وما إن أصبح لديه

ثلاثة أصدقاء على شيءٍ من الشطارة حتى دفع ثمناً أغلى لكي

يحظى بدراجة أسرع. كان هادئاً على الإشارات الحمراء. لم يترك أثراً للدواليب على الإسفلت، ولم يقارن نفسه في هذا الأمر بالآخرين، ولم ير أيّ مصلحة في الإقدام على مخاطرة حمقاء. ببساطة، ما إن كانت تواتيه الفرصة، كان يهرب، وينطلق وحيداً بسرعة ويُرهب ملاكه الحارس.

كان يحبّ السرعة. يحبّها فعلاً. يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا. أكثر حتى من الفتيات. كانت تقدّم له اللحظات الوحيدة السعيدة في حياته: اللحظات الهادئة، المريحة، الحرّة... حينما كان في الرابعة عشرة، كان ملك الطرقات الضيقة في تورين وهو يتمدّد على الدراجة مثل ضفدع صغير فوق علبة كبريت (كانت هذه عبارة من تلك الحقبة...)، وفي سنّ العشرين، اشترى أول دراجة ضخمة بعد أن عمل في ظروفٍ شاقّة طيلة فصل الصيف في حانةٍ رديئة قرب سومور. واليوم، غدت هوايته الوحيدة التي يمضي فيها وقته بين دوامين هي: الحلم بدراجة نارية قديمة: شراؤها وإصلاحها وإتلافها. ثمّ الحلم بدراجة قديمة أخرى، وجربها إلى وكيلٍ للدراجات، وبيع الدراجة السابقة ثانية وشرائها من جديد، وتنظيفها، الخ.

من دون الدراجة، كان على الأرجح لاكتفى في معظم الأحيان بالاتصال هاتفياً بجذّته العزيزة وهو يتضرّع إلى الله لئلا تروي له في كلّ مرّة قصة حياتها...

المشكلة أنّ السرعة لم تعد بنفس الفعالية... حتى على السرعة 200، لم يستعد راحة باله. ولا حتى على 210، و220 كلم، ظلّ دماغه يجهد. عبثاً انسلّ بدراجته وانحرف بها

وجدّف، فقد ظلّت بعض الأمور البديهية تلاحقه وظلّت تنهش في رأسه بين محطّتي وقود.

واليوم أيضاً، يوم الأوّل من كانون الثاني (يناير) الجاف والمشرق مثل قطعة نقدية جديدة، من دون خُرْج ولا حقيبة ظهر، ومن دون أن يكون في برنامجه أيّ شيء سوى وليمة فاخرة وشهية مع جدّتين رائعتين، كان قد استيقظ وما عاد بحاجةٍ إلى أن يفتح ساقه لكي يشكرهم حينما كان سائقو سيارات ودودون يتنحون قفزاً وهو يتجاوزهم.

كان قد ألقى أسلحته واكتفى بالانتقال من نقطة إلى أخرى وهو يردّد دائماً نفس الأسطوانة القديمة المشروخة: لماذا هذه الحياة؟ إلى متى؟ وما العمل للخلاص منها؟ لماذا هذه الحياة؟ إلى متى؟ وما العمل للخلاص منها؟ لماذا هذه الحياة؟ إلى متى... .

كان منهكاً من شدّة التعب ولكنه في مزاجٍ رائع. كان قد دعا إيفون لكي يشكرها ولكي تتكفّل بالحديث بدلاً عنه. بفضلها، سيتمكّن من الشروع في القيادة التلقائية. ابتسامة خفيفة إلى اليمين، وابتسامة خفيفة إلى اليسار، وبعض الشتائم لإسعادهما ويحين وقت القهوة... .

مرّت لتأخذ بوليت من قفصها وتواعد الثلاثة في فندق فوياجور، وهو فندقٌ صغير كان قد مارس فيه تدريبه ومن ثمّ عمل هناك وترك فيه بعض الذكريات الجميلة... . كان ذلك في العام 1990. وكأنّه منذ ألف مليون سنة ضوئية... .

ماذا كان لديه آنذاك؟ دراجة من طراز فازر ياماها، أليس

كذلك؟

كان يتعرج بين الخطوط البيض وقد رفع واقى الوجه لكي يشعر بلسعة الشمس. سوف لن ينقل مسكنه. ليس الآن. سيمنه البقاء حيث هو، في تلك الشقة الواسعة جداً التي استعادت الحياة ذات صباح بفضل فتاة فضائية ترتدي قميص نوم. لم تكن تتكلم كثيراً ومع ذلك، منذ وصولها، دب من جديد صخب في البيت. خرج فيليبير أخيراً من غرفته وتناول الشوكولا معاً كل صباح. لم يعد يصفق الباب لئلا يوقظها وأصبح ينام بسهولة أكبر حينما يسمعها تتحرك في الغرفة المجاورة.

في البداية، كان يكرهها ولكن الآن، بات الأمر جيداً. لقد قهرها...

- هيه أنت؟ هل سمعت ما قلته للتو؟

- عن ماذا؟

- مهلاً، لا تتظاهر بالبراءة... بصراحة، انظر في عيني، هل تشعر بأنك قد قهرت هذه الفتاة؟

- أوه... كلا...

- آه، حسناً! أنا أفضل هذا... أنا أعلم أنك لست ماهراً

كصبي ولكن مع ذلك... أخفني!

- أوه، لا بأس... لو أننا نستطيع أن نمزح أكثر الآن...

### 3

تفقد هندامه تحت سقف موقفٍ للحافلات وشدّ على ربطة عنقه وهو يعبر الباب.

فتحت صاحبة البار ذراعيها على وسعها:

- ولكن كم هو جميل! آه! نراك تلبس على الطريقة  
الباريسية! رينيه يهديك قبلاته. سوف يمرّ بعد دوامه...  
نهضت إيفون وابتسمت له جدّته بحنان.

- إذاً يا بنات؟ لقد أمضينا النهار عند المزيّن كما أرى؟  
قهقهتا فوق مشروبهما الكحولي وابتعدتا لتُفسحا له المجال  
لرؤية نهر اللوار.

كانت جدّته قد أخرجت تايورها الخاصّ بأيام المناسبات  
بمشبكه المزيّف وياقته المكسوة بالفرو. كان مزيّن دار التقاعد قد  
زيّنها وأصبحت وردية بلون غطاء الطاولة.

- ها أنتِ، لقد لَوْنِك مزيّنك على نحوٍ غريب...  
قاطعته إيفون:

- هذا بالضبط ما قلته، هذا لونٌ ممتاز، إيه، يا بوليت؟  
هزّت بوليت رأسها وشربت رشقات صغيرة من كأسها وهي  
تربّت على شفّتها بمنديلٍ موشى، كانت تلتهم حفيدها بنظراتها  
وتتغنّج خلف قائمة الطعام.

تمّ كلّ شيء كما توقّعه: كانت كلمات «نعم»، «كلا»،  
«حقاً؟»، «أليس هذا صحيحاً»، «سحقاً إذاً...»، «عفواً»،  
«اللعنة»، «هوباً...» و«تباً لك» هي الكلمات الوحيدة التي نطق  
بها، وكانت إيفون تملأ الفواصل بإتقان...

لم تكن بوليت تتكلّم كثيراً.

كانت تنظر إلى النهر.

جاء رئيس الطهاة ووقف معهم في حديثٍ مملّ لبعض

الوقت ثمّ قدّم لهم مشروب أرمانياك الذي رفضته السيدتان في البداية قبل أن ترتشفاه كخمر قدّاس. روى لفرانك عن أحوال الطهارة وسأله متى سيعود للعمل في هذا الفندق...

- الباريسيون لا يجيدون تناول الطعام... النساء يمارسن نظاماً غذائياً والرجال لا يهتمهم سوى قيمة الفواتير... أنا واثق من أنه لا يأتيك عشاق... في الظهيرة، ليس لديك سوى رجال أعمال لا يباليون كثيراً بما يأكلون وفي المساء، ليس لديك سوى أزواج جاؤوا للاحتفال بالذكرى العشرين لزواجهم وهم عابسون لأنّ سياراتهم غير مركونة في المكان المناسب ويخشون مصادرتها... هل أنا مخطئ؟

- آه، أنت تعلم، أنا لا أبالي بالأمر... أنا أقوم بعملتي...  
- حسناً، هذا ما أقوله! هناك حيث تعمل، تطبخ من أجل أجرتك... عُد إلى هنا، سنذهب إلى صيد السمك مع الأصدقاء...

- أتريد أن تبيع، يا رينيه؟

- بففف... لِمَنْ؟

بينما راحت ايفون لتجلب سيارتها، ساعد فرانك جدّته في العثور على مقبض مظلّتها:

- تفضّلي، لقد أعطني هذا لك...

ساد الصمت.

- ماذا إذاً، ألم يعجبك هذا؟

- بلى... بلى...

بدأت تبكي :

- أنت جميلٌ جداً هنا ...

وأشارت له إلى الرسمة التي لم يكن يحبها.

- هل تعلمين، إنها تضع وشاحك كلَّ يوم ...

- كاذب ...

- أقسم لك!

فأضافت مبتسمةً:

- أنت محقٌّ إذاً... إنَّ هذه الفتاة الصغيرة غير طبيعية.

- جدّتي ... كفي عن البكاء ... سنخرج ...

- نعم ... هيّا ...

....-

- أنت تعلم، أحياناً أقول في نفسي بأنني جاهزة وأحياناً

أخرى، أنا ... أنا ...

- أوه ... يا جدّتي العزيزة ...

وللمرّة الأولى في حياته، ضمّها بين ذراعيه.

افترقا في المرأب وارتاح لكونه لم يضطرّ لأن يأخذها بنفسه

إلى مكمنها. حينما رفع مسند الوقوف، بدت له درّاجته أثقل مما

كانت عليه في العادة.

كان لديه موعد مع صديقه وكان يملك بعض المال ولديه

سقفٌ يؤويه وعملٌ يؤدّيه بل ووجد مؤخراً قصّته المصورتين

ريبولدينغ وفيلوشار. ومع ذلك كانت العزلة تهلكه.

يا له من قرف، غمغم تحت خوذته، يا له من قرف ... لم

يكرّر ذلك لمرّة ثالثة لأنّه لم يكن هناك جدوى من ذلك فضلاً  
عن أن ذلك يضع المزيد من البخار على واقى وجهه.  
يا له من قرف... ..

#### 4

- نسيت أيضاً مفات... ..

لم تكمل كاميل جملتها لأنها أخطأت التوقع. لم يكن القادم  
فرانك وإنما الفتاة التي كانت بصحبته في ذاك اليوم. تلك التي  
رماها ليلة عيد الميلاد بعد أن ضاجعها... ..

- هل فرانك موجود؟

- كلا. لقد ذهب لرؤية جدّته... ..

- كم الساعة؟

- أعتقد أنها نحو السابعة... ..

- أيزعجك أن أنتظره هنا؟

- بالطبع لا... .. تفضّلي... ..

- هل أزعجك؟

- ليس تماماً! كنتُ مسرّة أمام التلفاز... ..

- أتشاهدين التلفاز؟

- نعم، لماذا؟

- أخبرك بأنني قد اخترتُ أضعف برنامج... .. فتيات يرتدين

البسة كالعاهرات ومقدّمي برامج في بزات ملتصقة بأجسادهم  
يقرأون إعلانات وهم يباعدون بين سيقانهم برجولة... .. أعتقد بأنّ



هذا نوعٌ من البرامج الغنائية مع أناسٍ مشهورين ولكنني لم أعرف واحداً منهم...

- بلى، هو، أنتِ تعرفينه، إنه نجم ستار أكاديمي...

- ما معنى ستار أكاديمي؟

- آه، نعم، كنتُ محقّةً... هذا بالضبط ما قاله لي فرانك،

أنتِ لا تشاهدين أبداً التلفاز...

- ليس كثيراً، كلا... ولكنني أعشق هذا المكان... أشعر

بأنني في وجارٍ دافئٍ جيّداً... امممم... إنهم جميعاً وسيمون،

لا يكفون عن توزيع القبل وتحفظ الفتيات بصباغ جفونهنّ حينما

ينتجبن. سوف ترين أن هذا مثيرٌ للغاية...

- هل تفسحين لي مكاناً؟

قالت كاميل وهي تخلي لها الطرف الآخر من فراشها:

- تفضّلي... هل تودّين أن تشربي شيئاً ما؟

- بورغونيا بنكهة العنب.

- مهلاً، سأجلب كأساً...

- ماذا يجري هنا؟

- لا أفهم شيئاً...

- قدّمي لي جرعة، وسأخبرك.

روتا لبعضهما بعض الأشياء خلال الإعلانات. كانت تُدعى

ميريام، وهي قادمة من شارتر، وتعمل في صالونٍ للتزيين

وتستأجر بالتشارك شقّة في الدائرة الخامسة عشرة. اهتمتا بشأن

فرانك وتركتا له رسالة ورفعتا الصوت حينما استؤنّف البرنامج.

وفي نهاية الفاصل الثالث، كانتا قد أصبحتا صديقتين.

- منذ متى تعرفينه؟
- لا أدري... منذ شهر ربّما...
- هل الأمر جدّي؟
- كلا.
- لماذا؟
- لأنّه لا يفعل شيئاً سوى الكلام عنك! كلا، كنتُ  
أمزح... لقد قال لي فقط إنك ترسمين جيداً... هل تريدان أن  
أزيّنك أثناء وجودي هنا؟
- عفواً؟
- أسرح شعرك؟
- الآن؟
- نعم لأنني بعد ذلك سأكون في غاية الشمالة وقد أبتز جزءاً  
من أذنك أثناء التزيين!
- ولكن ليس لديك أيّ عدّة هنا، ليس لديك حتى مقصّ  
للشعر...
- ألا توجد شفرات حلاقة في الحمام؟
- أوه... بلى. يبدو لي أنّ فيليبير لا يزال يستخدم نوعاً من  
الشفرات التي تعود إلى العصر الحجري...
- ماذا ستفعلين بالضبط؟
- سأنعمك...
- هل يزعجك أن نقف أمام مرآة؟
- أتخافين؟ تريدان أن تراقبيني؟

- كلا، بل أريد أن أشاهدكِ ..
- قصّت ميريّام الشعر وكامل رسمت.
- هل ستعطيني هذه الرسمة؟
- كلا، أعطيكِ كلّ ما تريدين إلا هذه... الصور الشخصية، حتى وإن كانت مبتورة مثل هذه، أحتفظ بها..
- لماذا؟
- لا أدري... أشعر بأنني لفرط ما أرسم سأنتهي بالتعرّف على نفسي ذات يوم...
- حينما ترين نفسكِ في مرآة، ألا تتعرّفين على نفسكِ؟
- أجد نفسي دائماً قبيحة.
- وفي رسوماتكِ؟
- في رسوماتي، ليس دائماً...
- هكذا أفضل، أليس كذلك؟
- لقد جعلتِ لي سالفين، مثل فرانك.
- هذا يناسبك كثيراً.
- هل تعرفين جان سيبيرغ؟
- كلا، من تكون؟
- هذه ممثلة. إنّها تسرّح شعرها بنفس هذه الطريقة. ولكنّها شقراء...
- أوه، إذا كان الأمر يتوقّف على هذا، أستطيع أن أصبغ شعركِ ليصبح أشقر في المرّة القادمة!
- كانت فتاة ظريفة للغاية... وكانت تعيش مع أحد الكتاب

المفضلين لدي.. ثم عُثِرَ عليها ميتة في سيارتها ذات صباح...  
كيف وجدت فتاة بهذا الجمال الشجاعة على أن تنتحر؟  
- ربّما كان عليك أن ترسميها قبل ذلك... لكي ترى  
نفسها...

- كنت في الثانية من عمري...

- هذا أيضاً، أخبرني فرانك به...

- بأنها قد انتحرت؟

- كلا، بأنك كنتِ تروين الكثير من الحكايات...

- هذا لأنني أحب الناس كثيراً... أوه... بكم أدين لك؟

- كفي...

- سأهديك هدية بدل أجرتك...

عادت ومدّت إليها كتاباً.

- قلق الملك سالومون... هل هذا جيّد؟

- أفضل من هذا أيضاً... ألا ترغبين في إعادة محاولة

الاتصال به، الأمر يقلقني، ربّما يكون قد تعرّض لحادث؟

- بففف... أنتِ مخطئة في قلقك... صحيحٌ أنّه قد

نسيني... بدأتُ أعتاد على ذلك...

- لماذا تبقين معه، إذأ؟

- لئلا أكون وحيدة...

كانت قد شرعت في القارورة الثانية، حينما رفع خوذته.

- حسناً ماذا تفعلان هنا؟

قالتا ساخرتين:

- نشاهد فيلماً خليعاً. وجدناه في غرفتك... شقّ علينا الاختيار، إيه، ما اسمه، هذا الفيلم؟
- ارفع لسانك عن مؤخرتي.
- آه، نعم هذا هو... إنه رائع...!
- ولكن ما هذه الترهات؟ ليست لدي أفلام خليعة!
- قالت كاميل ساخرة:
- حقاً؟ هذا غريب... أياكون قد نسيه أحدهم في غرفتك؟
- أضافت ميريام:
- أو أنك قد خُذت، اعتقدت أنك تأخذ فيلم المهرة أميلي ومن ثمّ وجدت أنه فيلم ارفع لسانك...!
- نظر إلى الشاشة بينما كانتا تقهقهان بأعلى صوتهما.
- ولكن ما هذا... أئتما في غاية الثمالة، نعم!
- قالتا مرتبكتين:
- نعم...!
- قالت كاميل بينما كان يغادر الصالون متذمراً:
- هيه أنت؟
- ماذا هناك أيضاً؟
- ألن تُظهِر لخطيبتك كم أنت وسيء اليوم؟
- كلا. لا تزعجيني.
- توسّلت ميريام:
- أوه بلى، أرني، يا عزيزي!
- قالت كاميل:

- عرض تعرّ.

أضافت الأخرى:

- عارياً.

ردّدتا معاً:

- عرض تعرّ! عرض تعرّ! عرض تعرّ!

هزّ رأسه رافعاً عينيه إلى السماء. حاول أن يتّخذ هيئة مستاءة، ولكنه لم يستطع. كان في غاية الإنهاك وأراد أن يرمى على سريريه وينام لأسبوع.

- عرض تعرّ! عرض تعرّ! عرض تعرّ!

- ممتاز. كما تشاءان... أطفئنا التلفاز واستعدنا، يا

حلوتي...

وضع أغنية Sexual Healing - أخيراً - وبدأ بقفازيه.

وعند تكرار قرار الأغنية:

get up, get up, get up, let's make love tonight

wake up, wake up, wake up, cause you do it  
right,

فكّ دفعة واحدة الأزرار الثلاثة الأخيرة لقميصه الأصفر  
وحوّمه فوق رأسه في حركة هزّ رائعة من وركيه.

كانت الفتاتان تنقران بأقدامهما على الأرض وهما تسرفان  
في الضحك.

لم يتبقّ عليه سوى البنطال، استدار وأنزله ببطء وهو يرتعش  
رعشة لإحداهنّ ثمّ للأخرى وحينما ظهر أعلى سرواله الداخلي،

وهو عبارة عن شريطٍ عريضٍ مكتوبٍ عليه DIM DIM DIM، استدار نحو كاميل ليغمزها. في تلك اللحظة، توقفت الأغنية ورفع بنطاله بسرعة بالغة.

- حسناً، هيّا، حماقتكما ظريفة جداً، ولكنني سأنام.  
- أوه... ..

- يا للخسارة... ..

قالت كاميل:

- أنا جائعة.

- وأنا أيضاً.

- فرانك، نحن جائعتان... ..

- حسناً، المطبخ هناك، بطريقي مستقيم ثم نحو اليسار... ..  
ظهر من جديد بعد عدّة دقائق وهو يرتدي منامة فيليبير الشطرنجية.

- إذاً؟ ألا تأكلان؟

- كلا، لا يهّم. سندع أنفسنا نموت جوعاً... .. رجلٌ يرتدي

ثيابه من جديد وطبّاخٌ لا يطبخ، فعلاً، لسنا محظوظتين هذا المساء... ..

تنهّد:

- حسناً، ماذا تريدان؟ طعاماً مالحاً أم حلواً؟

- هممم... .. هذا طيّب... ..

أجاب بتواضع وبنبرة شبيهة بنبرة دون باتيلو:

- هذه ليست سوى معجنات... ..

- ولكن ماذا وضعتَ فيها؟

- الواقع، بعض الأشياء البسيطة...

كررت كاميل:

- هذا لذيذ. وماذا ستقدم لنا من حلوى؟

- موز ناضج جداً... اعذراني يا آنستي، أنا أستخدم ما

يتوقر لديّ من مواد... أقصد، سوف تريان... إن عرق قصب

السكر ليس من ماركة أولد نايك من مخازن مونوبري، إيه!

رددتا مرة أخرى وهما تلعقان صحنيهما:

- هممم، وبعد؟

ردّ بلغة الأطفال:

- وبعد ذلك يحين وقت النوم ولمن يهتمها الأمر، غرفتي

تقع هناك في آخر الشقة إلى اليمين.

بدل ذلك، شربنا شراباً ساخناً ودختنا آخر سيجارة في حين

كان النعاسُ يُغالبُ فرانك على الأريكة.

صرت كاميل بأسنانها:

- آه، إن صاحبنا الدون جوان وسيمٌ بعافيته ومغارته المثيرة

جنسياً...

- نعم، هذا صحيح، إنه جميل...

ابتسم في شبه سباته ووضع إصبعاً أمام فمه ليرجوهما أن

تسكتا.

حينما دخلت كاميل إلى الحمام، كان فرانك وميريام قد

سبقاها إليه. كانا متعبين كثيراً ولم يكن بوسعهما الاستهزاء بها



وأمسكت كاميل بفرشاة أسنانها بينما كانت ميريام تخرج وتمنت لها ليلة هائلة.

كان فرانك منحنيًا فوق المغسلة يتفّ المعجون، حينما التفت والتقت نظراتهما.

- أهى مَنْ فعلت بكِ هذا؟

- نعم.

- هذا جيّد... .

ابتسما لمرآهما في المرآة، واستغرق نصف الثانية تلك أكثر من المعتاد.

صرخت ميريام من غرفتها:

- هل يمكنني ارتداء منامتكِ الرمادية؟

فرك أسنانه بشدّة وتوجّه من جديد إلى فتاة المرآة وخاطبها بكلامٍ غير مفهوم والمعجون يسيل على ذقنه:

- منحماقة عندما لا يكون للمرء سقف لكي ينام.

سألت عابسةً:

- عفواً؟

- كنتُ أقول: من الحماقة ألا يكون للمرء سقفٌ لكي

ينام... .

قالت مبتسمة:

- آه نعم، هذا شيءٌ من الحماقة. حقاً... .

استدارت نحوه:

- اسمعني يا فرانك، لدي أمرٌ مهمٌ أخبرك به... اعترفت

لك البارحة بأنني لم أتخذ قط قراراتي، ولكن الآن، هناك قرارٌ  
أودّ أن نتّخذه معاً ونحترم... ..

- أتريدين أن نكفّ عن الشرب؟!

- كلا.

- عن التدخين؟

- كلا.

- ماذا تريدین إذا؟

- أريد أن توقف هذه اللعبة الصغيرة معي... ..

- أية لعبة؟

- أنت تعرفها جيداً... .. خطّتك الجنسية، كلّ تلميحاتك

المغيظة... .. أنا... لا أريد أن أخسرك، لا أريد أن نتشاجر. أريد

أن تسير الأمور جيداً، هنا، الآن... .. أن يظلّ هذا مكاناً... ..

أقصد، أنت ترى، مكاناً نكون فيه نحن الثلاثة بخير... .. مكاناً

هادئاً، بلا صخب... .. أنا... .. أنت... .. سوف لن نذهب نحن

الاثنان إلى أيّ مكان، تدرك ذلك جيداً، أليس كذلك؟ أقصد،

أريد أن أقول، إننا... .. طبعاً، سيمكننا أن ننام معاً، نعم، حسناً،

ولكن ليس الآن؟ بالنسبة لنا نحن الاثنين، سيكون الأمر عادياً

وأنا... .. أقصد، سيكون من الخسارة أن نفسد كلّ شيء، ماذا... ..

كان في وضعٍ حرج واستغرق بضع ثوانٍ قبل أن يربّت

بإصبعه على ساقها:

- مهلاً، عن ماذا تحدّثيني، هنا؟ لم أقل لكِ قطّ بأنني

أرغب في النوم معك! حتى وإن أردت لن أستطيع أبداً! أنتِ

نحيلة جداً! كيف تريدین أن يرغب رجلٌ في مداعبتكِ؟ داعبي

نفسكِ، يا عزيزتي، داعبي نفسك! أنتِ تهدين تماماً... ..

- أترى كم أنا محقّة في أن أحذرك؟ أترى كم أنا واضحة؟  
لن يمكن لهذا أن يجري بيننا... أنا أحاول أن أقول لك الأشياء  
بأقصى ما يمكن من الرقة وأنت، ليس لديك ما تبادلني به سوى  
عدوانيتك الدنيئة، حماقتك، وسوء نيتك، وخبثك. لحسن الحظ  
أنتك لن تستطيع قط أن تداعبني! لحسن الحظ! لا أريد قائمتك  
المحمرتين القدرتين وأظافرك المتآكلة! احتفظ بها إذا لعشيقاتك  
الخادومات!

تشبّث بمقبض الباب:

- حسناً، حسناً، لقد فات أوان الكلام... من الأفضل أن  
أسكت... أوه! أنا مغفلة... أنا مغفلة جداً... فضلاً عن ذلك،  
عادةً لا أكون هكذا، إطلاقاً... أنا بالأحرى من النوع الذي  
ينحني للعاصفة ريثما تمرّ وأنسلّ خلسةً حينما يكون في الأمر  
هرطقة...

جلس على حرف مغطس الحمام.

- نعم هكذا أتصرّف في العادة... ولكنني، هنا، كغبية،  
أكرهت نفسي على أن أتكلّم إليك لأن...  
رفع رأسه.

- لأنّ ماذا؟

- لأنّ... أخبرتك بذلك، لأنّه يبدو لي من المهمّ أن تبقى  
هذه الشقّة هادئة... سأبلغ السابعة والعشرين من عمري، وللمرّة  
الأولى في حياتي، أقيم في مكانٍ أشعر فيه بأنني بخير وأعود إليه  
مساءً وأنا سعيدة، وحتى وإن كنتُ هنا منذ وقتٍ قصير، أنت  
ترى، رغم كلّ الأهوال الذي تذيقني إياها، لا زلتُ أهين

كبريائي لثلا أجازف بفقدانه من هذا المكان... أوه... أتدرك ما أقوله لك أم أنّ كلامي عبارة عن رطانة غير مفهومة؟  
... -

- حسناً، جيد... سأداعب نفسي... سأنام مع نفسي...  
لم يستطع الامتناع عن الابتسام:

- اعذريني، يا كاميل... أنا أتصرّف معك برعونة.  
- نعم.

- لماذا أنا هكذا؟

- سؤالٌ جيّد... ماذا إذا؟ هل نتصالح؟

- هيّا. أنا مستعد...

- رائع. حسناً، هل نتبادل قبلة إذا؟

- كلا. أناام معك عند اللزوم، ولكن تقبيلك على خدك فلا.

لمرة واحدة، سيكون الأمر في غاية الصعوبة...  
- أنت أحمق...

استغرق لحظة قبل أن ينهض ويتلوّى ثمّ نظر مطوّلاً إلى

أصابع قدميه ويديه وأظافره، وأطفاً النور وضاجع ميريّام بشرود

وهو يلصقها على الوسادة لثلا تسمع الأخرى.

## 5

حتى وإن كلّفها ذلك الحديث كثيراً، حتى وإن تعرّت في

تلك الليلة وفركت جسدها بارتياحٍ أكثر، عاجزةً ومحبّطة من كلّ

تلك العظام النافرة في الأماكن الأكثر استراتيجية للأنوثة،

كالركبتين والردفين والكتفين، حتى وإن استغرقت وقتاً لكي تنام

وهي تحصي عيوبها، فهي لم تندم عليه. فمنذ اليوم التالي، ومن

خلال طريقته في التصرف والمزاح، حيث بدا مهتماً من دون مبالغة، وأنانياً من دون حتى أن يدرك، أدركت أنّ الرسالة قد وصلت.

سهّل حضور ميريام في حياته الأمور، وحتى وإن كان يعاملها دائماً بازدراء، فقد كان يبني غالباً خارج البيت ويعود أكثر راحةً.

أحياناً كانت كاميل تتحسّر على مزاحهما ودعابتهما... كانت تقول في نفسها، يا لها من دجاجة أرض، وكان ذلك مريحاً لها... ولكن أعراض الضعف تلك لم تكن تدوم طويلاً. ولكي تُظهر مكرها كثيراً، كانت تعرف جيداً ثمن الهدوء: ثمنُ باهظ. ثم إلى أين كانت الأمور ستصل فعلاً؟ أين كان يتوقف الجدّ ويبدأ اللعب معه؟ كانت غارقة في هذه الهذيان، جالسة وحيدة إلى المائدة أمام طبقٍ من الغراتان، حينما شاهدت شيئاً غريباً على حرف النافذة...

الصورة الشخصية التي رسمها لها يوم أمس.

قلب خسة طازجة وضيع في فتحة القوقعة...

تجمّدت في مكانها ونقرت بضرباتٍ خفيفة من شوكتها على قطع الكوسى الباردة وهي تبسم ببلاهة.

## 6

ذهبا معاً لشراء غسّالة بياضات جيّدة وتشاركاً في دفع قيمتها. فرح فرانك حينما قال البائع: «ولكنّ زوجتك محقّة تماماً...». وناداهما عزيزتي طيلة فترة تفحص الآلة.

كان البائع يقول بلهجة خطابية:

- إنَّ فائدة هذه الأجهزة المدمجة، جهازان في جهاز،  
تكمُن في توفير المساحة بالتأكيد... للأسف، لا يعرف هذا  
الأمر الأزواج الثبّان في أيامنا هذه...

همست له كاميل وهي تمسك بذراعه:

- أنخبره بأننا ثلاثة نقيم في بيتٍ مساحته أربعمئة متر

مربع؟

ردّ حانقاً:

- عزيزتي... أرجوك، دعيني أصغي إلى السيّد، هيّا...

أصرت على توصيل الغسّالة قبل عودة فيليبير، «وإلا سيرهقه  
ذلك كثيراً»، وأمضت طيلة فترة ما بعد الظهر في تنظيف حجرة  
صغيرة قرب المطبخ لا بدّ أنّها كانت تُدعى «مغسل الثياب» في  
ما مضى...

وجدت أكداساً مكدّسة من شراشف ومماسح مطرّزة وأغطية  
طاولات وفوطاً ومناشف... قطعاً صغيرة من الصابون متصلّبة  
ومواد متشقّقة في علب فاتنة، قطعاً شفّافة من الصودا، زيت  
الكتّان، حوّار، كحولاً لتنظيف الغلايين، شمع سان-فاندريل،  
نشاء ريمي، ناعم الملمس مثل قطع من الورق المخملي...  
مجموعة مثيرة من فراشي الأسنان بقياسات مختلفة وأشكالٍ  
متنوعة، ريشة غبار جميلة تشبه مظلة، ومضرباً مصنوعاً من  
أغصان الصفصاف المجدولة يُستخدم لفضف السجاد.

صفت كلّ تلك الكنوز بدقّة ورسمتها في كراسة كبيرة.

كانت قد عزمت على أن ترسم كلّ شيء لكي تتمكن من

تقديمه إلى فيليبير حينما تضطرّ لأن تغادر..

كلّما كانت تعمل على ترتيب البيت، كانت تجد نفسها جالسة وهي ترتدي تايوراً، غائصة في صناديق كرتون كبيرة مليئة بالرسائل والصور، فتمضي ساعات كاملة مع رجالٍ بشوارب وسيمين يرتدون بزاتٍ رسمية، وسيدات كبيرات أنيقات خارجات من لوحة لرينوار، وصبية صغار يرتدون ألبسة شبيهة بألبسة الفتيات، وهم يضعون اليد اليمنى على لعبة الحصان القلاب في الخامسة من عمرهم، وعلى دولابٍ في السابعة، وعلى توراة في الثانية عشرة، وأكتافهم منحرفة بعض الشيء، لكي يُظهروا ما بأيديهم كمتناولين للقربان مذهولين بالنعمة...

نعم، كانت تعشق هذا المكان ولم يكن من النادر أن تقفز وتنظر إلى ساعة يدها وتركض في ممرّات مترو الأنفاق وتتلقّى الشتائم من جوزي الرائعة حينما كانت هذه الأخيرة تعرض عليها ميناء ساعتها... عجباً...

- إلى أين تذهبين؟

- إلى العمل، أنا بارعة في التأخر...

- تغطي، الجوّ بارد...

أضافت:

- نعم بابا... في الواقع...

- نعم؟

- غداً سيعود فيليبير...

- حقاً؟

- أنا أمضيتُ سهرتي... هل ستكون هناك؟

- لا أدري.

- حسناً...

- ضعي على الأقلّ وشا...

كان الباب قد صفق...

كان يجب أن أعرف، غمغم فرانك، حينما أغازلها، لا ينجح الأمر، حينما أقول لها أن تتغطّي، تستخفّ بكلامي. هذه الفتاة تقتلني...

سنة جديدة، وأعمال السخرة ذاتها. نفس المشمّعات الأرضية الثقيلة جداً، نفس الشراقات المسدودة دائماً، نفس الدلاء المرقّمة («لا مزيد من الحكايات، يا بنات!»)، نفس المواد التي جرى النقاش حولها بشدّة، نفس المغاسل المسدودة، نفس مامادو الرائعة، نفس الزميلات المنهكات، نفس جوجو المتوتّرة... كان كلّ شيء يكرّر نفسه.

كانت كاميل منهكة وأقلّ حماسة. تركت حجارتها عند المدخل وانهمكت في العمل ولاحقت ضوء النهار ولم تعد ترى أسباباً لأن تعيش بخلاف ذلك... كان الصباح هو الفترة الأكثر إنتاجية ولكن كيف ستعمل في الصباح وهي لا تنام أبداً قبل الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، منهكةً بعملٍ بدنيّ موهن؟

كانت تشعر بوخزٍ في يديها وكان دماغها مشغولاً: فيليبير سيعود، والعيش ممكنٌ مع فرانك وإغراءات الشقّة لا تُقدّر بثمان... راودتها فكرة... نوعٌ من جدارية... أوه، كلا، لم تكن جدارية، هذه كلمة كبيرة... كان إيحاء... نعم، صحيح، إيحاء. كانت عبارة عن وقائع وسيرة للمكان الذي عاشت فيه...



كانت هناك مواد كثيرة، ذكريات كثيرة... ليس فقط الأشياء. ليس فقط الصور وإنما بيئةً أيضاً. جوٌّ، كما كانت الأخرى تقول... همسات واختلاجات أيضاً... تلك المجلدات، تلك الأقمشة المصبوغة، نتوءات الزينة المتعجرفة تلك، قواطع الكهرباء الخزفية تلك، تلك الأسلاك المعرّاة، تلك السخانات المعدنية، تلك المستوعبات الصغيرة للضمادات، وقوالب الأحذية تلك، وكلّ تلك البطاقات المصفرّة...

نهايةً عالمٍ...

كان فيليبير قد نبّههما: ذات يوم، قد يكون غداً؟ ينبغي الرحيل، ينبغي أن يللملما ثيابهما وكتبهما وأسطواناتهما وذكرياتهما وجفنتيهما الصفراوين من ماركة تابروير ويهجرا كلّ شيء.

وبعد؟ مَنْ يدري؟ في أفضل الحالات التقاسم، وفي أسوأها الوحوش، تجار البالة. طبعاً سيجد الكارتل والقبعات العالية مَنْ يشتريها، ولكنّ كحول تنظيف الغلايين وساقط الستارة وذيل الحصان مع بطاقة شكر صغيرة في ذكرى فينوس، 1887-1912، الفرس الشقراء المزهوّة ذات الأنف المرقّش وثمالة مادة الكينين في قارورتها الزرقاء على رف الحمام، مَنْ سيهتمّ بها؟

نقاها؟ استرخاء؟ جنونٌ خفيف؟ لم تكن كاميل تدري، لا متى ولا كيف راودتها تلك الفكرة، ولكن ها هي قد انشغلت بهذا اليقين الصغير - بل هل يمكن أن يكون الماركيز العجوز هو الذي من أوحى لها بهذه الفكرة؟ - وكأنّ كلّ هذا، هذه الأناقة، هذا العالم المحتضّر، هذا المتحف الصغير للفنون والتقاليد

البرجوازية، لم يكن ينتظر سوى قدومها، نظرتها، رقّتها، ريشتها  
المدهشة لكي يقرّر أخيراً الاختفاء...

كانت هذه الفكرة الخرقاء تذهب وتأتي وتختفي وسط  
النهار، مطاردة غالباً بوابلٍ من البسمات الهازئة: ولكن يا لفتاتي  
المسكينة... إلى أين تمضين؟ ومنَ تكونين؟ ثم أخبريني، من  
سيبالي بكلّ هذا؟

ولكن في الليل... آه! الليل!، حينما كانت لتعود من  
جولاتها الرهيبة التي أمضت معظم وقتها خلالها وهي مقرّفة  
أمام سطل وتمسح أنفها بكمّ قميصٍ من النايلون، حينما كانت  
تنحني، لعشر مرّات، لمائة مرّة، لترمي كؤوس بلاستيك وأوراقاً  
لا أهمية لها، حينما كانت تسير لكيلومترات في سراديب باهتة  
بحيث لم تستطع تلك الخريشات التافهة تغطية هكذا أشياء:  
وهو؟ بماذا يشعر حينما يكون في داخلكم؟ حينما وضعت  
مفاتيحها على منضدة المدخل وعبرت تلك الشقّة الواسعة على  
أطراف أصابعها، لم تستطع ألا تسمع كلّ الأشياء وهي تناديها:  
نادتها أرضية المنزل: «كاميل... كاميل...»، توّسّلت إليها  
الألبسة الرثة والأثاث القديم «خذينا معك...». وقال الجنرال  
العجوز المصوّر على سرير احتضاره، ساخطاً «سحقاً! لماذا  
الجفنتان وليس نحن؟». فردّد ذوو الأزرار النحاس والنسيج  
الحرير البائس في لحنٍ جماعي «هذا صحيح! لماذا؟».

جلست وسط العتمة ولقّت لنفسها بهدوء سيجارة لكي  
تواسيهم. أولاً، لا شأن لي بجفنتكم من طراز تابروير، ثانياً،  
أنا هنا، ليس عليكم سوى أن توقظوني قبل منتصف الظهيرة، يا

كانت تحلم بالأمير سالينا، وهو يعود وحيداً، راجلاً، بعد الحفلة الراقصة... الأمير الذي شهد للتوّ، عاجزاً، انهيار عالمه والذي كان، وهو يرى هيكلاً عظيماً دامياً لثور وقشوراً منشوراً على طول الطريق، يبتهل إلى السماء ألا يتأخر كثيراً... .

كان رجل الطابق الخامس قد ترك علبه من شوكولا مون شيري مرسله إليها. مجنون كبير، هزأت كاميل التي قدّمها لرئيسة قسمها المفضّلة وتركت بات هيبولير تشكره نيابةً عنها: «شكراً، ولكن دعونا نرى... أليس لديكم شراب مغطى بالكريما؟».

كم أنا مضحكة، قالت متنهدة وهي تضع رسمتها، كم أنا مضحكة... .

وفي هذه الحالة النفسية، حاملة، ساخرة، قدمّ في رواية ليوبارد<sup>(1)</sup> وأخرى بين الأوساخ، دفعت باب الحجرة الواقعة خلف المصاعد حيث يضعون صفائح ماء الجافيل الفارغة وكلّ نفاياتهم.

كانت آخر مَنْ يغادر وبدأت تتجرّد من ثيابها وسط العتمة حينما أدركت أنّها لم تكن وحيدة... .

توقّف قلبها عن الخفقان وشعرت بماء ساخن يسيل على طول فخذها: لقد تبوّلت عليهما.

---

(1) رواية كتبها الدون جوزيبي توماسي عن حياة الأمير الصقلي فابريزيو سالينا. (المترجم).

قالت وهي تتحسّس الجدار بحثاً عن مفتاح الإنارة:

- هل... هل هناك أحد؟

كان موجوداً، جالساً على الأرض، مرعوباً، تائه النظر، غائر العينين من تأثير المخدّر أو من نقصه، كانت تعرف تلك الوجوه عن ظهر قلب. لم يتحرّك ولم يعد يتنفس وكمّ خطم كلبه بين يديه.

ظلاً على تلك الحالة لبضع ثوانٍ، يحدّقان ببعضهما في صمت، الوقت اللازم لكي يدركا أن لا أحد منهما سيموت بخطأ الآخر، وحينما أبعد يده اليمنى لكي يضع إصبعاً على فمه، أغرقته كاميل من جديد في العتمة.

استعاد قلبها خفقانه. لا يهّم كيف. أخذت معطفها وخرجت القهقري.

أنّ:

- الرمز؟

- عف... عفواً؟

- رمز العمارة؟

لم تعد تعرف، غمغمت، أعطته له، بحثت عن المخرج متشبّهةً بالجدران ووجدت نفسها في الشارع، لاهثةً وغارقة في العرق.

صادفت الحارس الليلي:

- الجو ليس حاراً هذا المساء، إيه؟

...

- هل أنتِ بخير؟ وكأنكِ قد رأيتِ شبحاً... ..

- أنا متعبة... ..

كانت متجمّدة من البرد، شبكت ذبول معطفها على أسفل ثوبها المبتلّ جداً وانطلقت في الاتجاه الخاطئ. حينما أدركت في النهاية أين هي، حاذت الخطّ الأبيض لتوقف سيارة أجرة.

كانت سيارة صغيرة مترفة تعلن عن درجات الحرارة في الداخل والخارج (+21، -3). باعدت بين فخذيها، وضعت جبينها على زجاج السيارة وأمضت ما تبقى من المسافة في مراقبة الكتل البشرية الصغيرة المنكمشة على شبكات التهوية وفي خبايا بوابات العربات.

المصرّون والعنيدون والذين رفضوا الأغطية المصنوعة من الألمنيوم كي لا يُحتجزوا في مجموعة مناراتهم والذين فضّلوا الإسفلت الفاتر على خزف نانثير.

عبست.

راودتها ذكريات أليمة... ..

وشبحها المرعب، إذأ؟ بدا في غاية الفتوة... .. وماذا عن كلبه؟ كان ذلك خطأ، هذا... .. لم يكن بوسعه الذهاب إلى أيّ مكانٍ معها... .. ربّما كان عليها أن تكلمه، وأن تحذّره من ماتريكس الضخم وأن تسأله إن كان جائعاً... .. كلا، كان يريد منها مادتها المقوية... .. وكلبه؟ متى حصل على آخر قسِطٍ من النزهة؟ في قمّة كانيفغو؟ تنهّدت. يا لها من بلهاء... .. الاهتمام بكلب مهجّن حينما كان نصف الإنسانية يحلم بمكانٍ على فتحة تهوية، يا لها من بلهاء... .. هيّا، اذهبي إلى النوم، يا جدّة، أنتِ

تخجليني. ما معنى كلِّ هذا؟ أنتِ تطفئين النور لثلا تعودي ترينه  
وبعد ذلك تضجرين خلف سيارة برلينية ضخمة ماضغة مندليك  
المخرّم...

اذهبي إلى النوم، اذهبي...

كانت الشقّة فارغة، بحثت عن الكحول، أيّ كحول، فقط  
بغية أن تجد الطريق إلى وسادتها وتنهض في الليل لتذهب وتقتياً.

## 7

كانت يداها في جيبيها وأنفها مرفوعاً في الهواء وتنطنط  
تحت لوحة إعلانات حينما أعطهاها صوتٌ مألوفٌ المعلومه التي  
تبحث عنها:

- قطار قادم من نانت. الوصول إلى الرصيف في الساعة  
الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة مساء. تأخير خمس عشرة دقيقة  
تقريباً... كالعادة...

- آه! حسناً أنتَ هنا؟

أضاف فرانك:

- نعم... جئتُ لآخذ الشمعة... قولي إذاً، لقد تجمّلتِ!  
أهذا أحمر شفاهٍ أم أنا مخطئ؟  
أخفتِ ابتسامتها خلف ثقوب وشاحها.  
- أنتَ أحمر...

- كلا، أنا غيور. لم تضعي قط أحمر شفاه من أجلي...

- هذا ليس أحمر شفاه، هذا مرهمٌ للشفاه المشققة...

- كاذبة، دعيني أرى...

- كلا. ألا زلت في عطلة؟

- سأستأنف العمل غداً مساءً.

- حقاً؟

- هل جدتك بخير؟

- نعم.

- هل أعطيتها هديتي؟

- نعم.

- وماذا قالت؟

- قالت بأنه لكي ترسميني جيداً يجب أن تكوني متدلّهة

بي ...

- حسناً لنرّ... ..

- أنشرب شيئاً؟

- كلا. لقد بقيتُ محبوسة في البيت طيلة النهار... .. سوف

أجلس هنا وأتفرّج على الناس... ..

- هل يمكنني الجلوس معك؟

تكتبنا على مقعدٍ قرب كشكٍ لبيع الصحف وراقبا الحركة

السريعة للأشخاص الشغوفين.

- هيا! اركض يا غلامي العزيز! اركض! هوب... .. لقد

فات الأوان... ..

- يورو واحد؟ كلا. عقب سيجارة إن شئت... ..

- هل يمكنك أن تشرح لي لماذا دائماً الفتيات المتعبات

جداً يرتدين سراويل ذوات الخصر الواطئ؟ لا أفهم... ..

- يورو واحد؟ هيه أنت، ولكن سبق وصفعتني قبل قليل،

يا عجوز!

- انظري إلى الجدّة النحيلة مع عمرتها، هل كراستك

معلك؟ كلا؟ يا للخسارة... والرجل؟ انظري كم هو سعيد بقاء زوجته...

قالت كاميل:

- هذا مريب، لا بدّ أن هذه عشيقته...

- لماذا تقولين هذا؟

- رجلٌ يأتي مسرعاً إلى المدينة ويهرع إلى امرأة ترتدي

معطفاً من الفرو ويقبل عنقها... أوه، صدّقني، هذا مريب...

- بففف... ربّما تكون زوجته؟

- كلا! زوجته في بلدة كويمبيه، وهي تُرقد الأطفال في هذه

الساعة! تفضّلها هما زوجان، قهقهت ساخرة وهي تشير له إلى

رجلٍ وامرأة يتبادلان الشتائم أمام علامة للقطار السريع...

هزّ رأسه:

- أنتِ تافهة...

- أنت عاطفي جداً...

ثمّ مرّ عجوزان نحيلان من أمامهما، مقوّسي الظهر،

حنونين، حذرين ويمسكان بذراعي بعضهما. لكزها فرانك:

- آه!

- أنا أنحني...

- أنا أعشق المحطات.

ردّت كاميل:

- وأنا أيضاً.

- لمعرفة بلدٍ ما، لست بحاجة لأن تجولي كالبلهاء في



حافلة، تكفي زيارة المحطات والأسواق وستفهمين كل شيء... ..

- أنا متفقة تماماً معك... .. إلى أين سافرت؟

- لم أذهب إلى أيّ مكان... ..

- ألم تغادر فرنسا قط؟

- أمضيتُ شهرين في السويد... .. طبّاحاً في السفارة... ..

ولكن كان ذلك خلال فصل الشتاء ولم أشاهد أيّ شيء. لا

يمكنك أن تشربي هناك... .. لا توجد حانات... .. لا يوجد أيّ

شيء... ..

- حسناً... .. والمحطة؟ والأسواق؟

- لم أر النهار... ..

- هل كان ذلك جيّداً؟ لماذا تضحك؟

- لا لشيء... ..

- حدّثني.

- كلا.

- لماذا؟

- لأنّ... ..

- أوه... .. أوه... .. هناك حكاية امرأة وراء كلّ هذا... ..

- كلا.

- كاذب، أرى ذلك في... .. في أنفك الذي يطول<sup>(1)</sup>... ..

قال وهو يشير لها إلى الأرصفة:

---

(1) في إشارة إلى بينوشيو الذي يطوله أنفه عندما يكذب.

- حسناً، هل نبتعد؟

- حدّثني أولاً...

- ولكنّ هذا أمرٌ تافه... تُرّهات...

- لقد نمّت مع زوجة السفير، أهذا هو؟

- كلا.

- مع ابنته؟

- نعم! هذا صحيح! هل أنتِ سعيدة؟

قالت متفنّجة:

- سعيدةٌ جداً، هل كانت جميلة؟

- كانت قبيحة.

- كلللا؟

- بلى. حتى إن رجلاً سويدياً يبحث عن قوته في الدانمارك

ذات مساء سبت وشكله مشوّه كسفرجلة ما كان ليرغب فيها...

- ماذا كان ذلك إذأ؟ أهو نوعٌ من الشفقة عليها أم بدافعٍ

صّحي؟

- كان ذلك نوعاً من الوحشية...

- حدّثني.

- كلا. إلا إذا قلتِ لي بأنك مخطئة وأنّ المرأة الشقراء

التي شاهدناها منذ قليل كانت زوجته...

- أنا مخطئة: العاهرة ذات المعطف المصنوع من جلد

القندس، كانت زوجته. لقد تزوّجا منذ ثلاثة عشر عاماً، لديهما

أربعة صبيان وهما يعشقان بعضهما وهي الآن ترتمي على فتحة

سرواله في مصعد المرأب مبقية عيناً على ساعتها لأنها قد وضعت طبقاً من المرق البقري على النار قبل أن تغادر البيت وتريد أن تمتّعه قبل أن يحترق الكراث... ..

- باه... لا يوجد كراث في مرقٍ بقري!

- حقاً؟

- أنتِ تخلطين بينها وبين اللحم المسلوق بالخضار... ..

- وماذا عن عزيزتك السويدية؟

- لم تكن سويدية، قلتُ لك إنها كانت فرنسية... .. في

الحقيقة، أختها هي من كانت تغويني... .. أميرة مدللة جداً... ..

فتاة صغيرة بلهاء وثرثارة متبختره ترتدي Spice Girl وحامية مثل

الجمر... .. هي أيضاً، كانت تزعج نفسها، أتصوّر... .. ولتمضية

الوقت، جاءت تضع مؤخرتها الصغيرة على مواقدنا. كانت تغري

الجميع وتغطّ إصبعها في طناجري وتلعقها ببطء وهي تنظر إليّ

من الأسفل... .. أنتِ تعرفيني، لستُ معقداً كفتي، فالتقطتها ذات

يوم في الطابق العلوي وأخذت تلك البلهاء تزقزق كالعصفورة.

خشيْتُ أن تذهب وتخبر والدها وكلّ ما يتبع ذلك... .. أو لا لا،

أنا لستُ معقداً كفتي ولكنني لا أحبّ الفتيات الساعيات إلى

الإثارة... .. فضاجعتُ شقيقتها الكبرى لكي أعلمها الحياة... ..

- هذا منفرٌ بالنسبة للقبیحة!

- كلّ شيء منفرٌ بالنسبة للقبیحات، أنتِ تعرفين ذلك

جيداً... ..

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، غادرت... ..

- لماذا؟

...-

- حادثٌ دبلوماسي؟

- يمكننا قول هذا، هكذا... هيا، سنذهب الآن...

- أنا أيضاً، أحبّ كثيراً أن تروي لي حكايات...

- تتحدّثين عن حكاية...

- هل لديك الكثير من هذه القصص؟

- كلا. عموماً، أنا أفضل أن أجدّ لكي أظفر بالصغيرات

الجميلات!

أنت:

- ربّما علينا أن نذهب إلى أبعد، إذا ما أخذتلك السلالم

وصعد نحو سيارات الأجرة، سنفقد أثره...

- لا تقلقي... أنا أعرف عزيزي فيلو... يمشي باستمرار

في خطّ مستقيم إلى أن يصطدم بعمودٍ فيعتذر بعد ذلك ويرفع

رأسه لكي يدرك أين المخرج...

- أنتَ متأكّد؟

- نعم... هيه أنت، هذا صحيح... أنتِ مغرمة أم ماذا؟

- لا، ولكنك تعرف الأمر... خرجت من عربتك مع كلّ

متاعك. أنتِ ثملٌ بعض الشيء، محبّطٌ بعض الشيء... لا تنتظر

أحداً، وهناك مَنْ هو في نهاية الرصيف وينتظرك... ألم تحلم

قط بهذا؟

- أنا لا أحلم...

ردّدت وهي تقلّد سخرية قوّاد:

- أنا لا أحلم، أنا لا أحلم ولا أحب الساعيات إلى  
الإثارة. ها قد أخبرتك يا بنية...  
كان مرهقاً.

أضافت:

- تفضّل، انظر، أعتقد بأنّه هو، هناك...

كان في نهاية الرصيف وكان فرانك محقّقاً: كان الوحيد  
الذي لا يرتدي بنطال جينز ولا حذاءً رياضياً ولم تكن معه لا  
حقيبة ظهر ولا عربة أمتعة. كان منتصباً مثل حرف الألف،  
ويمشي ببطء، ويمسك بيدٍ حقيبة ضخمة من الجلد محاطة بحزامٍ  
عسكري وبالأخرى كتاباً لا يزال مفتوحاً...

ابتسمت كاميل:

- كلا، لست مغرمة به، ولكنك ترى، إنّهُ الشقيق الأكبر  
الذي كنتُ أحلم بأن يكون لي...  
- هل أنتِ فتاةٌ وحيدة؟  
- أنا... لم أعد أدري...

قالت ذلك وهرعت نحو شبحها الأحول والرائع.

طبعاً ارتبك، طبعاً تلعثم، طبعاً ترك حقيبته التي سقطت  
على قدمي كاميل، طبعاً غالى في الاعتذار وفقد نظارته في نفس  
الوقت. طبعاً.

- أوه، ولكن يا كاميل، كما ترين... قد نصّدق جروراً  
صغيراً، ولكن، ولكن، ولكن...

قال فرانك متذمراً:

- لا تحاول... لم يعد من الممكن ضبطه.

- تفضّل، خذ حقيته.

أمرته بذلك في حين تعلّقت برقبته، قائلةً:

- أتعرف، لدينا مفاجأة لك...

- مفاجأة، ولكن يا إلهي، كلا... أنا... أنا لا أحبّ

المفاجآت، ما... ما كان يجب...

- هيه، أيها العاشقان الفتيان! هلاً أبطأتما خطوكما؟ هناك

صبيكما المتعب، سحقا، ماذا وضعت في هذه الحقيبة؟ أسلحة

أم ماذا؟

- أوه، بعض الكتب... ولا شيء سواها...

- سحقا، يا فيلو، لديك آلاف الكتب، تبا... ألم يكن

بوسعك ترك هذه في القصر؟

همس في أذن كاميل:

- صديقنا في صحّة ممتازة، كيف حالكم أنتم؟

- مَنْ نحن؟

- أوه... حسناً، أنتم...

- عفواً؟

- أ.. أنتِ؟

ردّت مبتسمةً:

- أنا في حالة ممتازة. أنا سعيدة بوجودك هنا...

- أنا أيضاً... هل جرى كلّ شيء بخير؟ أليست هناك

- خنادق في الشقة؟ أليست هناك أسلاك شائكة؟ أليست هناك أكياس رمل؟
- لا توجد أي مشكلة. لديه صديقة صغيرة الآن...
- آه، ممتاز... والأعياد؟
- آية أعياد؟ العيد هو هذه الليلة! سوف نذهب لتناول العشاء في مكان ما... أنت في ضيافتي!
- دمدم فرانك:
- إلى أين؟
- إلى كوبول.
- أوه، كلا... هذا ليس مطعماً إنه مصنع للأكل...
- عبست كاميل:
- بلى. سنذهب إلى كوبول. أنا أعشق هذا المكان... لا نذهب إليه لتأكل، نذهب إليه من أجل ديكوره، من أجل جوه، من أجل الناس... ولنكون معاً...
- ما معنى «لا نذهب إليه لتأكل»؟ يا له من كلام!
- حسناً إذا كنت لا تريد أن ترافقنا، لا بأس، فأنا أدعو فيليبير. لا تنسيا أنّ هذه نزوتي الأولى لهذه السنة!
- سوف لن نجد أمكنة...
- بلى. وإن لم نجدها، سننتظر في الحانة...
- ومكتبة السيد الماركيز؟ أنا من سيحملها إلى هناك؟
- ليس أمامنا سوى أن نتركها في مستودع المحطة ونستردها عند عودتنا...

- حسناً لنرَ... تَباً، يا فيلوا! قل شيئاً!

- فرانك؟

- نعم.

- لديّ ست أخوات...

- فإذا؟

- إذاً أخبرك بأبسط ما يمكن: استسلم. ما تشاؤه المرأة،

يشاؤه الله...

- مَنْ قال هذا؟

- الحكمة الشعبية...

- وها هو! عدنا إلى ما كنّا عليه! أنتما تزعجانني بأقوالكما

المأثورة...

هدأ حينما مرّرت ذراعها تحت ذراعه، وابتعد المتسكّعون

الفضوليون في جادة مونبارناس ليتيحوا لهما المرور.

من الخلف، كانوا في غاية الوسامة...

إلى اليسار، الطويل النحيل بسترتة المبطنّة وعليها عبارة

Retraite de Russie، إلى اليمين، القصير المتين البنية مع بلوزته

المطبوعة عليها عبارة Lucky Strike وفي الوسط، فتاة تثرثر

بصوتٍ خافت وتضحك وتحجل وتحلم سراً أن تُرْفَع عن الأرض

وتسمعهم يقولون: «إلى الطابق الأوّل! إلى الثاني! إلى الثالث!

يووووووه...».

كانت تشدّهما إليها بأقصى قوّة ممكنة. كان كلّ توازنهما

بينهما اليوم. لا أمامهما ولا خلفهما وإنّما بينهما بالضبط. بين

تَيْنِكَ المرفقين الحليمين...



كان الطويل النحيل يحني رأسه قليلاً وكان القصير المكين يدسّ قبضتيه في جيبيه الباليين. كان الاثنان، ومن دون أن يدركا ذلك، يفكران في الأمر نفسه: نحن الثلاثة، هنا، الآن، جائعون، معاً، وندع الأمور تجري على أعنتها...

خلال الدقائق العشر الأولى، كان فرانك سيئاً جداً، وانتقد بالتناوب قائمة الطعام والأسعار والخدمة والصخب والسياح والباريسيين والأمريكيين والمدخنين وغير المدخنين واللوحات والكركند وجارته وسكينته والتمثال القذر الذي سيسدّ بالتأكيد شهيته.

كان فيليبير وكاميل يتلويان من الضحك.

بعد كأسٍ من الشمبانيا، وكأسين من النبيذ وستّ محارات، صمت فرانك أخيراً.

كان فيليبير، غير المعتاد على الشرب، يضحك ببلاهة وبلا سبب. في كلّ مرّة وضع كأسه، كان يمسح فمه ويقلّد خوري قريته وهو يطلق مواعظ صوفية ومعذبة قبل أن يختم بالقول: «آمين، آاه كم أنا سعيدٌ بوجودي معكما...». محاصراً بالاثنتين الآخرين، أعطاهما أخباراً عن مملكته الصغيرة، عن عائلته، عن الفيضانات، عن عيد رأس السنة عند أبناء العمّ التزيهين وشرح لهما عدداً من العادات والأعراف المذهلة بروحٍ من الدعابة، من دون أن يظهر عليه ذلك، وهذه أفرحتهما.

كان فرانك خاصّةً يحملق ويردّد: «أليس كذلك؟»، «كلا!»

«كلا...» كلّ عشر ثوانٍ:

- وكأنّهما خاطبان منذ سنتين وليس لديهما قط... مهلاً...

لا أصدّق ذلك...

كانت كاميل تشده قائلة:

- عليك أن تمثل في المسرح، أنا متأكدة من أنك ستكون ممثلاً بارعاً.. أنت تعرف الكثير من الكلمات وتقول الأشياء بكثير من الروح... بكثير من العمق... عليك أن تروي السحر المجنون للنبالة الفرنسية القديمة أو شيئاً من هذا القبيل....

- أ... أعتقد ذلك؟

- أنا متأكدة من ذلك! إيه يا فرانك؟ ولكنك... ألم تحدثني عن فتاة في المتحف أرادت أن تصطحبك إلى دروسها؟ هذا... هذا صحيح... ولكنني... ولكنني أتلعثم كثيراً...

- كلا، حينما تروي، تتكلم بشكلٍ طبيعي...

- هل... هل تعتقدان ذلك؟

دقّ فرانك قدحه بقدحه وقال:

- نعم. هيا! هذا قرارك الصحيح في السنة الجديدة! إلى خشبات المسرح، يا مولانا! ولا تشتكي، إذًا، لأنّ قرارك ليس صعب الاتخاذ...

كانت كاميل تقشّر السلطعون وتكسر قوائمه وملاقطه وقشرته وتعهده في شطائر مذهلة. مذ كانت صغيرة، كانت تحبّ كثيراً ثمار البحر لأنّه كان هناك باستمرار الكثير منها لكي تشتغل به والقليل منها لتأكله. بفضل جبلٍ من الجليد المنتصب بينها وبين محدّثيها، كان بوسعها أن تغشّ طيلة الوجبة من دون أن يتدخّل أحدٌ في الأمر أو يزعجها. وهذا المساء أيضاً، بينما دعت النادل من بعيد لتطلب قارورة أخرى، لم تلتزم بحصّتها. نظّفت أصابعها

وأمسكت بشطيرة من الخبز وأسندت ظهرها إلى المقعد مغمضةً  
عينها.

طقطقة.

لم يعد أحدٌ يتحرّك.

لحظة معلقة.

سعادة.

روى فرانك حكايات عن كربوراتور سيارة فيليبير الذي  
أصغى إليه بصبر، مبرهنًا، مرّة أخرى، على تربيته الممتازة وطيبة  
قلبه الكبيرة.

قال بوقار:

- بالتأكيد، إنّ 89 يورو هو مبلغ، وما رأي صديقك... ..

ال... الضخم... .. بذلك... ..

- تيتي الضخم؟

- نعم!

- أوه حسنًا، أنت تعلم، تيتي لا يبالي بالأمر، هو لديه

قدر ما يريد من جوانات الكولاس هذه... ..

أجاب:

- بالتأكيد، أنا آسفٌ بصدق، تيتي الضخم، هو تيتي

الضخم... ..

لم يكن يهزأ. لم يكن هناك أيّ سخرية منه. تيتي الضخم،

كان هو تيتي الضخم ومن ثمّ هذا صحيح.

سألت كاميل من يريد أن يتقاسم الفطائر المحلاة معها. آثر

فيلبير أن يأخذ عصير ليمون مثلج وسأل فرانك:

- أيّ نوع من النساء أنتِ؟ من اللواتي يقلن نتقاسم ثمّ يلتهمن كلّ شيء وهنّ يخفقن برموشهنّ؟ أم من اللواتي يقلن نتقاسم ويقضمن فقط قَمّة قطعٍ من الحلوى؟ أم من اللواتي يقلن نتقاسم ويتقاسمن فعلاً؟

- اطلب وستعرف ذلك...

قال فيليبير:

- اممم، هذا لذيذ...

- كلا، لقد أُعيد تسخينها وهي سميكة جداً وفيها الكثير من

الزبدة... سوف أعدّ لك منها ذات يوم وسترى الفرق...

- متى تريد...

- عندما تهدأ.

شعر فيليبير بأنّ الأجواء قد تغيّرت ولكن لم يعرف تماماً في

أيّ اتجاه.

لم يكن الوحيد.

وكان هذا هو الأمر المسلي...

بما أنّ كاميل ألّحت، وبما أنّ ما تشاؤه المرأة... إلخ،

تحدّثوا عن المال: مَنْ سيدفع ماذا، متى وكيف؟ مَنْ سيشتري

اللوازم؟ وكم سيكون بقشيش البوّاب؟ أية أسماء على صندوق

الرسائل؟ هل سنركّب خطأ هاتفياً وهل سندع أنفسنا نتأثر

بالرسائل الزائدة على خزينة الدولة بخصوص الضريبة؟ وترتيب

البيت؟ كلُّ يرتّب غرفته، حسناً، ولكن لماذا تقوم هي أو فيليبو

بترتيب المطبخ والحمام؟ بالنسبة للحمام، تلزمه حاوية، سأتكفل

بها... أنت يا فرانك، فكّر في إعادة صنع علبك وافتح نافذة

غرفتك من حينٍ لآخر وإلا سنتعقن جميعاً... والمراحيض أيضاً.  
الرجاء إسدال غطاء فتحة المراحيض وحينما لا يعود هناك ورق  
تواليت أخبروني بذلك. ثم يمكننا شراء شِراق... مكنسة بيسيل  
العائدة للحرب العالمية الأولى لا بأس بها لبعض الوقت...  
أوه... ماذا أيضاً؟

- إذاً يا عزيزي فيلو، أفهمت الآن لماذا كنتُ أقول لك لا  
تدع فتاةً تقيم في بيتك؟ أتدرك ما أردتُ قوله لك؟ أترى الآن  
الورطة؟ وانتظر، هذه ليست سوى البداية...

ابتسم فيليب ماركيه دو لا دوربيلير. كلا، لم يكن يدرك.  
كان قد أمضى خمسة عشر يوماً مهاناً تحت النظرة الساخطة  
لوالده الذي لم يعد بوسعه إخفاء إنكاره له. ولدٌ بكر لا يهتم لا  
بإيجارات الأراضي ولا بالغابات ولا بالفتيات ولا بالمال ولا  
حتى بمكانته الاجتماعية. ولدٌ عاجز وأبله يبيع البطاقات البريدية  
لصالح الدولة ويرتبك حينما تطلب منه أخته الصغيرة أن يعطيها  
الملح. الوريث الوحيد لاسمه وغير القادر على الاحتفاظ بشيءٍ  
من المهابة حينما يتوجه إلى خفير الصيد. كلا لم يكن يستحق  
ذلك، كان يقول صاراً بأسنانه كلَّ صباح حينما يباغته في غرفة  
شقيقته بلانش يمشي على الأربعة وهو يلعب معها لعبة الدمية...

- أليس لديك ما هو أفضل من هذا لتفعله، يا بني؟

- كلا يا أبي، ولكنني... أخبرني، إن كنتَ بحاجة إليّ،

أنا...

ولكن الباب كان يُصَفَّق قبل أن ينهي جملته.

- أنت، ستعدّ طعاماً لناكله وأنا سأذهب وسأشتري اللوازم

وبعد ذلك ستعدّ حلوى بالعسل ثمّ سنأخذ الأطفال في نزهة في الحديقة... .

- حسناً، يا برغووثي، حسناً. سنقول كلّ ما تريدن... .

بلانش أو كاميل، بالنسبة له الأمر سيان: فتاتان صغيرتان تحبّانه وتقبّلانه أحياناً. ولهذا، كان مستعداً لأن يتحمّل احتقار والده وأن يشتري خمسين شراًفاً لو لزم الأمر.  
لا مشكلة.

ولأنّه كان يحبّ المخطوطات والوثائق والأنساب والخرائط وسواها من الموثائق، دفع فناجين القهوة إلى الطاولة المجاورة وأخرج ورقة من حقيبته كتب عليها باحتفالية: «ميثاق جادة ايميل ديشانيل في خدمة شاغليه وسواهم من زاء...».  
توقّف:

- ومن كان ايميل ديشانيل هذا، يا أولاد؟

- رئيساً للجمهورية!

- كلا. كان بول رئيساً. كان ايميل ديشانيل رجل أدب، كان أستاذاً في السوربون وفُصل بسبب كتابه الكاثوليكية والاشتراكية... أو العكس، لم أعد أذكر... ثمّ هناك جدتي التي يزعجها قليلاً اسم هذا الوغد على بطاقتها... حسناً، أوه... أين كنتُ أنا من ذلك؟

كرّر نقطة بنقطة كلّ ما بُتّ فيه بما في ذلك ورق التواليت وأكياس الحاويات وأبرم بروتوكولهم الجديد لكي يستطيع كلّ منهم أن يضيف إليه شروطه.

تنهّد قائلاً:

- ها أنا ذا يعقوبيّ تماماً... ..

وضع فرانك وكاميل كأسيهما على مفضل وكتبا الكثير من الترهات... ..

رابط الجأش، أخرج إصبع شمع الختم ووضع خاتمه أسفل الوريقة تحت النظرة الذاهلة لفرانك وكاميل ثم ثناها لثلاث مرات ودسها بلا مبالاة في جيب سترته.

سأله فرانك وهو يهزّ رأسه:

- أوه... .. أتتجول دائماً ومعك عدّة لويس الرابع عشر؟

- شمعي وختمي وأملاحي وريالاتي الذهب وشعار نسبي وسمومي... .. بالتأكيد، يا عزيزي... ..

قام فرانك، الذي تعرّف على نادل، بجولة في المطبخ.

- أصرّ على رأيي، مصنع للطعام، ولكنه مصنع جميل... ..

أخذت كاميل الحساب قائلة: «أجل، أجل، أنا مصرّة، أنما ستشتريان الشراق». واستردوا الحقيبة من المحطّة متجاوزين أيضاً بعض المتسكعين هنا وهناك. ثم امتطى صاحب بلوزة Lucky Strike دراجته النارية، وأوقف الآخران سيارة أجرة.

## 8

انتظرته عبثاً في اليوم التالي والذي بعده وكلّ الأيام التالية. لا أخبار عنه. الحارس الليلي، الذي أصبحت تتبادل معه أطراف الحديث (لم تكن خصية ماتريكس اليمنى قد نزلت، وهذه مأساة... ..)، لم يفدها بالمزيد من الأخبار. ومع ذلك، كانت تعلم أنّه في الأنحاء. حينما كانت تضع شريحة لحمٍ مزينة خلف

دوارق المنظّفات والخبز والجبن والخضار بمرق حريف والموز  
ومعجنات فيدو، كان هو يختفي بانتظام. لا وجود أبداً لشعرة  
كلب أو لفتات أو أدنى رائحة... بالنسبة لبائع خردة، كانت تجد  
ذلك منظماً بشكلٍ جيّد، إلى درجة أنّ شكّاً قد راودها بشأن  
متلقي مكرماتها... هذا يحدث، لقد كان الأعوه الآخر الذي  
يغذّي عاهته كوحيد الخصية... جسّت الأرض قليلاً، ولكن  
كلا، لم يكن ماتريكس يأكل سوى كُبيبات لحم مطعّمة بفيتامينات  
ب 12 مع ملعقة من زيت الخروج لشعره. أمّا العلب، فكانت  
عبارة عن قذارة. لماذا نعطي لكلبنا شيئاً لا نريده لأنفسنا؟  
حسناً، نعم، لماذا؟

- وكبيبات اللحم، أهي كذلك أيضاً؟ ألا تأكل منها... ..
- بالتأكيد بلى، آكل منها!
- أصحيح... ..
- أقسم لك!

والأسوأ هو أنّها صدّفته. ليس لديه سوى خصية واحدة  
وليس لديه سوى مخيخ واحد ويقضم كبيبات اللحم بالدجاج أمام  
فيلم إباحي في سقوطهما الحامي وسط العتمة، هذا يسعه القيام  
به... ممتاز.

مرّت أيامٌ عديدة على هذا النحو. أحياناً، لم يكن يأتي. كان  
الخبز يجفّ وكانت السجائر تظلّ على حالها. أحياناً، كان يمرّ  
ولا يأخذ شيئاً سوى طعام كلبه... الكثير من المقويات أو ما لا  
يكفي لإقامة وليمة فاخرة... أحياناً، كانت هي من لا تصغي...  
لم تعد كاميل تهتم بذلك. كانت تلقي نظرة سريعة على عمق  
الحجرة لتعرف إن كان عليها إفراغ مزوده وكفى.



كانت لديها اهتمامات أخرى...

في الشقة، ما من مشكلة، كانت الأمور تسير، بميثاق أو من دون ميثاق، بحضور ميريام أو من دون حضورها، بقلقي قهري أو من دونه، كان كلُّ يصطحب رفيق دربه من دون إزعاج جاره. كانوا يتبادلون التحية كلَّ صباح ويتعاطون المخدرات بتهديب عند العودة مساءً. قنّب هندي، أعشاب، خمر، مقبلات، شمبانيا ماري أنطوانيت، بيرة هاينيكس، كان لكلِّ ما يهواه وكانت أغاني مارفان للجمع.

في النهار، كانت ترسم، وحينما يكون فيليبير موجوداً، كان يقرأ لها ويُعلّق على ألبومات صور العائلة:

- هذا والد جدّي... والرجل الشاب بجانبه هو شقيقه، العم إيلي، وأمامهما، كلاب - الثعالب (شيان لو)... كانا ينظّمان سباقات الكلاب وهذا هو السيد الخوري، ترينه هنا جالساً أمام خطّ النهاية، وهو يُعلن الفائز في السباق.

- لم يكن ذلك يزعجهما إذًا...

- كانا محقّقين تماماً... فبعد عامين من ذلك غادرا إلى جبهة أردن وبعد ستة أشهر ماتا...

كلا، في العمل، لم تعد الأمور تسير سيراً حسناً... في البداية، اقترب منها رجل الطابق الخامس وهو يسألها أين وضعت ريشة الغبار. كان في غاية السرور بخدعته المسلية ولحق بها عبر الطابق الخامس كلّه مردداً: «أنا متأكّد أنّك أنتِ من أخذتها! أنا متأكّد أنّك أنتِ من أخذتها!». دعني أيّها الأبله البدين، أنت تزعجني.

وانتهت إلى القول:

- كلا، إنها زميلتي.

ودلته إلى جوزي الرائعة التي كانت تعان دوالي ساقها.

انتهت اللعبة.

ثانياً، لم يعد بوسعها تحمّل السيّدة بريدار بالضبط...

كانت حمقاء كقدميها، وكانت لديها سلطة بسيطة أساءت استخدامها (كانت رئيسة ورشة في شركة توكلين، ولم تكن هذه البنتاغون في نهاية المطاف!) كانت تنضح بالعرق ويتناثر الرذاذ من فمها وهي تتكلم وكانت دائماً تنكش أسنانها بأغطية أقلام البيك وتطلق نكتة عنصرية في كلّ طابق مخاصمةً كاميل لكونها البيضاء الأخرى الوحيدة في الفريق.

كاميل التي تمالكت نفسها غالباً لئلا تضربها بممسحتها على فمها، والتي رجتها مراراً أن تحتفظ بترهاتها لنفسها لأنها بدأت تتعب الجميع.

- كلا... ولكن كيف تحدّثني هذه؟ ماذا تفعلين هنا؟ ماذا تفعلين معنا؟ أتتجسسين علينا أم ماذا؟ هذا سؤالٌ طرحته على نفسي مراراً... ربّما تكونين مرسلّة من قبل المعلمين لتتجسّسي علينا أو شيء من هذا القبيل... رأيتُ ذلك على ورقة راتبك ومن خلال مكان إقامتك وطريقة كلامك وكلّ هذه الأمور... أنتِ لستِ منّا! تفوح منك رائحة البرجوازية، تفوح منك رائحة الشرطي. أيتها السجّانة، انصرفي!

لم يصدر أيّ ردّ فعل من الفتيات الأخريات. دفعت كاميل عربتها وابتعدت.

- ما قالته لي، أنا لا أبالي به لأنني أحترقها... ولكن أنتنّ، أنتنّ فعلاً سيئات... لقد تكلمت دفاعاً عنكنّ، لتكفّ عن إذلالكنّ ولا أنتظر منكن شكري، فهذا أيضاً لا أبالي به، ولكن على الأقل يمكنكنّ أن تأتين لتنظيف المراحيض معي... لأنني أنا البرجوازية أتكفل بتنظيفها دائماً، سوف ألفت انتباهكنّ...

أصدرت مامادو صوتاً غريباً بفمها وبصقت بصقة كبيرة على قدمي جوزي في حركة وحشية فعلاً. ثم أمسكت بسطلها ولوحت به أمامها ووجهت ضربة إلى رذفي كاميل :

- كيف لفتاة لديها هذه المؤخرة الصغيرة جداً أن تملك فماً كبيراً جداً؟ أنتِ تدهشينني دائماً... ..

دمدمت الأخريات خبط عشواء واختفين بفتور. بالنسبة إلى سامية، كان الأمر لا يعينها. بالنسبة لكارين، كان الأمر أقسى... .. كانت تحبّها كثيراً، هي التي اسمها الحقيقي رشيدة والتي لم تكن تحبّ اسمها وكانت تتملّق امرأة فاشية. كانت هذه الصغيرة لتتمادى كثيراً... ..

بدءاً من ذاك اليوم، تغيّرت قواعد اللعبة. ظلّ العمل قدراً وأصبح الجوّ مقرّزاً. وكان كلّ ذلك كثيراً... ..

خسرت كاميل علاقاتها في العمل ولكنها ربّما كسبت صديقة... .. كانت مامادو تنتظرها أمام مدخل المترو وتشكّل معها فريقاً. كانت تمسك لها مقبض الباب في حين كانت تعمل بدل اثنتين. كلا، لم يكن ذلك بسوء نية، ولكنها فعلاً وصدقاً كانت ضخمة جداً مما يجعلها غير فاعلة. ما كانت تقوم به في ربع

ساعة، كانت كاميل تنجزه في دقيقتين، وفضلاً على ذلك، كان كل جسمها يؤلمها. من دون تظاهرٍ أو خداع. لم يعد هيكلها المسكين يستطيع تحمّل كلّ هذا: فخذان عملاقان ونهدان ضخمان وقلبٌ أكثر ضخامة. كان كلّ ذلك يعيقها وهذا أمرٌ طبيعي.

- يجب أن تنحفي يا مامادو. . .

وكانت في كلّ مرّة تردّ عليها:

- صحيح. . . وأنتِ؟ متى ستأكلين يخنة الدجاج في البيت؟

كانت كاميل قد عرضت عليها صفقة: أنا أعمل وأنتِ تروين

لي حكاياتك.

لم تشكّ قط أنّ هذه الجملة القصيرة ستذهب بها بعيداً. . . الطفولة في السنغال، البحر، الغبار، العنزات الصغيرات، الطيور، البؤس، أخوتها وأخواتها التسعة، والجدّ العجوز الأبيض الذي كان يُخرج عينه الزجاج لكي يُضحكهم، الوصول إلى فرنسا العام 1972 مع شقيقها ليوبولد، الحاويات، زواجها المتأخر، زوجها الظريف، صبيانها، شقيقة زوجها التي كانت تقضي فترة ما بعد الظهر في محلات تاتي للألبسة غير مكترثة بكلّ العمل المنزلي، والأخرى التي كانت لا تزال تتبرّز في سروالها ولكن على الدرج هذه المرّة، العيد، والإزعاجات، وابنة عمّها التي كانت تُدعى جيرمين والتي شنقت نفسها في السنة الماضية تاركة توأمين رائعين، فترات ما بعد ظهيرة الأحاد في مقصورة الهاتف، التنانير الهولندية، ووصفات الطبخ ومليون صورة أخرى لم تملّها كاميل أبداً. لم تعد بحاجة لقراءة صحيفة

كورييه انترناسيونال، سينغور أو طبعة سين-سان-دوني من صحيفة لوباريزيان، كان يكفي أن تدعك بقوة أكثر وأن تفتح أذنيها جيداً. وحينما كانت جوزي تمرّ - وكان ذلك نادراً - كانت مامادو تنحني وتضرب ضربة خفيفة بالخرقة على الأرض وتنتظر إلى أن تنتشر الرائحة لكي تنهض.

وبوح بعد بوح، تجرأت كاميل على طرح أسئلة أكثر تكتماً. روت لها زميلتها أموراً فظيعة، أو على الأقلّ بدت لها فظيعة، بلا مبالاةٍ مثيرة.

- ولكن كيف تتحمّلين؟ كيف تستطيعين؟ هذا جحيم...  
- أأنتِ تتحدثين عمّا لا تعرفينه. الجحيم أسوأ من هذا بكثير، هيا... الجحيم هو ألا يعود بوسعك رؤية من تحبين... كلّ ما تبقى لا أهمية له... قللي، ألا تريدان أن أذهب وأجلب لكِ خرقاً نظيفة؟

- يمكنك بالتأكيد أن تقومي بعملٍ أقرب إلى بيتك... لا ينبغي أن يبقى أولادك بمفردهم في المساء، لا ندري أبداً ما قد يحدث...  
- شقيقة زوجي معهم.

- ولكنك أخبرتني بأنك لا تستطيعين الاعتماد عليها...  
- أحياناً بلي...  
قالت كاميل وهي تنهض:

- توكلين عبارة عن شركة ضخمة، أنا واثقة من أنك ستستطيعين إيجاد ورشات أقرب إلى بيتك... هل تريدان أن أساعدك في ذلك؟ أن أطلب لكِ ذلك؟ أن أكتب إلى إدارة الموظفين؟

- كلا. لا تفعلي شيئاً، يا سيئة الحظ! السيدة جوزي، مع أنها كذلك، ولكنها تتغاضى عن الكثير من الأمور، أنتِ تعلمين... ثرثارة وضحمة مثلي، أنا محظوظة بإيجاد عمل... هل تتذكرين الزيارة الطبية عند العودة؟ الغبي الآخر، الطبيب الصغير... أراد أن يماحكني لأنّ قلبي كان غائصاً جداً في الشحوم أو لا أدري ماذا... وهي مَنْ دبرت أمري، إذاً يجب ألا تفعلي شيئاً، قلتُ لك...

- مهلاً... هل نتحدث هنا عن المرأة نفسها؟ عن المخبولة التي لا تزال تعاملك كأنك آخر القاذورات؟  
قالت مامادو ضاحكة:

- نعم، هي بعينها! لا أعرف منهنّ إلا واحدة. وقولي لحسن الحظ!

- ولكنك بصقتِ عليها!  
سألت غاضبة:

- أين رأيتِ ذلك؟ أنا لم أبصق عليها! لن أسمح لنفسي بذلك...

أفرغت كاميل فرّامة الورق بصمت. كانت الحياة مع ذلك معرضاً عجبياً للألوان رغم كلّ شيء...

- على أيّ حال، هذا لطفٌ منك. أنتِ امرأة لطيفة... يجب أن تأتي معي إلى البيت ذات مساء لكي يجلب لك أخي حياةً جميلة ملؤها الحبّ والكثير من الأولاد.  
- بفف...

- ماذا «بفف»؟ ألا تريدان أطفالاً؟

- كلا.

- لا تقولي هذا، يا كاميل. سوف تجلبين سوء القدر... ..

- لقد حلّ سوء القدر وانتهى... ..

نظرت إليها بخبث:

- يجب أن تخجلي من الكلام بهذه الطريقة... .. لديك عمل

وبيت وساعدان وساقان ووطن وعشيق... ..

- عفواً؟

قالت مهللة:

- آه! آه! أتعتقدين بأنني لم أشاهدك مع نور الدين في

الأسفل؟ تلاطفين دوماً كلبه الضخم... .. أتعتقدين بأنّ عينيّ

مغمورتان أيضاً بالشحوم؟

وبدأت كاميل تحمرّ خجلاً.

لإسعاده.

نور الدين الذي كان محتدماً ذاك المساء ومتوتراً أكثر من

العادة في برّته كقاضٍ. نور الدين الذي كان يحرض كلبه ويعتبر

نفسه المحقّق هاري... ..

سألتهامادو:

- حسناً ماذا حدث، لماذا يدمدم عجلك هكذا؟

- لا أعرف ما هذا، ولكنّ، هناك شيءٌ غير طبيعيّ... .. لا

تبقين هناك، يا بنات، ابقين هنا... ..

آه! كان سعيداً هناك... .. لم يعد ينقصه سوى نظارة رايبان

وبندقية كلاشنيكوف... ..

- لا تبقين هناك، أقول لكن!

أجابتها:

- هيه أنتِ، اهدئي، ولا تضعي نفسك في هكذا

حالات...

- دعيني أقوم بعملِي، أيتها البدينة! لم آتِ لكي أعلمك

كيف تمسكين بمكنستك!

هوم... الطبع يغلب التطبع...

تظاهرت كاميل بأنها قد ركبت المترو معها ثم صعدت من

جديد السلالم سالكةً المخرج الآخر. قامت بجولتين حول

مجموعة البيوت وانتهت بالعثور عليهم في زحمة متجرٍ للأحذية.

كان جالساً مديراً ظهره للواجهة وقلبه نائماً على ساقيه.

سألته مرحةً:

- كيف حالك؟

رفع عينيه واستغرق لحظة قبل أن يتعرف عليها:

- أهذه أنتِ؟

- نعم.

- والمؤن أيضاً؟

- نعم.

- شكراً...

...

- هل الأبله الآخر مسلّح؟

- لا أدري شيئاً عن ذلك...



- حسناً... حسناً... مرحباً...

- يمكنني أن أصدقك إلى مكانٍ لتنام فيه إن شئت...

- منزلٌ مصادر؟

- نوعاً من...

- مَنْ في داخله؟

- لا أحد...

- أهو بعيد؟

- بالقرب من برج إيفل...

- كلا.

- كما تشاء...

لم تكن قد تقدّمت ثلاث خطوات حينما سمعت صفارة سيارة الشرطة التي وقفت أمام نور الدين المتحمس. أمسك بها على الجادة:

- ماذا تطلبين في المقابل؟

- لا شيء.

لم يأخذها المترو. سارا حتى موقف نوكتامبوس.

- تقدّم إلى الأمام واترك لي كلبك... لن يدعوك تصعبه

معك... ما اسمه؟

- باربيس...

- هنا وجدته...

- آه، نعم، مثل بادنغتون...

أخذته بين ذراعيها وابتسمت ابتسامة واسعة للسائق الذي لم

يبد أيّ اهتمامٍ بالأمر.

التقيا في أسفل العمارة:

- ما جنس هذا الكلب؟

- هل نحن مضطربان للنقاش أيضاً؟

- كلا.

- لقد وضعتُ قفلاً ولكن هذه مسألة رمزية... تفضل، خذ

المفتاح ولكن لا تضيّعه، فليس لدي سواه...

دفعت الباب وأضافت بهدوء:

- لا تزال هناك مؤن في العلب... رزّ، رُبّ الطماطم،

وحلويات مجففة، أعتقد... هناك ستجد أغذية... هنا السخان

الكهربائي... لا تضعه على درجة قوية وإلا سيتعطل... هناك

مرحاضٌ تركي على الدرج. في الحالة الطبيعية ستستخدمه

بمفردك... أقول في الحالة الطبيعية، لأنني سبق وسمعت صخباً

في الجهة المقابلة، ولكنني لم أر قط أحداً... أوه... وماذا

أيضاً؟ آه أجل. لقد عشتُ سابقاً مع مدمنٍ على المخدرات وبالتالي

أعرف كيف ستسير الأمور بالضبط. أعرف أنّ ذات يوم، ربّما

غداً، ستتوارى تماماً وتفرغ كلّ ما هو موجود هنا. أعرف أنّك

ستحاول بيع كلّ شيء بثمانٍ زهيدٍ لكي تستمتع بأوقاتٍ سعيدة.

السخان، اللوحات، الحشايبا، علبه السكر، المناشف، كلّ

شيء... حسناً... أنا أعرف ذلك. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك

هو أن تكتم السرّ... هذا المكان ليس بيتي في الحقيقة... ولذلك

أرجوك ألا تضعني في موقفٍ محرج... إن بقيت هنا حتى الغد،

سوف أذهب لرؤية الحارسة لكي تجنّبك الخدع. اتفقنا.

سألها وهو يشير إلى الرسم الخداع:

- مَنْ الذي رسم هذا؟

نافذة واسعة مفتوحة على نهر السين مع نورسٍ منحنيٍّ على الشرفة... .

- أنا... .

- هل عشتِ هناك؟

- نعم.

نظر بارييس في عينيها بارتياب ثمّ تدحرج ككرة على الحشية.

- سأنصرف... .

- هيه أنتِ؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنّه حصل معي الأمر نفسه بالضبط... . كنتُ في الخارج وقادني أحدهم إلى هنا... .

- سوف لن أمكث هنا طويلاً... .

- لا أبالي. لا تقل شيئاً. أنتم لا تقولون الحقيقة مهما يكن من أمر... .

- أنا ملاحقٌ في مارموتان... .

- هذا هو... . هيا... . احلم أحلاماً جميلة... .

## 9

بعد ثلاثة أيام، رفعت السيّدة بيريرا ستائرهما المهيبة وسألتهما في البهو:

- قولِي، يا آنستي... ..

سحقاً، لم ينسحب الرجل. انزعجي... .. لقد أعطوه خمسين

يورو رغم كل شيء... ..

- مرحباً.

- نعم مرحباً، هاتِ ما عندكِ... ..

عبست:

- هل ذاك الخنوص (ولد الخنزير) صديقك؟

- عفواً؟

- ذاك الدرّاج؟

قالت وقد ارتاحت:

- أوه... .. نعم. هل من مشكلة؟

- ليست مشكلة واحدة! خمس مشاكل! بدأ هذا الصبي

يغازلني! آه نعم! بدأ يعجبني! تعالي بالأحرى وشاهدي!

تبعثها عبر الباحة:

- ماذا هنالك؟

- أنا... .. أنا لا أرى... ..

- بقع الزيت... ..

في الواقع، بمساعدة مكبّرٍ مناسبٍ، كان يمكن بكل وضوح

تمييز خمس نقاط سود على البلاط... ..

- الآلة جميلة ولكنها توسّخ، وبالتالي أخبريه نيابة عني بأنّ

الصحف لا تُنشر للكلاب، مفهوم؟

بعد تسوية هذه المشكلة، هدأت. تعليقٌ موجز حول

الطقس: «هذا ممتاز. هذا يخلّصنا من الطفيليات». وحول لمعان القبضات البرونزية «هذا بالتأكيد لاستعادتها... هل ينبغي الانصراف إذًا؟». حول عجلات عربات المشروبات المليئة ببراز الكلاب. حول سيّدة الطابق الخامس التي فقدت للتوّ زوجها، يا للمسكينة. وكانت هادئة تماماً.

- مدام بيريرا...

- أنا هي.

- لا أدري إن كنتِ قد رأيته، ولكنني أستضيف صديقاً في الطابق السابع...

- أوه! أنا لا أتدخّل في شؤونكم! هذا يذهب، ذاك يأتي... أنا لا أقول بأنني أفهم كلّ شيء، ولكن في النهاية...

- أكلمك عن ذاك الذي معه كلب...

- فانسان؟

- أوه...

- أجل، فانسان! المصاب بالسيدا مع كلبه البلجيكي الصغير؟

ارتبكت كاميل.

- جاء البارحة لرؤيتي لأنّ كلبتي بيكو كان يزعم كمسعودٍ خلف الباب، فعرفنا كلبينا على بعضهما... الأمر بسيط... أنتِ تعلمين كيف يسير الأمر... شماً مؤخراً بعضهما لمرّة وهذا... حسناً لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- لماذا قلتِ إنّهُ مصابٌ بالسيدا؟

- يا يسوع الحبيب، لأنه هو أخبرني بذلك! شربنا معاً كأساً  
من خمر بورتو... أتريدون كأساً منه؟  
- لا... لا... أنا... أنا أشكرك... ..

- حسناً، نعم، هذا محزن، ولكنني أخبرته، هذا المرض  
يُعالج الآن... لقد وجدوا الأدوية المناسبة... ..

كانت مرتبكة جداً إلى درجة أنها نسيت أن تستعمل المصعد.  
ما هذه الورطة؟ لماذا لم تكن المماسح مع المماسح والمناشف  
مع المناشف؟

إلى أين نذهب؟

كانت الحياة أقلّ تعقيداً حينما لم يكن لديها سوى هذه  
الحصى لتكذّبها... هيا بنا، لا تقولي هذا، يا غبية... ..  
كلا، أنتِ محقة. لن أقول هذا.

- ماذا يحدث؟

ردّ فرانك غاضباً:

- بفف... انظري إلى بلوزتي... هذا بسبب تلك الآلة  
اللعينة! اللعنة، كنتُ أحبها من قبل... انظري! ولكن انظري!  
لقد أصبحت قصيرة الآن!

- مهلاً، سأقصر كمّيه وستعطيه للبوّابة لتعطيه لابنها... ..

- حسناً، فهههي. إنه من ماركة رالف لوران وهو جديد  
تماماً... ..

- حسناً، لهذا بالضبط، ستكون سعيدة! وعلاوة على ذلك،  
سوف تعشقك... ..

- حقاً؟

- لقد قالت لي ذلك للتوّ: «آه! إن لصديقك هيئة متبخترّة على دراجته الجميلة!».

- أهذا صحيح؟

- أقسم لك.

- حسناً، حسناً، هيا بنا... سأنزله لها حينما نخرج...

عضّت كاميل باطني خديها وفصلت فروة أنيقة لييكو.

- تعلم أنّك ستحظى بالحقّ في القبلّة، يا محظوظ...

- مهلاً، أنا خائف...

- وفيلو؟

- أتعني سيرانو؟ في درس المسرح...

- أهذا صحيح؟

- ربّما شاهدته وهو يغادر... متنكراً في شيءٍ لا أعرف ما

هو... بقبّعة مستديرة كبيرة وكلّ...

ضحكا:

- أنا أعشقه...

- وأنا أيضاً.

راحت تعدّ لنفسها فنجاناً من الشاي.

- أتريد فنجاناً؟

- كلا، شكراً، علي أن أنصرف. أخبريني...

- ماذا؟

- ألا ترغيبين بالذهاب في رحلة؟

- عفواً؟

- منذ متى لم تغادري باريس؟

- منذ دهر... ..

- يوم الأحد سنقتل الخنازير، ألا تريدان المجيء؟ أنا واثقٌ

بأن هذا سيثير اهتمامك... أقول هذا لأنّ له صلة بالرسم،  
حسناً؟

- أين سيتمّ ذلك؟

- عند أصدقاء، في بلدة شير... ..

- لا أدري... ..

- أجل! تعالي... يجب أن يرى المرء ذلك مرّة واحدة في

حياته... ذات يوم، سينقرض هذا الطقس، أنتِ تعلمين... ..

- سوف أفكر في الأمر.

- اتفقنا، فكّري. التفكير خصوصيتك. أين بلوزتي؟

ردّت كاميل وهي تشير إلى كيسٍ رائع لونه أخضر مصفرّ:

- هناك.

- سحراً... .. إنّه فضلاً عن ذلك من ماركة رالف لوران... ..

هذا يقتلني، أقسم لك... ..

- هيا... سنكسب صديقين في الحياة... ..

- اللعنة لم يعد له مصلحة في التبول على دراجتي، ذلك

الآخر!

أمسكت له الباب وقهقهت:

- لا تقلق، سينجح الأمر. أجل، أجل أنا أوكد لك ذلك.

ثمّ أضافت بكلمات غير واضحة وهي تردّد ما قالته المرأة:



- إن لصديقك هيئة متبخرة على دراجته ...

هرعت وأطفأت الغلاية وأخذت دفترها وجلست قرب المرأة. وأخيراً بدأت تضحك. ضحكت كمجنونة. مراهقة حقيقية. تخيلت المشهد: الغبي الآخر، السعيد دائماً بها، ينقر الآن بلا مبالاة على زجاج نافذة الكوخ بطرف لبادته وخصيته على طبقٍ من فُضّة... آه! كم كان ذلك جيداً للضحك! كم كان ذلك جيداً... لم تكن قد سرّحت شعرها، رسمت خصلات شعرها، وغمّازتي خديها، وحمّاقتها وكتبت: كاميل، كانون الثاني (يناير) 2004، استحمّمت وقرّرت أن تذهب وتتنزه معه.

كانت مدينة له بذلك...

رسالة على هاتفها النقال. كانت والدتها... أوه، كلا، ليس اليوم... لمسح رسالتك، اضغط على زرّ النجمة. إذاً. هوب. النجمة.

أمضت ما تبقى من النهار مع الموسيقى، مع كنوزها وعلبة ألوانها المائية. دحّنت وأكلت ولعقت شعرها الشبيه بوبر السمّور وضحكت لوحدها وعبست حين حل موعد العمل.

لقد سبق ومهدت الأرض جيداً، فكّرت وهي تهوّل حتى محطة المترو، ولكن لا يزال هناك عمل، إيه؟ ومع ذلك سوف لن تتأخري هناك؟

سأفعل ما بوسعي، سأفعل ما بوسعي...  
هيا، أنتِ محلّ ثقة.

كلا، كلا، لا تثقوا بي، هذا يرهقني...  
هههه، هيا،... أسرع. لقد تأخّرت كثيراً...

كان فيليبير حزيناً. كان يتابع فرانك عبر الشقة بأكملها:

- هذا غير معقول. أنت تغادر في وقت متأخر جداً... بعد ساعة سيحلّ الليل... سيصبح الجوّ صقيعياً... هذا غير معقول... غادر غد... غداً صباحاً...

- غداً صباحاً، سنقتل الخنزير.

- ولكن أ... أيّ فكرة أيضاً! يا كا... كاميل.

ثمّ أردف وهو يلوي يديه:

- اب... ابقي معي، سأصطحبك إلى قصر... قصر آل تي... تي

دمدم فرانك وهو يدسّ فرشاة أسنانه مع زوج من الجوارب:  
- لا بأس، ومع ذلك هذه ليست نهاية العالم... سنصل خلال ساعة...

- أوه، لا... لا تقل... ه... هذا... س... ستقود ك... كمجنون...

- كلا...

- بلى، أنا... أنا أع... أعرفك...

- فيلو، كفت عن هذا! سوف لن أسقطها في الهاوية... هل ستأتين، يا آنسة؟

- أوه... أنا... أنا...

قال منزعجاً:

- أنتِ ماذا؟

- ليس لديّ سوى... سواكما في الدنيا...  
ساد الصمت.

- أو لا، لا... لا أصدّق ذلك... الكمنجات الآن...  
وقفت كاميل على أطراف أصابعها لتقبّله:  
- أنا أيضاً، ليس لديّ سواكما في الدنيا... لا تقلق...  
تنهّد فرانك:

- ولكن مَنْ الذي أعدّ لي فريقاً من هكذا معتوهين! إننا  
نعوم وسط ميلودراما! تبا، لن نذهب إلى الحرب! سنفترق لثمانٍ  
وأربعين ساعة فقط!

قالت له كاميل وهي تدلف إلى المصعد:  
- سوف أجلب لك قطعة بفتيك شهية.  
انغلقت الأبواب.

- هيه أنتِ؟

- ماذا؟

- لا بفتيك في لحم الخنزير...

- حقاً؟

- طبعاً لا.

- حسناً ماذا يوجد فيه إذاً؟

رفع نظره إلى السماء.

## 11

لم يكونا قد وضلا إلى مدخل أورليانز حينما توقّف على  
الطريق الجانبي وأشار لها بأن تنزل:

- مهلاً، هناك شيء ما لا يسير على ما يُرام...

- ماذا؟

- حينما أميل، عليك أن تميلي معي.

- أنت متأكد؟

- نعم، أنا متأكد! سوف تدهوريننا بهذه الحركات!

- لكن... كنتُ أعتقد بأنني بميلي في الاتجاه الآخر،

أحافظُ على توازننا...

- تباً، يا كاميل... أنا لا أعطيك درساً في الرياضة ولكن

هذه مسألة محور الثقل، أتفهمين؟ إذا ما ملنا معاً، تلتصق

العجلات بشكلٍ أفضل...

- أنت متأكد؟

- بالتأكيد. ميلي معي. ثقي بي...

- فرانك؟

- ماذا أيضاً؟ أنتِ خائفة؟ لقد حان موعد ركوب المترو

ثانية، أتعرفين؟

- أشعر بالبرد.

- الآن؟

- نعم...

- حسناً... اتركي المقبضين والتصقي بي... التصقي بي

قدر المستطاع ومرّري يديك من تحت بلوزتي...

- حسناً.

- هيه أنتِ؟

- ماذا؟

أضاف وهو ينزل واقفي وجهه بضربة خاطفة:

- ألم تستفيدي من ذلك؟

بعد مائة متر أخرى، بردت كاميل من جديد، وقد تجمّدت خلال الطريق وعند الوصول إلى باحة المزرعة، كانت عاجزة عن سحب ذراعيها.

ساعدتها على النزول وساندها حتى الباب.

- آه حسناً، ها أنت هنا، ماذا جلبت لنا؟

- فتاة بائسة.

- ادخلا إذأ، ادخلا، تفضلاً!... جانين! ها هو فرانك مع

صديقه...

تأوّهت المرأة الطيبة:

- أوه يا للصغيرة المسكينة... ماذا فعلت بها؟ أوه... ليس

الأمر بسيطاً... إنّ الصبيّة مزرقّة تماماً... أفسحوا المجال أنتم

الآخرين... جان-بيار! ضع لها مقعداً قرب المدفأة!

جثا فرانك أمامها:

- هيا، يجب أن تخلعي معطفك الآن...

لم يصدر عنها ردّ فعل.

- مهلاً، سأساعدك... أعطني قدميك...

نزع حذاءها من قدميها وأزواج جواربها الثلاثة.

- هنا... لا بأس... هيا... الأعلى الآن...

كانت مضطربة جداً بحيث تحمّل كلّ مشقّات الدنيا لكي

يخرج ذراعيها من الكمّين... استرخي، يا صغيرتي الباردة...

صاح أحدهم من بين الجمع:

- يا ربّاه! أعطوها شيئاً ساخناً!

كانت مركز الجذب الجديد.

كيف يمكن إزالة الجليد عن فتاة باريسية من دون

تهشيمها...

قالت جانين:

- لديّ وجبة ساخنة جداً!

ساد ذعرٌ حول المدفأة. فتدخّل فرانك وقال وهو يرفع كلّ

الأغطية:

- لا، لا، دعوني أتصرّف... يوجد حساءٌ هنا...

- هذه دجاجة الأمس...

- ممتاز. سأتكفّل بالأمر... قدّموا لها طبقاً من الحساء

لتشربه في هذه الأثناء.

ما أن أنهت طبق الحساء حتى زال الشحوب عن خديها.

- هل أنتِ أفضل حالاً الآن؟

ردّت بالإيجاب بإشارة من رأسها.

- عن ماذا؟

- كنتُ أقول إنّ هذه هي المرّة الثانية التي تعدّ لي فيها

أطيب حساءٍ في العالم...

- سوف أعدّ لكِ أطباقاً أخرى منها، هيا... هل ستأتين

للجلوس معنا إلى المائدة؟

- هل يمكنني البقاء لبعض الوقت الإضافي قرب المدفأة؟

- أجل! قال الآخرون، دعها إذًا، سنشبعها دخاناً كقطع  
الجونبون!

نهض فرأناك على مضض...

- هل يمكنك تحريك أصابعك؟

- أوه... نعم...

- يجب أن ترسمي، إيه؟ أنا سأعدّ لك طعاماً شهياً، ولكن  
أنت، عليك أن ترسمي... يجب ألا تتوقفي عن الرسم أبداً،  
مفهوم؟

- الآن؟

- كلا، ليس الآن، وإنما دائماً...

أغمضت عينيها.

- اتفقنا.

- حسناً... سأذهب. أعطني قدحك، سأملأه لك من  
جديد...

وذاب جليد كاميل تدريجياً. حينما انضمت إليهم، كان  
خذاها محمرّين كالجمر.

حضرت نقاشهم من دون أن تدرك منه شيئاً ونظرت إلى  
وجوههم الرائعة وهي تبسم كالملائكة.

- هيا... آخر جرعة من الخمرة واذهبوا إلى الفراش! لأننا  
سنستيقظ في الصباح الباكر، إذ سيكون غاستون هنا في الساعة  
السابعة...

- من يكون غاستون؟

غمغم فرانك:

- إنه الجزار... سترين هذه الشخصية... إنها مذهلة...  
أضافت جانين:

- حسناً، الحمام هنا مقابل الغرفة وقد وضعتُ لكم مناشف  
نظيفة على الطاولة... هل سيسير الأمر؟  
أجاب فرانك:

- رائع، رائع... شكراً...  
- لا تقل هذا يا عزيزي، نحن في غاية السعادة برؤيتك،  
أنت تعرف ذلك جيداً... وماذا عن بوليت؟  
غالبه النعاس.

قالت جانين وهي تضغط على ذراعه:  
- هيا، هيا... لن نتحدّث في الأمر، سيُسوّى هذا  
الموضوع، هيا...  
- قد لا تتعرفين عليها، يا جانين...  
- قلنا سوف لن نتحدّث في هذا الأمر... أنت الآن في  
عطلة...

حينما أغلقت الباب، قالت كاميل قلقة:  
- هيه! ولكن ليس هناك سوى سرير واحد...  
- طبعاً ليس هناك سوى سرير واحد. نحن هنا في الريف  
وليس في فندق ايبس!  
سألت محتدة:  
- أقلت لهم بأننا معاً؟



- كلا! أخبرتهم فقط بأنني قادمٌ مع صاحبة، هذا كلُّ شيء!

- حسناً لنرَ... .

ردّ غاضباً:

- لنرَ ماذا؟

- صاحبة، يعني فتاة تضاجعها. أين سأنام إذا؟

- سحفاً، أنتِ فعلاً كثيرة التشكّي، إيه؟

جلس على حافة السرير بينما كانت تُخرج أغراضها.

- هذه هي المرّة الأولى... .

- عفواً؟

- هذه أوّل مرّة أصطحب معي أحداً إلى هنا.

- هذا مؤكّد... . إنّ قتل الخنزير ليس الأكثر سحراً لإثارة

الحماسة... .

- ليس لهذا صلة بالخنزير. ليس لهذا صلة بك. هذا... .

- ماذا؟

استلقى فرانك على السرير وتوجّه إلى السقف:

- جانين وجان - بيار، كان لديهما ابن... . فريدريك... .

شابّ رائع... . كان صديقي... . كان صديقي الوحيد... . درسنا

معاً في المدرسة الفندقية وكنا متعلقين ببعضنا تعلقاً شديداً... .

المهم، وباختصار... . مات قبل عشرة أعوام... . في حادث

سيارة... . ولم يكن الخطأ خطأه... . وإنّما خطأ شخصٍ أرعن لم

يتوقّف عند الإشارة الضوئية... . وبالتالي، ها أنا ذا، لستُ فريداً

بالطبع، ولكن ثمة شبه... . آتي إلى هنا كلّ سنة... . الخنزير مجرد

ذريعة... ينظران إليّ ثمّ ماذا يريان؟ ذكريات، كلمات ووجه  
ابنهما الذي لم يكن قد بلغ العشرين... جانين تلمسني دائماً  
وتجسّني... لماذا تفعل ذلك برأيك؟ لأنني الدليل على أنّه لا  
يزال حاضراً... أنا واثقٌ من أنّها قد مدّت لنا أجمل شراشفها  
وأنها تمسك الآن بسلم الدرج، في الوقت الذي كان... .

- أهذه غرفته؟

- كلا، غرفته مغلقة... .

- لماذا اصطحبتني إذا؟

- لقد أخبرتكِ. لكي ترسمي ومن ثمّ... .

- ومن ثمّ ماذا؟

- لا أدري، كنتُ أرغب... .

حمحم.

- أمّا بالنسبة للسرير، فلا مشكلة... سنضع الحشّية على  
الأرض وسوف أنام على المفروش... هل سيسير الأمر، يا  
أميرة؟

- سيسير الأمر.

- هل شاهدتِ شريك؟ فيلم الصور المتحركة؟

- كلا، لماذا؟

- لأنك تذكّرني بالأميرة فيونا... حسنة القوام طبعاً... .

- طبعاً.

- هيا... هلا ساعدتني؟ هذه الحشايا ترزن طناً... .

أنت:

- معك حقّ. ماذا يوجد بداخلها؟
- لقد ماتت أجيالٌ من الفلاحين تعباً.
- هذا مريح... ..
- ألن تنزع ثيابك؟
- بلى... .. أنا أرتدي البيجاما!
- أتُبقين بلوزتك وجوريك؟
- نعم.
- هل أطفئ النور إذا؟
- نعم.
- سألت بعد برهة:
- هل نمت؟
- كلا.
- بماذا تفكّر؟
- لا شيء.
- بشبابك؟
- ربّما... .. لا شيء، إذا. ما قلته صحيحاً... ..
- أكان شبابك عدماً؟
- لا شيء يُذكر على أيّ حال... ..
- لماذا؟
- سحقاً... .. لو بدأنا حديثاً عن ذلك، سوف لن ننتهي منه حتى الصباح... ..
- فرانك؟

- نعم.

- ما بها جدتك؟

- إنها مسنة... ووحيدة... وقد نامت طيلة حياتها على سريرٍ وثيرٍ كهذا بحثية من الصوف وفوق رأسها تمثال المسيح المصلوب وهي الآن تستسلم للموت في ما يشبه صندوق حديد رديئاً...

- أهي في المستشفى؟

- كلاً في دارٍ للرعاية...

- كاميل؟

- نعم.

- هل عيناك مفتوحتان؟

- نعم.

- أتشعرين كم الليل مظلمٌ هنا؟ كم القمر جميل؟ كم النجوم متألئة؟ أتسمعين الدار؟ القساطل، الخشب، الخزائن، ساعة الحائط، النار في الأسفل، العصافير، الحيوانات، الريح... أتسمعين كلّ هذا؟

- نعم.

- حسناً، هي تسمع أكثر... إذاً. تطلّ على مرأبٍ منارٍ دائماً، وهي تترصد الصخب المعدني للعربات وأحاديث المشرفات على رعاية المسنين وجيرانها الذين يدمدمون وتلفزيوناتهم الهادرة طيلة الليل. وهذا... وهذا يفنيها...

- ولكن ألا يسع والداك العناية بها؟

- أوه كاميل ...

- ماذا؟

- لا تقوديني في هذا المسار... نامي الآن.

- لستُ نعسانة.

- فرانك؟

- ماذا هناك أيضاً؟

- أين والداك؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك.

- كيف هذا، لا تعرف شيئاً عن الأمر؟

- لا شيء لديّ عن ذلك ...

...

- والدي، لم أعرفه قط... رجلٌ مجهول اعتدى على

والدتي خلف سيارة قديمة... ووالدتي، أوه...

- ماذا؟

- حسناً، والدي، لم تكن سعيدة جداً بأن يعتدي عليها

مغفل لا تتذكر حتى اسمه بهذه الطريقة... إذا... أوه...

- ماذا؟

- لا شيء...

- لا شيء ماذا؟

- تخلت عنه.

- عن الرجل؟

- كلاً، عن الطفل الصغير.

- وجدّتك هي من ربّتك؟

- جدّتي وجدّي.

- وهو، هل مات؟

- نعم.

- ألم ترها قط ثانية؟

- كاميل، أقسم لك، كفي. وإلا ستشعرين بأنك مرغمة على

أن تأخذيني بين ذراعيك بعد ذلك...

- بلى أخبرني. هيّا. هذه مخاطرة تطيب لي...

- كاذبة.

- ألم ترها قط ثانية؟

...

- اعذرني. سأكفّ.

سمعته وهو يستدير:

- أنا... حتى سنّ العاشرة... لم تكن لدي قط أخباراً

عنها... وأخيراً، نعم، كنتُ أتلقى منها دائماً هدية بمناسبة عيد

ميلادي أو بمناسبة أعياد الميلاد، ولكنني علمت في ما بعد بأنّ

ذلك كان مجرد حيلة. أيضاً خدعة لمواساتي... خدعة لطيفة،

ولكنها خدعة رغم كلّ شيء... لم تكتب لنا قط ولكنني أعرف

أنّ جدّتي كانت ترسل إليها صورتي المدرسية كلّ عام... وذات

سنة، سوف تعرف... لا بدّ أنني كنتُ ظريفاً أكثر من العادة...

أيكون، في ذلك اليوم، المعلّم قد مشّطني لمرة ثانية؟ أو أنّ

المصوّر قد أخرج مجسّم بلاستيك لميكي ماوس لكي أبتسم؟

على كلّ حال جعلها الصبيّ الصغير على الصورة تتحسّر وتعلن بأنها ستأتي لتأخذني معها... ماذا سأروي لك... أنا الذي كنتُ أصرخ لكي أبقى، جدّتي التي كانت تواسيني مرّدة بأنّ الأمر سيكون رائعاً وبأنني سأحظى أخيراً بعائلة حقيقية، ولم تستطع الامتناع عن العويل بصوتٍ أقوى من صوتي وهي تشدّني إلى ثديها الضخمين... وجدّي الذي عجز عن الكلام... كلا، لن أروي لك... أنتِ ذكية بما يكفي لفهم كلّ هذا، إيه؟ ولكن صدّقيني، كان الموقف صعباً...

«وبعد التخلّف عن عدّة مواعيد أعطتها لنا، جاءت أخيراً. سعدتُ إلى سيارتها. عرّفتني على زوجها وابنها الآخر وسريري الجديد...»

في البداية، أعجبتني ذلك كثيراً، أبهجني أن أنام في سريرٍ منضد، ثمّ في المساء، انتحبت. أخبرتها بأنني أريد العودة إلى بيتي. فقالت إن هنا بيتي وإنّ عليّ أن أسكت وإلا سأوقظ الطفل. في تلك الليلة، وكلّ الليالي الأخرى، تبوّلتُ في سريري. وكان ذلك يغيظها. كانت تقول: أنا متأكّدة من أنّك تفعلها عمداً، ستبقى مبلّلاً، تَبّاً لك. إنّها جدّتك، هي من أفسدت أخلاقك. وبعد ذلك أصبحتُ مجنوناً.

إلى ذلك الحين، كنتُ أعيش في الحقول، كنتُ أذهب إلى صيد السمك كلّ مساء بعد الدوام المدرسي، وفي الشتاء، كان جدّي يصطحبني إلى جمع الفطر وإلى الصيد وإلى المقهى... كنتُ دائماً خارج البيت، كنت دائماً أنتعل جزمتي، وكنتُ دائماً أرمي دراجتي الهوائية وسط الأدغال لكي أذهب وأتعلّم المهنة

مع الصيادين المخالفين ومن ثم وجدت نفسي فجأة في شقة عفنة في ضاحية قدرة، حبساً بين أربعة جدران، مع تلفازٍ وطفلٍ آخرٍ يحظى بكلّ الدلال... فجرت جنوني... أصبحت... كلا... لا يهم... بعد ثلاثة أشهر، وضعتني في القطار وهي تردّد عليّ بأنني قد أفسدت كلّ شيء...

لقد أفسدت كلّ شيء، لقد أفسدت كلّ شيء... حينما صعدتُ إلى سيارة جدّي من طراز سيمكا، كانت كلماتها لا تزال تردّد أصداءها في رأسي الصغير. والأسوأ من ذلك، هو أن...  
- أن ماذا؟

- هو أنها حظمتني إلى ألف قطعة، تلك المغفلة... وبعد ذلك لم يعد الوضع كما كان من قبل... لم أعد طفلاً، لم أعد أرغب في ملاطفاتهم... لأنّ أسوأ ما فعلته هو ليس مجيئها لتأخذني، وإنّما كلّ تلك الأحوال التي قالتها لي عن جدتي قبل أن ترميني مرّة أخرى. كيف حشت رأسي بأكاذيبها... قالت إنّ أمّها هي من أرغمتها على تركي قبل أن تطردها من البيت. وأنها فعلت كلّ ما بوسعها لكي تأخذني معها ولكنهم هدّوها بالبندقية وكلّ تلك الأكاذيب...

- أكانت هذه أكاذيب؟

- طبعاً... ولكنني لم أكن أعرف ذلك، آنذاك... لم أكن أفهم أيّ شيء، ثمّ أكون قد أردتُ تصديقها؟ ربّما كان يناسبني التفكير بأننا قد فُصلنا عن بعضنا قسراً وأن لو لم يخرج جدي سلاحه لكانت لي نفس الحياة التي يعيشها الجميع ولما نعنتي أحد بابن العاهرة خلف الكنيسة... كانت والدتك العاهرة التي



يتحدّثون عنها وأنت لست سوى ابن زنا (bâtard). كلمات لم أكن حتى أفهمها... بالنسبة لي، كانت كلمة (bâtard) عبارة عن نوعٍ من الخبر... أقول لكِ بأنني كنتُ أبله حقيقياً... .

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، أصبحتُ مغفلاً قدرأ... فعلتُ كلَّ ما بوسعي لكي أنتقم... لكي أجعلهم يدفعون ثمن حرمانني من أمّ لطيفة إلى هذه الدرجة... .

ضحك هازئاً:

- لقد نجحت... لقد دَخنت سجائر جدّي من طراز غلواز وسرقت الأموال من صندوق المشتريات وقمتُ بأعمال مشينة في المدرسة فطُرِدْتُ منها وأمضيتُ معظم أوقاتي على دراجة أو في الصالات الخلفية للمقاهي أخدع الصبايا وأتلاعب بهنّ... بأولئك القبيحات... ليست لدي فكرة عن ذلك. كنتُ القائد. كنتُ الأفضل. ملك الأقدار... .

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك حان وقت النوم. البقية في الحلقة القادمة... .

- إذا؟ ألا تريدان أن تأخذيني بين ذراعيك الآن؟

- أنا مترددة... فأنت لم تُغتصّب على أيّ حال... .

انحنى نحوها:

- هذا أفضل. لأنني لا أريد ذراعيك. أقصد ليس هكذا... . لم أعد أريد هذا... لقد لعبتُ طويلاً هذه اللعبة الصغيرة، ولكن ليس الآن... لم يعد هذا يسليني... هذا لا ينجح أبداً... . اللعنة، ولكن كم غطاء لديك؟

- أوه... ثلاثة بالإضافة إلى اللحاف الريشي...

- هذا غير طبيعي، هذا... من غير الطبيعي أن شعري إلى الآن بالبرد، أن تستغرق ساعتين لكي تستعيدني حالتك الطبيعية بعد مشوارٍ على درّاجة نارية... يجب أن تصحّي، يا كاميل...

...

- أنتِ أيضاً... لا أشعر فعلاً بأنّ لديك ألبوماً جميلاً للصور مع عائلتكِ الملتفة من حولك، أليس كذلك؟  
- كلا.

- هل ستحدّثيني عن ذلك ذات يوم؟

- ربّما...

- أتعرفين لن... لن أزعجك بهذا الأمر مرّة أخرى...

- بأيّ أمر؟

- كنتُ أحدثك منذ قليل عن فُرند قائلًا لكِ بأنّه كان صديقي الوحيد، ولكنني مخطئ. لديّ صديقٌ آخر... باسكال لوشانبي، أفضل صانع حلويات في العالم... احفظي جيداً اسمه، سوف ترين... هذا الشخص، هو إله. من فطيرة السابليه البسيطة إلى سان-أونوريه مروراً بالكيك والشوكولا والميلفوي والنوغا والحلويات الخفيفة وسواها يتحوّل كلّ ما يلمسه إلى مذاق حلويات لا يُنسى. حلويات لذيذة، جميلة المنظر، رقيقة، مدهشة، وفائقة الإتقان. التقيت في حياتي بالكثير من العمال الناجحين، ولكن هذا الشخص كان فريداً... كان الكمال بعينه. كان علاوة على ذلك رجلاً رائعاً... كان محبباً، يسوعاً، كان نبياً... إذاً قد يكون هذا الشخص بديناً ولكن البدانة إلى الآن

ليست مشكلة... لقد شاهدنا أشخاصاً آخرين بدينين... المشكلة هي أنه كان يتحرّك بشكلٍ مريع... لم يكن بوسعك أن تقفي إلى جانبه للحظة، من دون أن تصابي ببقع متناثرة. حسناً، سأذكر لك التفاصيل، السخريات، ردود الأفعال، ألواح الصابون الموضوعة في خزائنه، وكلّ هذه الأغراض... ذات يوم، كنّا معاً في نفس الغرفة في فندقٍ لأنني كنتُ أرافقه في مسابقة كمساعد له... أجريت المسابقة وقد فاز فيها بالطبع، ولكن، في نهاية النهار، لن أقول لك في أيّ حالةٍ كنتُ... لم يعد بوسعي حتى أن أتنفّس ونويثُ أن أمضي الليل في حانة بدل أن أقضي دقيقة أخرى معه... ولكن ما أدهشني هو أنه استحمّ في الصباح، كنتُ أعرف ذلك: كنتُ أفهم. وأخيراً، عدنا إلى الفندق وأفرطتُ في الشراب لكي أتخدّر وانتهيتُ إلى الحديث معه عن ذلك... ألا زلتِ معي؟

- نعم، نعم، أصغي إليك...

- قلتُ له: تبتاً لك يا باسكال، تفوح منك رائحة العفونة. تفوح منك رائحة الموت، أيّها العجوز. ما هذه القذارة؟ ألا تغتسل أم ماذا؟ وهنا، جاء ذاك الدبدوب الضخم، ذاك الرجل الوحشي، ذاك العفريت الصرف بضحكته المجلجلة وجبل شحومه وأخذ يبكي ويبكي ويبكي... فاضت دموعه كينبوع... أمرٌ مريع... دموعٌ مدرارة لطفلٍ رضيع... لم يكن من الممكن تهدئة هذا القميء... سحقا، كنتُ سيئاً... بعد برهة، تعرّى فجأة، هكذا من دون إنذار... فاستدرت وأردت الذهاب إلى الحمام وأمسك بذراعي. قال لي: «انظر إليّ، يا ليستاف، انظر إلى هذه القذارة...»، اللعنة، كدتُ... كدتُ أن أشيح ببصري!

- لماذا؟

- أولاً جسمه... كان مقرفاً. ولكن بشكلٍ خاص، وذلك ما أراد أن يريني إياه، كان... آه... والعياذ بالله، إنه لا يزال يثير تفرّزي... كان هناك نوعٌ من البقع والقشور وأشياءٍ أخرى لم أعرفها بين ثنايا جلده... وكانت رائحة العفن تفوح منها، من ذاك النوع من الجرب المدمى... اللعنة، أقسم لك، لقد أفرطتُ في الشراب طيلة الليل لكي أستعيد وضعي الطبيعي... فضلاً على ذلك، روى لي بأنه يتألم كثيراً حينما يغتسل ولكنه يفرك جسمه كالمجنون كي يتخلص من تلك الرائحة الكريهة وأنه يتعطر وهو يركّز على أسنانه لئلا يبكي ألماً... يا لها من ليلة، يا له من غم، حينما أفكر بذلك..

- وبعد ذلك؟

- في اليوم التالي، جرجرته إلى المستشفى، إلى قسم الطوارئ... كان ذلك في ليون، أتذكر جيداً... حتى الطبيب، نفر حينما رأى ذلك. نظف جراحه، وصنع له الكثير من الأشياء، مراهم وعبوات مختلفة. وأعطاه تعليمات لكي ينحف. وفي النهاية قال له: «ولكن لماذا انتظرت طويلاً جداً؟». فلم يجب. وأنا ألححتُ عليه في السؤال على رصيف المحطة: «صحيح، أيها الداعر، لماذا انتظرت طويلاً جداً؟». «لأنني كنتُ أخجل كثيراً...»، أجاب مطأطأ الرأس. وهنا، أقسمت على أنّ هذه آخر مرّة.

- آخر مرّة ماذا؟

- آخر مرّة أزعج فيها الأشخاص البدينين... آخر مرّة

أحقرهم، آخر مرّة. ... أقصد، تعرفين ماذا، أحكم عليهم من منظرهم الخارجي... إذاً، لنعد إليك... لا شماتة... الأمر نفسه بالنسبة للنحيفين. وحتى إن كنتُ أفكر بهذا الأمر كثيراً، حتى وإن كنتُ على يقين بأنّ ببضعة كيلوغرامات إضافية ستكونين أقلّ برودة وأكثر جاذبية، سوف لن أتحدّث عن ذلك. وعد السكير.

- فرانك؟

- هيه! قلنا بأننا سننام الآن!

- هل ستساعدني؟

- في ماذا؟ في أن تكوني أقلّ بروداً وأكثر جاذبية؟

- نعم... .

- لا قطعاً. لكي تدعي نفسك تُخطفين من قبل أوّل سنّور

عابر... أأ... أنا أفضلك مقعدة ومعنا... وأنا متأكد أن فيلو

سيكون متفقاً معي على هذا... .

ساد الصمت.

- قليلاً إذاً... ما أن أرى ثديك يكبران، سأتوقّف.

- اتّفقنا.

- حسناً، ها أنا قد تحوّلت إلى ريكا زاراي، الآن... .

سحقاً قد تفعلين بي كلّ شيء... ماذا سنفعل؟ أولاً، لأنك لا

تشتري اللوازم، ثانيةً لأنك لا تشتري سوى التوافه. قطع الزروع،

الحلويات الجافة، وحلوى الفلاني، وكلّ هذا قد انتهى. لا

أدري في أيّ ساعة تستيقظين في الصباح، ولكن بدءاً من

الثلاثاء، تذكّري أنني أنا من سيطعمك، مفهوم؟ كلّ يوم، في

الثالثة حينما أعود سأجلب لكِ ملء طبقٍ... لا تقلقي، أنا أعرف الفتيات، سوف لن أعطيكِ لحم بظّ محفوظ أو مقادم وكروش... سوف أعدّ لكِ طبقاً شهياً من الطعام خصيصاً لكِ... سأعدّ لكِ سمكاً، ولحماً مشوياً، وخضاراً لذيذة، وكلّ ما تشتهيهِ نفسك... سأعدّ لكِ كميات صغيرة ولكنكِ ستكونين مرغمة على أن تأكلي كلّ شيء وإلا سأتوقّف. وفي المساء، سوف لن أكون موجوداً وبالتالي سوف لن أزعجكِ، ولكنني سأمنعكِ عن قضم أيّ شيء. سوف أستمّر في إعداد قصعة كبيرة من الحساء في بداية الأسبوع لفيلو كما كنتُ أفعل دائماً وكفى. والهدف هو أن تدمني على ما أعدّه لكِ. أن تستيقظي كلّ صباح وتطلبي ما سيكون في القائمة. حسناً، أوه... لا أعدكِ بوجبة فاخرة في كلّ مرّة، ولكن الأمر سيكون جيداً، سوف ترين... وحينما تستردين صحتكِ، أنا...

- أنت ماذا؟

- سوف أكلكِ!

- مثل الساحرة في حكاية هانسل وغريتل؟

- بالضبط. وسوف لن أحتاج إلى أن أقدم لنفسي عظمة حينما أريد جسّ ذراعكِ لأنني لستُ حسير النظر! الآن، لم أعد أرغب في سماع صوتكِ... الساعة تقارب الثانية وأمامنا نهارٌ طويل غداً...

- في الواقع، أنت تتظاهر بمظاهر كهذه ولكنكِ شخصٌ ظريف...

- اصمتي.

- وقوفاً، جاء الطعام!

وضع صينية الطعام عند طرف الحشية.

- أوه! الفطور... ..

- لا تتحمّسي. لستُ أنا من أعددته، إنها جانين. هيّا،

أسرعي، لقد تأخرنا... .. تناولني على الأقلّ فطيرة، أكثرني من

الطعام بعض الشيء وإلا ستجوعين... ..

كانت بالكاد قد وضعت قدماً في الخارج، ولا تزال القهوة

بالحليب على شفاهاها، حينما قدّموا لها كأساً من النيذ الأبيض.

- هيّا، أيتها السيّد الصغيرة! تشجّعي!

كانوا جميعاً حاضرين، الذين كانوا موجودين مساء أمس

وكلّ أهل الضيعة الصغيرة، نحو خمسة عشر شخصاً. وجميعهم

كانوا تماماً كما تخيلناهم، بين شخصيات مسلسل آل ديشيان

وكاتالوغ موقع كاميف الالكتروني. كان المسنون يرتدون بلوزات

والشباب يرتدون ألبسة رياضية. كانوا يضربون الأرض بأقدامهم

ويشدّون على أقداحهم ويتساءلون ويمزحون ويصمتون فجأةً: فقد

وصل السيّد غاستون مع سكينته الكبيرة.

أكد فرانك التعليقات:

- هذا هو الجزار.

- كنتُ لأشكّ في ذلك... ..

- هل رأيت يديه؟

- مذهل... ..

- سيقتل خنزيران اليوم. إنهما ليسا مغفلين، لم يتم  
إطعامهما هذا الصباح، وبالتالي يعرفان بأنهما سيدبحان...  
يشعران بذلك... حسناً، ها هو الأوّل... هل كراستك معك؟  
- نعم، نعم...

- لم تستطع كاميل أن تمتنع عن الارتجاف. لم تجده  
ضحماً جداً...

جرّوه إلى الفناء، انهال عليه غاستون بهراوة، طرحوه على  
مصطبة وربطوه بسرعة فائقة تاركين رأسه مدلى. إلى ذلك الحين  
كان الأمر يسير بنجاح لأنه كان حاملاً بعض الشيء، ولكن  
حينما غرز الجزار نصل سكينته في وداجه، كان الأمر رهيباً. بدل  
أن يقتله، بدا وكأنه قد أيقظه. انكب الجميع عليه، والدم  
المنبجس والجدّة التي وضعت قدراً ورفعت كمّيتها لتحركه. من  
دون ملعقة، من دون أيّ شيء، باليد المجرّدة. ولكن هذا أيضاً  
تمّ بنجاح، أما ما لا يُطاق فكان سماع صوته... كيف ظلّ يزعق  
ويزعق باستمرار... كلما كان ينزف أكثر كلما كان يزعق ويزيد  
زعقاً، لم يكن زعيقه يشبه صرخة حيوان... كان أقرب إلى  
صراخ الإنسان... حشرجات، توسّلات... كانت كاميل تشدّ  
على مفكرتها، والآخرين، الذين يحفظون كلّ هذا المشهد عن  
ظهر قلب، لم يكونوا أكثر افتخاراً... هيّا! قدح آخر لكي  
تشجعي...

- بلا كلفة، شكراً.

- هل أنت بخير؟

- نعم.



- ألا ترسمين؟

- كلا.

استمعت كاميل، التي لم تكن أوّل قادمة، إلى صوت العقل ولم تدلي بأيّ تعليقٍ واهن. بالنسبة لها، كان الأسوأ هو القادم. بالنسبة لها، لم يكن الأسوأ هو الموت بذاته. كلا، كان ذلك الحياة بعد كلّ شيء، ولكن ما بدا لها أكثر قسوة هو حينما جُلب الخنزير الثاني... سواء كان ذلك ادّعاءً منها أم لا، نفاقاً أم لا، يمكننا قول ما نريد، فهي لا تبالي بقولنا، فقد شقّ عليها فعلاً أن تتمالك انفعالها. لأنّ الخنزير الآخر الذي سمع كلّ شيء، كان يعرف ما عاناه صديقه ولم ينتظر أن يُطعن لكي ينهق مثل حمار. أقصد... «مثل حمار» هذا تعبيرٌ ساذج، وإنّما مثل خنزيرٍ يُنحر...

- سحقا، كان يوسعهم أن يسدّوا أذنيه!

سأل فرانك مقهقهاً:

- بالبقدونس؟

وهنا، نعم، رسمت لثلا ترى المزيد. ركّزت على يدي غاستون لثلا تعود تسمع.

لم تكن مرتاحة. كانت ترتجف.

حينما توقفت صفارة الإنذار، وضعت كراستها في جيبها واقتربت. قضى الأمر، انتهى الأمر، كانت فضولية ومدّت كأسها إلى القارورة.

أخذوا الخنزيرين إلى نقّاعة النار ففاحت رائحة الشواء. هنا أيضاً، عبارة ممتازة، نُزع الوبر إن تجرأتُ على القول، ثمّ

كشطوهما بفرشاة غريبة: لوح خشب نُبِتت عليها كبسولات مقلوبة.

رسمتها كاميل.

بدأ الجزّار عمله في التقطيع وانتقلت هي إلى خلف المصطبة لثلا تفوّت أيّ حركة من حركاته. كان فرانك مستمتعاً.

- ما هذا؟

- ماذا؟

- هذه الكرة الشقّافة واللزجة؟

- المثانة... ومن غير الطبيعي أن تكون ممتلئة إلى هذه

الدرجة... إنّها ترعجه في عمله...

احتجّ الرجل الفنان:

- كلا! لا تزعجني... انظر، ها هي!

أضاف ذلك وهو يضرب ضربة بالسكين.

قرفصت لكي تراها. كانت منبهرة.

كان صبية مسلّحون بالصواني يتنقلون بين الخنزير الذي كان

لا يزال الدخان يتصاعد منه والمطبخ.

- كفّي عن الشرب.

- حاضر مدام ريكا.

- أنا سعيد. لقد أحسنتِ التصرف.

- هل كنتَ خائفاً؟

- كنتُ فضولياً... حسناً، هذا ليس كلّ شيء ولكن لديّ

عمل...

- إلى أين ستذهب؟

- سأجلب دراجتي... اذهبي إلى حيث الدفء، إن شئت...

شاهدت صقاً من المدبّرات المرحات في المطبخ ومعهنّ ألواحهنّ الخشب وسكاكينهنّ.  
صرخت جانين:

- تعالي من هنا! من فضلك يا لوسيان، إفسحي لها مكاناً قرب المقلاة... أيتها السيدات، أقدم لكنّ صديقة فرانك، أنتنّ تعرفن، إنّها الفتاة التي حدّثكنّ عنها منذ قليل. الفتاة التي أنعشناها البارحة مساءً... تعالي إذاً واجلسي معنا...

اختلطت رائحة القهوة مع رائحة الأحشاء الساخنة وسط الهرج والمرج الذي أحال المطبخ إلى قنّ دجاج حقيقي.  
وصل فرانك. آه! حسناً ها هو! ها هو الطاهي المحترف! وشرعن بالقهقهة من جديد. حينما رأته، مرتدياً بزّته البيضاء، ارتبكت جانين.

لدى مروره من خلفها للوصول إلى المواعد، ضغط على كتفها. تمخّطت في ممسحتها وأخذت تضحك مع الأخريات.  
في تلك اللحظة الدقيقة من التاريخ، تساءلت كاميل إن لم تكن قد وقعت في حبّه... اللعنة. لم يكن هذا متوقّعاً... لا، لا، قالت وهي تمسك بلوح خشب. لا، لا، هذا لأنّه كان قد روى لها قصة حياته... ولكنها لن تقع في الفخّ مهما يكن...  
سألت:

- هل ستعطونني عملاً؟

شرحوا لها كيف يُقَطَّع اللحم إلى قطع صغيرة جداً.

- ليعدّ منه ماذا؟

جاءت الأجوبة من كلّ حدبٍ وصوب:

- القديد! النقانق! السجق! فطائر محشوة! مفرومة الخنزير!

انحنت على جاريتها وسألتها:

- وأنتِ، ماذا تفعلين بفرشاة أسنانك؟

- أغسل الأمعاء...

- وفرانك؟

- فرانك سيعدّ لنا الشواء... والنقانق وسيسلق السجق

والقرم...

- ماذا يعني القرم؟

- الرأس، الذيل، الأذنان، المقادم..

أوه... هذا عمله كمتخصّص بالتغذية، نحن متفقون على أنّ

هذا لا يبدأ قبل يوم الثلاثاء، إيه؟

حينما صعد من القبو ومعه البطاطس والبصل ورآها تنظر

بطرف عينها إلى جاريتها لتعرف كيف تمسك بالسكين، جاء

وانتزع السكين من يدها:

- لا تلمسي هذا. لكلّ مهنته. ماذا لو بترت إحدى

أصابعك، لكلّ مهنته، قلتُ لك، أين كراسك؟

ثمّ متوجهاً إلى الثرثرات:

- أخبروني... ألا يزعجكنّ إذا رسّمتكنّ؟

- كلا.

- بلى. شعري غير مرتّب.

- هيا بنا، يا لوسيان، لا تتغنّجي! نعرف جيّداً أن شعرك

مستعار!

هذا من أجل الجوّ: نادي ميد في المزرعة... ..

غسلت كاميل يديها ورسمت حتى المساء. في الداخل وفي

الخارج. الدم واللوحه المرسومة بالألوان المائية. الكلاب والقطط

والصبيان والمستنّين. النار والقوارير والقمصان والسترات. تحت

الطاولة، المشايات المبطنّة بالفراء. تحت الطاولة، الأيدي

المتسخة. رسمت فرانك من الخلف ورسمت صورتها المشوّشة

المنعكسة على الغطاء المحدّب لقدرٍ مصنوعٍ من معدنٍ لا يصدأ.

قدّمت لكلّ واحدةٍ منهنّ صورتها الشخصية، فسرت فيهنّ

رعشات خفيفة. ثمّ طلبت من الأطفال أن يدلّوها على المزرعة

لتنفّس قليلاً. وأيضاً لكي تصحو من نشوة السكر.

كان أطفالٌ يرتدون قمصان باتمان ويتعلون جزمات لوشامو

يركضون في كلّ الاتجاهات ويلتقطون دجاجات وهم يقهقهون

وكانوا يغيظون الكلاب وهم يجرجرون أمامها قطعاً طويلة من

الأمعاء... ..

- برادلي، أنت مجنون يا بنيّ! لا تُقلع بالجرار، ستقتل

نفسك!

- حسناً كنتُ أريها فقط... ..

- اسمك برادلي؟

- نعم!

كان برادلي زعيم العصابة على ما يبدو. تعرّى نصفياً لكي

يربها ندوب جروحه.

قال بتفاخر:

- لو أوصلناها جميعاً ببعضها ستبلغ ثمانية عشر سنتمتراً من التقطيب.

هزّت كاميل رأسها بوقار ورسمت له صورتين لباتمان. باتمان محلّقاً وباتمان ضدّ الإخطبوط العملاق.

- ماذا تفعلين لكي ترسمي بهذه الجودة؟

- أنت أيضاً ترسم جيّداً. الجميع يرسمون جيّداً... ..

في المساء، كانت الوليمة. اثنان وعشرون شخصاً حول المائدة وكان لحم الخنزير في كلّ الطوابق. كانت الأذنان والآذان تشوى في المدفأة وتم الاقتراع عليها ليجدوا في آية أطباقٍ ستقع. كان فرانك قد انتشى بتعاطيه المخدّر وبدأ يضع على المائدة نوعاً من الحساء الهلامي الفاح بالروائح. غمست كاميل خبزها فيها ولكنها لم تذهب عميقاً، ثمّ جاء دور النقانق والمقادم واللسان ولا أتحدّث عن المغامرات العجيبة الأخرى التي حدثت... .. أرجعت كرسيها إلى الخلف لبضعة سنتمترات وخدعت الحضور متظاهرة بتجرّع كأسها. بعد ذلك، جاء دور الحلويات، وقد أخذت كلّ واحدة منهنّ قطعة من الكيك أو الحلوى وأخيراً، القطرة... ..

- آه... .. هذه يا آنستي الصغيرة، يجب أن تتذوّقي هذه... ..

الفتيات اللواتي يمتنعن عنها، يبقين عذراوات... ..

- حسناً، قطرة صغيرة إذاً... ..

أكدت كاميل زوال بكارتها تحت النظرة المكارّة لجارها، الذي لم يكن في فمه سوى سنّ ونصف، واستغلّت الفوضى العارمة لتذهب وتنام.

سقطت ككتلة ونامت متأرجحة بالجلبة المرححة التي كانت تتصاعد من بين ألواح الأرضية.

كانت تغطّ في نوم عميقٍ حينما جاء واندسّ في فراشها. تدمّرت.

فغمغم:

- لا تقلقي، فأنا ثملٌ جداً، لن أفعل بك شيئاً... ..  
ولأنّها أدارت له ظهرها، وضع أنفه على رقبتها ومرّر يده من تحتها لكي يتعلّق بها أفضل ما يمكن. كان شعرها القصير يدغدغ منخريه.

- كاميل؟

أكانت نائمة؟ أكانت تتظاهر بذلك؟ على أيّة حال، لم تردّ.

- أحبّ كثيراً أن أكون معك... ..

ابتسامة خفيفة.

أكانت تحلم؟ أكانت نائمة؟ لا ندرى... ..

عند منتصف الظهيرة، حينما استيقظا، كان كلّ منهما في سريره. لم يعلّق أيّ منهما بأدنى تعليق.

بصمتٍ وتشوّشٍ وتعب، أعادا الحشية إلى مكانها وثنيا الشراشف وتناوبا على دخول الحمام وارتديا ثيابهما بصمت.

بدا لهما سلّم الدرج خطراً جداً وقدّمت جانين لكلّ منهما فنجاناً كبيراً من القهوة من دون أن تكلمهما. كانت سيّدتان أخريان جالستين إلى طرف الطاولة وتخبّطان في لحم النقانق. أدارت كاميل كرسيها إلى أمام المدفأة وشربت قهوتها من دون

أن تفكر في أيّ شيء. كان من الواضح أنّ القطرة فائضة وكانت  
تغمض عينيها بعد كلّ شقّة. باخ... كان ذلك هو الثمن الذي  
ينبغي دفعه لثلا تعود فتاة...

أغشتها روائح المطبخ. نهضت وصبّت لنفسها فنجاناً آخر  
ووضعت تبغها في جيب معطفها وراحت وجلست في الفناء على  
مصطبة الخنازير.

انضمّ إليها فرانك بعد برهة.

- هل يمكنني؟

عدّلت من جلستها.

- ألمّ في الجمجمة؟

أجابت بنعم.

- أنتِ تعلمين، أنا... يجب أن أذهب لرؤية جدّتي  
الآن... إذأ، هناك ثلاثة حلول: إمّا أن أتركك هنا ثمّ أعود  
وأخذك بعد الظهر، وإمّا أن أصطحبك معي فتنتظرينني في مكانٍ  
ما ريثما ألهيها لبعض الوقت، وإمّا أن أوصلك إلى المحطّة في  
طريقي وتعودين إلى باريس بمفردك...

لم تجب على الفور. وضعت فنجانها. لفتّ لنفسها سيجارة  
وأشعلتها وسحبت منها نفثاً طويلاً مهدّناً.

- وأنتَ ما رأيك؟

كذب:

- لا أدري.

- لا أرغب في البقاء هنا من دونك...



- حسناً، سأوصلك إذاً إلى المحطة، لأنك، نظراً لحالتك، سوف لن تتحملي المسافة... فالمرء يبرد أكثر حينما يكون متعباً...

أجابت:

- ممتاز.

واللعنة...

ألحت جانين. بلى، بلى، بعض الطعام، سوف ألقه لكما. رافقتهما إلى الطريق، وأخذت فرانك بين ذراعيها ووشوشته ببضع كلمات لم تسمعها كاميل.

وحينما وضع إحدى قدميه على الأرض، في أول توقف قبل المحطة الوطنية، رفعت خوذتيهما:

- سأتي معك...

- أنت متأكدة؟

هزت بإشارة نعم، وارتدت إلى الوراء. كانت الحياة تتسارع فجأةً. حسناً...

ارتخت عليه وهي تكز على أسنانها.

### 13

- أتريدين أن تنتظريني في مقهى؟

- كلا، كلا، سأنتظر في الأسفل...

لم يكونا قد سارا لثلاث خطوات في البهو، حين هرعت سيّدة ترتدي بلوزة سماوية اللون نحوه. نظرت إليه وهي تهزّ رأسها بحزن:

- لقد عادت إلى عاداتها ...

تنهّد فرانك:

- أهى فى غرفتها؟

- نعم، ولكنها أيضاً حزمت كل أغراضها وترفض أن يلمسها أحد. إنها خائرة القوى وتضع معطفها على ركبتيها منذ البارحة مساءً ...

- هل أكلت؟

- كلا.

- شكراً.

استدار نحو كاميل:

- هل يمكنني أن أترك أغراضي معك؟

- ماذا حدث؟

- حدث أن بوليت بدأت تزعجني بترّاتها!

كان فى غاية الشحوب.

- لم أعد أدري حتى إن كانت فكرة حسنة أن أذهب

إليها ... أنا ضائع ... وتائه تماماً ...

- لماذا ترفض أن تأكل؟

- لأنّ هذه البلهاء تعتقد بأنني سأخرجها من هنا! إنها

تصدمني كلّ مرّة ... أوه، لذي الرغبة فى أن أموت، تفضلي ...

- أتريد أن آتي معك؟

- لن يغيّر هذا فى الأمر شيئاً.

- لا، لن يغيّر هذا فى الأمر شيئاً ولكنه سيلهيها ...

- أتعقدين ذلك؟

- نعم، هيا.. تعال.

دخل فرانك أولاً وقال بصوتٍ مزماريّ النغم:

- جدّتي... هذا أنا... لقد اصطحبتُ لكِ مفاجئ... ..

لم يمتلك الشجاعة ليكمل كلمته.

كانت السيّدة العجوز جالسة على سريرها وتحّدق في الباب.

كانت مرتدية معطفها ووشاحها ونعلها بل وقبعتها الصغيرة

السوداء. وكانت حقيرة غير محكمة الإغلاق موضوعة عند قدميها.

«هذا يفطر قلبي...»، عبارة أخرى بدت مؤثرة لكامل التي

شعرت بأن قلبها يتفتّت فجأةً.

كانت ظريفة للغاية بعينيها الصافيتين ووجهها الحادّ... فارة

صغيرة... فلزة صغيرة... ..

تصرّف فرانك وكأنّ شيئاً لم يكن. مازحها وهو ينزع عنها

الألبسة الدافئة:

- حسناً إذا! لا زلتِ مغطاة بالكثير من الأغطية! مع أنّ

الجوّ ليس بارداً... .. كم هي درجة الحرارة هنا في الداخل؟ على

الأقلّ خمس وعشرون درجة مئوية... .. وقد أخبرتهم في الأسفل

بأنّهم يدفثون الغرف كثيراً ولكن لم يصغوا إليّ أبداً... .. نحن

عائدان من قتل الخنازير عند جانين ويمكنني أن أقول لكِ بأنّ

حتى الحجرة التي كانوا يعرضون فيها القديد للدخان كانت أقلّ

حرارةً من هنا... .. هل أنتِ بخير؟ قولي إذا إنّ لديك غطاءً جميلاً

للسرير! أهذا يعني أنّك تلقيت أخيراً طردك من المَعقل؟ ليس من

المبكر جداً... .. وبالنسبة للجوارب، هل كانت مناسبة؟ ألم أخطئ

في اختيارها؟ يجب أن أقول إنك تكتبين بخطِ رديء... لم أكن مغفلاً حينما طلبت من البائعة عطر مسيو ميشيل... نظرت إلى المرأة الطيبة مواربةً فعرضتُ عليها ورقتكِ. اضطرت لأن تذهب وتجلب نظارتها وكلّ... أوه، لن أخبرك بكلّ التفاصيل ومن ثمّ وجدت أخيراً: كان المطلوب مون-سان-ميشيل... كان يجب أن أفهم، إيه؟ تفضلي ها هو... ولحسن الحظّ لم ينكسر... أعاد إليها خفيها وتكلّم كيفما كان وانتشى بالكلمات لثلاث ينظر إليها.

سألت مع ابتسامة مذهلة:

- أنتِ الفتاة الصغيرة كاميل؟

- أوه... نعم...

- تعالي إلى هنا لكي أنظر إليك...

جلست كاميل بقربها.

أمسكت بيديها:

- يداكِ باردتان جداً...

- هذا بسبب الدراجة...

- فرانك؟

- نعم.

- أعد لنا فنجاناً من الشاي، هيا! يجب تدفئة هذه الفتاة

الصغيرة!

تنفّس الصعداء. شكراً للربّ. لقد انقضى الأمر الأصعب...

وضع لوازمه في الدرج وبحث عن الغلاية.

- خذ البسكويت من درج طاولة سريري... .

ثم استدارت:

- إذاً، هذه أنتِ... هذه أنتِ، يا كاميل... أوه، كم أنا

سعيدة برؤيتك... .

- أنا أيضاً... شكراً على الوشاح... .

- آه حسناً، تفضلي... .

نهضت وعادت مع كيسٍ مليءٍ بكاتالوغات قديمة لمتاجر

فيلدار للمنسوجات.

- صديقتي ايفون هي من جلبتها لي من أجلك... قولي لي

ما الذي يعجبك... ولكن لا تختاري ذات النقش الشبيه بحبيبات

الرز، إيه؟... فأنا لا أجد نسجها... .

آذار (مارس) 1984. حسناً... .

قلبت كاميل ببطء الصفحات المصفرة.

- هذه طريفة، أليس كذلك؟

كانت تشير لها إلى قطعة موشاة بجداول مزخرفة وأزرار

مذهبة.

- أوه... أنا أفضل بلوزة كبيرة... .

- بلوزة كبيرة؟

- نعم.

- ولكن ماذا تقصدين بكبيرة؟

- حسناً أنتِ تعرفين، تكون ذات ياقة ملفوفة... .

- استديري، اذهبي إلى الرجال إذا!

- هذه ...

- فرانك، يا أرنبى، إليّ بنظارتى ...

كم كان سعيداً بسماعها تتكلم بهذه الطريقة. هذا جيد، يا جدّتى، تابعى. أعطني الأوامر، اسخري منى أمامها بمعاملتى كطفل ولكن لا تنتحى. أتوسّل إليك. لا تنتحى ثانية.

- حسناً... حسناً... سأدعكما. سأذهب وأتول... ..

- وهو كذلك... وهو كذلك، دعنا.

ابتسم.

يا لها من سعادة، يا لها من سعادة... ..

أغلق الباب وقفز في الممرّ. كان ليعانق أوّل عجوز قادمة. يا لها من خطوة، اللعنة! لم يعد وحيداً. لم يعد وحيداً تماماً! «دعنا»، التي قالتها. أجل، أيتها الفتاتان، سأدعكما! سحقا، أنا لا أطلب سوى هذا! لا أطلب سوى هذا!

شكراً يا كاميل، شكراً. حتى وإن لم تأتِ ثانية، فأمامنا ثلاثة أشهر من التأجيل بفضل بلوزتك اللعينة! الصوف، الألوان، القياسات والتجريب... نقاشات مطوّلة... حسناً، من أين يمكنني الذهاب إلى المراحىض؟

جلست بوليت في أريكتها وأسندت كاميل ظهرها إلى جهاز التدفئة.

- تنامين على الأرض؟

- نعم.

- فرانك هو الآخر ينام دائماً على الأرض... ..

- هل أكلتِ قطعة بسكويت؟

- بل أربع!

- جيد...

تفرّستا ببعضهما وقالتا في نفسيهما أشياء كثيرة بصمت.  
تحدّثتا عن فرانك بالطبع، وعن المسافات وفترة الشباب وبعض  
المناظر والموت والعزلة والزمن المنصرم والسعادة في أن تكونا  
معاً وعن مشقّة الحياة من دون أن تنبسا بينتِ شفة.

رغبت كاميل كثيراً في أن ترسمها. كان وجهها يذكّرها  
بالعشب الناعم على المنحدرات بالبنفسج البرّي، بنبتة أذن الفأر  
ونبتة زرّ الذهب... كان وجهها متفتحاً، لطيفاً، مشرقاً، ناعماً  
كالورق الياباني. كانت تجاعيد الأسي تختفي وسط وريقات  
الشاوي الحلزونية وتفسح المكان لآلاف علامات الطيبة في زوايا  
عينها.

وجدتها جميلة.

كانت بوليت تفكّر بالضبط بنفس الشيء. كانت هذه الصغيرة  
ظريفة جداً، هادئة جداً، رشيقة جداً في ألبستها الشبيهة بألبسة  
المتسكّعين. أرادت أن يكون الفصل ربيعاً، لكي تريها حديقته،  
الأغصان المزهرة لشجرة السفرجل ورائحة نباتات السرنجة. كلا،  
لم تكن كغيرها من الفتيات.

ملاك هبط من السماء اضطرّ لأن ينتعل حذاءين ضخمين  
للمعماري لكي يستطيع البقاء بيننا...

سأل فرانك قلقاً:

- هل غادرت؟

أجابت كاميل وقد رفعت ذراعها فوق السرير:

- كلا، كلا، أنا هنا!

ابتسمت بوليت. ليست بحاجة إلى النظارة لكي ترى بعض الأشياء. شعرت بارتياح كبير. كان عليها أن ترضخ للواقع. سوف ترضخ للواقع. كان عليها القبول بذلك أخيراً. من أجله. من أجلها. من أجل الجميع.

لم تعد هناك فصول، حسناً... هيا... هكذا كان الأمر. كان لكلّ دوره. سوف لن تربكه ثانية. سوف لن تعود وتفكر بحديقته كلّ صباح، إنها... إنها ستحاول ألا تعود تفكر بأيّ شيء. حان دوره ليعيش الآن.

حان دوره ليعيش...

روى لها فرانك أحداث نهار أمس بفرحٍ غامر وعرضت عليها كاميل رسوماتها.

- ما هذه؟

- مائة الخنزير.

- وهذه؟

- جزمات - أحذية - قباقيب ثوروية!

- وهذا الصغير؟

- أوه... لم أعد أتذكر اسمه.

- وهذا؟

- هذا، هذا سبايدرمان... لا تخلطه مع باتمان!

- من المدهش أن تكوني بهذا القدر من الموهبة...



- أوه، هذا أمرٌ بسيط... ..

- لم أكن أتحدّث عن رسوماتك، يا عزيزتي، كنتُ أتحدّث عن نظرتك... .. أه! هذا هو عشائي! يجب التفكير بإعادة أطفالي الصغار... .. لقد حلّ الظلام... ..

مهلاً... .. أهى من طلبت منّا المغادرة؟ اندهش فرانك جداً لذلك. ارتبك جداً بحيث اضطر لأن يتمسّك بالستارة لكي ينهض. وانتزع عصاها.

- سحّاقاً!

- دعه، اذهب، وكفّ عن التحدّث مثل سوقّي!

- ككفت.

هيا يا عزيزتي بوليت، هيا. لا تنزعجي. صيحي. احتجّي. اعترضني. عودي إلى هنا.

- كاميل؟

- نعم؟

- هل يمكنني أن أطلب منك معروفاً؟

- طبعاً!

- اتّصلي بي عند وصولك لطمّانتي... .. هو لا يتّصل بي أبداً وأنا... .. أو إن شئتِ رنّي رنة واحدة وأغلقني السّمّاعة وسأفهم الرسالة وأستطيع أن أنام... ..

- أعدك بذلك.

كانا لا يزالان في الممرّ حينما تبين لكامل أنّها قد نسيت قفازيها. هرعت إلى الغرفة ورأت أنّها واقفة أمام نافذتها وترقبهما.

- أنا... قفازاي... ..

لم تكن السيّدة العجوز تمتلك القدرة لتلتفت. اكتفت بأن رفعت يدها وهي تهزّ رأسها.

- هذا فظيع... .. قالت ذلك بينما كان جاثياً أمام قفل أمان الدراجة.

- لا، لا تقولي هذا... .. كانت في غاية الروعة اليوم! بفضلك، شكراً... ..

- كلا، كان ذلك فظيماً... ..

ألقيا التحية على الشبح النحيل للطابق الثالث وعادا إلى رتل الانتظار في المحشر. شعر فرانك بأنه أخفّ وزناً. أمّا كاميل، وعلى العكس، فلم تعد تجد الكلمات لكي تفكّر.

وقفا أمام بوابة منزلهما من دون إيقاف محرّك الدراجة.

- ألن تدخل؟

- كلا.

- حسناً، حسناً... .. إلى اللقاء.

## 14

كانت الساعة أقلّ من التاسعة بقليل وكانت الشقّة غارقة في الظلام.

- فيلو؟ أنت هنا؟

وجدته جالساً في سريره. منهكاً تماماً. يغطّي غطاءً كتفيه ويمسك بيده كتاباً.

- هل أنت بخير؟

....-

- هل أنت مريض؟

- كنتُ قلداً... قلقاً... جداً... كندا... كنتُ أتوقع

مجيئكِ... منذ... زمنٍ طويلٍ...

تنهّدت كاميل. اللعنة، حينما لا يكون أحدهما، يكون

الآخر...

استندت إلى المدفأة وأدارت له ظهرها ووضعت جبينها بين

راحتي يديها:

- فيليبير، كفت من فضلك. كفت عن التلعثم. لا تفعل هذا.

لا تفسد كلّ شيء. هذه أول مرّة أسافر فيها منذ سنوات...

انتصب، وأزح هذا المعطف المتآكل بالعث، ضع الكتاب من

يدك، وقل لي بنبرة طليقة: «إذاً، يا كاميل؟ هل انقضت نزهتك

الصغيرة بخير؟».

- إ... إذاً، يا كاميل... هل انقضت نزهتك الصغيرة

بخير؟

- كانت ممتازة، أشكرك! وأنت؟ أيّ معركة عندك اليوم؟

- معركة بافي...

- آه... ممتاز...

- كلا، مصيبة.

- وما هي هذه المعركة؟

- آل فالوا ضدّ آل هابسبورغ... فرانسوا الأوّل ضدّ شارل

كانط...

- نعم! شارل كانط، أعرفه! إنه من خَلَفَ ماكسيميليان  
الأوّل في الإمبراطورية الجرمانية!
- يا للشيطان! وكيف تعرفين هذا؟
- لقد أفحمتك، صحيح؟
- رفع نظارته لكي يفرك ملتحمة عينيه.
- هل انقضت نزهتكِ الصغيرة بخير؟
- كانت زاهية الألوان...
- هل ستريني مفكّرتكِ؟
- لو تنهض... هل بقي شيءٌ من الحساء؟
- أعتقد...
- أنتظرك في المطبخ.
- وفرانك؟
- طار...
- أتعلم أنه كان يتيماً؟ أقصد... أنّ والدته قد تخلّت عنه؟
- ظننتُ ذلك...

كانت كاميل متعبة جداً ولم تستطع أن تنام. دحرجت  
مدفاتها إلى الصالون ودخّنت سجائر وهي تصغي إلى شوبير وتقرأ  
كتاب رحلة الشتاء.

أخذت تبكي وشعرت فجأة بالطعم الكريه للحصى في قاع  
حلقها.

بابا...

كفى، يا كاميل. اذهبي إلى النوم. هذا السيلان الرومانسي،

البرد، التعب، الآخر الذي يلعب بأعصابك، أوقفني هذا في الحال. هذا أمرٌ تافه.

أوه، اللعنة!

ماذا؟

نسيْتُ أن أتصل ببوليت...

إذاً، هيتاً!

ولكن تأخر الوقت...

هذا سببٌ إضافي! أسرع!

- هذه أنا. أنا كاميل... هل أيقظتك؟

- لا، لا...

- لقد نسيت الاتصال بك...

ساد الصمت.

- كاميل؟

- نعم.

- يجب أن تعني بنفسك، يا عزيزتي، أليس كذلك؟

...

- كاميل؟

- حسناً...

صباح اليوم التالي، ظلّت في سريرها حتى ساعة تنظيف البيت. حينما نهضت، رأت الصحن الذي كان فرانك قد أعدّه لها على الطاولة مع كلمة قصيرة: «شريحة ظريفة من الأمس بالخوخ المجفّف مع تالياتيلي طازجة. تسخين في المايكروويف لمدة ثلاث دقائق».

وبلا أخطاء إذاً... ..

أكلت واقفةً وشعرت فوراً بأنها أحسن حالاً.  
قامت بعملها بصمت.

عصرت المماسح وأفرغت المنافض وعقدت أكياس  
حاويات القمامة.

عادت سيراً على الأقدام.

فركت يديها ببعضهما لكي تتدفقا.

رفعت رأسها.

فكرت.

وكلّما أغرقت في التفكير أكثر، سارت بسرعة أكثر.

كانت تركز تقريباً.

كانت الساعة الثانية فجراً حينما هزّت فيليبير لتوقظه:

- يجب أن أتكلّم معك.

## 15

- الآن؟

- نعم.

- و... ولكن، كم الساعة الآن؟

- لا يهم، اسمعني!

- أعطني نظارتي، أرجوك... ..

- لست بحاجة إلى النظارة، نحن في العتمة... ..

- كاميل... من فضلك.

- آه، شكراً.. مع نظّارتي، أسمع بشكلٍ أفضل... إذاً أيّها الجندي؟ ماذا سيكلّفني هذا الكمين؟  
تنفّست كاميل وأفرغت ما في جعبتها. تكلمت لوقتٍ طويل جداً.

- هل انتهى التقرير، سيدي الكولونيل...  
ظلّ فيليبير هادئاً.

- ألا تقول شيئاً؟

- الواقع، لا بدّ من ردّ الهجوم بهجوم...  
- ألا تريد؟

- مهلاً، دعيني أفكّر...

- فنجانٌ من القهوة؟

- فكرةٌ حسنة. اذهبي وأعدّي لنفسك فنجاناً من القهوة ريثما أستعيد أنفاسي...  
- وأنت؟

أغمض عينيه وهو يشير إليها بأن تنصرف.  
- إذا؟

- أنا.. أنا أقول لكِ صراحةً: لا أعتقد بأنّ هذه فكرة حسنة...  
- إذا؟

قالت كاميل وهي تعضّ شفتها:

- آه؟

- كلا.

- لماذا؟

- لأن هذه مسؤولية كبيرة.

- ابحث عن ذريعة أخرى. لا أريد هذا الجواب. هذا جوابٌ لا معنى له. بئس الذين لا يتحملون مسؤولياتهم... بئس، يا فيليبير... ألم تطرح على نفسك هذا السؤال عندما جئتُ تأخذني من الطابق العلوي حينما لم أكن قد أكلت شيئاً منذ ثلاثة أيام...

- أجل. لقد طرحته على نفسي، تخيلي...

- فإذا؟ هل ندمت؟

- كلا. ولكن لا تقارني بين الموقفين. الموقف هنا مختلف...

- بلى! الموقف هو نفسه تماماً!

ساد الصمت.

- تعرفين جيداً أنني هنا لستُ في بيتي... نحن نعيش هنا بشكلٍ مؤقت... قد أتلقى رسالة مسجلة غداً صباحاً تنذرني بمغادرة البيت خلال أسبوع...

- بففف... أنت تعرف كيف تسير حكايات الإرث... ستبقى هنا لعشر سنوات أخرى...

- لعشر سنوات أو لشهر... ولكن اعلمي... حينما تكون هناك أموال كثيرة في اللعبة، تجد كبرى المعاملات طريقها إلى الانجاز، أنتِ تعلمين...

- فيلو...

- لا تنظري إليّ هكذا. أنتِ تطلين مني ما يفوق طاقتي...



- كلا، لا أطلب منك شيئاً. أطلب منك فقط أن تثق

بي...

- كاميل...

- أنا... أنا لم أكلّمك قط عن ذلك ولكن... ولكن فعلاً

كانت حياتي تافهة إلى أن التقيت بك. طبعاً، مقارنة بطفولة

فرانك، ربما يكون هذا شيئاً لا يُذكر، ولكن مع ذلك، أشعر بأن

هذا ليس أقل شأنًا... وأنّ ذلك كان أكثر مخاتلة ربّما... كقطرة

قطرة... ومن ثمّ... لا أدري ماذا فعلت... ربّما تصرّفت

كبلهاء، ولكنني...

- ولكنك...

- لقد... لقد فقدت كلّ الذين أحببتهم في طريقي و...

- وماذا؟

- وعندما قلت لك يوم ذاك بأنّ ليس لديّ أحدٌ سواك في

الدنيا، لم يكن ذلك... أوه ومن ثمّ، اللعنة! أنت ترى، البارحة

كان عيد ميلادي. لقد بلغت السابعة والعشرين والشخص الوحيد

الذي ظهر هو للأسف والدتي. وهل تعرف ماذا أهدتني؟ كتاباً

للتخفيف. هذا مضحك، أليس كذلك؟ هل يمكن أن يكون لدينا

مزيد من الروح، أنا أسألك؟ يؤسفني أن أزعجك بهذا الأمر،

ولكن يجب أيضاً أن تساعدني، يا فيليبير... مرّة أخرى... ولن

أطلب منك شيئاً بعد ذلك، هذا وعدٌ مني.

سأل متأوّهاً:

- كان عيد ميلادك البارحة؟ لماذا لم تخبرينا بذلك؟

- لا أهمية لعيد ميلادي! لقد رويت لك هذه النكتة، كان

ذلك لإبكاء مارغو ولكن في الواقع، ليس لذلك أيّ أهمية...

- أجل! كان بوذي أن أقدم لك هدية ..
- حسناً، هيّا: قدمها لي الآن.
- لو قبلت، هل ستدعيني أعاود النوم؟
- نعم.
- حسناً اتفقنا، إذأ... ..
- طبعاً، لم يعاود النوم.

## 16

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كانت مستعدة للحرب. كانت قد ذهبت إلى الفرن وجلبت رغيفاً مستطيلاً لرتبيها المدلل.

حينما دخل هذا الأخير إلى المطبخ، وجدها مقرفة تحت المجلى.

أنّ:

- باه، بدأت المناورات الكبرى؟
- أردت أن أجلب فطورك إلى السرير، ولكنني لم أجرؤ... ..
- أحسنتِ صنعاً، أنا الوحيد الذي أجيد إعداد كوبي من الشوكولا.

- أوه، كاميل... اجلسي، أنتِ تسيبين لي الدوار... ..
- إذا جلستُ، سأخبرك أيضاً بأمرٍ خطير... ..
- يا للشقاء... ابقِي واقفة، إذأ... ..

جلست قبالة، وضعت يديها على الطاولة وحدّقت مباشرةً في عينيه:

- سأعود إلى العمل.

- عفواً؟

- لقد أرسلتُ استقالتي للتو لدى نزولي...

ساد الصمت.

- فيليبير؟

- نعم.

- تكلم. قل لي شيئاً...

أنزل قدحه وتلمّظ شاربيه:

- كلا. لا أستطيع فعل هذا. هنا، أنتِ وحيدة، يا

عزيزتي...

- أودّ الإقامة في الغرفة التي تقع في آخر الشقّة...

- ولكن يا كاميل... داخلها ركامٌ حقيقي!

- بوجود مليار ذبابة نافقة، أدري ذلك. ولكنها أيضاً الغرفة

الأكثر إنارة إذ إنها تشكّل زاوية فيها نافذة في الغرب وأخرى في

الجنوب...

- والركام الموجود فيها؟

- سأتكفل به...

تنهّد:

- ما تشاؤه المرأة...

- سوف ترى، ستكون فخوراً بي...

- أنا واثقٌ من ذلك. وماذا بشأنني؟

- ماذا؟

- هل يحقّ لي أن أطلب منك شيئاً أيضاً؟
- نعم...  
تورّد حجلاً:
- تخ... تخيلي أنك... أنك تريدين أن تقدّ... تقدّمي  
هدية لفتاة لا... لا تعرفينها، ما... ماذا... ستفعلين؟
- نظرت إليه كاميل مواربة:
- عفواً؟
- لا... لا تتظاهري... بال... بالغباء، لقد... فه...  
فهمتني جيداً...  
- أنا، لا أدري، وما هي المناسبة؟
- لا... مناسبة... لا مناسبة... خاصة...  
- في أيّ يوم؟
- السبت... السبت.
- قدّم لها قنينة غيرلان.
- عف... عفواً؟
- إنه عطر...  
- سوف... سوف لن أجيد الاخذ... الاختيار...  
- أتريد أن آتي معك؟
- من... من فضلك...  
- لا مشكلة! سنذهب خلال استراحتك في فترة الغداء...  
- شك... شكراً...  
- كا... كاميل؟

- نعم؟

- إنها... إنها مجرد صد... صديقة، إيه؟  
نهضت ضاحكة.

- طبعاً...

ثم وهي تقلب وريقات المفكرة:

- أوه، حسناً على سبيل المثال! يوم السبت يصادف عيد

القديس فالتان، أكنتَ تعرف ذلك؟

استغرق محدّقاً في قاع قده.

- هيا، سأدعك، لديّ شغل... سوف أمرّ وأخذك إلى

المتحف في الساعة الثانية عشرة ظهراً...

لم يكن قد صعد إلى السطح بعد وكان لا يزال يبقب في

شرايه من ماركة نيسكويك حينما غادرت المطبخ ومعها مجموعة  
مماسحها.

حينما عاد فرانك من أجل قيلولته في بداية فترة ما بعد

الظهيرة، وجد الشقة خالية ومكرّبة:

- ولكن ما هذه الكرّبة أيضاً؟

ظهر نحو الساعة الخامسة. كانت كاميل تنقل قاعدة مصباح:

- ماذا يحدث هنا؟

- سأنتقل...

قال شاحباً:

- إلى أين ستذهبين؟

قالت وهي تشير إلى كومة الأثاث المحطم وكمية الذباب

النافق:

- إلى هنا.
  - ثم باعدت بين ذراعيها وقالت:
  - أقدم لك مشغلي الجديد...
  - لا؟
  - بلى!
  - وشغلك؟
  - سوف نرى...
  - وفيلو؟
  - أوه... فيلو...
  - ماذا؟
  - إنه يمرّ في وقتٍ عصيب...
  - ماذا؟
  - لا، لا شيء.
  - أتريدين مساعدة؟
  - بالتأكيد!
- بوجود صبيّ كان الأمر أسهل. خلال ساعة واحدة، ثم نقل كلّ الركاب إلى الغرفة المجاورة. غرفة كانت نوافذها مسدودة بسبب «عيوب في الأعمدة»...
- استمتعت بلحظة هادئة - شربت بيرة باردة وهي تقيس حجم العمل المنجز - لترسل دفعتها الأخيرة:
- يوم الاثنين المقبل، في وقت الغداء، أودّ الاحتفال بعيد ميلادي مع فيليبير ومعك...

- أوه... ألا تقيمين الاحتفال مساءً؟

- لماذا؟

- أنتِ تعرفين... يوم الاثنين، هو يوم سخرة بالنسبة لي...

- آه، نعم، عفواً، لقد أسأت التعبير عن رأيي: الاثنين المقبل، في وقت الغداء، أودّ الاحتفال بعيد ميلادي مع فيليبير ومعك ومع بوليت.

- هناك؟ في المأوى؟

- كلا! سوف تجد لنا مطعماً ريفياً جذاباً!

- وكيف سنذهب إلى هناك؟

- كنتُ أقول في نفسي بأننا نستطيع أن نستأجر سيارة... .

صمتَ وفكّر حتى آخر جرعة. ثمّ قال وهو يثني علبة الشراب:

- ممتاز، ولكن المشكلة هي أنّها ستشعر بعد ذلك بخيبة أمل حينما أزورها بمفردي...

- هذا ممكن...

- لا ينبغي أن تشعرني بأنك مرغمة على فعل ذلك من أجلي، إيه؟

- كلا، كلا، هذا من أجلي أنا.

- حسناً... بالنسبة للسيارة، أنا سأدبّرها... لدي صديق

سيكون سعيداً بأن يبادلني سيارته بدراجتي... فعلاً كلّ هذا الذباب كرهه...

- كنتُ أنتظر أن تستيقظ لكي أشغل مكنسة الكهرباء...
- هل أنتِ بخير؟
- بخير. هل رأيت صاحبك رالف لوران؟
- كلا.
- غمغمت كلاماً لم يفهمه.
- وكم سيبلغ عمرك؟
- سبعة وعشرين عاماً.
- أين كنتِ سابقاً؟
- عفواً؟
- أين كنتِ قبل أن تأتي إلى هنا؟
- في الطابق العلوي!
- وقبل ذلك؟
- ليس لدينا وقت الآن... ذات ليلة حينما تكون هنا، سأروي لك...
- تقولين هذا ثم...
- بلى، بلى، أشعر بأنني أفضل حالياً... سوف أروي لك الحياة البتاءة لكامل فوك...
- ما معنى بتاءة؟
- سؤال جيد...
- يعني «مثل بناية»؟
- كلا. يعني «نموجية» ولكن بسخرية...
- آه؟



- مثل بناية آيلة للانهيار إن شئت ...
- مثل برج بيزا؟
- بالضبط!
- سحقا، من الصعب العيش مع فتاة مثقفة ...
- كلا! على العكس! مريح جداً!
- كلا، هذا صعب. أخاف دائماً من الأخطاء الإملائية ...
- ماذا أكلت عند الظهيرة؟
- شطيرة مع فيلو... ولكنني رأيتك تضع لي شيئاً في الفرن، سأتناوله في الحال... في الواقع شكراً لك... إنه لذيذ للغاية.
- العفو، هيا، سأذهب...
- وأنت، كيف حالك؟
- متعب...
- نم إذاً!
- كنت سأنام، ولكن لا أدري... لم تعد لديّ الرغبة...
- هيا... سأعود...

## 17

- ما هذا إذاً... لم نعد نراك منذ خمسة عشر عاماً والآن تحبس نفسك هنا تقريباً كلّ يوم!
- مرحباً يا أوديث.
- تبادلا قبلاً صاحبة.

- أهي هنا؟
- كلا، ليس بعد... ..
- حسناً، سوف نجلس بانتظارها... تفضلي، أقدم لكِ
- أصدقائي: كاميل... ..
- مرحباً.
- ... وفيلبير.
- سعيدة. هذا... ..
- لا بأس، لا بأس! ستقدّمين مجاملاتك في ما بعد... ..
- أوه، لا تكن عصبياً هكذا!
- لستُ عصبياً، بل جائعاً. آه، حسناً، ها هي، تماماً... ..
- مرحباً يا جدّتي، مرحباً يا إيفون. هل تشربان معنا؟
- مرحباً يا عزيزي فرانك. كلا، أشكرك. عندي ضيوف في
- المنزل. أمرّ نحو أيّ ساعة؟
- سوف نعيدها... ..
- ولكن ليس في وقتٍ متأخر، إيه؟ لأنني في المرّة الأخيرة
- جلبتُ على نفسي شتائم... .. يجب أن تكون هنا قبل الساعة
- الخامسة والنصف... ..
- نعم، نعم، لا بأس يا إيفون، لا بأس.
- تنفّس فرانك.
- حسناً يا جدّتي حسناً. أقدم لكِ فيليبير... ..
- تحياتي... ..
- انحنى لكي يقبل يدها.

- هيا، لنجلس. ولكن لا، يا أوديت! لا داعي لقائمة الطعام! دعوا الشيف يتصرّف!
- هل تأخذون فاتحاً للشهية؟
- ردّ فيليبير:
- شمبانيا!
- ثمّ استدار نحو جارته وسألها:
- هل تحبّين الشمبانيا، يا سيّدتى؟
- ردّت بوليت باستحياء:
- نعم، نعم... .
- تفضّلوا، هذه بعض سيّء الخنزير لكي تتسلّوا ريثما يحضر الطعام... .
- كان الجميع محرجين بعض الشيء. لحسن الحظ، سرعان ما أطلقت خمور لوار وسمك الزنجور بالزبدة البيضاء وأجبان الماعز ألسنتهم. كان فيليبير يبدي اهتمامه بجارته وكانت كاميل تضحك وهي تصغي إلى ترّهات فرانك:
- عمري... بفف... كم عمري، يا جدّتى؟
- يا إلهي، إنّه عجوز... ثلاثة عشر؟ أربعة عشر عاماً؟
- كانت سنتي الأولى في التعليم... آنذاك، أتذكّر جيّداً، كان السيّد رينيه يخيفني. كنتُ قلقاً وخائفاً. ولكنه... علّمني بعض الأشياء... كما أنّه كان يزعجني... لم أعد أعرف ما الذي عرضه عليّ... أعتقد أنّها كانت ملاعق الخفق، وقال لي:
- «هذه تُدعى القطة الكبيرة، والأخرى، القطة الصغيرة. تذكّر

ذلك حينما يسألك الأستاذ، إيه... صحيح أن هناك كتباً تعليمية ولكن هذه هي مصطلحات المطبخ الحقيقية. إنها اللغة الخاصة الحقيقية. ومن خلال هذا نعرف المتمرنين الجيدين. إذا؟ هل حفظت اسمها؟

- نعم، يا ريس.

- ماذا تُدعى هذه؟

- القطة الكبيرة، يا ريس.

- والأخرى؟

- إيه... الصغيرة...

- ماذا الصغيرة، يا ليستافيه؟

- القطة الصغيرة، يا ريس!

- جيد، يا بني، جيد... سوف يكون لك مستقبل لامع.

آه! كم كنتُ ساذجاً آنذاك! كم سخروا مِنِّي... ولكن ليس يومياً، أليس كذلك يا أوديت؟ كانت هناك ركلات على المؤخرة...

كانت أوديت، الجالسة معهم، تهزّ برأسها.

- أوه لقد هدأ الآن، تعلمين...

- بالتأكيد! صبيان اليوم ما عادوا يتقبلون أيّ شيء!

- لا تحدّثيني عن صبيان اليوم... هذا ليس صعباً... لم يعد بوسعنا أن نقول لهم شيئاً... يحدرون. لا يجيدون سوى الحرد. هذا يرهقني، تفضلي... هذا يرهقني أكثر منكم حينما أوقدتم النار في الحاويات...

- هذا صحيح! لم أعد أتذكر أبداً...  
- ولكنني أتذكر، أرجوك أن تصدقني!  
انطفأ النور. نفخت كاميل على شموعها وصدقت الصلاة  
كلها.

تواري فيليبير وعاد مع طرد كبير:

- هذه هدية منا نحن الاثنيين...  
أوضح فرانك:

- نعم، ولكنها فكرته. إن لم تعجبك هذه، فلستُ مسؤولاً.  
أنا أردتُ أن نستأجر لك رجلاً يقدم عرضاً للتعري ولكن  
رفض...  
- أوه، شكراً! هذا لطف منكما!  
كان مسند رسم.

قرأ فيليبير الورقة وفي حلقه رجفة:

- قابل للطبي وللحني بطبقتين، متين، مع سطح كبير للعمل  
ودرجة. مصمم للعمل جلوساً. مكوّن من أربع قوائم من الزان  
قابلة للثني مضمومة إلى بعضها ثنائياً بعارضة تمنحها ثباتاً ومثانة.  
حينما تكون القوائم مطوية تؤمن تثبيت الدرجين قابلة للطبي بفضل  
مغلاق مزدوج. من الممكن ترتيب كدس من الأوراق من قياس  
68 x 52 سم. هناك بالأساس بعض الأوراق إن حدث... هناك  
مقبض يسمح بنقل المسند المطوي. لم ينته الأمر، يا كاميل...  
هناك موضعٌ لقارورة ماء صغيرة تحت المقبض!

سأل فرانك:

- ألا يمكن أن نضع سوى الماء؟

قالت بوليت ساخرةً:

- الماء ليس للشرب، أيها الأحمق، وإنما لمزج الألوان!

- آه نعم، أنا مغفل... ..

سألها فيليبير:

- هل... هل أعجبك هذا؟

- هذا رائع!

- أما... أما كنتِ لتفضّ... لتفضلي ص... صيباً عارياً؟

- هل لدي الوقت لأجرّبه في الحال؟

- هيّا، هيّا، في كلّ الأحوال، نحن ننتظر رينيه... ..

بحثت كاميل عن العلبة الصغيرة للألوان المائية في حقيبتها

وفكّت اللوالب ووقفت أمام الكوّة المزجّجة.

رسمت نهر اللوار. البطيء، الشاسع، الهادئ، الرصين.

رسمت أرصفته الرملية الفاترة، أوتاده وقواربه المتعفنة. طائر

غراب كان هناك. أغصان الأسل الشاحبة وزرقة السماء. زرقة

شتوية، فاقعة، ساطعة، خادعة، متكلّفة بين غيمتين واسعتين

منهكتين.

كانت أوديت منبهرة.

- ولكن ماذا فعلت؟ ليس في لوحتها الصغيرة سوى ثمانية

ألوان!

- أنا أغشّ ولكن اسكتي... خذي. هذا لك.

- أوه، شكراً! شكراً! رينيه! تعال وانظر إلى هذا!

- أنا سأقدّم لكم الطعام!

- أوه، كلا... ..

- بلى، بلى! أنا مصرٌّ على ذلك... ..

حينما عادت وجلست معهم، مرّرت بوليت طرداً إليها من تحت الطاولة: كانت قلنسوة منسجمة مع الوشاح. نفس التخاريم ونفس الألوان. من نفس الصنف.

وصل صيادون، فلحق بهم فرانك إلى المطبخ مع مدير الدار لتفحص محتويات أكياسهم. كانت كاميل تتلهى بهديتها وكانت بوليت تروي حربها لفيليبير الذي كان يصغي إليها بشغف ممدداً ساقيه الطويلتين.

ثمّ جاءت اللحظة الحرجة، عند الغروب، بدت بوليت قلقة جداً.

صمت الجميع.

ازداد المشهد قبحاً.

طافوا بالمدينة وعبروا مناطق تجارية من دون مفاجآت: المتجر الكبير، الفنادق من فئة 29 يورو مع خدمة الإنترنت، العنابر، مستودعات الأثاث. ثمّ ركن فرانك السيارة. في آخر المنطقة.

نهض فيليبير ليفتح له الباب ورفعت كاميل قبعتها.

داعبت بوليت خدّه.

دمدم فرانك:

- هيا، هيا، سنختصر طريقنا. لا أريد أن تشتمني الأم

السامية!

حينما عاد، كان الشبح قد أزاح الستائر الكبيرة.  
جلس، عبس، وتنهد حانقاً قبل أن يدير المحرك.  
لم يكن قد خرج من المرأب حينما ربّبت كاميل على كتفه:  
- توقّف!

- ماذا نسيت أيضاً؟  
- قلت لك أن تتوقّف.

## 18

استدار قائلاً:

- والآن؟
- كم كلفكم هذا؟
- عفواً؟
- هذا الشيء؟ دار العجزة هذا؟
- لماذا تسأليني عن هذه؟
- كم؟
- نحو عشرة آلاف فرنك...
- من دفع؟
- تقاعد جدّي، سبعة آلاف ومائة واثنا عشر فرنكاً  
والمجلس العامّ ولا أدري من أيضاً...
- بالنسبة لي أطلب منك ألفي فرنك كمصروف جيب  
وتحتفظ أنت بالبقية وتكفّ عن العمل في يوم الأحد لكي تخفّف  
عني...



- مهلاً، عمّا تحدّثيني، هنا؟

- فيلو؟

قال بتغنّج:

- آه كلا، هذه فكرتك، يا عزيزتي.

- نعم، ولكن هذا بيتك، يا صديقي...

- هيه! ماذا يحدث هنا؟ ما الحيلة؟

أضواء فيليبير المصباح السقفي:

- إذا أردت...

أوضحت كاميل:

- وإذا أرادت، هي.

ابتسم فيليبير:

-... سنصطحبها معنا.

غمغم فرانك:

- مع... معكم، إلى أين؟

- عندنا... في البيت...

- متى... متى هذا؟

- الآن.

- الآ... الآن؟

- أخبريني، يا كاميل، هل أبدو بهذا الاندهاش حينما

أتلعثم؟

طمأنته:

- كلا، كلا، لا تكون لك أبداً هذه النظرة البلهاء...

- وَمَنْ سِيهَتَمَ بِهَا؟
- أنا. ولكن عرضتُ عليك للتوّ شروطي...
- وشغلكِ؟
- لا شغل بعد الآن! انتهى الأمر!
- ولكن... ..
- ماذا؟
- أدويتها وكلّ هذه الأمور...
- حسناً أنا سأعطيها لها! ليس من الصعب عدّ الأقراص،  
أليس كذلك؟
- وإذا سقطت؟
- حسناً، سوف لن تسقط طالما أنا هنا!
- ولكن أوه... أين... أين ستنام؟
- سأترك لها غرفتي. كلّ شيء مهياً... ..
- وضع جبينه على مقود السيارة.
- وأنت يا فيلو، ما رأيك بذلك؟
- في البداية سيكون الأمر سيئاً ومن ثمّ سيكون جيداً. أعتقد  
بأن حياتك ستكون أكثر بساطة إن جلبناها إلى هنا... ..
- ولكنها ثقيلة!
- أتعقد ذلك؟ كم تزن جدّتك المسكينة؟ خمسين  
كيلوغراماً؟ بل أقلّ... ..
- ألا يمكن حملها هكذا؟

- حقًا؟
- كلا إذاً... ..
- إذا كان يجب دفع خسائر، سندفعها... ..
- هل يمكنني القيام بجولة؟
- هيا.
- هل يمكنك أن تُلقي لي سيجارة، يا كاميل؟
- تفضل.
- صفق الباب.
- حينما عاد وجلس، قال:
- هذه بلاهة.
- نحن لم نقل قط عكس هذا، إيه يا فيلو؟
- أبدأ. ونحن واضحان في كلّ حال!
- ألا يخيفكما هذا؟
- كلا.
- لقد رأينا آخرين، أهذا صحيح؟
- آه!
- أعتقدان بأنّها ستكون راضية في باريس؟
- سوف لن نأخذها إلى باريس، سنجلبها إلى بيتنا!
- ألن نريها برج إيفل؟
- كلا. سريها أشياء كثيرة أجمل من برج إيفل... ..
- تنهّد.
- حسناً، حسناً، ماذا سنفعل الآن؟

قالت كاميل :

- أنا سأتكفل بالأمر.

حينما عادوا وركنوا السيارة تحت نوافذها، كانت لا تزال هناك.

انطلقت كاميل جرياً. من داخل السيارة، شاهد فرانك وفيليبير عرضاً لخيال الظلّ: شبح صغير يلتفت، بجانبها شبحٌ أكبر، حركات، هزُّ للرأس، حركات من الكتفين، كان فرانك لا يكفّ عن الترداد: «هذه حماقة، هذه حماقة، قلت لكما إن هذه حماقة... حماقة كبيرة...».

كان فيليبير يتسم.

غير الشبحان مكانهما.

- فيلو؟

- اممم...

- ما هذه الفتاة؟

- عفواً؟

- هذه الفتاة التي وجدتها لنا... ما هي بالضبط؟ كائنٌ

فضائيّ؟

كان فيليبير يتسم.

- جنّية...

- نعم، هذا صحيح... جنّية... أنت محقّ.

وهل للجنّيات نشاط جنسي أم لا...

- ولكن ماذا تفعلان، سحراً!

انطفأ النور أخيراً.

فتحت كاميل النافذة ووضعت حقيبة كبيرة على حرفها. توثب فرانك، الذي كان يقضم أصابعه توتراً:

- اللعنة، أهذا هوسٌ لديها أن ترمي الأشياء من النافذة أم ماذا؟

كان يضحك. كان يبكي. كان يرتجف:

- سحقاً، يا عزيزي فيلو... كانت دموعٌ غزيرة تسيل على خديّهِ. منذ أشهر وأنا لم أعد أستطيع النظر في مرآة... أتصدّق هذا؟ سحقاً، أتصدّق هذا؟

أعطاه فيليبير منديله.

- كلّ شيء على ما يُرام. سوف ندلّلهَا لك... لا تقلق...  
تمخّط فرانك، وقدم السيارة مسرعاً نحو الفتاتين بينما كان فيليبير يأخذ الحقيبة.

- كلا، كلا، ابقَ في المقعد الأمامي، أيّها الشاب! ساقك طويلتان...

ساد صمت القبور لبضعة كيلومترات. كان كلُّ منهم يتساءل في داخله إن لم يكن قد ارتكب حماقة كبيرة... ثم، فجأةً، كسرت بوليت حاجز الصمت، قائلة بسداجة:

- أخبروني... هل ستأخذونني إلى المسرح؟ هل سنشاهد مغناة هزلية؟

التفت فيليبير مندناً بلغة متكسّرة: «أنا برازيلي، عندي ذهب، أنا آتٍ من ريو دو جانيرو، أكثر ثراءً اليوم مما مضى،

باريس، يا باريس، سأعود إليك مرة أخرى!».«

أمسكت كاميل بيده وابتسم فرانك لكاميل في المرأة  
العاكسة.

نحن الأربعة، هنا، الآن، في هذه السيارة العفنة من طراز  
كليو، طلقاء، معاً، وليقع المُقدَّر...  
ردّوا معاً في لحنٍ جماعي: كلّ ما هنالك، إنني أظير!

## القسم الرابع





## 1

هذه فرضية. ولن يذهب التاريخ بعيداً لإثباتها. ثم إن تأكيداتنا لا تصيب دائماً. ذات يوم ستنمتى الموت ونتأكد بأنه كان يكفي أن ننزل بضع درجات لكي نجد المرأة العاكسة ونرى الصورة فيها على نحو أوضح بعض الشيء... مع ذلك كان هؤلاء الأشخاص الأربعة مستعدين لأن يعيشوا ما تبقى من الوقت كأجمل أيام حياتهم.

بدءاً من هذه اللحظة المعيّنة حيث يقومون بإطلاعها على منزلها الجديد وهم يترقبون، بشيء من التأثر والقلق، ردود فعلها وتعليقاتها (وسوف لن تبديها) وحتى لحظة المصير المقبلة ستهب ريح فاترة على وجوههم المتعبة.

مداعبة، مهادنة، مواساة.

ويسمّيها الآخر Sentimental healing .

في عائلة ذوي الأذرع المتكسرة، لدينا من الآن فصاعداً الجدّة، وحتى وإن لم تكن الأسرة كاملة، وربما لن تكون كذلك أبداً، لم تكن لديهم النية في الاستسلام للانهايار.

في العائلات السبع، هل كانوا مرتبكين؟ إذاً، فلنتكلم بلغة

البوكر! كانوا يشكّلون رباعية. حسناً، أربعة أس<sup>(1)</sup>، وربما لا... الكثير من الحدبات والغمغمات والندوب في كلّ الاتجاهات لبلوغ ذلك ولكن... هيه! رباعية!

لم يكونوا لاعبين بارعين، للأسف...

حتى وإن كانوا مركزين، حتى وإن كانوا عازمين على حماية ما في أيديهم لمرة واحدة، كيف يُطلب من ثائرٍ ملكي أعزل ومن جنّية ضعيفة وصبيّ مدللٍ وعجوز تغطي الكدمات أنحاء جسمها أن يجيدوا الخديعة؟

مستحيل.

باه... سحراً... يبقى رهنٌ صغير وقفازات مضحكة أفضل من أن ينام المرء...

## 2

لم تذهب كاميل حتى النهاية في إنذارها: بالتأكيد كانت رائحة جوزي ب. ننته جداً. كان عليها أن تمرّ على المقرّ (يا لهذه الكلمة...) لكي تتفاوض بشأن رحيلها ولكي تستطيع أن تقبض... ماذا كانوا يسمّونه سابقاً... أن تقبض كل حسابها. كانت قد عملت لأكثر من عام من دون عطلة أو إجازة. وازنت بين الحسنات والسيئات وقرّرت أن تستقرّ في الطابق العلوي. حققت عليها مامادو، وأخذت تضرب على ساقها بالمكنسة وهي لا تكفّ عن ترداد:

---

(1) ورقة آس، وهي الورقة التي تحمل الرقم واحد في ورق اللعب. (المترجم).

- أنتِ إذاً... أنتِ إذاً... أنتِ إذاً...

وفي النهاية، قالت كاميل غاضبة:

- أنا إذاً، ماذا؟ توقفي عن ترديد هذه الجملة، اللعنة! أنا

ماذا؟

هزّت الأخرى رأسها بأسى:

- أنتِ إذاً... لا شيء.

غيّرت كاميل غرفتها.

- هيه يا مامادو... اسكتي...

- سوف أسكت وسوف أمتنعك من أن تناديني مامادو مرّة

أخرى. اسمي ليس مامادو! أكره هذا الاسم! البنات في الشغل

هنّ اللواتي ينعتنني بهذا اللقب ولكن اسمي ليس مامادو. وبما

أنك لم تعودي واحدة من بنات الشغل، فأنا أمتنعك من أن

تنادينني مرّة أخرى مامادو، هل فهمتِ؟

- حقاً؟ إذاً ما اسمك؟

- لن أخبرك به.

- اسمعي يا مام... أوه يا عزيزتي... سوف أقول

الحقيقة: أنا لا أرحل بسبب جوزي. أنا لا أرحل بسبب الشغل.

لا أرحل لمتعة الرحيل. لا أرحل بسبب المال. الحقيقة هي...

الحقيقة هي أنني أرحل لأنّ لديّ مهنة أخرى... مهنة...

أعتقد... أقصد... لست... لست متأكدة منها... ولكنها مهنة

سأكون فيها أفضل حالاً من هنا و... وأعتقد أنني سأكون أكثر

سعادة أيضاً...

ساد الصمت.

- ثم إن هذا ليس السبب الوحيد... أنا أهتم الآن بسيدة عجوز ولم أعد أريد مغادرة البيت مساءً، أفهمتِ؟ أخشى أن تسقط أرضاً...

ساد الصمت.

- حسناً، حسناً، سوف أنصرف، إذا... وإلا سأظلّ أعمل خادمة لكي أدفع ثمن شطيرة التاغو...  
أمسكت الأخرى بذراعها وأجلستها بالقوة.

- ابقني لمزيد من الوقت أقول لك. إنها الساعة الثانية عشرة وأربع وثلاثون دقيقة ليس إلا... ..

ساد الصمت.

- ما هي؟

- عفواً؟

- ما هي مهنتك الأخرى؟

أعطتها كاميل كراسة رسوماتها.

قالت وهي تعيد إليها الكراسة:

- تفضّلي، هذا جيد.

ثم أضافت وهي تلتفت:

- أنا موافقة إذاً. يمكنك الانصراف الآن ولكن مع ذلك... ..

كنت سعيدة جداً بمعرفتك، أيتها الجرادة الصغيرة.

- بقيت خدمة واحدة أطلبها منك، يا مام... ..

- تريد أن يحقق لك عزيزي ليوبولد النجاح المضمون

ويجذب إليك الزبائن أيضاً؟

- كلاً أريدك أن تتخذي وضعية؟

- أتخذ وضعية ماذا؟

- حسناً، الوضعية التي تريدين! أريد أن أتخذك مودياً

لرسم...

- أنا؟

- نعم.

- أتَهزئين بي أم ماذا؟

- منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه، حينما كنا نعمل معاً في

نويلي، أتذكر... رغبْتُ في أن أرسلك...

- كفي، يا كاميل! لستُ جميلة حتى!

- بالنسبة لي نعم.

ساد الصمت.

- بالنسبة لكِ نعم؟

- بالنسبة لي نعم...

قالت وهي تشير بإصبعها إلى صورتها المنعكسة في المرآة

السوداء:

- ما الجميل في هذا؟ أين الجمال الذي تتحدثين عنه؟

- إذا ما استطعتُ أن أرسم صورتك، إذا ما نجحتُ في

ذلك، سوف يُرى فيها كلّ ما رويته لي منذ تعارفنا... كلّ

شيء... سوف تُرى والدتكِ ووالدك. وأطفالك. والبحر. و...

ماذا كان اسمها؟

- مَنْ تقصدين؟

- عنزتك الصغيرة؟

- بولي... ..

- سوف تُرى بولي. وابنة عمك التي ماتت و... وكلّ ما

تبقى... ..

- أنتِ تتكلمين مثل أخي! قولي إذاً إنكِ تهذرين بطرائف

وأوهام!

ساد الصمت.

- ولكنني... .. لستُ واثقة من النجاح في ذلك... ..

قالت ممازحة:

- حقاً؟ لعلمك حتى لو لن تُرى عنزتي بولي فوق رأسي

هذا يناسبني أيضاً! ولكن ما تطلبينه منّي يستغرق وقتاً طويلاً،

أليس كذلك؟

- نعم.

- إذاً لا أستطيع... ..

- أنتِ تعرفين رقم هاتفي... .. خذي إجازة ليوم أو يومين

من توكلين وتعالني لمقابلتي. سوف أدفع لك أجره الساعات التي

ستقضينها عندي... .. فالفنان يدفع أجراً لنماذجه... .. هذه مهنة،

أنتِ تعرفين ذلك... .. حسناً، سأدعك الآن. ألن نتعانق؟

ارتمت الأخرى عليها وضممتها إلى صدرها بشدة.

- ما اسمك يا مامادو؟

- سوف لن أخبرك به. لا أحب اسمي... ..

ركضت كاميل على طول الرصيف وهي تومئ بوضع هاتفٍ

على أذنها. قامت زميلتها السابقة بحركة يائسة من يدها. انسيني أيتها الأوروبية الصغيرة، انسيني. لقد نسيتيني...

تمخّطت بصخب.

رغبت أن تتحدّث معه.

هذا صحيح...

لا أحد في الدنيا سواه كان يصغي إليها أبداً.

### 3

في الأيام الأولى، لم تغادر بوليت غرفتها. كانت تخشى أن تُزعج الآخرين، أن تتوه، أن تقع، وكانت تخشى خاصّة أن تضرب رأسها بشيء ما.

كانت غالباً ما تتلهّى بريش الرسم وتؤكد أنّها تمضي عطلة سعيدة وتسال متى ينون أخذها إلى بيتها.

سأل فرانك حانقاً:

- أين تقصدين بيتك؟

- أنت تعلم جيداً... إلى المنزل... منزلي...

غادر الغرفة متنهداً:

- لقد قلتُ لكما إنّ هذا عبث... علاوة على ذلك، لقد

فقدت صوابها...

نظرت كاميل إلى فيليبير ونظر فيليبير في اتّجاهٍ آخر.

- بوليت؟

- آه، هذا أنت يا عزيزي... أنت... ما اسمك؟

- كاميل ...

- آه صحيح! ماذا تريد يا ابنتي العزيزة؟

خاطبتها كاميل بصراحة وكلمتها بقسوة. ذكّرتها من أين جاءت ولماذا هي معهم وما غيروه وسيغيرونه في نمط حياتهم لكي تبقى برفقتهم. وأضافت الكثير من التفاصيل الأخرى القاسية التي أربكت السيدة العجوز:

- إذاً، أَلنْ أعود إلى بيتي أبداً؟

- كلا.

- ماذا؟

- تعالي معي يا بوليت ...

أمسكت كاميل بيدها وجالت بها من جديد في الشقة وهذه المرّة على نحوٍ أبطأ:

- هنا المغاسل ... انظري، لقد ثبتّ فرانك مقابض على

الجدار لكي تتمكني من التمسك بها ...

غمغم فرانك:

- عبث ...

- هنا المطبخ ... إنّه واسع، أليس كذلك؟ ثمّ إنّه بارد ...

ولهذا أصلحتُ الطاولة المتحركة البارحة ... لكي نتيح لك تناول وجباتك في غرفتك ...

أوضح فيليبير:

- ... أو في الصالون ... لستِ مرغمة على أن تحبسي

نفسك طيلة النهار، أنتِ تعلمين ...



- حسناً، الممرّ... إنه طويل جداً ولكن يمكنكِ التمسك  
بخشب زينته، أليس كذلك؟ إن احتجتِ إلى المساعدة، سوف  
نذهب إلى الصيدلية ونستأجر كرسيًا بعجلات...

- نعم، أفضل ذلك...

- لا مشكلة! فلدينا أصلاً درّاج في البيت...

- هنا الحمام... وهنا يجب أن نتحدّث بجديّة يا بوليت...  
تفضّلي واجلسي على الكرسي... ارفعي بصرِك... انظري كم  
هو جميل...

- جميلٌ جداً. لم أرَ قط مثيلاً له عندنا...

- حسناً. أتعرفين ما الذي سيفعله حفيدك غداً مع أصدقائه؟

- كلا...

- سوف يخربونه. سوف ينصبون لكِ مقصورة استحمام لأنّ  
المغطس عالٍ ويصعب عليكِ الصعود إليه. إذاً، قبل فوات  
الأوان، يجب أن تحسمي أمرِك على الفور. إما أن تمكثي هنا  
ويبدأ الشباب بالعمل وإما أن تقرّري عدم البقاء، ولا مشكلة في  
ذلك، إذ يمكنكِ فعل ما تشائين يا بوليت، ولكن يجب أن  
تخبرينا الآن، هل فهمتِ؟

ردّد فيليبير: هل فهمتِ؟

تنهّدت السيّدّة العجوز ونقرت على زاوية سترتها لبضع ثوانٍ  
بدت لهم دهرًا ثم رفعت رأسها وسألت:

- هل فكّرتم بوضع كرسي في الحمام؟

- عفوًا؟

- لستُ كسيحة تماماً... يمكنني الاستحمام بمفردي،  
ولكن يجب أن تضعوا لي كرسيّاً في الحمام، فمن دونه...  
تظاهر فيليبير بالكتابة على يده:

- كرسي في الحمام للسيدة العزيزة! لقد دوّنت ذلك! وماذا  
أيضاً، أرجوك؟  
ابتسمت:

- لا شيء آخر...

- لا شيء آخر؟

قالت أخيراً:

- أجل. أحبّ كثيراً مجلتي تبلي ستار وكلماتي المتقاطعة،  
أبر وبعض الصوف للصغيرة، علبة نيفيا لأنني نسيْتُ علبتي،  
سكاكر، راديو صغير على طاولة سريري، أشياء أنقع فيها طقم  
أسناني، أربطة للساق، مشايات، وقميص نوم أكثر دفئاً لأنّ  
الشقّة مليئة بالتيارات الهوائية، بعض الزينة، مساحيق للوجه،  
عبوة الكولونيا التي نسيها فرانك أمس، وسادة إضافية، عدسة  
مكبّرة، كما أريد أن تنقلوا الأريكة إلى أمام النافذة و...

سأل فيليبير قلقاً:

- وماذا؟

- هذا كلّ شيء على ما أعتقد...

انضمّ فرانك إليهم ومعه صندوق عدّته وربّت على كتف  
زميله:

- سحقاً يا بُني، ها نحن الآن مع أميرتين...

وبخته كاميل :

- احذرا! أنت تنثر الغبار في كلّ مكان ...

أضافت جدّته :

- وتوقّف عن الشتم بهذه الطريقة من فضلك!

ابتعد مجرّراً قدميه :

- أووه يا جدّتي العزيزة ... سيكون الجوّ حارّاً .. نحن

في حالٍ سيئة، يا صديقي، نحن في حالٍ سيئة .. أنا سأعود

إلى عملي، هذا أهدأ. إذا كان أحدكم سيتبضع فليجلب لي

بطاطس لأطهوها لكم ... بطاطس من نوعية جيّدة هذه المرّة!

انظروا ... بطاطس للسلق والهرس بالحليب ... الأمر ليس

معقّداً، إنّها توضع على شرائح اللحم المشوية ...

«نحن في حالٍ سيئة، هنا، نحن في حالٍ سيئة ...»، قال

متوجّساً ومغترّاً. ولن يكونوا في حياتهم أحسن حالاً.

الحديث بهذه الطريقة فيه شيءٌ من السداجة بالطبع، ولكن

حسناً، كانت هذه هي الحقيقة ومنذ زمنٍ طويلٍ لم تعد الضحكة

تضجرهم: للمرّة الأولى شعروا بأنّ لديهم عائلة حقيقية.

كانوا مع امرأة حقيقية، امرأة مختارة، امرأة مرغوبة، امرأة

تحملوا العناء من أجلها ولم تطلب منهم شيئاً في المقابل ليكونوا

سعداء معاً. حتى وإن لم يكونوا سعداء، لم يعودوا متطلبين جداً.

أن يكونوا معاً، هذا كلّ شيء. ولم يكن هذا مأمولاً في السابق.

#### 4

بعد مسلسل الخمّام، لم تعد بوليت هي نفسها. وجدت

معالمها وانخرطت في الجوّ يُسرّ مذهل. هل كانت بحاجة إلى

دليل فقط؟ دليل على أنها كانت منتظرة ومرحّب بها في هذه الشقة الشاسعة الفارغة التي كانت مصاريع أبوابها تغلق من الداخل والتي لم يلمس أحدٌ غبارها منذ عهد الإصلاح. إذا كانوا قد نصبوا لها لوحدها دوشاً، إذأ.. كادت ألا تعرف ماذا تقول لأنها كانت بحاجة إلى غرضين أو ثلاثة وغالباً ما فكّرت كاميل بهذا المشهد. كيف ساءت أحوال الناس، غالباً بسبب بعض الهنات، وكيف أمكن لكل شيء أن يفسد بالسرعة القصوى لو لم يكن هناك صبيٌّ صبورٌ سأل «وماذا أيضاً؟» ممسكاً بمفكرة وهمية.. ما سبب ذلك في النهاية؟ ما المقصود في النهاية؟ صحيفة رديئة، عدسة مكبرة، وقارورتان أو ثلاث.. كان أمراً مدوّخاً.. كانت فلسفة بسيطة أبهجتها وتبيّن أنها أكثر تعقيداً حينما التقنا عند رفّ معجون الأسنان في متجر فرانبري لقراءة ملخصات معجون ستيرادان وبوليدان وفيكسادان وغيرها من الأعاجيب..

- بوليت.. ما تسمّينه.. بعض «الزينة»، أهي..

أجابت حانقة:

- سوف لن ترغميني في نهاية المطاف على وضع طبقة كالتي يصفونها هناك بذريعة أنها أرخص ثمناً!

ردّدت كاميل وقد بدا عليها الارتياح:

- آه! أشياء للتزيّن! حسناً.. لم أفهم أبداً..

أصبحنا اليوم تعرفان متجر فرانبري عن ظهر قلب بل وسرعان ما بات متجاوزاً ومهجوراً بالنسبة لهما! والآن كانتا تجولان بخطوات وثيدة في متجر مونوبري ومعهما عربتهما من

طراز كادي وقائمة المشتريات التي أعدها فرانك مساء أمس... ..

آه! متجر مونويو... ..

كلّ حياتهما... ..

كانت بوليت دائماً أول مَنْ يستيقظ وتنتظر أن يجلب لها أحد الصبيّين فطورها إلى سريرها. حينما كان فيليبير هو الذي يتكفّل بذلك، كان يقدّم لها الفطور على صينية مع ملقط سكر وفوطة مطرّزة وكوب حليب. ثمّ يساعدها على النهوض ويرتب وسائدها ويسحب الستائر وهو يبدي تعليقاً مقتضباً على حالة الطقس. أبداً لم يعاملها رجلٌ بهذا اللطف من قبل، وما كان يجب أن يحصل قد حصل: بدأت هي الأخرى تعشقه. حينما كان فرانك هو الذي يقوم بالمهمّة كان الأمر... .. أكثر خشونة. كان يضع كوبها على طاولة سريرها ويقبلّ خدها على عجلٍ لأنّه تأخر عن عمله.

- ألا ترغيبين في التبول؟

- سأنتظر الصغيرة... ..

- هيه يا جدّتي، الأمر جيّد هنا! دعيها قليلاً! سوف تنام

لساعة أخرى! وسوف لن تتمالكي نفسك لكلّ هذا الوقت... ..

ردّدت، رابطة الجأش:

- سأنتظرها.

ابتعد فرانك مغمغماً.

- حسناً، انتظريها، هيّا... .. انتظريها... .. ليس لديها ما تهتمّ

به الآن سواك... .. أنا أيضاً سأنتظرها، سحقا! ماذا عليّ أن

أفعل؟ أن أكسر ساقيّ لكي تعتنى بي أيضاً كطفل؟ تدلّلي يا ماري

بوبانس، تدلّلي... ..

كانت تخرج من غرفتها وهي تتمطى:

- ممّ تتذمر أيضاً؟

- لا شيء. أعيش مع الأمير شارل والأخت ايمانويل وأهله

كأحمق. أفسحي لي المجال، لقد تأخرت... في الحقيقة؟

- ماذا؟

- أعطني ذراعك لأرى...

جسّ ذراعها ثم قال مبتهجاً:

- هذا ممتاز! قللي إذاً، يا بدينة... احذري... سوف

تقعين في فخّي ذات يوم...

- ولا في الحلم، أيها الطاهي المحترف. ولا في الحلم.

- بل أجل يا طائر السماني، هذا ما سيحصل...

كان ذلك صحيحاً، كان العالم أكثر بهجة بكثير.

عاد وسترته تحت ذراعه:

- الأربعاء القادم...

- الأربعاء القادم ماذا؟

- سيكون يوماً دسماً، لأنّه سيكون لديّ الكثير من العمل

يوم الثلاثاء، وانتظريني على العشاء...

- عند منتصف الليل؟

- سأحاول أن أعود أبكر من ذلك وسأعدّ لك فطائر لم

تأكلي مثلها في حياتك...

- آه! أنا خائفة! ظننتُ أنّك اخترتَ هذا اليوم لتضاجعني!

- سأعدّ لك الفطائر ومن ثمّ، بعد ذلك، أضاجعك.

- رائع.

رائع؟ كان ذلك سيئاً... ماذا سيفعل هذا المغفل إلى أن يحين الأربعاء؟ هل سينظر إلى نفسه في كل المرايا العاكسة، ويخفق في إعداد صلصاته، ويشتري ألبسة داخلية جديدة؟ اللعنة، ولكن لم يكن ذلك صحيحاً! بطريقة أو بأخرى سينال هذا الدنس منه في النهاية! القلق... شريطة أن تكون من نوعية جيدة... وسط الشكّ قرّر في نهاية المطاف أن يشتري سروالاً داخلياً جديداً...

نعم... إذاً سينجح الأمر يا غران مارنييه، أنا منْ يخبركم بذلك، سينجح الأمر... وما لا أشعله، أشربه.

ثمّ جاءت كاميل لتنضمّ إليها وفي يدها فنجانٌ من الشاي. جلست على السرير وسحبت اللحاف وانتظرتا رحيل الصبيين لكي تشاهدا قناة التسوّق على التلفزيون. افتتنتا بالبضائع المعروضة وقهقهتا وسخرتا من الألبسة الرسمية للشخصيات الشرفية. واندهشت بوليت، التي لم تكن قد ألفت بعد الانتقال إلى اليورو، أدهشها الغلاء الفاحش في باريس. لم يعد هناك متسعٌ من الوقت، فانسحبت باسترخاء من الغلاية إلى متجر مونوبري ومن مونوبري إلى بائع الصحف.

شعرتا بأنّهما كانتا في عطلة. كانت العطلة الأولى منذ سنوات بالنسبة لكاميل والأولى في حياة السيّدة العجوز. كانتا على اتفاق جيّد وتفاهمان بنصف كلمة وتستعيدان شبابهما بمرور الأيام.

كانت كاميل قد أصبحت ما يسمّيه صندوق الإعانة المالية

«مساعدة على الحياة». كانت هذه الكلمات الثلاث ملائمة لها  
وعوّضت جهلها الشيخوخى بتبنيها لهجة مباشرة وكلمات فجّة  
كانت تكبحهما.

- هيا، يا عزيزتي بوليت، هيا... سوف أنظف رديك  
بالمعقم...

- أنتِ متأكّدة؟

- أجل!

- ألا يشعرك ذلك بالاشمئزاز؟

- كلا.

وإذ تبين أنّ تنصيب مقصورة استحمام مسألة معقّدة جداً،  
صنع فرانك درجةً مضادة للتزحلق لتسلّق مغطس الحمام وقطع  
قوائم كرسيّ قديم كانت كاميل تضع عليها فوطة إسفنجية قبل أن  
تُجلس عليها محميتها.

أنت:

- أوه... ولكن هذا يزعجني... لا يمكنك أن تعرفي كم  
أنا متضايقة لأنني أفرض هذا عليك...  
- هيا بنا...

- هذا الجسد الشائخ، ألا يشير تقزّزك؟ أنتِ متأكّدة؟

- أنتِ تعرفين، أنا... أنا أعتقد بأنّ رؤيتي للأمور تختلف  
عن رؤيتك... أنا... أخذتُ دروساً في التشريح، ورسمتُ عُراة  
بنفس عمرك على الأقلّ ولا مشكلة حياء عندي... أقصد، بلى،  
ولكن ليس في هذا الأمر. لا أدري كيف أشرح لك ذلك...



ولكن حينما أنظر إليك، لا أقول لنفسي: أوف، هذه التجاعيد  
وثديها المتدليان وهذا البطن المترهل وهذا الشعر الأبيض وهذا  
العضو التناسلي الرخو أو هاتان الركبتان المتماستان... كلا،  
ليس تماماً... ربما سأغيطك ولكنني أهتم بجسدك بمعزل عنك.  
أنا أفكر في الشغل، في الجانب التقني، في الضوء، في التقاطيع  
وفي اللحم الخداع... أفكر في بعض اللوحات... العجائز  
المخبولات لغوياً، رموز لوحة الموت، والدة رامبرانت أو ملهمته  
آنا... اعذريني، يا بوليت، كل ما أرويه لك فظيع ولكن... في  
الحقيقة، أنظر إليك ببرودة شديدة!

- كحمقاء فضولية؟

- ثمة شيء من هذا... كفضولٍ بالأحرى...

- وإذا؟

- إذا لا شيء.

- وسوف ترسميني أيضاً؟

- نعم.

ساد الصمت.

- نعم، إن سمحت لي بذلك... أودّ أن أرسمك حتى  
أعرفك عن ظهر قلب. إلى أن لا يعود باستطاعتك أن تشعرني  
بوجودي من حولك...

- سوف أسمح لك بذلك، ولكنني هنا حقاً... أنت لست

حتى ابنتي ولا أي شيء وأنا... أوه... كم أنا مرتبكة...

وأخيراً تجردت كاميل من ثيابها وركعت أمامها على الميناء

الباهت:

- اغسليني.

- عفواً؟

- أمسكي بلوح الصابون وبالقفاز واغسليني، يا بوليت.

امتثلت ومدت ذراعها، وهي ترتعش على كرسيّ صلاتها،

إلى ظهر الفتاة الشابة:

- هيه! أشدّ قوّة!

- يا إلهي، أنتِ فتية... حينما أفكر بأنني كنتُ مثلكِ

سابقاً... طبعاً، لم أكن بهذه الرقة ولكن...

قاطعتها كاميل ممسكة بصنبور الماء:

- تريدان أن تقولي بهذه النحافة؟

- لا، لا، كنتُ أقصد حقاً «رقيقة»... أتذكر حينما حدثني

فرانك عنكِ للمرّة الأولى، لم تكن على فمه سوى هذه الكلمة:

«أوه يا جدّتي، كم هي نحيفة... لو ترين كم هي نحيفة...»،

أما الآن وأنا أراكِ كما أنتِ، لستُ متفقة معه. لستِ نحيفة، أنتِ

رقيقة. أنتِ تذكّريني بتلك المرأة الشابة في كتاب غران

مولن<sup>(1)</sup>... أتعلمين؟ ماذا كان اسمها؟ ساعديني على تذكّرها...

- لم أقرأ الكتاب.

- كان لديها اسمٌ نبيل أيضاً... أوه، يا للغباء...

- سوف نرى في المكتبة... هيا بنا! انزلي إلى الأسفل أكثر!

ليست هناك أسباب! مهلاً، سأستدير الآن... ها هو... أترين؟

نحن في المركب نفسه، يا عزيزتي! لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

- أنا... أنظر إلى هذه الندبة، هنا...

---

(1) Le Grand Meaulnes. رواية آلان - فورنيه. (المترجم).

- أوه، هذه؟ هذه بسيطة...

- كلا... هذه ليست بسيطة... ماذا حدث لك؟

- قلتُ لك إنّها مسألة بسيطة.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد المسألة مسألة بشرة بينهما.

ساعدتها كاميل في الجلوس على فتحة المرحاض ومن ثمّ تحت الدوش وغسلتها بالصابون وهي تتحدّث في أمورٍ أخرى. بدا الصابون السائل أكثر نعومةً. كانت كلّما تغمض عينيها، تفقد السيّدة العجوز توازنها وترتدّ إلى الخلف. وبعد عدّة محاولات كارثية، قرّرتا أن تذهبا إلى مزين. ليس في الحيّ الذي كانت الأسعار فيه غالية جداً («من هي ميريام؟ أجابها فرانك القميء، أنا لا أعرف فتاةً باسم ميريام...»). ولكن في نهاية رتلٍ من الحافلات، نظرت كاميل إلى مخطّطها وتابعت بإصبعها مسارات حافلات باريس ودقّقت في الصفحات الصفراء وبحثت عن بيانات حول محلّ لتجعيد الشعر ووقع اختيارها على صالونٍ صغير في شارع بيرينيه، أسعاره زهيدة.

في الحقيقة، لم يكن اختلاف الأسعار يبرّر رحلة كتلك ولكنها كانت نزهة جميلة للغاية...

وهكذا، كلّ يوم جمعة، منذ الصباح الباكر، كانت بوليت تضع مجعّدة الشعر، أمام واجهة الصالون

وترسم تفاصيل باريس يومياً، ويلمح البصر أثناء ازدحام السير - زوجاً من كلاب البطباط<sup>(1)</sup> بمعاطف بوربيري على جسر

(1) نوع من الكلاب، مجعّدة الوبر، تحبّ البطبطة في المياه. (المترجم).

رويال، أو نوعاً من الزخارف التي تزيّن جدران متحف اللوفر،  
أقفاصاً وشجر زينة رصيف شارع ميجيسوري، قاعدة عمود جيني  
باستيل، أو قباب المقاهي الأدبية في بير-لاشيز، ثم كانت تقرأ  
قصص الأميرات الحبالى والمغنين المهجورين بينما كانت  
صديقتها تبتهج تحت مجففة الشعر. كانتا تتناولان الغداء في  
مقهى في منطقة غامبيتا. ليس في غامبيتا بالضبط، المكان  
العصري جداً بالنسبة لذوقهما وإنما في حانة ميترو التي كانت  
تفوح منها رائحة التبغ البارد وأصحاب الملايين الخاسرين  
والصبي النزق.

كانت بوليت، التي تتذكر تعليمها المسيحي، تأكل دوماً  
تورته باللوز، وكانت كاميل، التي لم تكن لديها أية منظومة  
أخلاقية، تأكل شطيرة كروك مسيو مغمضة العينين. كانتا تطلبان  
قارورة من الشراب وتضربان قدحاً بقدح بابتهاج. بصحتنا!  
بعودتنا! كانت تجلس قبالتها وترسم بالضبط نفس الأشياء ولكن  
بنظرة المرأة الصغيرة الأنيقة جداً والمتبرّجة التي لم تكن تجرؤ  
على الاستناد إلى الواجهة الزجاج خوفًا من دعك خصلات  
شعرها الرائعة المصبوغة باللون الخبّازي. (كانت جوانا، المزيّنة،  
قد أقنعتها بتغيير لون شعرها): «إذاً هل اتّفقنا؟ سأصبغه لكِ  
بأوبالين ساندرية، إيه؟ انظري، إنه الرقم 34...». أرادت  
بوليت استشارة كاميل بالنظر ولكنّ هذه الأخيرة كانت غارقة في  
أمرٍ آخر صرفها عن بوليت. سألت بقلق: «ألن يكون هذا قاتماً  
جداً؟». «قاتماً؟ كلا! على العكس، سيكون زاهياً جداً!».

في الواقع، كانت... كانت الكلمة مناسبة. كان ذلك زاهياً

جداً، ويومئذٍ، نزلتا إلى زاوية شارع فولتير لتشتريا، إضافة إلى أشياء أخرى، نصف قادوسٍ جديد للرسم المائي من متجر سونيليه.

تغيّر لون شعر بوليت من الوردى الضارب إلى الذهبيّ الفاقع إلى اللون الخبازيّ من ويندسور.  
آه! في الحال... كان ذلك أكثر أناقةً...

في الأيام الخوالي، كان هناك متجر مونوبري. كانتا تستغرقان أكثر من ساعة لتقطعا مائتي متر وتجرّبان كريم دانيت الجديد وتستجيبان لاستطلاعات غبية وتجرّبان أحمر الشفاه أو قماشة فظيعة من الموسلين. كانتا تتسكّعان وتهذران وتتوقّقان في الطريق وتعلّقان على مظهر البرجوازيات الكبيرات في الطابق السابع وبهجة المراهقات. ضحكاتهنّ المجنونة وحكاياتهنّ العجيبة ورنين هواتفهنّ وحقائب ظهورهنّ المبرقعة بأشياءٍ تافهة. كانتا تتلهيَّان وتتنهّدان وتسخران وتنتعشان بحذر.

كان لديهما متّسع من الوقت، كانتا مقبلتين على الحياة...

## 5

حينما لم يكن فرانك يشرف على المطبخ، كانت كاميل تنكبّ على ذلك. بعد عدّة أطباقٍ من المعجنات المطبوخة أكثر مما يلزم، ومن العجّة المحروقة، أصرت بوليت على أن تحدّد لها بعض مبادئ الطبخ. ظلّت جالسة أمام فرن الغاز وعلمتها كلمات واضحة جداً مثل: باقة من الصعتر والبقدونس والغار، قدرٌ من الفونط، مقلاة ساخنة ومرق متبل. كان منظرها بشعاً،

ولكن، من خلال الرائحة، كانت تحدّد لها الخطوات التي يجب عليها أن تتبّعها... البصل، شرائح الشحم، قطع اللحم، ممتاز، رائع. أضيفي المرق إلى كلّ هذا... هيّا، سأعلّمكِ... رائع!

- هذا جيّد. لا أقول إنني سأعدّ لكِ طبق كوردون بلو، ولكنني...

- وفرانك؟

- فرانك ماذا؟

- أنتِ علّمتِه كلّ شيء؟

- كلا، ليس كلّ شيء! أتصوّر أنني أعطيته الذوق... لكن الأمور الأساسية، لم يتلقّاها مني... أنا علّمتُه الطبخ المنزلي... أطباقاً بسيطة، ريفية ورخيصة الثمن... حينما توقّف زوجي عن العمل بسبب مرضٍ قلبي، عملتُ طاهيةً في بيتٍ برجوازي...

- وكان يرافقتكِ؟

- نعم! أين كنتُ سأتركه وهو صغير؟ ثمّ بعد أن كُبر قليلاً،

لم يعد يرافقتني... ثمّ بعد ذلك...

- بعد ذلك ماذا؟

- أف، تعرفين جيداً كيف سارت الأمور... بعد ذلك شقّ عليّ أن أعرف أين يتسكّع... ولكنه... كان موهوباً. كان يميل إلى هذا العمل. كان المطبخ هو تقريباً المكان الوحيد الذي يهدأ فيه...

- وهو لا يزال كذلك حتى الآن.

- هل رأيته؟

- نعم. أخذني معه ذات يوم كعامله إضافية.. ولم أتعرف عليه في المطبخ!
- ومع ذلك لو تعرفين المأساة التي حصلت حينما أرسلناه في دورة تعليمية... لقد حقد علينا...
- ماذا كان يريد أن يعمل؟
- لا شيء. حماقات... كاميل، أنتِ تفرطين في الشراب!
- أنتِ تمزحين! لم أعد أشرب منذ قدومكِ إلى هنا! تفضلي، جرعة صغيرة من جاجا، إنه مفيد للشرايين. لستُ أنا مَنْ يقول ذلك، الأطباء يقولون هذا...
- حسناً... قدحٌ صغيرٌ منه إذاً...
- ماذا إذا؟ لا تتدمري هكذا! هل أنتِ حزينة؟
- كلا، إنها الذكريات...
- أكان الأمر صعباً؟
- في بعض الأوقات، نعم...
- أهو الذي كان صعباً؟
- هو، والحياة...
- لقد روى لي...
- ماذا؟
- يوم جاءت والدته لتأخذه معها... وكلّ الحكاية...
- ترين... الأسوأ هو حينما نشيخ، ليست... خذي، اسكبي لي قدحاً آخر، هيا... ليست المسألة أن يزول الجسد، كلا، المسألة هي مسألة الندم... كيف يعود ويستبدّ بك

ويعذّبك... نهراً... وليلاً... وفي كلّ وقت... تأتي لحظات لا تعودين قادرة على معرفة إن كان عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين أم تغمضينهما لتطردي الذكريات... تأتي لحظة حيث... يعلم الله أنني مع ذلك حاولت... حاولت أن أفهم لماذا لم تسر الأمور على ما يُرام... لماذا سارت كلّ الأمور عكس ما شئت... و...

- وماذا؟

ارتجفت:

- لا أستطيع. لا أفهم. لا...

بكت:

- من أين أبدأ؟

- أولاً، لقد تزوّجت في عمرٍ متأخر... أوه! وككلّ الآخرين، كانت لي قصتي مع الحب... ولكنها لم تكتمل... فتزوّجت فتى ظريفاً لكي أرضي الجميع. أخواتي كنّ قد تزوجن قبلي بكثير وفي النهاية... تزوّجت بدوري...

«ولكنني لم أرزق بأطفال... وفي كلّ شهر، كنتُ ألعن بطني وأبكي وأنا أغلي ألبستي الداخلية. راجعتُ أطباء، بل جئتُ إلى هنا، إلى باريس، لأجري الفحوصات الطبية... راجعتُ أطباءً شعبيين ومشعوذين وعجائز شريرات طلبن مني أموراً مستحيلة... إنها أمور قمّتُ بها يا كاميل، قمّتُ بها بلا تردّد... التضحية بحملان عند اكتمال البدر وشرب دمائها والتهام... أوه، كلاً... كان فعلاً أمراً وحشياً، صدّقيني... أمورٌ لا تمتّ إلى هذا القرن بصلة... قيل لي إنني ممسوسة. ثمّ بدأت رحلات



الحجّ... كلّ عام، كنتُ أذهب إلى لوبلان وأضع إصبعي في ثقب ضريح القديس جينيتور، ثمّ أذهب لأتبارك بالقديس غريليثون في قرية غارجيليس... أتضحكين؟

- أضحك لهذه الأسماء...

- ولم ينته الأمر، انتظري... كان عليّ أن أقدم قرباناً من الشمع يمثل الطفل المرغوب إلى القديس غرينويار في برويلي...

- غرينويار؟

- غرينويار، كما أخبرتك! آه! كانوا في غاية الجمال ولكنهم كانوا أطفالاً من الشمع، صدّقيني... عرائس حقيقية... لم يكن ينقصهم سوى أن ينطقوا... ثمّ ذات يوم، وبعد أن استسلمتُ بزمّنٍ طويل، حبلتُ... كان عمري أكثر من ثلاثين عاماً... لن تدري ذلك، ولكنني كنتُ أهرم... وجاءت نادين، والدة فرانك... ولأننا دلّلناها، وأحطناها برعايتنا، ودلّعناها... هذه البنت... هذه الملكة... أفسدنا طبعها... لقد أحببناها بإفراط... أو أسأنا حبّها... استجبنا لكلّ نزواتها... كلّها، باستثناء النزوة الأخيرة... رفضت أن أقرضها المال الذي طلبته مني لكي تقوم بعملية إجهاض... لم أستطع، أنفهمين؟ لم أستطع. لقد عانيتُ وتألّمت كثيراً. لم يكن التدبّر ولا الأخلاق ولا الثروات ما يردعني. وإنّما الحنق. الحنق. الخطيئة. كنتُ لأفضّل قتلها على أن أساعدها على أن تقتل جينيتها... هل... هل أخطأت؟ أجيبيني. كم حياة هالكة في مهبّ خطأي؟ كم من الآلام؟ كم من...

- اسكتي.

كانت كاميل تفرك فخذها.

- اسكتي ...

- وبالتالي... رُزِقَتْ بهذا الطفل، ثم تركته لي... قالت لي: «خذي، طالما كنتِ تريدينه، ها هو! هل أنتِ مسرورة الآن؟».

أغمضت عينيها ورددت وهي تشهق:

- «هل أنتِ مسرورة الآن؟»، ردّدت عليّ ذلك وهي تعدّ حقيبتها، «أأنتِ مسرورة؟». كيف يمكن للمرء أن يقول أشياء كهذه؟ كيف يمكن للمرء أن ينسى أموراً كهذه؟ كيف كان بوسعي ألا أسهر الليالي وألا أنك حياتي وألا أعمل إلى حدّ الإجهاد، إذا؟ اخبريني. اخبريني... لقد تركته، وعادت بعد بضعة أشهر، وأخذته، ثم أعادته ثانية. لقد أصبحنا جميعاً مجانين. وخاصة زوجي موريس... أعتقد بأنّها أوصلته إلى نهاية صبره كرجل... لا بدّ أنّها قد أغاظته وخدعته مرّة أخرى، فقد جاءت تطلب مالاّ لكي تطعمه، على حدّ زعمها، ثمّ فرّت ليلاً وتركت الطفل. وذات يوم، بعد ذلك بكثير، عادت بمعسول الكلام، فاستقبلها ببندقية قائلاً لها: «لا أريد أن أراكِ ثانية، أنتِ لستِ سوى خائنة، أنتِ لا تخجلين ولا تستحقين هذا الطفل. سوف لن تراه ثانية. هيا انصرفي الآن. دعينا وشأننا». كاميل... كانت ابنتي... ابنتي التي انتظرتها يوماً لعشر سنوات... ابنتي التي أحببتها كثيراً. أحببتها... كيف كسرتُ بخاطرها... تملّيتها بالنظر قدر ما استطعت... فتاة صغيرة أعطيناها كلّ شيء. كلّ شيء! أجمل الأثواب. العطلة على شاطئ البحر، في الجبل، أفضل

المدارس... كل ما كان لدينا من طيّبات، كان لها. وما أرويه لك هنا حدث في قرية صغيرة... لقد غادرت ولكن بقي كل الذين عرفوها مذ كانت صغيرة والذين اختبأوا خلف مصاريع أبوابهم لكي يروا موريس حانقاً. وظللتُ أصادفهم. في الأيام التالية، كان الوضع... كان الوضع لا إنسانياً... كان جحيماً على الأرض. ليس هناك في الدنيا ما هو أسوأ من شفقة الناس الطيبين. الذين يقولون لك بأنهم يصلون لأجلك وذلك لكي يجعلوك تبوحين لهم والذين يعلمون زوجك شرب الكحول وهم يرددون عليه بأنهم كانوا لتصرفوا بنفس الطريقة والعياذ بالله! راودتني الرغبة في القتل، صدّقيني... بل تمنيتُ لو أنني امتلكتُ القبلة الذرية!

ضحكت.

- ثم ماذا؟ كان هذا الصبي موجوداً. لم يطلب أيّ شيء من أحد... لقد أحبيناه. لقد أحبيناه بقدر ما استطعنا... وربما قسونا عليه في بعض اللحظات... لم نشأ أن نكرّر نفس الأخطاء فارتكبنا غيرها... وأنتِ، ألا تخجلين من رسمي هنا، الآن؟

- كلا.

- أنتِ محقّة. الخجل لا يقود إلى أيّ مكان، صدّقيني... خجلك لا يفيدك في شيء. إنه فقط لإرضاء الناس المتجرّئين... وبعد ذلك حينما يغلقون أبوابهم أو يعودون من المقهى، يشعرون بالارتياح في بيوتهم. ينتعلون، مختالين، مشاياتهم ويتبادلون النظرات مبتسمين. فكلّ هذا الاضطراب لم يحدث في عائلاتهم! ولكن... اطمئني. ألن ترسميني والكأس في يدي؟

ابتسمت كاميل :

- كلا.

ساد الصمت.

- ولكن بعد ذلك؟ سارت الأمور على ما يُرام...

- مع الطفل؟ نعم... كان طفلاً طيباً... كان طائشاً ولكنه

كان صريحاً ونشطاً. حينما لم يكن معي في المطبخ، كان في

الحديقة مع جدّه... أو في الصيد... كان حانقاً ولكنه كان

مستقيماً رغم كلّ شيء... حتى وإن لم تكن الحياة مسليّة مع

شخصين مثلنا مستين وفقدنا الشهية إلى التحدّث والنقاش منذ زمنٍ

طويل ولكننا في النهاية بذلنا ما بوسعنا... لعبنا معه... لم نعد

نقتل القطط الصغار... اصطحبناه إلى المدينة... إلى السينما...

اشترينا له لوازم كرة القدم ودراجات هوائية جديدة... وكان

مستواه جيّداً في المدرسة... أوه! لم يكن الأوّل على زملائه

ولكنه كان مثابراً... ثمّ عادت أمّه مرّة أخرى، وهنا اعتقدنا بأنّ

من المفيد أن يرحل. وأنّ أمّاً غريبة الأطوار تبقى أفضل من لا

شيء... وأنّه قد يحظى بأبٍ وأخٍ صغيرٍ، وأنّ ليس من المجدي

أن يعيش ويكبر في قرية شبه ميّنة وأنّ ذهابه إلى المدينة فرصة

مناسبة لدراسته... كيف وقعنا في الفخّ مرّة أخرى...

كالمذهولين، وأنّ تعريفين بقية الحكاية: حطّمته ووضعته في

قطار الساعة الرابعة واثنتي عشرة دقيقة المباشر...

- ولم تسمعوا عنها أخباراً منذ ذلك الحين؟

- كلا. سوى في الأحلام... في الأحلام، أراها غالباً...

أراها تضحك... أراها جميلة... أرنى ما رسمته.

- لا شيء. يدك على الطاولة... ..
- لماذا تدعيني أثرثر هكذا؟ لماذا تهتمين بكلّ هذا الأمر؟
- أفرح كثيراً حينما يفرغ الناس ما في جعبتهم... ..
- لماذا؟
- لا أدري. هذا يشبه صورة ذاتية، أليس كذلك؟ صورة ذاتية مرفقة بكلمات... ..
- وأنتِ؟
- أنا لا أجد السرد... ..
- ولكن بالنسبة لك أيضاً، ليس من الطبيعي أن تمضي فتاة كلّ وقتها مع امرأة عجوز مثلي... ..
- حقاً؟ وهل تعرفين ما هو الطبيعي؟
- عليك أن تخرجي... .. أن تري الدنيا... .. أن تري شباباً في عمرك! هيا... .. ارفعي عني هذا الغطاء... .. هل غسلتِ الفطر؟

## 6

- سأل فرانك:
- هل نامت؟
- أعتقد ذلك... ..
- قللي إذاً، لقد أوقعت نفسي في قبضة الحارسة، يجب أن تنصرفي... ..
- ألا زلنا جامدين في الحاويات؟
- كلا. هذا بسبب الرجل الذي تستضيفينه في الطابق العلوي... ..

- أوه اللعنة... هل ارتكب حماقة؟  
باعد بين ذراعيه وهو يهزّ رأسه.

## 7

بدا بيكو قلقاً وفتحت بيريرا باب الشرفة ووضعت يدها على صدرها.

- ادخلي، ادخلي... اجلسي...

- ماذا حدث؟

- اجلسي، قلتُ لك.

باعدت كاميل بين الأرائك وجلست على حرف مقعدها المزخرف.

- لم أعد أراه...

- عمّن تتحدّثين؟ فانسان؟ ولكنني... صادفته ذاك اليوم،  
كان مستقلّ المترو...

- ذاك اليوم، يعني متى؟

- لم أعد أدري... في بداية الأسبوع...

- حسناً... ولكنني أقول لك بأنني لم أعد أراه. لقد

اختفى. مع عزيزي بيكو الذي يوقظنا كلّ ليلة، لا أستطيع أن  
أخسره... والآن لم يعد هناك أيّ شيء. أخشى أن يكون قد  
حصل له مكروه... يجب أن نذهب لنرى، يا عزيزي... يجب  
أن نصعد.

- حسناً.

- يا يسوع الحبيب. أعتقدين أنه قد مات؟

فتحت كاميل الباب.

قالت وهي تتلاعب بميداليتها:

- قللي... إن كان قد مات، تأتين لرؤيتي، إيه؟ لا أريد

فضيحة في العمارة، أفهمين؟

## 8

- أنا كاميل، هلاً فتحت لي الباب؟

نباخ وأصوات غامضة.

- هل ستفتح الباب أم أطلب مساعدة لخلعه؟

جاء صوتٌ أجشّ:

- لا، الآن لا أستطيع... أنا في حالة سيئة جداً... عودي

في ما بعد... ..

- في ما بعد، يعني متى؟

- هذا المساء.

- ألا تحتاج إلى أيّ شيء.

- لا. دعيني وشأني.

عادت كاميل على أعقابها:

- أتريد أن أخرج لك كلبك؟

لم تتلقَ جواباً.

نزلت السلالم ببطء.

كانت مشوشة الذهن.

ربّما ما كان عليها أن تجلبه إلى هنا... من السهل أن تكون  
كريمة مع الآخرين... آه، هذا مؤكّد، كانت لديها هالتها الجميلة  
اليوم! مخدّر في الطابق السابع، جدّة في سريرها، كلّ هذا  
العالم الصغير تحت مسؤوليتها، وهي المضطرة على الدوام  
للتمسك بالسلم لكي لا تقع. رائعة مثل لوحة... أيّ مجدٍ، حقّاً.  
هل أنت راضية عن نفسك، الآن؟ ألا يؤلمك جناحك حينما  
تمشين؟

أوه، اسكتوا... هذا مؤكّد حينما لا نفعل شيئاً، إيه؟  
لا، ولكن قيل لك ذلك... لا تشكّكي في ذلك، ولكن  
هناك متسكّعون آخرون في الشارع... هناك أحدهم أمام  
المخبز... لماذا لا تلتقطينه؟ أليس لديه كلب؟ تبّاً، ليته  
يعرف...

ردّت كاميل على كاميل: أنتِ تُرهقيني... أنتِ تُرهقيني  
كثيراً...

هيا، سوف نخبره... ولكن ليس كلباً ضخماً، إيه؟ إنه كلبٌ  
صغير. كلبٌ صغير قصير القوائم، ذو وبر طويل ومجعد يرتعد  
برداً، نعم، سيكون هذا مناسباً... أو جرو كلب، إذأ؟ جرو  
منكمشٌ على نفسه في قميصه الرياضي... هنا، أنتِ تفضفضين  
مباشرة. فضلاً عن ذلك، يبقى هناك الكثير من الغرف في بيت  
فيليبير...

جلست كاميل، منهكةً، على إحدى الدرجات وأرخت  
رأسها على ركبتيها.  
فلنختصر.



لم تقابل أمها منذ شهر. كان عليها أن تتحرك وإلا كانت الأخرى ستسبب لها أزمة مع سامو. كانت قد اعتادت على ذلك منذ زمن، ولكن لا بأس، لم يكن ذلك قط جزءاً من سعادتها... ثم كانت تستغرق وقتاً لكي تبرا من ذلك... هذه الفتاة الصغيرة في غاية الحساسية...

كانت بوليت تضمن حياتها تماماً بين العامين 1930 و1990 ولكنها كانت حائرة بين الأمس واليوم ولم يكن ذلك مناسباً للتصالح مع ذاتها. أليكون ذلك لفرط السعادة؟ كانت وكأنها تدع نفسها تغوص بهدوء نحو القاع... علاوة على ذلك، لم تكن ترى فيه سوى البلاط... حسناً. إلى هذا الحد كان الأمر سارياً... كانت تنصرف إلى قيلولتها وكان فيلو سيأتي قريباً ليشاهد معها برنامج المسابقات أسئلة إلى بطل وهو يعطي كل الإجابات من دون أن يُخطئ. كانا يعشقان هذا البرنامج. ممتاز.

فيليبير، لتتكلم عن ذلك، كان لويس جوفيه وساشا غيتري في نفس اللباس الرسمي. الآن كان يكتب. كان يحبس نفسه لكي يكتب ويردّد لأمستيتين في الأسبوع. لا أخبار على جبين الأحباب؟ حسناً. لا أخبار، أخبار سارة.

بالنسبة لفرانك... لم يكن هناك أي شيء خاص. لا شيء جديداً. كان كل شيء على ما يُرام. كانت جدته غارقة في الحرّ وكذلك دراجته النارية. لم يكن يعود إلا بعد الظهر لتهيئة لكي ينام وكان يستمر في العمل يوم الأحد. «القليل أيضاً أفهمت قصدي. لا يمكنني تركهم هكذا... يجب أن أجد بديلاً عني...».

حسناً... بديلاً أم دراجة أضخم من هذه؟ الصبي خبيث

جداً. خبيث جداً... لماذا سينزعج في مكان آخر؟ أين كانت تكمن المشكلة؟ لم يطالب بأي شيء. وبعد أن أمضى الأيام الأولى مزهواً، عاد إلى أرض الواقع. وفي الليل، كان عليه أن يضغط على رأس صديقه بينما كانت تنهض لكي تُطفئ جهاز التلفزيون. ولكن... لا مشكلة. لا مشكلة... كانت أيضاً تفضل البرامج الوثائقية حول مئاة أسماك الجرانتيه وآخر تبول في إبريق الشاي في عملها في شركة توكلين. طبعاً، كان بوسعها ألا تعمل أبداً، ولكنها لم تكن بالقوة الكافية لفعل ذلك... كانت الشركة قد درّبتها جيداً... أكان ذلك لأنها تفتقر إلى الثقة بنفسها، أم كان الأمر عكس ذلك تماماً؟ أهو الخوف من أن تجد نفسها في وضع تكسب فيه قوتها بمذلة؟ بقي لديها بعض الاتصالات... ولكن ماذا؟ أتبصق على نفسها مرّة أخرى في الطابق العلوي؟ أتغلق كراريسها وتأخذ عدسة مكبرة؟ لم تعد تملك الجرأة. لم تكن قد أصبحت أفضل حالاً، كانت قد شاخت. تَبَأ.

كلا، كانت المشكلة تكمن في وجود ثلاثة طوابق نحو الأعلى... لماذا رفض أن يفتح لها الباب في البداية؟ هل لأنه كان ناثراً الأعصاب أم لأنه كان في وضع مزير؟ هل كانت حكاية العلاج هذه صحيحة؟ شركٌ لفتنة الفتيات البرجوازيات الصغيرات وحاجباتهنّ، نعم! لماذا لم يكن يخرج إلا ليلاً؟ هل لكي يذهب ويتربّص قبل أن يطبق على إحداهنّ تحت الشرفة؟ جميعهم هكذا... كذّابون يذرون رماداً في عيونك ويحتفون بك ركوعاً في حين تعصّين على رسغيكِ إلى حدّ الإدماء، هؤلاء السفلة...

حينما اتّصلت ببير قبل خمسة عشر يوماً، كانت قد استأنفت ترّهاتها: شرعت في الكذب هي الأخرى.

- «كاميل، كيسلر على الخط. ما هذه الحكاية؟ مَنْ هذا الشخص الذي يعيش في بيتي؟ أجيبني فوراً».
- شكراً يا بيريرا البدينة، شكراً.  
 سيّدتنا فاتيما، صلّي من أجلنا.  
 بزّت غيرها في الكذب وقالت حتى قبل أن تحيّه:
- إنّه موديل، نعمل معاً...  
 قاطعها:
- موديل؟  
 - نعم.  
 - أتعيشين معه؟  
 - كلا. لقد أخبرتك للتوّ: أنا أعمل.  
 - كاميل... أنا... أنا أرغب بشدّة أن أثق بك اليوم...  
 هل يمكنني ذلك؟  
 ...-  
 - هذه لمن؟  
 - لك.  
 - ماذا؟  
 ...-  
 - أنت... أنت...  
 - لا أدري بعد. سأرسم بالطبشور الأحمر على ما أعتقد...  
 - حسناً...  
 - حسناً إلى اللقاء...

- هيه!

- ماذا؟

- أيّ نوعية ورق لديك؟

- من النوعية الجيدة.

- أنت متأكد؟

- دانييل هي التي قدّمته لي... .

- ممتاز. وعدا ذلك هل أنت بخير؟

- أنا أتحدّث مع التاجر الآن. بالنسبة للابتسامات، سأتصل

بك على الخطّ الآخر.

أُفِئ الخطّ.

هزّت علبة أعواد الثقاب منتهدة. لم يعد لديها من خيار.

هذا المساء، بعد أن تقترب من عجوزٍ نحيلة لن تشعر

بالنعاس مهما يكن، ستصعد من جديد هذه السلالم وتأتي

للتحدّث إليه.

في آخر مرّة حاولت فيها أن تستوقف مدمناً على المخدرات

عند هبوط الليل، تلقّت طعنة سكين في كتفها... حسناً. كان

الأمر مختلفاً. كان صديقها وكانت تحبّه ولكن رغم ذلك ألمها

ذلك... .

اللعنة. لم تعد هناك أعواد ثقاب. أوه يا للبوّس... . يا

سيّدتنا فاتيما ويا هانس كريستيان أندرسن، ابقيا هناك، ابقيا

لبعض الوقت.

وكما في الحكاية، نهضت وربّبت على ساقِي بنطالها

وذهبت لتنضمّ إلى جدّتها في الفردوس... .

- ما هذا؟

تهزّهز فيليبير قائلاً:

- أوه... تقريباً لا شيء في الحقيقة...

- مأساة قديمة؟

- كلل... لا...

- فودفيل؟

أمسك بقاموسه بحثاً عن معنى الكلمة:

- فاريس... فاسويار... فو... فودفيل... مسرحية هزلية

خفيفة، قائمة على مفارقات الحكمة والالتباسات والكلمات

البسيطة... نعم. هذا هو بالضبط، قال فيليبير وهو يغلق

القاموس بضربة خاطفة. كوميديا خفيفة بكلمات بسيطة.

- عمّ يتحدّث هذا؟

- عني، أنا.

سألت كاميل بصوتٍ مخنوق:

- عنك، أنت؟ ولكن كنتُ أعتقد بأنّه من المحظور عندك

الحديث عن الذات؟

أضاف وهو يأخذ استراحة:

- الواقع، لقد تراجعت.

- و... أوه... وهذه اللحية الصغيرة... أهي... أهي

من أجل الدّور؟

- ألا تحيينها؟

- أجل، أجل... إنها... إنها لطيفة... تشبه قليلاً أبطال  
مسلسل كتائب النمر، أليس كذلك؟  
- تشبه ماذا؟

- صحيح أنك اكتشفت التلفزيون مع جوليان لوبيير... عليّ  
أن أصعد وأتفقد المستأجر عندي في الطابق السابع... هل  
يمكنني أن أعتد عليك بشأن بوليت؟  
هز رأسه وهو يمسد شاربيه الصغيرين:

- اذهبي، اركضي، طيري واصعدي نحو مصيرك، يا  
طفلتي...

- فيلو؟

- نعم؟

- إن لم أنزل بعد ساعة، هل يمكنك أن تأتي لتتفقدني؟

## 10

كانت الغرفة مرتبة بطريقة مثالية. والسرير مفروشاً ومرتباً  
وكان قد وضع فنجانين وعلبة سكر على الطاولة. كان جالساً على  
كرسيّ وظهره إلى الحائط. وقد أغلق كتابه حينما نقرت على  
الباب.

نهض. كانا على نفس القدر من الارتباك. كانت هذه المرة  
الأولى التي يلتقيان فيها... مرّ ملاك.  
- أ... أتريدان أن تشربي شيئاً؟  
- بسرور...

- شاي؟ قهوة؟ كوكا؟

- قهوة، من فضلك.

جلست كاميل على كرسيّ بلا مسند وتساءلت كيف استطاعت أن تعيش هنا لوقتٍ طويلٍ جداً. كانت الغرفة رطبة ومعتمة وقاسية جداً. كان السقف خفيضاً والجدران قذرة جداً... كلا، لم يكن ذلك ممكناً... لا بدّ أنّها كانت فتاة أخرى، إذاً؟ وقف أمام الرفوف وأشار لها إلى مرطبان النسكافيه. كان الكلب باربيس نائماً على السرير ويفتح عيناً بين الفينة والأخرى.

وأخيراً سحب الكرسي وجلس أمامها:

- أنا سعيدٌ برؤيتك... كان بوسعك أن تأتي في وقتٍ أبكر...  
- لم أكن أجرؤ.  
- ماذا؟  
- ...

- أنتِ نادمة على جلبي إلى هنا، أليس كذلك؟  
- كلا.

- بلى. أنتِ نادمة. ولكن لا تقلقي... أنتظر الضوء الأخضر وسوف أرحل... إنّها مسألة أيام، الآن.

- إلى أين ستذهب؟

- إلى بريطانيا.

- سننضم إلى عائلتك؟

- كلا. في مركزٍ ل... للنفايات البشرية. لا، أنا مغفل. في مركزٍ للحياة، هكذا يجب أن أقول...  
- ...

...-

- إنَّ طبيبي هو الذي وجد لي هذا المكان... مكانٌ يُصنَع فيه سمادٌ من الطحالب... طحالب وقذارة ومعوّقون ذهنياً... هذا رائع، أليس كذلك؟ سأكون العامل الوحيد الطبيعي. أخيراً «طبيعي»، هذا أمرٌ نسبي... .

ابتسم.

- تفضّلي، انظري إلى الكتب... شيءٌ أنيق، أليس كذلك؟ كان أبلهان يمسكان بمذراة ويقفان أمام ما يشبه بالوعة.

- سوف أصنع السماد من النفايات والأوساخ، من الطحالب وروث الخيل... أشعر بأنني سأعشق هذا العمل... . حسناً، يبدو أنّه سيكون صعباً في البداية بسبب الرائحة ولكنني سأعتاد على ذلك... .

وضع الصورة من يده وأشعل سيجارة.

- العطلة الكبيرة.

- كم من الوقت ستظلّ هناك؟

- الوقت اللازم... .

- هل تأخذ جرعات من الميتادون؟

- نعم.

- منذ متى؟

حركة غامضة.

- هل أنت بخير؟

- كلا.



- هيا... سوف ترى البحر!
- رائع... وأنت؟ لماذا أنت هنا؟
- إنها البوابة... اعتقدت بأنك قد مت...
- سئصاب بخيبة أمل...
- هذا واضح.
- ضحكا.
- أ... أتحمل فيروس HIV أيضاً؟
- كلا. قلت ذلك لإسعادها فقط... لكي تتعلق بكلمي...
- لا، لا... لقد قمت بذلك بنجاح... لقد دمّرت نفسي.
- هل هذه المرّة الأولى التي تخضع فيها للعلاج؟
- نعم.
- وهل ستنجح في ذلك؟
- نعم.
- ...
- أنا محظوظ... يجب أن نصادف الأشخاص الطيبين،
- أتصوّر... وأنا... أنا أعتقد بأنني قد وجدتهم، الآن...
- طيبك؟
- طبيبتي! ولكن ليس لوحدها... طبيبٌ نفساني أيضاً...
- جدُّ عجوز فتّت رأسي... أتعرفين V33؟
- ما هذا؟ أهو دواء؟
- كلا، هذا مرهم لصقل الخشب...
- آه، نعم! قارورة خضراء وحمرء، أليس كذلك؟

- نعم... هذا الرجل هو بمثابة V33 بالنسبة لي. إنه يضع المرهم، فيحرق ويتسبب بفقااعات، ثم يمسك بملعقته الصيدلانية ويكشط كلّ القذارة... انظري إليّ. تحت جمجمتي، أنا عارٍ مثل دودة!

لم يعد بوسعه أن يتسم، وارتعشت يداه:

- اللعنة، هذا صعب... هذا صعبٌ للغاية... لم أكن أعتقد أنّ...

رفع رأسه.

- ومن ثمّ أوه... هناك شخصٌ آخر أيضاً... امرأة نحيلة ذات فخذين كفخذي ذبابة، رفعت سروالها قبل أن أحظى بالوقت الكافي لرؤية المزيد، للأسف...

- ما اسمك؟

- كاميل.

ردّد الاسم واستدار نحو الجدار:

- كاميل... كاميل... في اليوم الذي ظهرت فيه يا كاميل، كنتُ في حال سيئة... كان الجوّ بارداً للغاية ولم تعد لدي رغبة شديدة في أن أقاوم، يبدو لي... ولكن، حسناً. كنتُ هنا... فلحقتُ بك... أنا رجلٌ مستهتر...

ساد الصمت.

- هل يمكنني أن أحدثك أكثر أم أنّك ضقتِ ذرعاً؟

- اسكب لي قدحاً...

- اعذريني. هذا بسبب العجوز... لقد أصبحتُ طاحونة

حقيقية للكلمات...

- قلتُ لك أن لا مشكلة.

- لا، ولكن هذا أمرٌ مهم... أقصد، حتى بالنسبة لك،  
أعتقد أن هذا أمرٌ مهم...

عبست.

- مساعدتكِ، غرفتكِ، أكلِكِ، وكلّ شيء، هذا أمرٌ كبير،  
ولكنني أخبرتكِ بأنني فعلاً كنتُ في حالٍ مزرية حينما قابلتيني...  
كنتُ دائخاً، أفهمتِ؟ كنتُ أريد أن أعود لأراهم، كنتُ...  
وذاك الرجل هو الذي أنقذني. ذاك الرجل وشراشفك.

التقط الكتاب ووضعه بينهما. تعرّفت كاميل على الكتاب.  
كانت رسائل فان غوغ إلى أخيه.  
نسيت بأنه حاضرٌ.

- لقد فتحتك لكي أتمالك نفسي، لئلا أعبّر الباب لأنه لا  
يوجد أيّ شيء آخر هنا وهل تعلمين ما فعله بي هذا الكتاب؟  
هزّت رأسها.

- لقد فعل بي هذا، هذا وهذا.

أمسك به ليضرب به على جمجمته وخديه.

- هذه هي المرّة الثالثة التي أعيد قراءته فيها... إنه... إنه  
كلّ شيء بالنسبة لي. هناك كلّ شيء في متنه... أعرف هذا  
الشخص عن ظهر قلب... إنه أنا. إنه أخي. أفهم كل ما يقوله.  
كيف يجنّ جنونه. كيف يتألّم. كيف يهذي ويعتذر ويحاول أن  
يفهم الآخرين ويخضع نفسه للتساؤل، كيف بُدّ من عائلته ومن  
والديه اللذين لا يعجبهما العجب، والزيارات المتكرّرة إلى  
المستشفى وكلّ هذه الأمور... أنا... سوف لن أروي لك قصّة

حياتي، لا تقلقي، ولكن هذا مقلق، أنتِ تعلمين... كيف كان مع الفتيات، كيف وقع في غرام فتاة متصنّعة، وكيف تمّ ازدراؤه في اليوم الذي قرّر أن يتزوَّج من تلك العاهرة... العاهرة الحامل... لا، سوف لن أروي لكِ قصّة حياتي، ولكن هناك من التطابقات ما جعلني أهلوس... عدا أخيه، لم يكن أحدٌ يثق به. لا أحد. ولكنّه رغم ضعفه وعاهته، كان يثق بنفسه... لقد قالها، قال بأنّ لديه الثقة والإيمان بالنفس، وبأنّه قويّ... في المرّة الأولى التي قرأته، لم أفهم ما هو مكتوب بالأحرف الرفيعة المائلة في نهاية الكتاب...

### فتح الكتاب:

- رسالة وجهها فانسان فان غوغ لنفسه في 29 تموز (يوليو) 1890... فقط حينما قرأت المقدّمة في اليوم التالي أو الذي بعده، أدركتُ أنّ هذا الأبله كان قد انتحر. وأنّه لم يرسل هذه الرسالة... وقد صدمني هذا، لم أخبرك... كلّ ما يقوله عن جسده، أنا أحسّ به. كلّ ألمه، ليس سوى كلمات، أتفهمين؟ إنّه... أقصد... إنني لا أبالي بعمله... أقصد، لا، أنا لا أبالي، ولكن ليس هذا ما قرأته. ما قرأته هو أنّك حينما لا تكون في المقام المطلوب، ولا تستطيع أن تكون ما يُنتظر منك أن تكون، تتألّم وتتعبّد. تعاني كبهيم في النهاية، وتنفق كبهيم. ولكن هيهات. أنا سوف لن أنفق. حبّاً به، إخاءً له، سوف لن أنفق... لا أريد ذلك.

كانت كاميل مشدودة إلى حديثه. عطست... فتناثر رماد سيجارتها في قهوتها.

- أهذا كلامٌ لا معنى له، ما قلته الآن؟

- لا، لا، على العكس... أنا...

- هل قرأته؟

- طبعاً.

- أولم يؤلمك ذلك؟

- كنتُ أهتمُّ على نحوٍ خاصٍّ بعمله... كان قد بدأ به

متأخراً... إنه شخصٌ عصاميّ... إنه... أتعرف لوحاته؟

- لوحة عبّاد الشمس، هذه؟ لا... لقد فكّرتُ بذلك

للحظة، فكّرتُ أن أذهب وأتصفح كتاباً ولكن ليست لدي الرغبة

في ذلك، أنا أفضل صوري...

- احتفظ به. سوف أعطيك إياه.

- أنتِ تعلمين... ذات يوم... إذا ما تخلّصت منه، سوف

أشكرك. ولكن الآن لا أستطيع... لقد قلتُ لك ذلك، لقد انزع

مني كلّ شيء. باستثناء كيس البراغيث هذا، لم يعد لديّ أيّ

شيء.

- متى ستغادر؟

- في الأسبوع المقبل طبعاً...

- أتريد أن تشكرني؟

- إن استطعت...

- دعني أرسمك...

- أهذا كلّ شيء؟

- نعم.

- عارياً؟

- أفضل ذلك...

- البقرة... ألم تري جسمي...

- أنا أتخيّله...

كان يعقد رباط حذائه وكان كلبه يقفز في كلّ اتجاه.

- ستخرج؟

- طيلة الليل... كلّ ليلة... أمشي إلى حدّ الإنهاك، أمرّ

وأخذ جرعتي اليومية ثمّ أعود وأنام حتى صباح اليوم التالي. لم

أجد بعد ما هو أفضل حتى هذه اللحظة...

دبّ صخبٌ في الممرّ. تسمرّ في مكانه. ثمّ قال مدعوراً:

- هناك أحدهم...

- كاميل؟ هل كلّ شيء على ما يُرام؟ هذا... هذا فارسك

المقدام، يا عزيزتي...

وقف فيليبير عند عتبة الباب وفي يده سيف.

- بارييس! اهدأ!

- أنا... أنا مضحكٌ، هكذا، أليس كذلك؟

قامت بتعريفهما ببعضهما وهي تضحك:

- فانسان، هذا فيليبير ماركيه دو لا دوربيلير، قائد جيش

مهزوم.

ثمّ استدارت وقالت:

- فيليبير، هذا فانسان... على اسم فان غوغ...

فأجاب وهو يعيد السيف إلى غمده:

- سعيدٌ بلقائك. مضحكٌ وسعيد... إذاً، سوف... سوف  
 أنسحب أليس كذلك... ..
- أجابت كاميل:  
 - سأنزل معك.  
 - وأنا أيضاً.  
 - هل... هل ستأتي لرؤيتي؟  
 - غداً.  
 - متى؟  
 - بعد الظهرية. اتفقنا؟ مع كلبتي؟  
 - مع باربيس، طبعاً... ..  
 تأسف فيليبير:  
 - آه! باربيس... متحسراً فيليبير أيضاً هذا مرعوب من  
 الجمهورية... كنتُ لأفضل رئيسة دير روشيشوارت، تفضل!  
 سألها فانسان بنظرة.  
 رفعت كتفيها، حائرة.  
 استدار فيليبير وقال مبهوراً:  
 - بالطبع! وأن يكون اسم هذه المسكينة مارغريت دو  
 روشيشوارت دو مونتيبيو مرتبطاً بهذا العاجز عديم الفائدة هو نوعٌ  
 من الضلال!  
 ردّدت كاميل:  
 - دو مونتيبيو؟ تبتاً وهل لديكم هكذا أسماء... فعلاً؟ لماذا  
 لا تشارك في برنامج المسابقات أسئلة لبطل؟

- آه! سوف لن تشاهديه! تعلمين جيداً لماذا... ..

- كلا. لماذا؟

- لأنه في اللحظة التي أدوس فيها على الدواسة، سيكون

قد حان موعد نشرة الأخبار... ..

## 11

لم تنم في الليل. دارت من حول نفسها، مسحت الغبار، قاتلت أشباحاً، استحممت، نهضت في وقت متأخر، حممت بوليت، وألبستها كيفما كان، تسكّعت معها لبعض الوقت في شارع غرونيل وكانت غير قادرة على تناول أيّ شيء كان.

- أنتِ متوتّرة جداً اليوم... ..

- لديّ موعدٌ مهم.

- مع مَنْ؟

- مع نفسي.

سألت السيّدة العجوز بقلق:

- ستذهبين إلى الطيب؟

وكعادتها، غفت هذه الأخيرة بعد الغداء. سحبت منها كاميل

بكرة الغزل وغطتها وغادرت على رؤوس أصابعها.

أغلقت على نفسها باب غرفتها، وغيّرت لمرات عديدة

مكان كرسيها الصغير، فتشت عن لوازمها بتأنٍ. اعتصرها قلبها.

دخل فرانك. كان يُفرغ آلة. منذ حكاية بلوزته جيفارو، كان

ينشر بنفسه غسيله ويلقي خطابات حول آلات تنشيف الغسيل التي

تُبلي الخيوط وتفسد الياقات.



كان مختلجاً.

هو مَنْ ذهب ليفتح الباب:

- جئتُ أقابل كاميل.

- إنها في آخر الممرّ...

ومن ثمّ أغلق على نفسه باب غرفته وكانت كاميل ممتنة من

رزاقته لمرة واحدة...

كانا متضايقين ولكن لأسبابٍ مختلفة.

خطأ.

كانا متضايقين ولنفس الأسباب: بسبب كرشيهما.

هو من خلّصهما من الورطة:

- حسناً، حسناً... هل نذهب؟ هل لديك مقصورة؟ حاجز

واق من الهواء؟ شيءٌ من هذا القبيل؟

شكّرته.

- أرايت؟ لقد دفّأت الغرفة تماماً. سوف لن تبرد...

- أوه! مدفّأتك رائعة!

- سحقاً، أشعر بأنني لا زلتُ عند صولجانٍ، هذا يضايقني.

هل... هل أنزع سروالي الداخلي أيضاً؟

- إن أردت أن تحتفظ به، احتفظ به...

- ولكن من الأفضل أن أنزعه...

- نعم، لكن على أية حال، أنا أبدأ دائماً بالظهر...

- اللعنة. أنا متأكد بأن جسمي مليءٌ بالبثور...

- لا تقلق، جذعُ عار تحت الرذاذ، سوف تختفي البثرات

قبل أن تنهي حمولتك الأولى من السماد...

- أتعلمين أنك ستكونين مزينة مدهشة؟
- صحيح... هيا، أخرج من هناك الآن واجلس.
- كان بوسعك أن تضعيني أمام النافذة على الأقل... لكي أشرد...

- لستُ أنا مَنْ يقرّر.
- حقاً؟ مَنْ يقرّر إذاً؟
- الضوء. ولا تتشكّى، بعد ذلك ستبقى واقفاً...
- لكم من الوقت؟
- إلى أن تقع...
- ستقعين قبلي.

قالت:

- امممم.

وكانت هذه الامممم طريقة لتقول: يدهشني أن... بدأت بسلسلة من الرسومات التجريبية وهي تدور من حوله. أصبح بطنها ويدها أكثر رشاقة. أما هو، فعلى العكس، ازداد صلابة. حينما اقتربت منه كثيراً، أغمض عينيه. هل كانت لديه بشور؟ لم تشاهدها. شاهدت عضلاته الممدودة، كتفيه المنهكتين، فقرات رقبتة التي كانت تبرز حينما يخفض رأسه، عموده الفقري الشبيه بعرفٍ طويلٍ متآكل، توتره، اضطرابه، حنكه ووجنتيه الناتنتين. شاهدت النقر من حول عينيه، شكل جمجمته، عظام قفصه الصدري، صدره المقعر، ذراعيه

النحيلتين المنقّطتين بنقاطٍ غامقة. شاهدت المتاهة المؤثّرة للأوردة تحت بشرته الفاتحة ومرور الحياة على جسده. نعم. شاهدت بشكلٍ خاصّ هذا: بصمة الهاوية، علامات سلاسل عربية ضخمة غير مرئية، وأيضاً حشمته المفرطة.

بعد ساعة تقريباً، سألتها إن كان بوسعها أن يقرأ.

- نعم. خلال الوقت الذي أطوّعك فيه ...

- ألم ... ألم تبدأي بعد؟

- كلا.

- إذاً! هل أقرأ بصوتٍ عالٍ؟

- إن شئت ذلك ...

دَعَك الكتاب للحظة قبل أن يقسمه إلى نصفين:

- أشعر بأنّ أبي وأمي قد نصرفاً فطرياً بشأني (لا أقول

بذكاء).

«كان هناك تردّد في استقبالي في البيت، كما يتردّد المرء في استقبال كلبٍ ضخمٍ أشعث. سوف يدخل بقوائمه ومن ثمّ يصبح أشعث جداً.

سوف يزعج الجميع. وسوف ينبح نباحاً صاخباً.

باختصار، إنّه حيوانٌ قذر.

حسناً، ولكنّ للحيوان تاريخٌ إنساني وكذلك روحٌ إنسانية وإن كان كلباً. بالإضافة إلى ذلك هي روحٌ حساسة جداً بحيث تشعر برأي الناس فيها، في حين أنّ كلباً عادياً لا يمكنه ذلك.

«أوه! هذا الكلب هو ابن والدنا، ولكننا تركناه غالباً يجري

في الشارع بحيث أصبح بالضرورة أكثر شراسةً. باه! لقد نسي الأب هذا التفصيل، وبالتالي لم يعد هناك مكانٌ للحديث عنه...  
تنحنح.

- حد... احم، عفواً... حتماً، الكلب نادماً في نفسه على  
المجيء حتى هنا؛ فالعزلة كانت أخفّ وطأةً في القفص الخشب  
مما هي عليه في هذا البيت، رغم كلّ ملاطفاتهم. فقد جاء  
الكلب في زيارة في ظلّ عارض ضعيفٍ. أمل أن هذا الضعف  
سيُغفر لي؛ أمّا أنا فسأتجنّب أن...  
قاطعته:

- كفى. توقّف من فضلك. توقّف.

- أيزعجك هذا؟

- نعم.

- عفواً.

- حسناً. قضي الأمر. أعرفك الآن...  
أغلقت دفترها وراودتها نوبات الغثيان من جديد. رفعت

ذقنها وقلبت رأسها إلى الخلف.

- هل أنت بخير؟

...

- إذأ... ستستدير نحوي وتجلس مباعداً بين ساقيك وتضع  
يديك بهذه الطريقة...  
يديك بهذه الطريقة...  
يديك بهذه الطريقة...

- يجب أن أبعاد بينهما، هل أنت متأكدة؟

- نعم. ويدك، انظر، الو... الو معصمك وباعد بين  
أصابعك... مهلاً... لا تتحرّك...

- نُبشت بين لوازمها وقدمت له صورة مستنسخة من لوحة  
للرسّام انغريس... ..
- تماماً مثل هذه اللقطة... ..
- مَنْ هذا الرجل الضخم؟
- لويس-فرانسوا بيرتان.
- ومَنْ يكون؟
- بوذا البرجوازية، المتخمة، المرفّهة، الظافرة... .. لستُ أنا  
مَنْ يقول ذلك، إنّه ماني... .. العظيم، أليس كذلك؟
- وتريدين أن أقف مثله؟
- نعم.
- أوه... .. ال... .. الساقان متباعدتان إذًا... .. أهكذا؟  
طمأنته وهي تتصفّح رسوماتها الأولى:
- هيه أنت... .. كفت عن تحريك ذيلك... .. هذا جيّد... .. لا  
أبالي، أنت تعرف... .. تفضّل، انظر. نعم هكذا... ..
- أوه!
- كلمة صغيرة تنمّ عن خيبة أمل وتثير الشفقة.
- جلست كاميل ووضعت لوح الرسم على ركبتيها. ثمّ نهضت  
وحاولت أن تضع اللوح على مسندٍ، ولكن ذلك لم ينجح أيضاً.  
توتّرت، لعنت نفسها، وعرفت بفطنة أنّ كل هذا الارتباك هو  
لملء الفراغ.
- وفي النهاية، ثبتت ورقتها عمودياً وقررت أن تجلس على  
نفس علوّ موديلها.

شهقت جرعة كبيرة من الإقدام وزفرت زفرة صغيرة من الخيبة. كانت قد خُذِعت، إذ لم يكن هناك طبشورٌ أحمر. كان هناك قلم فحم، وريشة ورسْمٌ مائيٌّ بحبر السبيدج. تكلم الموديل.

رفعت مرفقها. ظلّت يدها معلقة في الهواء.

- لا تتحرّك. سوف أعود.

ركضت إلى المطبخ، أوقعت أشياء في طريقها، أمسكت بقارورة الجن وقضت على خوفها بجرعةٍ منها. أغمضت عينيها ووقفت عند حافة المجلى. هيّا... جرعة ثانية من أجل الطريق...

حينما عادت وجلست، كان ينظر إليها مبتسماً.

كان يعلم.

أيّاً كان خضوعهم، كان أولئك الناس، جميعاً، يعرفون بعضهم في ما بينهم.

كان ذلك أشبه بمسبار... أشبه برادار.

تواطؤ غامض وتقاسمٌ للتسامح...

- هل باتت الحال أفضل؟

- نعم.

- إذأ، هيّا الآن! ليس لدينا سوى هذا لنفعله، تيّاً!

وقف منتصباً، مائلاً على نحوٍ خفيف، كما فعلت هي الأخرى. حبس أنفاسه وتحمّل نظرة مَنْ كانت تهينه من دون أن تدري.

معتم ومشرق. ذابل. مغترّ بنفسه.

- كم يبلغ وزنك، يا فانسان؟

- نحو ستين كيلوغراماً... .

ستون كيلوغراماً من الإثارة.

(حتى وإن لم يكن ذلك سؤالاً محبباً إلا أنه كان مثيراً: هل كانت كاميل فوك قد مدّت يدها إلى هذا الصبي لكي تساعده، بحسب ما كانت مقتنعة بذلك، أم لكي تشرّحه، عارياً وأعزل على كرسيّ مطبخٍ من الفورميكا الحمراء؟  
أهي شفقة؟ أهو حبٌّ للإنسانية؟ حقاً؟

ألم يكن كلّ هذا متعمّداً؟ إقامته في الطابق العلوي، قَمّة كانيغو، الثقة، حَقّ بيار كيسلر، الإبعاد والإحراج؟  
الفنانون وحوشٌ.

هيا بنا. كلا. سيكون الأمر معاكساً تماماً... . لندع له نعمة الشكّ ولنسكت. لم تكن هذه الفتاة واضحة جداً ولكن حينما كانت تدخل في صميم الموضوع كانت لامعة. وهل يمكن أن سخاءها قد تجلّى الآن فقط؟ حينما كانت حدقتا عينيها تتعقدان وحينما كانت تغدو عديمة الشفقة...).

كان الليل قد حلّ تقريباً. أشعلت الضوء من دون أن تدرك، وكانت تنضح بالعرق مثله.

- ستوقف. لدي تشنّجات عضلية. كل جسمي يؤلمني.

صرخت:

- كلا.

فاجأت قسوتها كليهما.

- اعذرني... لا... لا تتحرك، أرجوك...

- في بنطالي... الجيب الأمامي... هناك علبة من أقراص ترانكزين...

ذهبت تجلب له كأساً من الماء.

- أرجوك... فقط لقليلٍ من الوقت... يمكنك أن تتكئ إن أردت... لا يمكنني العمل بالذكريات... إذا غادرت الآن، ستموت لوحتي... أرجوك، لقد... لقد شارفتُ على الانتهاء منها.

- جيد. يمكنك أن ترتدي ثيابك.

- هل الأمر خطير، يا دكتور؟

غمغمت:

- أمل...

عاد وهو يتمطى، داعب كلبه وهمس بوضع كلمات رقيقة في أذنه. أشعل سيجارة.

- أتريد أن ترى؟

- كلا.

- بلى.

ظلّ مذهولاً.

- سحقاً... هذا... هذا قاسٍ.

- كلا. هذا رقيق...

- لماذا وقفتِ على كعبيك؟



- أتريد النسخة الحقيقية أم النسخة التي سأشتغل عليها؟
- الحقيقية.
- لأنني لستُ بارعة في رسم القدمين!
- والنسخة الأخرى؟
- لأن... الشيء العظيم يستوقفك، إيه؟
- وكلبي؟
- ها هو كلبك. لقد رسمته فوق كتفك للتوّ... ..
- نزعت الورقة من الدفتر.
- غمغمت بسبب الخطأ، أتعبوا أنفسكم، اسكتوا، أحيوهم،
- خلدوهم وقدموا لهم كل ما يحرك مشاعرهم، هذه رسمة كلبهم
- المهجن... ..
- أقسم لك... ..
- هل أنت راضية عن نفسك؟
- نعم.
- هل سينبغي أن أعود؟
- نعم... لكي تودّعني وتعطيني عنوانك... أتريد أن
- تشرب قدحاً؟
- كلا. يجب أن أذهب وأنام، لستُ على ما يُرام... ..
- سبقته كاميل عبر الممرّ ولطمت جبينها:
- بوليت! لقد نسيته!
- كانت غرفتها فارغة.
- اللعنة... ..

- هل من مشكلة؟
- لقد أضعتُ جدّة شريكِي في السكن... ..
- انظري... .. هناك كلمة مكتوبة على الطاولة... ..
- لم نشأ أن نزعجكِ. إنها معي. تعالي متى استطعتِ.
- ملاحظة: لقد تغوّط كلب صديقكِ في الممرّ.

## 12

أفردت كاميل ذراعيها وحلّقت فوق حديقة شان دو مارس. لامست برج ايفل وداعبت النجوم وجاءت تأخذ مكانها أمام مدخل المطعم الخاص بالخدمة.

كانت بوليت جالسة في مكتب الشيف. وكانت منشرفة الصدر وسعيدة.

- لقد نسيْتُكِ... ..
- ولكن لا، يا حمقاء، كنتِ تعملين... .. هل انتهيتِ منه؟
- نعم.
- وهل أنتِ بخير؟
- أنا جائعة!
- ليستافيه!
- نعم، يا شيف... ..
- أعدّ لي شريحة كبيرة من اللحم وأرسلها إلى المكتب.
- استدار فرانك. شريحة؟ ولكن لم يعد لديها أسنان... ..
- حينما أدرك بأنّها لكامل، ازداد اندهاشاً.

تواصلًا بالإشارات:

- لك؟

أجابت وهي تهزّ رأسها:

- نعمممم.

- شريحة كبيرة؟

- نعمممم.

- هل وقعتِ على رأسكِ؟

- نعمممم.

- هيه! تكونين في غاية اللطف حينما تكونين مسرورة،

أتعلمين؟

ولكنها لم تفهم هذه الإشارة وامثلت للمصادفة.

قال الشيف، وهو يمدّ طبقها نحوها:

- أوه، أوه... لا أريد أن أقول، ولكن، هناك أناسٌ

محظوظون...

كانت قطعة اللحم على شكل قلب.

قال متنهداً:

- آه كم هو قويّ ليستافيه هذا، كم هو قويّ...

أضافت جدّته التي كانت تلتهمه بعينها منذ ساعتين:

- وكم هو جميل...

- نعم... لكنني سوف لن أذهب إلى هذا الحدّ... ماذا

أقدم لك مع هذا الطبق؟ هيا... كأسٌ صغيرة من نبيذ كوت دو

رون، وسأشرب معك:.. وأنتِ يا جدّتي؟ ألم يصل بعد طبقك

من الحلوى؟

التهمت بوليت قطعة الحلوى.

قال وهو يتلمّظ ويحرّك لسانه:

- قولي إذاً، إنّ حفيدك يتدبّر أمره بطريقة عجيبة... لم أعد

أعرفه...

ثمّ متوجّهاً إلى كاميل:

- ماذا فعلتِ له؟

- لا شيء.

- حسناً، ممتاز! تابعي بهذه الطريقة! هذا يُنجزه بطريقة

ممتازة! لا، بجد... هذا الولد جيّد... جيّد...

بكت بوليت:

- ماذا إذاً؟ ماذا قلتُ؟ اشرب، باسم الربّ! اشرب يا

مكسيم...

- نعم، يا شيف؟

- اذهب واجلب لي كأساً من الشمبانيا، من فضلك...

- هل أنتِ أفضل حالاً الآن؟

تمخّطت بوليت وهي تعتذر:

- لو كنتَ تعرفُ درب الصليب... لقد فُصل من مدرسته

الأولى، ثمّ من الثانية، ثم من المعهد المهني... من دوراته

التدريبية... من تمرّي... من...

ردّ:

- ولكن هذا ليس مهمّاً! انظري إليه، الآن! كم هو بارع!

يسعى الجميع لإفساده! سينتهي كلبك الموبر بوسامٍ أو وسامين!

سألت بقلق:

- ماذا؟

- النجوم...

سألت خائبة بعض الشيء:

- آه... وليس ثلاث؟

- كلا. لأنه سيئ المزاج للغاية. وعاطفي للغاية...

ثم غمز كاميل:

- اخبريني، هل هذا اللحم لذيذ؟

- لذيذ جداً.

- طبعاً... لذيذ، سوف أنصرف... إن احتجتِ لشيء،

انقري على البلاط.

حينما عاد فرانك إلى الشقة، توقّف أولاً قرب قدمي فيليبير

الذي كان يقضم قلم رصاص تحت ضوء مصباح سريره:

- هل أزعجك؟

- كلا أبداً!

- لم نعد نلتقي...

- لم نعد نلتقي كثيراً، هذا صحيح... أتعمل دائماً يوم

الأحد؟

- نعم.

- إذاً مرّ علينا يوم الاثنين إن شعرت بالضجر...

- ماذا تقرأ؟

- أنا أكتب.

- لِمَنْ؟

- أكتب نصّاً لمسرحيتي... للأسف، نحن مضطرون جميعاً  
لأن نعتلي المسرح في نهاية السنة...

- هل ستوجّه لنا الدعوة؟

- لا أدري إن كنت سأجرؤ...

- هيه أخبرني، أوه... هل تسير الأمور سيراً حسناً؟

- عفواً؟

- بين كاميل وجدّتي؟

- إنهما على وفاقٍ وودّ.

- ألا تعتقد بأنّها قد ضاقت ذرعاً بها؟

- أتريد أن أخبرك بصراحة؟

سأل فرانك قلقاً:

- ماذا؟

- كلا، لم تضق ذرعاً بها، ولكن ذلك سيحصل... تذكر

أنتك قد وعدتها بأن تحلّها من مسؤوليتها ليومين في الأسبوع...

لقد وعدتها بأن تساعدّها...

- نعم أدري ولكن...

قاطعها:

- كفى. جتّبني حججك. هذا لا يهمني. أنت تدري يا

عجوزي، يجب أن تكبر بعض الشيء... وكأنّ الأمر من أجل

هذا... (أشار له إلى دفتره المشطوب تماماً) شئنا أم أبينا، ذات

يوم سنضطرّ جميعاً للمرور في هذه المرحلة...

نهض فرانك، مطرقاً في التفكير:

- سوف تخبرنا إن ضاقت ذرعاً، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك؟

نظر إلى زجاج نظارته لكي ينظفها.

- لا أدري... إنها غامضة جداً... ماضيها... أسرتها...

أصداقائها... نحن نجهل كل شيء عن هذه الفتاة... في ما يخصني، عدا دفاتر رسمها، ليس لدي أي نصّ يتيح لي طرح أيّ فرضية حول سيرتها الذاتية... لا رسائل... لا مكالمات هاتفية... لا ضيوف... أبداً، تخيل أن نضيّعها ذات يوم، لن نعرف إلى مَنْ نتوجّه...

- لا تقل هذا.

- بلى، سأقول هذا. فكّر في الأمر، يا فرانك، لقد

أقنعتني، لقد ذهبت لتجلبها، وتركت لها غرفتها، وهي تهتمّ بها اليوم بلطفٍ غريب، بل هي لا تهتمّ بها فحسب وإنما تعتنى بها أيضاً. إنهما تهتمان ببعضهما... لقد سمعتهما تضحكان وتثرثران طيلة النهار حينما كنتُ هنا. فضلاً على ذلك، هي تحاول أن تعمل بعد الظهر، وأنت غير قادرٍ حتى على الوفاء بالتزاماتك...

وضع نظارته وأمسك بخده لثوانٍ:

- كلا، لستُ فخوراً جداً بك، يا عزيزي الجندي.

ثمّ ذهب بخطى متثاقلة واقترب منها وأطفأ تلفزيونها.

همست:

- تعال إلى هنا.

اللعنة. ليست نائمة.

- أنا فخورةٌ بك، يا عزيزي... .

فكّر وهو يضع جهاز التحكم على طاولة سريرها: آه، كان يجب أن أعرف.

ثمّ قال:

- هيا، يا جدّتي... نامي الآن... .

- فخورةٌ جداً.

أفهم ذلك... . أفهم ذلك... .

كان باب غرفة كاميل موارباً. فدفعه قليلاً وقفز.

أنار ضوء الممرّ الشاحب مسندها.

ظلّ للحظة ساكناً بلا حراك.

وسط الدهول والهلع والانبهار.

إذا مرّة أخرى كانت هي المحقّقة؟

هل يمكننا أن نفهم أموراً من دون أن نتعلّمها؟

إذا ألم يكن بهذه الدرجة من الغباء؟ إذ إنّهُ مدّ غريزيّاً يده

نحو هذا الجسد الخليط لكي يساعده على الانتصاب، وذلك لأنّه

لم يكن بهذا القدر من الغباء، إيه؟

عنكبوت المساء، صرصور. سحقه وأخذ علبة بيرة. تركها

تفتّر قليلاً.

ربّما ما كان عليه أن يتسكّع في الممرّ.

كلّ هذه الأضاليل، كان ذلك يشوّش وسائله للإبحار... .



سحقاً... ..

أخيراً، كان الأمر يتحسن. لمرّة واحدة كانت الحياة تستقيم... ..

رفع يده عن فمه بخفّة. لم يعد يقضم أظافره منذ أحد عشر يوماً. باستثناء الخنصر.

ولكن الأمر لم يكن مهمّاً بالنسبة له.

أن يكبر، أن يكبر... .. لم يكن قد فعل سوى هذا، أن يكبر... ..

ماذا سيحلّ بهم جميعاً، لو أنّها اختفت؟

تجشّأ. حسناً، حسناً، ليس هذا كلّ شيء، ولكن ينبغي عليّ تحضير عجينة الفطائر... ..

فيضّ من الورع، حرص كثيراً على ألا يزعجهم، وغمغم ببضع تعزيمات سرية وتركها ترتاح.

غظّاها بخارقة نظيفة وغادر المطبخ وهو يفرك يديه.

غداً، سيقدّم لها فطائر سوزيت، ليستبقّيها دائماً.

هه، هه، هه... .. وحيداً أمام مرآة الحمام، قلّد ضحكة ساتاناس الشيطانية في فيلم مجانيين المقود... ..

هوه، هوه، هوه... .. كانت تلك ضحكة ديابولو.

آه لا لا... .. يا لها من تسلية... ..

### 13

لم يكن قد أمضى الليل معهما منذ زمنٍ طويل. حلم بأحلام جميلة.

ذهب وجلب فطائر الكرواسان في صباح اليوم التالي وتناولوا الفطور معاً في غرفة بوليت. كانت السماء زرقاء وصافية. تبادل فيليبير معها المجاملات اللطيفة في حين انكبّ كلٌّ من فرانك وكاميل على قدحِهِ بصمت.

كان فرانك يتساءل إن كان عليه أن يغيّر شراشفه، وكانت كاميل تتساءل إن كان عليها أن تغيّر بعض التفاصيل. حاول أن يلاقي نظرتها ولكنها لم تعد حاضرة في المكان. كانت قد وصلت إلى شارع سيغيه في صالون بيار وماتيلد، جاهزة لأن يُغشى عليها وأن تهرب جرياً.

«إن غيّرتها الآن، لن أعود أجروّ على أن أتمدد بعد ظهيرة اليوم، وإذا ما غيّرتها بعد قيلولتي سيشكّل ذلك عبئاً إلى حدّ ما، أليس كذلك؟ أسمعها تضحك هازئةً...».

«أم أنتقل إلى المعرض؟ هل أودع كرتونتي لدى صوفي وأغادر بعدها في الحال؟».

«فضلاً على ذلك هذا يحدث أوه... حتى إننا لن نتمدد... سنبقى واقفين على أقدامنا، كما لو أننا في فيلم بحيث سنكون أوه...».

«كلا، هذه ليست فكرة حسنة... إذا كان الآن، سيستبقيني ويرغمني على الجلوس لأتحدّث معه في الأمر... وأنا لا أريد التحدّث. أنا لا أبالي بشرثته. يأخذه أو لا يأخذه. نقطة. وثرثته، سيحتفظ بها لربائته...».

«سوف آخذ دوشاً في حجرة الثياب قبل أن أغادر...».

«سوف أستقلّ سيارة أجرة وأطلب منها أن تنتظرني أمام

الباب...».

المهتمون وغير المهتمين، هزّوا جميعاً بقاياهم وهم يتنهّدون وتواروا بهدوء.

كان فيليبير قد أصبح في المدخل. كان يمسك بإحدى يديه الباب لفرانك، وبالأخرى حقيبة.

- هل ستذهب في عطلة؟

- كلاً، هذه إكسسوارات.

- وماذا ستفعل بالإكسسوارات؟

- سأستخدمها في دوري في المسرحية...

- أوه تَبّاً... ما هذا؟ أهذا نوعٌ من الترس والسيف؟ سوف

تركض في كلّ مكان مع كلّ هذه الأمور؟

- نعم، طبعاً... سوف أتمسّك بالستارة وأرتمي وسط

الحشد... هياً... مرّ وإلا سأطعنك بالسيف...

كانت السماء صافية لا زوردية فنزلت كاميل وبوليت «إلى

الحديقة».

سارت السيّدة العجوز بصعوبة متزايدة واستغرقتا ما يقارب

ساعة لقطع جادة آدرين-لوكوفرور. أحسّت كاميل بتنمّلٍ في

ساقها، أعطتها ذراعها، واستندت إلى خطواتها القصيرة ولم

تستطع الامتناع عن الابتسام حينما لمحت لافتة تقول: مخصّصة

للفرسان، مشية معتدلة... حينما توقّفتا، كان ذلك لالتقاط صورٍ

مع سيّاح، أو لترك عدائين يمرّون، أو لتبادل بعض الكلمات

التافهة مع مشتركين آخرين في الماراثون وهم يتعلّون أحذية من

ماركة ميفيستو.

- بوليت؟

- نعم يا عزيزتي؟

- هل سيزعجك إن حدّثك عن كرسيّ متحرك؟

...

- حسناً... هذا يزعجك، إذأ... ..

همست:

- أهذا يعني أنني هرمة جداً؟

- كلا! ليس تماماً! على العكس! ولكنني كنت أقول لنفسي

إن... .. بما أننا نتورّط مع حفيدك المتسكّع، سوف يمكنك أن

تدفعيه لبعض الوقت، إلى حين تتعبين، ومن ثمّ يمكنك أن

ترتاحي وأنا سأصطحبك إلى نهاية العالم!

...

- بوليت... .. لقد ضقتُ ذرعاً بهذه الحديقة... .. لم يعد

بوسعي أن أراها. أعتقد أنني قد أحصيتُ كلّ الحصى وكلّ

المقاعد وكلّ أوكار الحيوانات فيها... .. فيها أحد عشر وكرأ... ..

لقد ضقتُ ذرعاً بهذه العربات الضخمة الفظيعة، لقد ضقتُ ذرعاً

بهذه المجموعات المفتقدة للخيال، ضقتُ ذرعاً بقاء نفس الناس

دائماً... .. وجه هؤلاء الحرّاس المغشى بالدقيق وذاك الذي تفوح

منه رائحة البول العفنة من تحت وسام جوقة الشرف الذي يعلّقه

على صدره... .. هناك الكثير من الأشياء الأخرى التي ينبغي

مشاهدتها في باريس... .. المتاجر، الأزقة، الفناءات الخلفية،

الممرّات المغطاة، حديقة لوكسمبورغ، تجار الكتب القديمة،

حديقة نوتردام، سوق الأزهار، ضفاف نهر السين، و... .. كلا،

أؤكّد لك أنّ هذه المدينة رائعة... .. يمكننا الذهاب إلى السينما،

إلى الحفلات الموسيقية، الاستماع إلى الأوبريت، وبقاتي الجميلة من البنفسج وكلّ هذه الأمور... هنا، نحن حبيستين في حيّ العجزة هذا حيث يرتدي جميع الصبيان الألبسة نفسها وتبدي حاضناتهم استياءهنّ بنفس الطريقة، حيث كلّ شيء متوقّع... هذا عدم.

ساد الصمت.

شعرت بثقلٍ متزايدٍ على ساعدها.

- حسناً اتفقنا... سأكون صريحة معك... أنا أحاول أن أقنعك قدر استطاعتي، ولكن الحقيقة غير ذلك. الحقيقة هي أنني أطلب منك ذلك كخدمة... إذا كان معنا كرسي متحرك ورضيت أن تجلسي فيه من حينٍ لآخر، سيمكننا أن نتجاوز الدور في المتاحف وأن ندخل دائماً قبل الجميع... وهذا سيناسبني تماماً... هناك الكثير من المعارض التي أحلم بمشاهدتها ولكن ليست لديّ الهمة للوقوف في رتل الدور...

- آه حسناً كان ينبغي قول ذلك في البداية، يا فرختي! إذا كان ذلك خدمةً لك، لا مشكلة! أنا لا أطلب سوى هذا، أن أسعدك!

عضّت كاميل على نواجذها لئلا تبتمس. أخفضت رأسها ونظقت بكلمة شكراً ارتسامية مخادعة بعض الشيء.

بسرعة، بسرعة! فلندقّ الحديد وهو حامٍ، فهرعتا إلى أقرب صيدلية.

- نعمل كثيراً مع طراز كلاسيك 160 من إنتاج سانرايز... إنّه طراز قابل للطي يمنحنا الرضا التام... خفيف جداً، سهل

الاستعمال، يزن 14 كيلوغراماً... تسعة كيلوغرامات من دون  
عجلات... مساند مريحة للساقين قابلة للإخفاء لتسهيل تدليك  
القدمين... مسندان للمرفقين ومسند للظهر، كلها قابلة  
للضبط... مقعد غير قابل للميلان... آه، كلا! وهذا مع  
ملحق... عجلات سهلة النزاع والتركيب... يمكن وضعه في  
صندوق السيارة من دون مشكلة... كذلك يمكننا ضبط عمق  
ال... أوه...

بوليت، التي كانت قد حوصرت بين منظفات شعرٍ جافة  
وجهاز العرض شول، برطمت بقوة بحيث لم تجرؤ المقدمة على  
المضي إلى نهاية خطبتها.

- حسناً، سأدعكما... لدي زبائن... تفضلن، ها هو  
الكاتالوغ...

كانت كاميل خلفها.

- لا بأس به، أليس كذلك؟

...

- بصراحة كنتُ أتوقع أسوأ... إنه طراز ظريف... وهو  
أسود اللون وأنيق...

- حسناً لئلا... أخبريني أنه مناسب في حين أنكِ تدركين!

- سانرايز ميديكال... لديهم هذه الأسماء... 37...

هذه بلدتكم، أليس كذلك؟

وضعت بوليت نظارتها:

- أين؟

- أوه... شانسو-سور-شوازيل...

- آه نعم! شانسو! أعرف جيداً أين تكون!

كان ذلك في الجيب.

شكراً يا ربّي. إلى شقّة قريبة، عدنا مع جهازٍ لتطبيب

القدمين ومشآيات مقولبة.

- كم ثمن هذا؟

- 558 يورو عدا الضريبة...

- آه ومع ذلك... ولكن... ألا يمكننا استئجاره؟

- ليس هذا الطراز. بالنسبة للاستئجار، هناك طراز آخر.

أكثر صلابةً وثقلاً. ولكنكما متأكدتان تماماً، أليس كذلك؟ أتصوّر

أنّ السيّدة لديها ضماناً...

شعرت بأنّها تتكلّم إلى عجوزين مخبولتين.

- سوف لن تدفعي ثمن هذا الكرسي! اذهبي إلى طبيبك

واطلبي منه وصفةً... نظراً لحالتك، سوف لن تكون هناك أيّة

مشكلة، تفضّلي، سأعطيك هذا الدليل الصغير... فيه كلّ

المراجع... هل ستذهبين إلى طبيبٍ عام؟

- أوه...

- إن لم يكن معتاداً، اعرضي عليه هذا الرمز: 401A02.1

بالنسبة لما تبقى، سوف ترين الأمر مع الصندوق الوطني

للضمان، أليس كذلك؟

- آه... اتفقنا... أوه... ما هذا؟

ما إن أصبحت على الرصيف، ترنّحت بوليت:

- إذا عرضتني على طبيب، سوف يرسلني إلى المستشفى...
- هيه! عزيزتي بوليت، اهدئي... سوف لن نذهب أبداً، أنا أكرههم مثلك... سوف نتدبر أمرنا... لا تقلقي...
- بكت:
- سوف يعثرون عليّ... سوف يعثرون عليّ...
- فقدت شهيتها وظلت خائرة في سريرها طيلة فترة ما بعد الظهيرة.
- سأل فرانك قلقاً:
- ما بها؟
- لا شيء. لقد ذهبنا إلى الصيدلية لشراء كرسي، ولأنّ السيدة الطيبة تحدّثت عن مراجعة طبيب، صدمها ذلك...
- أيّ كرسيّ؟
- حسناً... كرسي متحرك!
- لاستخدامه في ماذا؟
- لتسير به، يا أحمق! لتشاهد البلدا!
- سحقاَ وماذا فعلت أيضاً؟ إنّها مرتاحة، هنا! لماذا تريدان أن ترجّيهما مثل قارورة عصير برتقال؟
- أوه... بدأت تغيطني، هل تدري؟ ليس عليك سوى أن تهتمّ أنت أيضاً بأمرها! ليس عليك سوى أن تنظّفها من وقت لآخر، سيضع هذا أفكارك في نصابها، تفضّل! بالنسبة لي، لا مشكلة أن أكلف نفسي عبثها، فجدّتك رائعة، ولكنني أحتاج إلى



التحرّك، إلى أن أذهب وأتجوّل وأصقّي ذهني، تَبّاً! بالنسبة لك، هل الأمر مطمئن، هل الأمر على ما يُرام الآن؟ طمئني، أليس هناك ما يغيظك؟ سواء كان فيلو أو بوليت أو أنت، يكفيكم البيت والطعام والشغل والنوم... بينما أنا، فكلّا! أنا بدأت أختنق، هنا! علاوة على ذلك، أنا أعشق المشي وخاصّة في الأيام التي يكون الجوّ فيها جميلاً... وبالتالي أردّدها عليك: أن أعمل ممرّضة، أحبّ هذا كثيراً، ولكن على أن يكون ذلك مصحوباً بخيار السياحة، وإلا سوف ت... .

- ماذا؟

- لا شيء!

- لا تضعي نفسك في هذه الحالة... .

- ولكنني مضطّرة! أنت أناني جداً بحيث إذا لم أحتجّ، لن

تفعل أبداً شيئاً لمساعدتي!

غادر صافقاً الباب وأغلقت كاميل باب غرفتها على نفسها.

حينما خرجت من غرفتها كانا كلاهما في المدخل. كادت

بوليت أن تطير فرحاً: كان حفيدها يهتمّ بها.

- هيّا أيتها المدينة، اجلسي. كما هو الحال مع دراجة، لا

بدّ من ضبط وتعيير مناسبين للذهاب بعيداً... .

كان مقرّصاً وأعدّ كلّ المقابض:

- هل قدماك مرتاحتان هكذا؟

- نعم.

- وذراعاك؟

- عاليتان بعض الشيء... .

- حسناً يا كاميل، تعالي. بما أنكِ أنتِ ستدفعين الكرسي،

تعالي إلى هنا لكي نضبط لكِ المقبضين... .

- ممتاز. هيا عليّ أن أذهب... . رافقاني إلى الشغل سوف

نجرّبه... .

- هل يدخل إلى المصعد؟

ردّ بعصية:

- كلا. يجب طيه... . ولكن هذا أفضل.

- بروم، برروم... . اربطي حزام الأمان، أنا متأخر.

عبروا الحديقة بأقصى سرعة. عند الضوء الأحمر، كان شعر

بوليت كثيفاً وخداها متوردين.

- حسناً هيا... . سأدعكما، يا بنات. أرسلنا إليّ بطاقة بريدية

حينما تصلان إلى كاتمندو... .

كان قد سار لبضعة أمتار، حينما استدار:

- هو! كاميل؟

- لا تنسَ هذا المساء؟

- ماذا؟

- الفطائر... .

- سحقاً!

وضعت يدها على فمها:

- كنتُ قد نسيت... . لستُ هنا.

كان قد فقد بضعة سنتمترات.

- علاوة على ذلك، هذا مهم... لا يمكنني أن ألغي...  
هذا من أجل الشغل...  
- وهي؟  
- طلبتُ من فيلو أن يحلّ محلّي...  
- حسناً، حسناً... لا يهمّ إذآ؟ سنأكلها من دونك...  
شعر بيأسٍ شديد وابتعد وهو يتلوّى.  
كانت علامة سرواله الداخلي الجديد تخذشه.

## 14

كانت ماتيلد دان- كيسلر أجمل امرأة قابلتها كاميل في حياتها. كانت طويلة جداً، أطول من زوجها، رفيعة جداً، مبهجة جداً، مثقفة جداً. كانت تطأ كوكبنا الصغير من دون احتراس، وتهتمّ بكلّ شيء، وتندesh لأصغر أمر، وتتلهى، وتغتاظ بفتور، وتضع يدها على يدك أحياناً، وتتكلّم دائماً بصوتٍ خفيض، وتجيد تماماً أربع أو خمس لغات، وتُخفي لعبتها خلف ابتسامة مبطنة للهمة.

كانت جميلة جداً بحيث لم تراودها فكرة أن ترسمها.  
كانت تلك مغامرة كبيرة، فقد كانت في غاية الحيوية.  
رسمت ذات مرّة رسماً تحضيرياً لها. وجهها... جديلة شعرها وقرطبيها... سرق بيار الرسم منها، ولكن الرسم لم يكن يشبهها. كان ينقصها صوتها الرزين واشراقها وغمّازة خديها حينما تضحك.

كانت على عطف وكبرياء ومرح أولئك الذين ولدوا في

شراشف متقنة النسج. كان والدها جامع تحفٍ كبير، فعاشت دائماً وسط أشياء جميلة ولم تحصي قط شيئاً في حياتها، لا أموالها ولا أصدقاءها ولا حتى أعداءها.

كانت ثرية، وكان بيار جسوراً.

كانت تسكُ حينما يتكلّم بيار وتستأنف ترّهاتها ما أن يدير ظهره. كان يطارد مُهرة صغيرة. لم يكن يخطئ أبداً، فهو الذي رمى فوليس وباركاريس على سبيل المثال وهي التي استعدّت للاحتفاظ بهما.

كانت تحتفظ بالذي تريده.

كان اللقاء لقاءهما الأوّل، وكاميل تتذكّره جيّداً، في أكاديمية الفنون الجميلة خلال معرضٍ لأعمال نهاية السنة. كان نوعٌ من الهالة يسبقهما.. التاجر المرعب وابنة ويتولد دان.. كان الناس يأملون مجيئهما ويخافون منهما ويترقّبون أصغر ردود فعلهما. شعرت بأنّها بائسة حينما جاء لتحيّتها، هي وعصابتها من الأشقياء... أخفضت رأسها وهي تصافحه وتجنّبت برعونة بعض المجاملات وبحثت بنظرها عن زاوية تتوارى فيها.

كان ذلك في حزيران (يونيو)، قبل نحو عشرة أعوام.. كانت سنونوات تزقزق في لحنٍ جماعيّ في فناء المدرسة وكانوا يشربون نوعية رديئة من شراب البنّش وهم يستمعون بورع إلى أقوال كيسلر. لم تكن كاميل تسمع شيئاً. كانت تنظر إلى زوجته. في ذلك اليوم، كانت ترتدي قميصاً أزرق اللون وتضع حزاماً عريضاً من الفضة يُصدر جلجلة خفيفة حينما تتحرّك.

صعقة الحبّ..

ومن ثمّ دعوهما إلى مطعمٍ في شارع دوفين، وبعد عشاءٍ دسمٍ طلب منها صديقها العزيز أن تفتح صندوقها الكرتوني. ولكنها رفضت.

بعد ذلك ببضعة أشهر، عادت لتقابلهما.

ولكن لوحدها هذه المرّة.

كانت لدى بيار وماتيلد لوحات لتيولو وديغاس وكاندينسكي ولكن لم يكن لديهما أطفال. لم تجرؤ كاميل قط أن تقارب هذا الموضوع واستسلمت لشباكهما من دون تحفظ. ومن ثمّ تأكّدت من أنّها مخيّبة جداً بحيث انفصمت عقد خيوط الشباك...

وبخها بيار:

- هذا أمرٌ تافه! تقومين بأمرٍ تافه!

أضافت ماتيلد بلهجة ألطف:

- لماذا لا تحبين نفسك؟ لماذا؟

ولم تعد تأتي إلى افتتاح معارضهما.

أثناء لقائهما الحميمي، تأسّف مرّة أخرى:

- لماذا؟

ردّت زوجته:

- لأنّها لم تُحبّ كفاية.

- نحن؟

- الجميع...

استرخى على كتفها وأنّ:

- أوه... ماتيلد... يا جميلتي... لماذا تركتها ترحل؟

- سوف تعود...
- كلا. سوف تفسد كل شيء...
- سوف تعود.
- وقد عادت.
- بيار هنا؟
- كلا، إنه يتناول العشاء مع أصدقائه الإنكليز، لم أخبره بأنك قد أتيت، أردتُ أن أراك قليلاً...
- ثمّ حينما لمحت صندوقها الكرتون:
- ولكن... هل... هل لديك شيء ما هنا؟
- لا، هذا لا شيء... غرضٌ بسيطٌ كنتُ قد وعدته به في المرّة الماضية...
- هل يمكنني رؤيته؟
- لم تردّ كاميل.
- حسناً، سوف أنتظره...
- هل هذا منك؟
- نعم...
- يا إلهي... حينما سيعلم بأنك لم تأتِ لوحديك، سوف يُصاب بالإحباط الشديد... سأناديه...
- علّقت كاميل:
- لا، لا! دعيه! قلّتُ لكِ إنه شيءٌ غير مهمّ... هذا شأنٌ بيننا. نوعٌ من قسيمة إيجار...
- ممتاز. هيّا إلى المائدة.

كان كلّ شيء جميلاً في منزلهما، المنظر، الأشياء، السجّاد، اللوحات، آنية المائدة، محمصة الخبز، كلّ شيء. حتى مراحيضهما كانت جميلة. على لوح من الجصّ، كان يمكن أن نقرأ المقطع الذي كتبه الشاعر مالارميه في مراحيض بيته:

أنت الذي تُريح كرشك

يمكنك في هذا المأوى المعتم

أن تغني أو تدخن الغليون

من دون أن تضع أصابع على الجدار

في المرّة الأولى، أزعجها ذلك:

- هل... هل اشتريتما قطعة من مساخر مالارميه؟!

ضحك بيار:

- كلا، هذا لأنني أعرف الصبي الذي صنع لهما

القوالب... أتعرفين منزله؟ في فولين؟

- كلا.

- سنأخذك إليه ذات يوم... هذا مكانٌ ستعشقينه... تع-

شقي-نه...

وكان كلّ شيء كذلك. حتى ورق التواليت كان أنعم من

سواه...

قالت ماتيلد مغتبطة:

- كم أنت جميلة! يا لوجهك المليح! كم يناسبك الشعر

القصير! لقد سمّنت، أليس كذلك؟ يا لها من سعادة أن أراك

هكذا... أوه، يا لها من سعادة، حقاً... لقد اشتقتُ إليك

كثيراً، يا كاميل... لو تدرين كم تتعبنى كلّ هذه العبقريات  
أحياناً... كلّما كانوا أقلّ موهبة كانوا أكثر صحباً... يسخر بيار  
من ذلك وهو يعمل بتمهّل، أمّا أنا، يا كاميل، فأتضايق كثيراً...  
تعالى واجلسى بجانبى، ارو لي...

- لا أجد السرور... سوف أريك دفاتري...

قلّبت ماتيلد الصفحات وعلّقت على الرسومات.

وبتقديمها عالمها الصغير بهذه الطريقة أدركت فعلاً إلى أيّ  
درجة كانت متعلّقة بهم.

كان فيليبير وفرانك وبوليت قد أصبحوا أهمّ الناس في  
حياتها وكانت الآن تحقّق ذلك بين أريكتين فارسيتين من القرن  
الثامن عشر. كانت مضطربة.

بين الدفتر الأوّل وآخر رسمة أنجزتها للتو، كانت بوليت  
متألّقة على كرسيها المتحرك أمام برج إيفل، لم يكن قد مضى  
سوى بضعة أشهر، ومع ذلك لم تكن هي نفسها... لم تعد تلك  
المرأة التي تمسك بقلم الرصاص... لقد حمحمت وانفعلت  
وفتّت الكتل الغرانيتية التي كانت تعيقها عن التقدّم منذ سنوات  
عديدة...

ذاك المساء، كان أناسٌ ينتظرونها أن تعود... أناسٌ لا  
يبالون بمعرفة قيمتها... كانوا يحبّونها لأمرٍ آخر... يحبّونها  
لذاتها، ربّما...

- لذاتي؟

لذاتك...

سألت ماتيلد بنفاد صبر:



- فإذا؟ لم تعودى تقولين شيئاً... من تكون، هي؟

- جوانا، مزينة بوليت...

- وهذا؟

- حذاء جوانا النصفى... من ماركة روكنرول، أليس

كذلك؟ كيف يمكن لفتاة تعمل طيلة نهار واقفة على قدميها أن

تتحمل هذا؟ أتصور أنها التضحية في سبيل الأناقة...

ضحكت ماتيلد. كان ذلك الحذاء فعلاً متوحشاً...

- وهو، يعود غالباً، أليس كذلك؟

- هذا فرانك، الطاهى الذى حدثك عنه منذ قليل...

- إنه وسيم، أليس كذلك؟

- أتجدينه كذلك؟

- نعم... وكأنه الشاب فارنيز الذى رسمه تيتيان مع عشر

سنوات إضافية على عمره...

رفعت كاميل عينيها إلى السماء:

- ليس إلى هذا الحد...

- بلى! أوكد لك ذلك!

نهضت وعادت مع كتاب:

- تفضلى. انظري. نفس النظرة الكئيبة، نفس المنخرين

المرتعشين، نفس الذقن الطويل والمعقوف، نفس الأذنين

النافرتين قليلاً... نفس النار الكامنة فى داخله...

رددت وهى تنظر إلى الصورة فى نهم:

- ليس إلى هذا الحد، إن صورتى فيها بثرات...

- أوه... أنتِ تفسدين كلّ شيء!

قالت ماتيلد متأسفة:

- هذا كلّ شيء؟

- نعم، نعم...

- هذا جيد. هذا ممتاز. هذا... هذا مذهش...

- كفى...

- لا تعارضيني، أيتها الشابة، أنا لا أجد الرسم ولكنني

أجد النظر... في السنّ الذي يذهب فيه الأطفال لمشاهدة

غينبول، كان والدي يطوف بي في أركان الأرض الأربعة ويرفعني

على كتفيه لأكون على العلوّ المناسب، وبالتالي لا تعارضيني من

فضلك... هل ستدعينيها لي؟

...

- لبيار...

- حسناً... ولكن حاذري، اتفقنا؟ هذه الأشياء الصغيرة

هي أوراق حياتي...

- لقد فهمت جيداً.

- ألنّ تنتظريه؟

- كلا، يجب أن أنصرف...

- سيخيب أمله...

ردّت كاميل، بنبرة قدرية:

- لن تكون هذه المرّة الأولى...

- لم تحدّثيني عن والدتك...

قالت متعجبة:

- حقاً؟ هذه إشارة حسنة، أليس كذلك؟

قادتها ماتيلد إلى الباب وعانقتها:

- الأفضل... أن تذهبي، ولا تنسي أن تعودي لرؤيتي...

مع كرسيك المنجد الذي يمكن رفع غطاءه، إنها مسألة بعض الأرصفة...

- أعدكِ.

- واستمري هكذا. كوني خفيفة... استمتعي... بالتأكيد

سيقول لك بيار عكس هذا الكلام ولكن لا تُصغي إليه. لا تُصغي إليه بعد الآن، لا هو ولا أي شخصٍ آخر... أتعلمين؟

- ماذا؟

- هل أنت بحاجة إلى نقود؟

ربّما كان على كاميل أن تقول كلا. منذ سبعة عشر عاماً

وهي تقول كلا. كلا، أنا في حال حسنة. كلا، أشكركم. كلا،

لا أحتاج إلى أيّ شيء. كلا، لا أريد أن أدين لكم بشيء. كلا،

كلا، دعوني وشأني.

- نعم.

نعم. نعم أعتقد ذلك. نعم، سوف لن أعود إلى التذلل، لا

لآل ريتال ولا لبريدار، ولا لأيّ من هؤلاء المغفلين. نعم، أريد

أن أعمل بسلام لأول مرة في حياتي. نعم، لا أرغب في أن

أتشجّ كلما مدّ فرانك تحوي الأوراق النقدية الثلاث. نعم، لقد

تغيّرت. نعم، أنا بحاجة إليكم. نعم.

- ممتاز. واستفيدي من ذلك لتشتري ألبسة... بصراحة...  
أنتِ ترتدين سترة الجينز هذه منذ عشر سنوات...  
كان ذلك صحيحاً.

## 15

عادت سيراً على الأقدام وهي تتفرّج على واجهات محلات  
بيع التحف الأثرية. كانت بالضبط أمام أكاديمية الفنون الجميلة  
(هذا القدر، يا له من ماكر ضخم... ..) حينما رنّ هاتفها النقال.  
أغلقتة حينما رأت أن بيار هو المتّصل.

سارت بسرعة أكبر. فقد قلبها توازنه وتخبّط.  
رنّ الهاتف للمرّة الثانية. وكانت ماتيلد هي المتّصلة هذه  
المرّة. لم تردّ عليها هي الأخرى.

عادت أدراجها وعبرت نهر السين. كان لهذه الفتاة النحيلة  
حسّ رومانسيّ. وسواء كان للقفز فرحاً أو للقفز إلى الماء كان  
جسر الفنون لا يزال بين أفضل ما هو موجود في باريس...  
استندت إلى الدرابزين وأدرجت الأرقام الثلاثة لمجيبها الآلي...  
لديك رسالتان جديدتان، اليوم في الساعة الحادية عشر...  
انقطعت الرسالة من دون قصد... بلوف! أوه... يا للخسارة...  
كان يخور: «كاميل، اتّصلي بي فوراً وإلا سأتي وأجلبك من  
رقتك! فوراً! أتفهميني؟».

اليوم الساعة الحادية عشرة وثمانية وثلاثون دقيقة: «أنا  
ماتيلد. لا تتّصلي به. لا تأتي. لا أريدك أن تري هذا. إنّ تاجرك  
يبكي كبقرة ضخمة... .. إنّه ليس جميلاً للمشاهدة، أعدك... ..

بلى، إنه جميل... إنه جميل جداً، بل... شكراً يا كاميل، شكراً... أتسمعين ما يقوله؟ مهلاً، سأدع له الهاتف وإلا سيجدع أذني...»، «سأقيم لك معرضاً، يا فوك، ولا ترفضني لأن بطاقات الدعوة قد وُجِّهت...»، انقطعت الرسالة.

أطفأت هاتفها، ولقت سيجارة ودختتها واقفة بين اللوفر والأكاديمية الفرنسية ونوتردام وكونكورد.

كان إسداًلٌ جميلٌ للستارة...

ثم قصرت حمالة خُرْجها وركضت بسرعة كبيرة لثلاث تفوت الحلوى.

## 16

كانت تفوح من المطبخ رائحة شياطين خفيفة ولكن آنية المائدة كانت قد رُتبتُتْ بأكملها.

لم يكن هناك صخبٌ، وكانت جميع المصابيح مطفأة، ولم يكن هناك حتى شعاع نورٍ من تحت أبواب غرفهم... أوف... هي التي كانت مستعدة لأن تلتهم المقلاة دفعة واحدة... دقت باب فرانك.

كان يستمع إلى الموسيقى.

وقفت عند طرف سريرته ووضعت قبضتها على وركيه وقالت حانقة:

- ماذا إذا؟

- لقد تركنا لك البعض منها... سوف أشيئها لك غداً...

رددت:

- ماذا إذا؟ أَلن تضاجعني؟

- آه! آه! غريبٌ جداً...

بدأت تنزع ثيابها.

- أخبرني إذاً، يا عزيزي... سوف لن تنجو بهذه الطريقة!

أطلب الوفاء بوعدك بمضاجعتي!

جلس في السرير لكي ينير مصباحه في حين رمت فردتي

حذاءها أينما كان.

- ولكن ماذا تفعلين؟ إلى أين تذهبين؟

- حسناً... أنا أتعرّي!

- أوه كلا...

- ماذا؟

- ليس بهذه الطريقة... مهلاً... منذ زمنٍ طويل وأنا أفكر

بهذه اللحظة...

- أطفئ النور.

- لماذا؟

- أخشى ألا تعود تشتهيني لو شاهدت جسدي...

صرخ نابحاً:

- ولكن يا كاميل، تَباً! كَفِّي! كَفِّي!

برطمة خفيفة مغيظة:

- أتريد المزيد؟

...

- أطفئ النور.

- كلا!
- بلى!
- لا أريد أن يتمّ هذا بيننا بهذه الطريقة...
- كيف تريد أن يتمّ هذا بيننا؟ أتريد أن تأخذني للتّنزه في الغابة؟
- عفواً؟
- تقودني في جولة في القارب وتقول لي أشعاراً وأنا أمرّر يدي في الماء...
- تعالي واجلسي بجانبتي...
- أطفئ النور.
- حسناً...
- أوقف الموسيقى.
- هذا كلّ شيء؟
- نعم.
- سأل باستحياء:
- أهذه أنتِ؟
- نعم.
- أنتِ مرتاحة الآن؟
- كلا...
- تفضّلي، خذي إحدى وسائدي... كيف تمّ موعدك؟
- كان رائعاً.
- هل ستحدّثيني؟

- عن ماذا؟

- عن كلّ شيء. أريد أن أعرف كلّ شيء، هذا المساء...  
كلّ شيء. كلّ شيء. كلّ شيء.

- أنت تعلم، لو بدأت... أنت أيضاً سوف تشعر بأنك  
مرغمٌ على أن تأخذني بين ذراعيك بعد...

- آه اللعنة... هل جعلتِ نفسك تُغتصبين؟

- كلا...

- حسناً، حسناً... سأستطيع أن أدبّر لك هذا الأمر إن  
شئت...

- أوه شكراً... هذا لطفٌ منك... أوه... من أين أبدأ؟  
قلّد فرانك صوت جاك مارتان في البرنامج الموسيقي مدرسة

الهواة:

- من أين أتيتِ يا ابنتي الصغيرة؟

- من مودون...

قال متعجباً:

- من مودون، ولكن هذا ممتاز! وأين ماما؟

- إنها تتناول أدوية.

- حقاً؟ ووالدك، أين والدك؟

- متوفى...

...

- لقد أخبرتك بذلك يا ولدي! هل لديك واقيات ذكورية

على الأقل؟



- لا توبّخيني هكذا يا كاميل أنتِ تعلمين جيّداً، هل مات والدك؟

- نعم.

- كيف؟

- سقط من مكانٍ عالٍ.

...

- حسناً، سوف أشرح لك الأمر... اقترُب مِنِّي أكثر لأنني

لا أريد أن يسمعي الآخرون...

رفع الفراش فوق رأسيهما:

- هيا. لا أحد يستطيع أن يرانا، الآن...

## 17

لَقّت كاميل ساقاً على ساق ووضعت يديها على بطنها  
وشرعت في رحلة طويلة.

بدأت بصوتٍ طفولي:

- كنتُ طفلة عادية وهادئة جداً... لم أكن أكل كثيراً  
ولكنني كنتُ أجدّ في المدرسة وأرسم طيلة الوقت. لم يكن لديّ  
أخ ولا أخت. كان والدي يُدعى جان-لويس ووالدتي كاترين.  
أعتقد أنّهما أحبّوا بعضهما حينما التقيا... لا أدري، لم أجرؤ  
على أن أسألهم... ولكن حينما كنتُ أرسم شعر جوني ديب  
ووجهه الجميل في فيلم 21 Jump Street لم يكونا يحبّان  
بعضهما. هذا أنا متأكّدة منه، لأنّ والدي لم يعد يعيش معنا. لم  
يكن يأتي سوى في عطلة نهاية الأسبوع ليراني. كان من الطبيعي

أن يرحل وكنتُ سأفعل نفس الشيء لو كنتُ في مكانه. من جهة أخرى، كنتُ أرغب في الخروج معه مساء الأحد ولكنني لم أفعل أبداً لأنّ والدتي كانت ستحاول الانتحار مرّة أخرى. لقد حاولت والدتي الانتحار مراراً حينما كنتُ صغيرة. لحسن الحظ، كان ذلك يحدث غالباً أثناء غيابي وبعد ذلك... ولأنني كبرت، لم يعد هناك الكثير من المضايقة... دعيتُ ذات مرّة إلى عيد ميلاد إحدى زميلاتي. في المساء، ولأنّ والدتي لم تأت لتأخذني، رافقتني والدة إحدى زميلاتي إلى باب منزلنا وحينما وصلت إلى الصالون، رأيتها جثة هامدة على السجادة. جاء المسعفون ونقلوها إلى المستشفى وذهبتُ للعيش عند جارتنا لعشرة أيام. هدّدها والدي إن حاولت الانتحار مرّة أخرى فإنّه سيسحب منها حضائتي فكفّت عن ذلك. واستمرّت فقط في تناول الأدوية. كان والدي يخبرني بأنّه مضطربٌ للذهاب بسبب عمله ولكن والدتي كانت تمنعني من تصديقه. كانت تردّد عليّ يومياً بأنّه كاذب وسافل وأنّ لديه زوجة أخرى وطفلة أخرى وأنّه يلاطفهما كلّ مساء...

استعادت نبرة صوتها الطبيعية:

- هذه أوّل مرّة أتحدّث عن ذلك... لاحظ، والدتك وبّختك قبل أن تضعك في قطار، أمّا والدتي فقد نخرت رأسي كلّ يوم، كلّ يوم... أحياناً، كانت لطيفة واشترت لي أقلام تلوين وردّدت بأنني فرحتها الوحيدة في الدنيا...

حينما كان والدي يأتي، كان يحبس نفسه في المرأب مع سيارته من طراز جاكوار ويستمع إلى أغاني الأوبرا. كانت سيارة

جاكوار قديمة بلا عجلات ولكن مع ذلك كنا نذهب للتنزه بها  
وهمياً.. .. كان يقول: «هل آخذك إلى الريفييرا، يا آنستي؟»،  
وكنْتُ أجلس بجانبه. كنْتُ أعشق تلك السيارة... ..

- من أيّ طرازٍ كانت؟

- من طراز MK أو ما شابه... ..

- MKI أو MKII؟

- سحَقاً، فعلاً أنت رجل... .. أحاول أن أجعلك تبكي

والأمر الوحيد الذي يهَمُّك، هو طراز السيارة الرديئة!

- عفواً.

- لا بأس... ..

- هيا، تابعي... ..

- بففف... ..

- «إذاً يا آنستي؟ هل آخذك إلى الريفييرا؟».

ابتسمت كاميل:

- نعم، أرغب في ذلك كثيراً... .. «هل أخذتِ ثوب

السباحة؟ - كان والدي يضيف - ممتاز... .. وستان سهرة أيضاً!

سنذهب بالتأكيد إلى الكازينو... .. لا تنسي ثعلبك الفضي، الليالي

باردة في مونت كارلو... ..». كانت تفوح من داخلها رائحة زكية،

رائحة جلد المقاعد... .. وأتذكر أن كل شيء كان جميلاً... ..

المنفضة الكريستال والمرآة العاكسة، والمقابض الصغيرة لتنزيل

زجاج الأبواب، التنجيد الداخلي للصندوق الأمامي،

الخشب... .. كانت أشبه ببساط الريح. «بقليلٍ من الحظ، سوف

نصل قبل هبوط الليل». كان يعدني. نعم، كان والدي من ذلك النوع من الرجال، كان حالماً كبيراً يستطيع أن يغيّر سرعات سيارة مثبتة على مسند لساعاتٍ عديدة ويقودني إلى نهاية العالم في مرآبٍ ضاحية... كان أيضاً مهووساً بالأوبرا، فكنا نستمع إلى دون كارلوس، لا ترافياتا أو عرس فيغارو خلال الرحلة. كان يروي لي القصص: أحزان مدام باترفلاي، العشق المستحيل لبيلياس وميليزاند، حينما كان يعترف لها بأن لديه ما يقوله لها ولكنه يعجز عن البوح به، قصص الكونتيسة وصاحبها شيريبان الذي يختفي كلّ الوقت أو ألسينا، الساحرة الحسنة التي كانت تحوّل طالبي الزواج منها إلى حيوانات متوحشة... كان يحقّ لي دوماً أن أتكلّم إلا حينما يرفع يده، وفي حكاية ألسينا كان يرفع يده غالباً... أغنية Tornami a vagheggiar، لم يعد بوسعي الاستماع إلى ذلك اللحن... إنّه مرّحٌ جداً... ولكنني كنتُ أسكت في غالب الأحيان. كنتُ عاقلة. كنتُ أفكر بالفتاة الصغيرة الأخرى. لم يكن لديها كلّ هذا... كان الأمر معقّداً بالنسبة لي... الآن، طبعاً، أرى ذلك بشكلٍ أوضح: رجلٌ مثله لم يكن بوسعه أن يعيش مع امرأة مثل والدتي... امرأة كانت توقف الموسيقى بجفاء حينما كنا نجتمع إلى المائدة وتبعثر أحلامنا كفقاعات الصابون... لم أجدها قط سعيدة، لم أجدها قط مبتسمة... أمّا والدي، فعلى العكس، كان اللطف والطيبة بعينهما. يشبه إلى حدّ ما فيليبير... وفي كلّ الأحوال كانت فكرة طريفة أن يكون سافلاً في نظر أميرته الصغيرة... فعاد ذات يوم ليعيش معنا... كان ينام في مكتبه ويرحل كلّ نهاية أسبوع... لم

تعد هناك مغامرات في سالزبورغ أو روما في سيارته الجاكوار الرمادية القديمة، لم تعد هناك كازينوات أو نزاهات على شواطئ البحر... ثم ذات صباح، ولا بدّ أنه كان متعباً، على ما أتصوّر... كان متعباً جداً، وسقط من عمارة شاهقة...

- هل سقط أم قفز؟

- كان رجلاً رقيقاً. لقد سقط. كان مؤمناً وكان يمشي على سطح برجٍ لتفحص مجاري التهوية أو شيءٍ من هذا القبيل، فتح ملّقه ولم ينظر أمامه ولم يتأكد من موطن قدميه...

- هذا شيءٌ من البلاهة، أنتِ ما رأيكِ بذلك؟

- لا أعتقد. بعد ذلك، جرت مراسم الدفن وكانت والدتي تلتفت باستمرار لترى إن لم تكن الزوجة الأخرى في آخر الكنيسة... ومن ثمّ باعت سيارة الجاكوار، وتوقّفت عن الكلام.

- لِكَم من الوقت؟

- لأشهر...

- وبعد ذلك؟ أيّ أيمكنني أن أنزل الشرشرف لأنني أختنق...

- أنا أيضاً كنتُ أختنق. بعد ذلك أصبحتُ مراهقة كئيبة ومنعزلة. وضعتُ رقم هاتف المستشفى في ذاكرة التلفون ولكنني لم أحتج إليه... أصبحتُ هادئة... تحوّلت من محاولة للانتحار إلى مكتئبة. وكان ذلك تطوّراً في حالتها. أصبحت أكثر هدوءاً، وأتخيّل أن موتاً كان يكفيها... بعد ذلك لم يعد لديّ سوى فكرة وحيدة: أن أنجو بنفسني: غادرت للمرة الأولى للعيش مع صديقةٍ حينما كان عمري سبعة عشر عاماً... ذات مساءً، فجأةً، كانت

أمي برفقة رجال الشرطة أمام الباب... إذاً كانت هذه المرأة الشريرة تعرف جيداً أين كنت... كانت غليظة بتعبير الشباب. كنا نتناول العشاء مع والديها، وأتذكر أننا كنا نتحدث عن حرب الجزائر... وحينذاك، دقّ رجال الشرطة الباب. كنتُ ممتعضة جداً من أولئك الناس، ولكن لا بأس، لم أشأ أن أواجه مشاكل فتبعتها... بلغتُ الثامنة عشرة من عمري في 17 شباط (فبراير) 1995، في الساعة الثانية عشرة ودقيقة واحدة من منتصف ليلة 16 شباط (فبراير)، خرجتُ وأنا أغلق الباب بهدوء... حصلتُ على شهادتي الثانوية وانضمتُ إلى أكاديمية الفنون الجميلة... نلتُ المرتبة الرابعة من أصل سبعين مقبولاً في الأكاديمية. وكنتُ قد أعددتُ ملفاً رائعاً انطلاقاً من أغاني الأوبرا في طفولتي... عملتُ بلا هوادة ونلتُ مباركة هيئة التحكيم... في تلك الفترة، لم يعد لدي أيّ اتصالٍ مع والدتي وبدأتُ أعيش وضعاً مادياً صعباً لأنّ المعيشة في باريس كانت غالية جداً... عشتُ متنقلةً بين أصدقاء... وتغيّبتُ عن الكثير من الدروس... كنتُ أتغيّب عن الدروس النظرية وأذهب إلى المشاغل ثمّ قمتُ ببعض الحماقات... أولاً، كنتُ أملّ بعض الشيء... لا بدّ من القول إنني لم أعب اللعبة: لم آخذ المسألة بجدية ولذلك لم أؤخذ على محمل الجدّ. لم أكن فتانة حقيقية وإنّما كنتُ ماهرة في صنعتي... نصحوني بالأحرى أن أذهب إلى ساحة تيرتر لكي أرسم هناك بيتاً ريفياً وراقصاتٍ صغيرات... ومن ثمّ أوه... لم أكن أفهم شيئاً. أمّا أنا فكنتُ أريد أن أرسم، ولذلك بدل الاستماع إلى ثرثرة أساتذتي كنتُ أرسم وجوههم وكانت فكرة

«الفنون البلاستيك» وإشراك الجمهور والتركيبات تغيظني. أدركتُ جيداً أنني قد جئتُ في القرن الخطأ. كنتُ أودُّ لو أنني عشتُ في القرن السادس عشر أو السابع عشر وتعلّمت في مرسوم فتانٍ عظيم... أعدّ له خلفيات لوحاته، وأنظف فراشيه وأمزج ألوانه... ربّما لأنني لم أكن ناضجة؟ أو لأنني لم أكن أنانية؟ أو بكلّ بساطة لأنّه لم تكن هناك نارٌ مقدّسة؟ لا أدري... ثانياً، لقد قمتُ بلقاءٍ سيئ... الحيلة الظاهرة: الفتاة الصغيرة مع علبة ألوانها وخرقها المطوية بإتقان والتي وقعت في غرام النابغة المجهول. الملعون، أمير الأنواء، الأرملة، الغامض، شديد الحزن... صورة إيبينالية حقيقية: أشعر، معذب، عبقرى، منحرف المزاج، ظمآن... أبُّ أرجنتيني وأمُّ هنغارية، مركّب انفجاري، ثقافة باهرة، يعيش في مسكنٍ مستولى عليه<sup>(1)</sup> ولا ينتظر سوى هذا: فتاة صغيرة خرفة تعدّ له الطعام بينما هو يبدع وسط آلام فظيعة... لقد أكّدت ذلك. ذهبتُ إلى سوق سان بيار، شبكتُ أمتاراً من النسيج على الجدران لأضفي شيئاً من «الأناقة» على «غرفتنا الصغيرة» وبحثتُ عن عملٍ لكي أوّمن قوتي... أخيراً القُدرة أوه... فرن الغاز، سنقول... لقد أهملت المدرسة وجلستُ متربّعة أفكّر في مهنة قد أجيدها... والأسوأ، هو أنني كنتُ فخورة! كنتُ أشاهده يرسم وكنتُ أشعر بأهميتي... كنتُ الأخت، ربّة الفن، المرأة العظيمة خلف الرجل العظيم، المرأة التي ترفع الأكواب وتطعم التلاميذ وتفرغ المنافض...

(1) منزل يسكنه شخص أو أكثر من دون صكّ ملكية أو عقد إيجار. (المترجم).

- كنتُ فخورة وأصبحتُ حارسة المتحف، خبيثة فائقة،  
 أليس كذلك؟ حسناً، هنا سأتجاوز زملاء، لأنني لمستُ كلَّ  
 عَظْمَة الخدمة العامّة ولكنني... لم أكن أبالي بذلك في  
 الحقيقة... كنتُ بخير. أخيراً، كنتُ في مرسوم معلّمي الكبير...  
 كانت اللوحات قد جفّت منذ زمنٍ طويل ولكنني بالتأكيد تعلمت  
 أكثر مما تعلّمته في كلِّ مدارس العالم... ولأنني لم أكن أنام  
 كثيراً في تلك الفترة، استطعتُ أن أخلد للخمول والهدوء...  
 كنتُ أتدقأ... ولكن المشكلة كانت أنه لم يكن يحقّ لي أن  
 أرسم... حتى على قصاصة ورق تافهة، حتى وإن لم يكن هناك  
 أحد والله يعلم أنه لم يكن هناك الكثير من الناس في بعض  
 الأيام، ولم يكن لديّ سوى أن أقلب صفحات مصيري وأن  
 أنتفض حينما أسمع صوت زحف نعلي زائرٍ شارد أو ألملم  
 لوازمي بسرعة حينما أسمع أزيز رزمة مفاتيحه... في النهاية،  
 غدت تلك هواية سيرافان تيكو المفضّلة، سيرافان تيكو، أعشق  
 هذا الاسم... التقدّم بخطوات مختلصة ومباغتتي بالجرم  
 المشهود. آه! كم كان مسروراً، ذاك الغيبي، حينما كان يرغمني  
 على أن لا أستعمل قلمي! كنتُ أجده الشخص الذي يتعد مباحداً  
 بين ساقيه لإراحة خصيتيه... لكن حينما كنتُ أنتفض، كان ذلك  
 يثيرني، كان ذلك، كان ذلك يغيظني. عدد الرسومات التالفة من  
 جراء خطأه... آه كلا! لم يعد ذلك ممكناً! من جرّاء ذلك،  
 لعبتُ اللعبة... بدأ التعلّم من الحياة يؤتي ثماره: لقد رشوته.

- عفواً؟



- دفعتُ له رشوة. سألته كم يريد منِّي ليدعني أعمل... ثلاثون فرنكاً في اليوم؟ حسناً... ثمن ساعة من السُّبات في الحرارة؟ حسناً... ودفعتها له...  
- اللعنة...

أضافت شاردة الذهن:

- نعم... سيرافان تيكو العظيم... الآن وقد أصبح لدينا كرسيّ متحرك، سألقي عليه التحية ذات يوم مع بوليت...  
- لماذا؟

- لأنني أحبته كثيراً... كان نشالاً شريفاً. ليس كالأبله الآخر الذي كان يستقبلني بجفاء بعد يومٍ مجهدٍ من العمل لأنني كنتُ قد نسيْتُ شراء أعقاب السجائر... وأنا كنتُ أنزل ثانية كبلهاء...

- لماذا بقيتِ معه؟

- لأنني كنتُ أحبّه. وكنتُ معجبة بعمله أيضاً... كان حرّاً، متحرراً من العُقد، واثقاً من نفسه، صارماً... على النقيض منِّي تماماً... كان ليفضّل الموت فاغر الفم على أن يقبل بأدنى تسوية. كنتُ بالكاد أبلغ العشرين من عمري، أنا من كنتُ أرعاه ووجدته رائعاً...

- كنتِ حمقاء...

- نعم... كلا... بعد فترة المراهقة التي مررت بها، كان ذلك أفضل ما قد يحصل لي... كان باستمرار هناك أناس، لم نكن نتحدّث إلّا عن الفن، إلّا عن الرسم... كنا مضحكين نعم، ولكن نزيهين أيضاً. كنّا نعيش شظف العيش، نرتعد من البرد

ونقف في الدور أمام الحمّامات العامّة ولكننا كنا نشعر بأننا نعيش أفضل من الآخرين... وما قد يبدو مضحكاً اليوم هو أنني أعتقد بأننا كنّا على حق... كانت لدينا عاطفة... هذا البذخ... كنتُ حمقاء وسعيدة. حينما كنتُ أضيّق ذرعاً بصالة، كنتُ أغيرها وعندما لم أكن أنسى السجائر، كان ذلك عيداً! كنا نفرط في الشرب أيضاً... اعتدتُ على بعض العادات السيئة... ومن ثمّ التقيت بآل كيسلر الذين حدّثك عنهم أمس...

قال مقطّباً:

- أنا متأكّد من أنّها كانت مفاجأة حسنة...

- أوه نعم... الأفضل في العالم... أوه... لا شيء سوى التفكير فيها. إن ذلك يثير القشعريرة في كلّ أنحاء جسمي، تفضّل...

- لا بأس، لا بأس... لقد فهما.

تنهّدت:

- كلا، ليس بهذه الفظاعة... بعد انقضاء أولى الانفعالات التالية للعدوية، أقصد... أقصد أنّه كان رجلاً أناانياً...

- آآه...

- نعم، أوه... أنت أيضاً لا تختلف كثيراً عن هذا النوع...

- نعم، ولكن أنا لا أدخّن!

كانا يتسمان وسط العتمة...

- وبعد ذلك فسد الأمر... كان عشيقتي يخدعني... بينما

كنتُ أعاني من الدعابة الواهية لسيرفان تيكو، كان هو يعاني من السنوات الأولى، وحينما تصالحننا، اعترف بأنه يتعاطى المخدّرات، أوه، القليل منها، بدافع المزاج فقط... لجمال الحركة... وهنا لم أعد أرغب أبداً في الحديث عن ذلك...

- لماذا؟

- لأن الأمر يصبح في غاية الحزن... السرعة التي كان ذاك الوجد يجعلني أركع بها، كان أمراً مذهلاً... جمال الحركة، مؤخرتي، تحمّلتُ لبضعة أشهر ثمّ عدتُ للعيش مع والدتي. لم تكن قد رأني منذ نحو ثلاثة أعوام، فتحت الباب وقالت لي: «أنا أنتهك، ليس هناك ما تأكلينه». ذرفتُ الدموع بغزارة ومكثتُ عندها طريحة الفراش لشهرين... هنا، كانت نظيفة لمرة واحدة... كان لديها ما يلزم لمعالجتي، سوف تقول لي... وعندما نهضتُ من الفراش، عدتُ إلى العمل. في تلك الفترة، لم أكن أتغذى سوى على العصائد والأطعمة الخفيفة. ألو! الدكتور فرويد؟ وبعد ذلك، كانت السينما سكوب دولبي ستيريو، الأصوات، الأضواء والمؤثرات من كلّ نوع، استأنفتُ حياةً زهيدة بالأسود والأبيض. كنتُ أشاهد التلفاز وأشعر دائماً بالدوّار على قارعة الأرصفة...

- هل فكّرتِ في ذلك؟

- نعم. كنتُ أتخيّل شبحي يصعد نحو السماء على هواء (Tornami a vagheggiar, te solo vuol amar...) ووالدي الذي كان يفتح لي ذراعيه ضاحكاً: «آه! ها أنتِ أخيراً، يا آنستي! سوف ترين، هنا أجمل حتى من الريفييرا...».

بكت.

- لا، لا تبكي...

- بلى. أرغب في البكاء.

- حسناً، إبي إذاً.

- هذا جيد، أنت لست معقداً...

- هذا صحيح. لدي الكثير من العيوب، ولكنني لستُ

معقداً... أتريد أن نتوقف عن الحديث؟

- كلا.

- أتريد شرب شيءٍ ما؟ أتريد كوباً صغيراً من الحليب مع

زهر الليمون كما تعدّه لي بوليت؟

- كلا. أشكرك... أين وصلتُ؟

- الدوار.

- نعم، الدوار... بأمانة، لم يكن يلزمني سوى نقرة صغيرة

بالإصبع على ظهري كي أنقلب أرضاً، ولكن بدل ذلك، حملت

الصدفة قفازين أسودين من جلد جدي ناعم جداً وربّيت على

كتفي ذات صباح... في ذاك اليوم، كنتُ أتسلّى مع شخصيات

واتو، كنتُ منكمشة على نفسي على مقعدي حينما مرّ رجلٌ من

خلفي... كنتُ أراه غالباً... كان يجول باستمرار حول الطلاب

ويتفقد رسوماتهم بلطف... كنتُ أعتقد أنّه يفتش عن غانية.

كانت تراودني شكوكٌ حول خصائصه الجنسية، كنتُ أشاهده

يدرّش بلباقة وتغنج وكنتُ معجبة بهيئته... كان يرتدي باستمرار

معاطف رائعة، طويلة جداً، وأطقماً راقية وأنيقة ومناديل رقبة

وأوشحة حرير... كانت تلك استراحتي القصيرة... فكنتُ

أتفوق على دفترتي ولم أكن أرى سوى حذائه الرائع، الأنيق جداً والملمّع للغاية. سألني بتلعثم: «هل يمكنني أن أسألك سؤالاً تطفلياً، يا أنتستي؟ هل لديك مغزى لكلّ تجربة؟ أنا التي أفسدتُ سيرافان تيكو وكنتُ أحلم بأن أعاكس خلقة الله؟ أجبتُه: «كلا». وبسبب ذلك الجواب السريع الجسور، وقعتُ في فوضى أخرى... فوضى كبيرة هذه المرّة...»

- وقعتِ في ماذا؟
- فوضى لا اسم لها.
- ماذا فعلتِ؟
- نفس ما فعلته سابقاً... ولكن بدل أن أقيم في مسكنٍ مستولى عليه وأكون خادمة شخصٍ حائق، عشتُ في أكبر فنادق أوروبا وأصبحتُ خادمة شخصٍ نصّاب.
- هل... هل مارستِ...»
- الدعارة؟ كلا. مهما...»
- ماذا كنتِ تفعلين؟
- كنتُ أزور.
- تزورين عمالاتٍ؟

- كلا، رسومات... والأسوأ، إنّ ذلك كان يسليني أكثر! أقصد في البداية، بعد ذلك تحوّلت تلك الطرفة الصغيرة إلى نوع من الرقّ، ولكنها كانت فكهة جداً في البداية. للمرّة الأولى كنتُ أفيد في شيء! وبالتالي، عشتُ في بذخٍ لا يُصدّق... لم يعزّ أيّ شيء عليّ. كنتُ باردة؟ يقدّم لي أفضل المعاطف الكشميرية. هل رأيتِ الكنزة الصوفية الفُضفاضة الزرقاء مع قلنسوتها التي ارتديها طوال الوقت؟

- نعم.

- اشتراها لي بألف ومائة فرنك... ..

- غير معقول؟

- بلى. ولدي العشرات مثلها. يسألني إن كنت جائعة؟ يتصل فوراً بخدمة الغرف، فيجلبون لي الكركند بكثرة. إن كنت عطشانة؟ يقدم لي شمبانيا! كنت ضجرة؟ يصطحبني إلى عروض مسرحية وحفلات غنائية، وتسوق! كل ما ترغيبين فيه، اطلبه من فيتوريو... الشيء الوحيد الذي لا يحق لي، هو قول: «كفاني». حينها، كان فيتوريو الوسيم يصبح سيئاً... «إن رحلت، ستغرقين...»، ولكن لماذا كنت سأرحل؟ كنت أتدلل، وأتسلى، وأفعل ما أشاء، وأزور كل المتاحف التي حلمتُ بها، وأجري اللقاءات، في الليل، كنت أنسلّ من الغرفة، لست متأكّدة ولكنني أعتقد بأنني قد نمّت مع جيريمي أيرونس... ..

- من يكون هذا؟

- أوه... أنت لجوج... حسناً، لا يهم... كنتُ أقرأ، أستمع إلى الموسيقى، أكسب المال... بالعودة إلى تلك الفترة، أقول لنفسي بأنّ ذلك كان شكلاً آخر للانتحار... أكثر راحة... لقد انقطعْتُ عن الحياة وعن الناس القلائل الذين أحبّوني. عن بيار وماتيلد كيسلر، بشكلٍ خاصّ، اللذين حقدا عليّ إلى حدّ الموت، وعن زملائي القدامى الصغار، وعن الواقع، وعن السلوك، وعن الطريق القويم، وعن نفسي... ..

- أكنتِ تشتغلين طيلة الوقت؟

- طيلة الوقت. لم أكن أنتج المزيد ولكن كان عليّ أن أعيد

الأمر نفسه لآلاف المرّات بسبب مشاكل تقنية... الزنجار،  
والركيزة وكلّ هذه الأمور... أخيراً، كان الرسم شحيحاً، كانت  
شيخوخته المعقّدة. عملتُ مع جان، وهو هولنديّ كان يزودنا  
بالورق القديم. كانت تلك مهنته: أن يجول في العالم ويعود  
ببكراتٍ من الورق. كانت لديه موهبة كيماوية وكان يسعى بلا  
هوادة لتعتيق الورق... لم أسمع قط يتفوّه بكلمة واحدة، كان  
شخصاً ساحراً... ومن ثمّ، فقدت مفهوم الزمن... بطريقة ما،  
تركتُ نفسي مخدّرة في تلك اللاحياة... لم يكن ذلك يُرى  
بالعين المجرّدة، ولكنني أصبحتُ حطاماً، حطاماً أنيقاً...  
الحنجرة هابطة، قمصانٌ على المقاس، وتقزّزٌ من نفسي... لا  
أدري كيف كان لكلّ ذلك أن ينتهي لو لم ينقذني ليوناردو...

- مَنْ ليوناردو؟

- ليوناردو دافنشي. حينها، ثرّت في الحال... وطالما كان  
يتمّ الاحتفاظ بالمعلّمين الصغار، بمخططات الرسومات،  
والرسميات، وتعديلات التعديلات على اللوحات، كان يمكن  
خداع التجار الذين لا يدقّقون كثيراً، ولكن آنذاك، لم يكن ذلك  
أمراً مهماً... قلتُ ذلك ولكن لم يُسمع كلامي... أصبح فيتوريو  
نهماً جداً... لا أدري بالضبط ماذا كان يفعل بماله ولكن كلّما  
كان يقبض المزيد منه كان يعوزه أكثر... لا بدّ أنه هو الآخر  
كانت لديه نقاط ضعفه... فالتزمتُ الصمت. لم يكن ذلك  
مشكلتي في نهاية المطاف... عدتُ إلى متحف اللوفر، إلى دور  
الفنون الجرافيكية حيث استطعت أن أحصل على بعض الوثائق  
وأحفظها عن ظهر قلب... كان فيتوريو يريد أمراً صغيراً.  
«أترين، هذه الدراسة؟ استوحي منها، ولكن تلك الشخصية،

اتركيها لي...». في تلك الفترة، لم نعد نعيش في الفندق وإنما في شقة مفروشة فاخرة. أُجريت المطلوب وانتظرت... ازداد عصبيةً. كان يمضي ساعات على الهاتف ويحت الموكيت ويصق على لوحة السيّدة العذراء. ذات صباح، دخل إلى غرفتي مثل مجنون: «علي أن أرحل، ولكنك لن تتحرّكي من هنا، اتّفقنا؟ لا تخرجي من هنا طالما لم أقل لك ذلك، أفهمتِ؟ لا تتحرّكي من هنا!». في المساء، تلقّيت مكالمة من رجلٍ آخر لم أكن أعرفه: «أحرقني كلّ شيء» وأغلق السّاعة. حسناً... جمعتُ أكداً من الأكاذيب وأتلفتها في المجلى. وانتظرت أكثر... لعدّة أيام... لم أكن أجرؤ على الخروج. لم أكن أجرؤ على النظر من النافذة. أصبحتُ مرعوبة تماماً. ولكن بعد مضي أسبوع، غادرت. كنتُ جائعة، وأردتُ أن أدخّن، لم يعد لديّ أيّ شيء أخسره... عدتُ إلى مودون مشياً على القدمين ووجدتُ داراً علّقت على سورها لوحة إعلان مكتوب عليها: للبيع. هل ماتت؟ تسلّقت الجدار ونمتُ في المرأب. عدتُ إلى باريس. بقدر ما كنتُ أمشي، كنتُ أقف على قدمي. تسكّعتُ حول العمارة تحسّياً لعودة فيتوريو... لم يكن لديّ لا مال، ولا بوصلة، ولم تعد هناك لا معالم ولا أيّ شيء. أمضيتُ ليلتين إضافيتين في الخارج في معطفي الكشمير ذي الألفي فرنك، طلبتُ أعقاب سجائر وتلقّعتُ بمعطفي. في الليلة الثالثة، طرقتُ باب منزل بيار وماتيلد وانهرتُ أمام بابهما. اهتماً بأمرى وأسكناني هنا في الطابق السابع. ظللتُ لأسبوع أفرشُ الأرض وأنا أفكر في مهنة قد أجيدها... كل ما كنتُ أعرفه هو أنني لم أعد أريد أن أرسم في حياتي. كما لم أكن مستعدة للعودة إلى العالم. كان الناس يُخيفونني...



فأصبحتُ عاملة تنظيفات ليلية. عشتُ هكذا لأكثر من عام بقليل. في غضون ذلك، عثرتُ على أُمِّي. لم تطرح عليّ أسئلة... لم أعرف قط إن كان ذلك بدافع اللامبالاة أم التحفظ... لم أنقب في الأمر، لم يكن بوسعي أن أسمح لنفسي بذلك: لم يعد لديّ سواها...

«يا لسخرية القدر... لقد فعلتُ كلَّ شيء لأفّر منها وها هي... العودة إلى خانة الانطلاق، الأحلام على الأقل... عشتُ بتقدير، استمتعتُ بالشرب وحيدة وفتشتُ عن مخرج للنجاة في غرفتي البالغة عشرة أمتار مربعة... ثمّ مرضتُ في بداية الشتاء وحملني فيليبير على السلالم ونقلني إلى الغرفة المجاورة... والبقية، أنت تعرفها...

ساد صمتٌ طويل.

ردّد فرانك مراراً:

- حسناً... حسناً...

كان منتصباً ومصالباً ذراعيه.

- حسناً... تتحدّثين عن حياة... هذا من البلاءة...

والآن؟ ماذا ستفعلين، الآن؟

- ...

نامت.

رفع الفراش حتى أنفها وأخذ أغراضه وخرج خلسةً. الآن وقد عرفها، لم يعد يجروء على التمدّد بجانبها. ثمّ كانت تشغل المكان كلّهُ...

كلّ المكان.

كان تائهاً.

جال للحظة في الشقّة، توجّه نحو المطبخ، فتح أبواب الخزائن ثم أغلقها وهو يهزّ رأسه.

على حرف النافذة، كان قلب الخسّ ذابلاً تماماً. رماه في حاوية النفايات ليعود ويجلس ممسكاً بقلم رصاص لكي ينهي رسمته. تردّد بشأن العينين... هل كان عليه أن يرسم نقطتين سوداوين في طرف القرنيتين أم نقطة واحدة في الأسفل؟

اللعنة... حتى في رسم الحلزون، كان فاشلاً!  
هيا، نقطة واحدة، هذا أحلى.

ارتدى ثيابه ودفع درّاجته وهو يضغط على رديه إلى أمام الكوخ. شاهده بيكوش يمرّ من دون اعتراض. لا بأس يا بنيّ، لا بأس... ستحصل هذا الصيف على لباس ماركة لاكوست، سار لبضعة أمتارٍ أخرى قبل أن يضغط على دواسة تشغيل المحرك وينطلق في جنح الظلام.

سلك أول شارعٍ إلى اليسار وسار في خطّ مستقيم. حينما وصل إلى البحر، وضع خوذته على بطنه ونظر إلى منارات البحارة الصيادين. استغلّ ذلك ليقول كلمتين أو ثلاثاً لدرّاجته. فلتتفهم قليلاً الموقف...

رغبة خفيفة في طقطقة أصابعه.

الكثير من الريح، ربّما؟

حمحم.

ها هو! هذا ما كان يبحث عنه الآن: مرشحة قهوة! انتظمت أفكاره... فسار على طول الميناء إلى أن وصل إلى أوّل مقهى صغير وشرب عصيراً وسط مشمّعات لامعة. حينما رفع بصره، اكتشف أحد معارفه القدامى في انعكاس المرأة: هو نفسه.

اندهشت صورته بصمت:

- إذاً... أهذا أنت؟

- نعم...

- ماذا تفعل هنا؟

- جئتُ أشرب فنجاناً من القهوة.

- أريد أن أقول إنّ لديك فماً قذراً...

- أنا متعب...

- ألا زلت تبحث عن المغامرات العاطفية؟

- كلا.

- هيا أخبرني... ألم تكن مع فتاة، هذه الليلة؟

- لم تكن فتاة حقيقية...

- ماذا كانت إذاً؟

- لا أدري.

قال الشبح:

- هيه أنت، يا بني... هيه يا معلّمه! خذوا فنجان، هناك،

صديقي الذي يرش السمك، هناك!

- لا، لا، اترك... .

- اترك ماذا؟

- كلّ شيء.
- حسناً ما بك يا ليستاف؟
- ألمّ في القلب...
- أووه، أنت عاشق؟
- قد يكون ذلك...
- حسناً! هذا خبرٌ سار! ابتهج يا عزيزي العجوز! ابتهج!
- اصعد إلى البار! غتي!
- كفى.
- ولكن ما بك؟
- لا شيء... إنها... إنها جيدة، هذه مناسبة جداً لي على أيّ حال...
- ولكن لا... هذه ترّهات! لا أحد يناسب الآخر جداً...
- خاصّة النساء!
- قلت لك إنّها ليست امرأة...
- أهو رجل؟!
- كلا...
- إنسانٌ آلي؟ أهى لارا كروفت؟
- أفضل من هذا...
- أفضل من لارا كروفت؟ يا للهول! هناك أناسٌ في الشرفة، إذا؟
- سأقول A 85...
- ابتسم لنفسه:

- حسناً... إن كنت مغرماً بلوحة لتقطيع الخبز، أنت في مازق، أنا أفهم هذا على نحو أفضل...  
كان يلعن نفسه:

- كلا، أنت لا تفهم شيئاً! أنت لم تفهم قط شيئاً! لا تزال هنا، تمطّ فمك الكبير لتتناسى أنك لا تفهم شيئاً! مذ كنت صبيّاً، أنت تزعج عالمك! أنت تثير شفقتي... حينما تكلمني هذه الفتاة، لا أفهم نصف كلماتها، أفهم؟ أشعر بنفسي جاهلاً إلى جانبها. قد ترى كلّ ما عاشته سابقاً... اللعنة، أنا لا أضمن... أعتقد بأنني سأستسلم...

برطمت الصورة المنعكسة في المرأة.  
تذمّر فرانك:

- ماذا؟

- أنت فاسدٌ للغاية...

- لقد تغيّرت.

- كلا... أنت متعبٌ فقط...

- منذ عشرين سنة وأنا متعب...

- ماذا عانت في حياتها؟

- الأمرين.

- حسناً، هذا ممتاز! ليس عليك سوى أن تقترح عليها أمراً

آخر!

- ماذا؟

- آ! أتعمّد أم ماذا؟

- كلا.

- بلى. أنت تتعمد لكي تثير شفقتي... فكّر قليلاً. أنا واثقٌ من أنك سوف تجد... ..

- أنا خائف.

- هذه إشارة حسنة.

- نعم ولكن لو أنني... ..

تشوّشت المرأة.

قالت المعلّمة:

- أيها السادة، لقد وصل الخبز، مَنْ منكم يريد شطيرة؟

الشابّ؟

- شكراً، سينجح الأمر.

نعم، سينجح الأمر.

في الجدار أو في مكانٍ آخر... ..

سوف نرى.

كانوا يجّهزون السوق. اشترى فرانك زهوراً من مؤخّرة

الشاحنة، ألدك التّمّة، يا صبيّ؟ ودسّها تحت بلوزته.

زهورٌ، لا بأس بذلك كبداية، أليس كذلك؟

ألدك البقية يا صبيّ؟ بالتأكيد، يا عجوز! بالتأكيد!

وللمرّة الأولى في حياته، سار نحو باريس وهو يشاهد

الشمس ترتفع.

كان فيليبير يستحمّ. حمل الفطور إلى بوليت وعانقها ممسداً

خدّيهما المتهدّلتين:

- إذا يا جدتي، ألسنت مرتاحة هنا؟

- ولكنتك متجمد من البرد؟ من أين جاءك هذا أيضاً؟  
نهض قائلاً:

- أوه هناك...

كانت تفوح من بلوزته رائحة الميموزا. لعدم وجود مزهرية،  
قطع قارورة بلاستيك بسكين الخبز.

- هيه، يا فيلو؟

- انتظر لحظة، أنا أعدّ لنفسني كوباً من رقائق الذرة... هل  
أعددت لنا قائمة المشتريات؟

- نعم... كيف تُكْتَب كلمة ريفيرا؟

- تُكْتَب بحرفٍ كبير ومن دون شدة.

- شكراً.

ثنى كلمته الصغيرة ووضعها مع المزهرية قرب القوقعة  
الحلزونية.

حلق ذقنه.

سأل الآخر:

- أين كنا؟ مرة أخرى في المرأة.

- كلا، هذا جيد. سوف أتدبّر أمري...

- حسناً، حسناً... حظاً سعيداً، اتفقنا؟

عبس فرانك.

رشم عطراً بعد الخلاقة.

كان متأخراً بعشر دقائق وكان الاجتماع قد بدأ.

أشار الشيف:

- ها هو قلبنا الجميل ...  
جلس مبتسماً.

## 19

كما في كل مرة يكون فيها منهكاً، حرق نفسه بخطورة. أصرّ صديقه الأمين على أن يعالجه وانتهى إلى أن مدّ ذراعه بصمت. لا طاقة له على التشكي أو التآلم. آلة متفجرة. خارج الخدمة، خارج الاستخدام، خارج القدرة على الإيذاء، خارج كل شيء...

عاد مترنحاً، ضبط ساعته المنبهة ليتأكد من أنه لن ينام حتى صباح اليوم التالي، خلع حذاءه من دون أن يحلّ الرباط وسقط على سريره متصلب الذراعين. الآن نعم، كانت يده تؤلمه وأطلق صرخة ألم قبل أن يستغرق في النوم.

كان قد نام منذ أكثر من ساعة حينما جاءت كاميل لمقابلته في الحلم - وكانت خفيفة جداً بحيث لم يكن من الممكن إلا أن تكون هي -.

للأسف، لم يرَ إن كانت عارية... كانت ممدة فوقه. الفخذان على الفخذين، البطن على البطن، الكتفان على الكتفين. وضعت فمها على أذنه وهمست:

- ليستافيه، سأغتصبك...

كان يتسم في نومه. أولاً لأن ذلك كان هدياناً جميلاً وثانياً لأنّ ألمه كان يدغدغه وراء الهاويات.



- نعم... لنته من الأمر... سأغتصبك ليكون لدي سببٌ  
وجيه لأخذك بين ذراعي... ولكن لا تتحرك... إن قاومت،  
سأخفك يا غلامي الصغير...

أراد أن يضمّ كلّ شيء، جسده، يديه وشراشفه ليتأكد من أنه  
لن يستيقظ ولكن أحداً أمسكه من معصميه.

من جرّاء الألم، تبين له أنه لم يكن يحلم، ولأنه كان  
يتألّم، أدرك سعادته.

واضعة راحتي يديها على راحتيه، شعرت كاميل بلمس  
شاش الجراحة:

- هل تتألّم؟

- نعم.

- هذا أفضل.

وبدأت بالحركة.

وهو أيضاً.

قالت غاضبة:

- تتت تت، دعني أفعالها...

أخرجت قطعة بلاستيك وقبعتها، توقفت عند رقبته ونزلت  
قليلاً ومرّرت يديها تحت خاصرتيه.

بعد عدّة لمسات ومداعبات صامتة، تشبّثت بكتفيه، تقوّست  
وبلغت اللذة خلال لحظة قصيرة جداً.

سأل، محبطاً بعض الشيء:

- هل بلغتِ الذروة؟

- نعم...  
 - أوه...  
 - كنتُ جائعةً جداً...  
 أغلقِ فرانكِ ذراعيه على ظهرها.  
 أضافت:  
 - آسفة...  
 - لا جدوى من التأسّف، يا آنستي... سوف أقدم شكوى.  
 - بكلّ سرور...  
 - كلا، ليس الآن... أنا مرتاحٌ جداً هكذا، ابقي كما  
 أنتِ، أرجوكِ... أوه سحقاً...  
 - ماذا؟  
 - أنا أغطي كلّ جسمكِ بكريم البيافين...  
 ابتسمت:  
 - هذا أفضل، سيكون هذا مفيداً دائماً...  
 أغمض فرانك عينيه. كان يلامس الجائزة الكبرى. فتاة حلوة  
 وذكيّة ومشاغبة. أوه... شكراً يا ربّي، شكراً... كان أمراً جميلاً  
 جداً لو كان صحيحاً.  
 دبقان بعض الشيء، دهنيان بعض الشيء، ناما مجدداً تحت  
 شرفيّ تفوح منه رائحة الفجور وآثار الحريق.

## 20

حينما نهضت كاميل لتذهب وترى بوليت، داست على  
 ساعته المنبّهة وفصلتها. لم يجرؤ أحدٌ على إيقاظه. لا الأسرة  
 الساهية ولا رئيس قسمه الذي عمل بديلاً عنه من دون اعتراض.

- كم كان عليه أن يتألم، المسكين... .
- خرج من غرفته نحو الساعة الثانية فجراً ودقّ باب الغرفة التي تقع في نهاية الشقة.
- جثا عند طرف حشيتها.
- كانت تقرأ.
- احم... احم... .
- أنزلت صحيفتها ورفعت رأسها وسألت مندهشة:
- هل من مشكلة؟
- أوه... يا سيّدي الضابط، لقد... لقد جئتُ شاكياً... .
- هل سُرِق منك شيء ما؟
- هيه، لا بأس! لنهدأ! سوف لن يجيب بعبارة «يا قلبي» أو بحماقة من هذا القبيل... .
- هذا يعني أنّ... أوه... أننا قد اندسنا إلى غرفتي البارحة... .
- حقّاً؟
- نعم.
- ولكنك كنت هنا؟
- كنتُ نائماً... .
- هل شاهدت شيئاً؟
- كلا.
- كم هذا محزن... . كنت جريئاً على الأقلّ؟
- أجاب مرتبكاً:

- كلاً.

تنهّدت :

- هذه شهادة غامضة... أنا أدري أن هذه الأمور ليست مريحة جداً أبداً، ولكن... أنت تعلم... سيكون من الأفضل إجراء إعادة تمثيل الوقائع...

- ماذا؟

- نعم...

بقفزة واحدة، كان فوقها. صاحت.

- أنا أيضاً جائع جداً، أنا أيضاً! لم أتناول شيئاً منذ البارحة مساءً وأنتِ ستخسرين يا ماري بوبانس. سحقاً... مذ بدأ بطني يقرقر... سأتضايق، تفضّلي...

التهمها من رأسها حتى أخمص قدميها.

بدأ بنمشها ثم مصمصها، داعبها، التهمها، لعقها، ابتلعها، ففصصها، نهشها، عضعضها، وقضمها حتى العظام. بمرور اللحظات، استلذت به وبادلته اللذة.

ما عادا يجرؤان على تبادل الكلام ولا حتى النظر.

أبدت كاميل أسفها.

فسأل فرانك قلقاً:

- ماذا هناك؟

- آه يا سيّدي... أنا أدري، هذه حماقة كبيرة، ولكن يلزمني نسخة أخرى لأرشيّفنا وقد نسيْتُ أن أضع ورق الكربون... وسيكون علينا أن نبدأ كلّ شيء من البداية...

- الآن؟؟؟

- كلا. ليس الآن. ولكن أيضاً لا ينبغي أن نؤجل كثيراً...  
بعدد المرات التي كنت تنسى فيها بعض التفاصيل...

- حسناً... وأنتِ، أنتِ... أعتقدين بأنني سأسترد حقّي؟  
- سيدهشني ذلك...

- لقد أخذ كل شيء، أتعلمين؟

- كل شيء؟

- تقريباً كل شيء...

- صعبٌ...

كانت كاميل ممدّة على بطنها وتضع ذقنها على يديها.  
- أنتِ جميلة.

قالت وهي تغمر نفسها بتجويف ذراعيه:

- كفى...

- لا، أنتِ محقّة، لستِ جميلة، أنتِ... لا أدري كيف  
أعبر... أنتِ نابضة بالحياة... كل شيء فيك ينبض بالحياة:  
شعرك، عيناك، أذناك، أنفك الصغير، فمك الكبير، يداك،  
مؤخرتك الرائعة، ساقاك الطويلتان، تكشيرتك، صوتك،  
عذوبتك، صمتك،...ك...ك...ك...

- أعضاء جسمي؟

- نعم...

- لستُ جميلة ولكن أعضاء جسمي نابضة بالحياة. رائع  
هذا الاعتراف... لم يعترف أحدٌ لي بهذا من قبل...

قال مغتمًا:

- لا تتلاعبي بالكلمات، هذا سهلٌ للغاية بالنسبة لك...  
أوه... ..

- ماذا؟

- أنا لا زلتُ أكثر جوعاً من ذي قبل... يجب فعلاً أن  
أذهب لأتناول شيئاً ما، الآن... ..

- حسناً إذًا... إلى اللذة، كما يُقال.

قال مرعوباً:

- ألا... ألا تريدان أن أجلب لك شيئاً؟

قالت وهي تتمطى:

- ماذا تقترح عليّ؟

- ما تشائين... ..

ثم، بعد لحظة من التفكير:

- ... لا شيء... كل شيء... ..

- حسناً. سأكل.

كان مسنداً ظهره إلى الجدار، وصينية الطعام على ركبتيه.  
فتح قارورةً وقدم لها كأساً. وضعت مفكرتها.

ضربا قدحيهما ببعضهما.

- نخب المستقبل... ..

صححت له:

- كلا. بل نخب هذه اللحظة.

آخ!

- المستقبل أوه... أنت... أنت... أنت...

حدقت في عينيه:

- طمئني يا فرانك، ألن نصبح عاشقين في نهاية المطاف؟  
تظاهر بالاختناق:

- امم، همم... أنتِ مجنونة أم ماذا؟ بالطبع لا!

- آه! لقد أخفتني... لقد سبق وارتكبنا، نحن الاثنان،

الكثير من الحماقات...

- أجل. أنا. أجل.

- ماذا؟

- نعم. فلنتضاجع، ولنضرب الأقداح بالأقداح، ولنخرج

للتنزه، ولنتعاون، تعلقني برقبتي ودعيني أطوف بك إن شئت

ولكن... فلنتجنب التحوّل إلى عاشقين... من فضلك...

- ممتاز. سأكتب ذلك.

- أترسميني؟

- نعم.

- كيف ترسميني؟

- كما أراك...

- هل أنا جيد؟

- أنا معجبةٌ بك.

أضاف مرقاً إلى صحنه ووضع كأسه واستسلم للعودة إلى

تسوية بعض الهئات الإدارية...

أخذا وقتها هذه المرّة وحينما تدحرج كلّ منهما على

جانبه، وقد شبعنا ووصلا إلى حافة الهاوية، نظر فرانك إلى  
السقف قائلاً:

- حسناً يا كاميل، سوف لن أحبّك قط.

- شكراً يا فرانك، وأنا كذلك.



## القسم الخامس



لم يتغيّر أيّ شيء، تغيّر كلّ شيء. فقد فرانك شهيتته، واستأنفت كاميل الرسم. غدت باريس أجمل وأبهى وأبهج. أصبح الناس أكثر ابتساماً. بدا كلّ شيء في متناول اليد، أصبحت حدود العالم أكثر وضوحاً وأصبح العالم أخفّ وطأةً.

أهو مناخٌ محليّ في شان دو مارس؟ أهو ارتفاع حرارة كوكبهم؟ أهي نهاية عابرة لانعدام الجاذبية؟ لم يعد هناك من معنى لأيّ شيء ولم يعد هناك من أهمية لأيّ شيء.

كانا ينتقلان من سرير أحدهما إلى حسيّة الآخر، يتمدّدان بحذر ويتبادلان كلمات رقيقة فيما يداعب كل منهما ظهر الآخر. لم يشأ أيّ منهما أن يتعرّى أمام الآخر، كانا على شيءٍ من الرعونة، وشيءٍ من الحماقة ويشعران بأنّهما مرغمان على سحب الغطاء على حشمتهما قبل أن يستغرقا في الفسق والفجور.

أهو تمرينٌ جديد أم أوّل مشروعٍ لمرسومٍ يُعدّ بقلم رصاص؟ كانا حذرين ويثابران بصمت.

نزع بيكو سترته وأخرجت السيّدة بيريرا أخص زهورها. أمّا بالنسبة لإناث البغاء، فكان الوقت لا يزال مبكراً بعض الشيء.

قالت ذات صباح :

- هب، هب، هب، لديّ شيءٌ لكِ... .

كانت الرسالة قد أُرسِلت من كوت دارمور.

10 أيلول (سبتمبر) 1889. افتحوا القوسين. المشكلة التي

كنتُ أعاني منها في حلقي على وشك الزوال، لا زلتُ أكل

بصعوبة، ولكن المهمّ هو أنني شُفيت. أغلقوا القوسين. شكراً.

حينما قلبت البطاقة، اكتشفت كاميل الوجه المضطرب لفان

غوغ.

دستّه في كراسها.

تلقى متجر مونوبري ضربة موجعة. بفضل الكتب الثلاثة التي

أهداها فيليبير له، باريس السرية والغريبة، باريس 300 واجهة

معمارية للفضوليين و دليل مقاهي الشاي في باريس، رفعت

كاميل بصرها ولم تعد تتفوّه بسوءٍ عن حيّها حيث ينفّث الفنّ

الجديد على السماء المفتوحة.

بعد ذلك، تمشياً بدءاً من البيوت التقليدية في جادة

بوسيجور حتى حي موزايا، من حديقة بوت-شومون مروراً بفندق

الشمال ومقبرة سان-فانسان التي كانتا تتزهان فيها يوم ذاك مع

موريس أوتريلو وأوجين بودان على قبر مارسيل آيميه.

- أمّا تيوفيل ألكسندر ستاينلن، الرسام المدهش للقطط

والبؤس الإنساني، فهو يرقد تحت شجرة، في الركن الجنوبي

الشرقي للمقبرة.

وضعت كاميل الدليل على ركبتيها وردّدت:

- الرسام المدهش للقطط والبؤس الإنساني، فهو يرقد

تحت شجرة، في الركن الجنوبي الشرقي للمقبرة... عبارة جميلة، أليس كذلك؟

- لماذا تصطحبيني دائماً إلى الموتى؟

- عفواً؟

...-

- إلى أين تريدني أن تذهبي، يا عزيزتي بوليت؟ إلى ملهى ليلى؟

...-

- أوهوه! بوليت؟

- لنعد. أنا متعبة.

وهذه المرّة أيضاً، انتظرتنا كثيراً لتأمين سيارة أجرة أبدى سائقها استياءه بسبب الكرسي المتحرك.

كان ذاك المعقد اختباراً حقيقياً للمغفلين...

كانت متعبة.

ازدادت تعباً وثقلاً. لم تشأ كاميل أن توافقها الرأي ولكنها ظلّت باستمرار تحرص على استبقائها والتعارك معها لكي تلبسها ثيابها وتطعمها وتُرغمها على الخوض في أحاديث. لم تكن تخوض أيّ حديثٍ بل ولم تكن تردّ على أيّ سؤالٍ. أبت السيّدة العجوز العنيدة أن تراجع طبيباً ولم تحاول الشابة المتسامحة أن تعارض رغبتها، أولاً لأن ذلك لم يكن من عاداتها وثانياً لأنّ فرانك كان قد أقنعها بذلك. ولكن حينما ذهبنا إلى المكتبة، استغرقت في مجلّات وكتب طبية وقرأت أموراً محبّطة حول

تهالك الدماغ وأعراضٍ أخرى لألزهايمر. ثم رثبت علب الباندور واتخذت قراراتها الصعبة ولكن الصائبة: إن لم تشأ أن تُعالج، إن لم تشأ أن تهتمّ بعالم اليوم، إن لم تشأ أن تُنهي طبقها من الطعام، إن شاءت أن ترتدي معطفها فوق قميص نومها لتذهب وتتنزّه، فهذا من حقها. حقها المشروع. سوف لن تزعجها بذلك وسوف لن تفعل سوى الحديث عن ماضيها، عن والدتها، عن أماسي قطف العنب، عن اليوم الذي كاد فيه السيّد القسّ أن يغرق في لوير لأنّه تسرّع في رمي شبكة الصيد وعلقت هذه بأحد أزرار جُبته، أو أيضاً عن حديقته لترى اللمعان في عينيها اللتين غدتا شبه معتمتين. على أيّ حال، لم تجد كاميل ما هو أفضل من ذلك...

- أيّ نوعٍ من الخسّ كنتم تزرعون؟

- دو لارين ميه أو لاغروس بلوند باريسوز.

- وأيّ نوعٍ من الجزر؟

- لا باليزو بالطبع...

- والسبانخ؟

- أوه... السبانخ... لو مونستريو دو فيروفلاي. كان هذا

النوع غزير الإنتاج...

- ولكن كيف تتذكّرين كلّ هذه الأسماء؟

- لا زلتُ أتذكّر الكثير منها... كنتُ أتصقّح كاتالوغ

فيلمورن كلّ مساءً، مثلما يقرأ البعض كتب القّداس... كنتُ

أعشق ذلك... كان زوجي يتأمّل في جُعب الخراطيش وهو يقرأ

دليل مانوفرانس وأنا كنتُ أحبّ النباتات... أتعرفين أنّ الناس

الطيبين كانوا يأتون من بعيد لكي يبدو إعجابهم بحديثي؟  
كانت تضعها تحت الضوء وترسمها وهي تصغي إليها.  
وكلّما كانت ترسمها أكثر، كانت تزداد حباً لها.

هل كانت ستكافح أكثر لتبقى واقفة على قدميها لو لم يكن  
هناك الكرسي المتحرك؟ هل كانت ستعاملها كطفلة متوسّلة إليها  
لتجلس في كلّ آنٍ للذهاب بسرعة أكثر؟ على الأرجح...  
مهما يكن... لم يكن بوسع أحدٍ أن يأخذ منهما ما كانتا  
تعيشانه، كل تلك النظرات المتبادلة وتلك الأيدي الممدودة في  
حين كانت الحياة تتفتت لأصغر ذكرى. لا فرانك ولا فيليبير  
الذي كان بعيداً كلّ البعد عن فهم صداقتهما غير المعقولة، ولا  
الأطباء الذين لم يمنعوا قطّ عجوزاً من الرجوع إلى ضفاف النهر  
والعودة إلى سنّ الثامنة والصراخ: «سيّدي القسّ! سيّدي القسّ»  
وهي تبكي لأنّه لو غرق القس لذهب كلّ أطفال جوقته إلى  
الجحيم مباشرة...

- أنا رميتُ له مسبّحتي، تصوّري ماذا بوسع ذلك أن يساعد  
هذا الرجل المسكين... أعتقد أنني بدأتُ أفقد الثقة في ذلك  
اليوم لأنّه بدل أن يتضرّع إلى الربّ، كان يستغيثُ مستنجداً  
بوالدته... ووجدتُ ذلك مُريباً...

## 2

- فرانك؟
- اممم...
- أنا قلقة على بوليت...

- أعلم ذلك.

- ما الذي ينبغي فعله؟ أن أرغمها على أن يعاينه طبيبٌ؟

- أعتقدُ أنني سأبيع درّاجتي...

- حسناً. أنت تهزأ مما أقول...

### 3

لم يبعها. بادلها بسيارة غولف قديمة. كان في قاع الهاوية في ذلك الأسبوع ولكنه تجنّب ركوبها، وفي يوم الأحد التالي، رتبّ الأمور لكي يجتمعوا ثلاثتهم حول سرير بوليت.

لحسن الحظّ، كان الطقس جميلاً.

سألته:

- ألن تذهب إلى العمل؟

- لا رغبة لديّ بالذهاب اليوم... أخبريني إذاً... أوه...

ألم يكن الأمس ربيعاً؟

احتار الآخرون بين مَنْ كان يعيش في طلاسمة واللواتي فقدن مفهوم الزمن منذ أسابيع، كان الأمل في أدنى استجابة نوعاً من خداع الذات...

لم يضطرب:

- أجل، أيّها الباريسيون! إنّه الربيع، أنا أخبركم بذلك!

- ماذا؟

كان الحضور متراخياً بعض الشيء...

- هل الأمر لديكم سواء؟



- كلا، كلا... ..

- بلى. الأمر لديكم سواء، أرى ذلك بوضوح... ..

اقترب من النافذة:

- لا، ولكنني أقول هذا جزافاً... .. كنتُ أقول فقط بأنه من المؤسف أن نبقى هنا ننظر إلى الصينيين وهم يصلون إلى شان دو مارس في حين لدينا بيتٌ ريفيٌّ جميلٌ ككلِّ أثرياء العمارة وإن استعجلتم قليلاً سيمكننا التوقف في سوق آزاي وشراء ما يمكن تحضيره للغداء... .. أقصد، أنا... .. هذا ما قلته، اتفقنا؟ إذا كان هذا لا يستهويكم، سأعود إلى النوم... ..

مثل سلحفاة، ثنت بوليت رقبته الشائخة المكسوة بالتجاعيد وخرجت من تحت قوقعتها:

- عفواً؟

- أوه... .. أمرٌ بسيط... .. كنتُ أفكر في طبقٍ من أضلاع العجل مع خضارٍ مطهّوة... .. وربما فراولة كحلوى... .. إن كانت جميلة، إيه؟ وإلا سأعدّ فطيرة محشوة بالتفاح... .. يجب أن نرى... .. وفوق كلّ هذا قارورة صغيرة من نبيذ بورغوي المقدّمة من صديقي كريستوف وقيلولة مناسبة تحت الشمس، هل هذا يعينك؟

سأل فيليبير:

- وعملك؟

- أوف... .. لقد عملتُ كثيراً، أليس كذلك؟

سألت كاميل ساخرةً:

- وكيف نذهب إلى هناك؟ بسيارتك الرائعة؟

ارتشف قليلاً من القهوة وقال بهدوء:

- لديّ سيارة جميلة، وهي أمام البيت، لقد دشّنها لي هذا الوغد بيكو مرتين هذا الصباح. الكرسي المتحرك مشنيّ في الصندوق الخلفي، وقد ملأت الخزان بالوقود للتوّ... ..  
وضع فنجاناه ورفع الصينية.

- هيا... أسرعوا يا شباب. لديّ بعض البازيلاء صغيرة ينبغي أن أحجبها... ..

سقطت بوليت من سريرها. لم يكن ذلك لخللٍ في مخّها وإنما لتعجلها.

ما قيل نُفِّذ وما نُفِّذ تکرّر أسبوعياً.

ككلّ الأثرياء - ولكن من دونهم بما أنّ توقيتهم كان مختلفاً - كانوا يستيقظون باكراً جداً يوم الأحد ويعودون الاثنين مساءً، وأيديهم محمّلة بالأطعمة والزهور والرسوم والتعب.  
نهضت بوليت.

أحياناً كانت كاميل تعاني في بلوغ الصفاء مجابهة الأمور بلا خوف. ما كانت تعيشه مع فرانك كان ممتعاً. لكن مبتهجين، لنكن مجنونين، لنسمر الأبواب، لنحفر على لحاء الشجر، لتبادل عيّنات من دمنا، لنكفّ عن التفكير بالأمر، لنكتشف أنفسنا، لتساقط أوراقنا، لنعاني قليلاً، لنقطف بدءاً من اليوم ورود الحياة ولكن قد لا ينجح ذلك أبداً. لم تكن تريد أن تستلقي هناك في الطابق العلوي، ولكن حسناً، كانت قضيتهم فاشلة. كانت هناك الكثير من الفوارق، الكثير من... .. فلنختصر.

لا بأس. هي لم تنجح في دفع كاميل إلى الاستسلام وكانت كاميل مترصّدة. كانت هناك باستمرار إحداهنّ تنظر إلى الأخرى مغضّنة أنفسها.

كان الأمر محزناً ولكنّه كان هكذا في الواقع. ولكن أحياناً لا. كانت تنجح في التخطيط للأمر وكانت المزعجتان تتحدان كأمراة واحدة، حمقاء وعزلاء. أحياناً كانت تُخدع.

يومئذٍ مثلاً... حدث السيارة، حادث القيلولة، حادث السوق الساذج وكلّ شيء، لم يكن سيئاً، ولكن القادم كان الأعظم.

كان الأعظم، حينما توقّف عند مدخل القرية والتفت: - جدّتي، عليك أن تمشي قليلاً وتكملي الطريق مع كاميل... أمّا نحن فسنتفتح باب البيت في هذه الأثناء... عبقرية.

لأنّه كان يجب رؤية الأمّ النحيلة، بخفّين من قماشٍ ناعمٍ متشبّثة بذراع قصبة شبابه، القصبة التي كانت تفارق الشاطئ منذ شهور لتغوص في مزهرية، والتي تقدّمت بكلّ هدوء في البداية، بكلّ هدوء لثلاث تترحلق، ثمّ رفعت رأسها وركبتيها وخفّفت من تشنّجها...

كان يجب رؤية ذلك لكي يوزن كلمات ساذجة مثل السعادة أو الغبطة. ذاك الوجه الذي نَصُر فجأةً، تلك الهيئة الملكية، ضرباتها الخفيفة بالذقن على الستائر وتعليقاتها اللاذعة حول حالة حمّالات الأصبص وعتبات الأبواب...

فجأة سارت بسرعة، وعاد الدم إليها مع الذكريات ورائحة  
القطران الفاتر... ..

- انظري، يا كاميل، هذا بيتي. هذا هو.

#### 4

تجمّدت كاميل في مكانها.

- ماذا إذا؟ ما بك؟

- أهذا... .. أهذا بيتك؟

- طبعاً نعم! أوه انظري، هذا الركاب... .. لم يُهَيِّأ أيّ

شيء... .. يا له من بؤس... ..

- وكأنه بيتي... ..

- عفواً؟

بيتها، ليس بيت مودون الذي كان والداها يتشاجران فيه  
وإنما البيت الذي كانت ترسمه لنفسها منذ أن صارت في سنّ  
الإمساك بريشة الرسم. بيتها الصغير المتخيّل، المكان الذي كانت  
تلجأ إليه مع أحلامها بالدجاج وعلب الصفيح. عرائس بولي  
بوكيت البلاستيك خاصّتها، سيارة باربي للتخيم خاصّتها، عشّ  
حيوانات مارسويلامي<sup>(1)</sup> المتخيّلة خاصّتها، بيتها الأزرق المعلق  
على الراية، تارا<sup>(2)</sup>، مزرعتها الأفريقية، ملاذها في الجبال... ..

(1) مارسويلامي: حيوان متخيّل، ابتدعه أندريه فرانكان عام 1952، وظهر في  
سلسلة سيرو وفانتازيو للصور المتحركة. (المترجم).

(2) تارا: عاصمة إيرلندا القديمة، بحسب الأسطورة السلتية. (المترجم).

كان منزل بوليت أشبه بامرأة مسنة نحيلة تشرَّب بعنقها  
وتستقبلك مثبتة اليدين على الوركين بالهيئة المعهودة للنساء  
المتصنعات. اللواتي يخفضن عيونهنّ ويتظاهرن بالتواضع في حين  
ينضح كل شيء فيهنّ بالقناعة والرضا التامين.

كان منزل بوليت أشبه بضفدع أراد أن يصبح بضخامة ثور.  
كوح حراسة صغير لم يخش منافسة قصري شامبور وشينونسو.

أحلام عظّمة، فلاحه صغيرة مزهوّة وفخورة قائلة:

- انظري جيّداً يا أختاه. هل هذا يكفي، أخبريني. سقفي  
القرميدي مع هذه الصفائح الطباشيرية البيض التي تعلق أطر الباب  
والنوافذ، أهو بلا قيمة؟

- لا، لا، أبداً.

- حقاً؟ ونافذتاي الصغيرتان تلك؟ أجميلة هاتين الطائقتين  
المنحوتتين من الصخر؟

- إطلاقاً.

- إطلاقاً؟ والإفريز؟ لقد نحتته لي أحد الأصدقاء!

- لا تقتربي منه أبداً، يا عزيزتي.

اغتاظت البليدة الهزيلة كثيراً بحيث توارت تحت عريشة  
العنب وبين أصص الزهور غير المتجانسة ودفعت الازدراء إلى  
حدّ أنّها علّقت حدوة حصان كانت موجودة فوق الباب. لم تكن  
أنيس سوريل وبقية سيّدات بواتيه يملكن هذا.

كان بيت بوليت موجوداً.

لم ترغب في الدخول، أرادت أن ترى حديقته. يا

للبؤس... كان كلّ شيء هالكاً... كان نبات النجيل متعرّشاً في كلّ مكان... ثمّ حان موسم زراعة... الملفوف، الجزر، الفراولة، الكراث... كلّ هذه الأرض المليئة بنبات الطرخشفون... يا للبؤس... لحسن الحظّ لديّ زهوري... أقصد أنّ الوقت هنا لا يزال مبكّراً بعض الشيء... أين النرجس؟ آه! ها هو! والزعفران؟ وهذا، انظري يا كاميل، انحني، كم هذا جميل... لا أراها، ولكن لا بدّ أنّها في مكانٍ ما من هنا...

- الزرقاء الصغيرة؟

- نعم.

- ما اسمها؟

أنت:

- بلبوس...

- ماذا؟

- حسناً، ينبغي تقسيمها...

- لا مشكلة! سنعتني بها غداً! سوف تشرح لي...

- ستقومين بهذا العمل؟

- طبعاً! وسوف ترين أنني سأكون مجدّة أكثر مما أكون في

المطبخ!

- وزهر البازيلاء ذو الرائحة أيضاً... يجب زرعه... كانت

الزهرة المفضّلة لوالديّ...

- كلّ ما تريدينه...

جست كاميل حقيبتها. هذا جيد، لم تنس ألوانها...  
دُفِع الكرسي المتحرك إلى الشمس وساعدها فيليبير على  
الجلوس. ثارت انفعالات كثيرة.

- انظري، يا جدتي! انظري مَنْ هناك؟

كان فرانك واقفاً على درج المدخل، وسكينٌ كبير في يد  
وقط في الأخرى.

- في النهاية، أعتقد بأنني سأعدُّ لك وجبة أرانب!

أخرجوا كراسي وتنزّهوا بمعاطفهم. أفرطوا في تناول  
الحلوى واغمضوا عيونهم ومددوا سيقانهم واستمتعوا بالشمس  
اللطيفة في الريف.

كانت العصافير تزقزق، وكان فرانك وفيليبير يتجادلان:

- أقول لك إنّ هذا شحورر...

- كلا، هذا عندليب.

- شحورر!

- عندليب! تَبَّ، هذا بيتي! أنا أعرف هذه الطيور!

تنهّد فيليبير:

- كفى، كنت دائماً منهمكاً في تهريب الدراجات، كيف  
استطعت أن تسمعها؟ في حين أنا الذي أقرأ بصمت، لديّ كلّ  
الوقت لتكون لهجاتها مألوفة بالنسبة لي... غناء الشحورر يكون  
متواصلاً ومديداً في حين أنّ غناء أبو الحنّاء يشبه قطرات ماءٍ  
صغيرة متساقطة... وهنا أوكد لك بأنّ هذا شحورر... إنّ  
بافاروتي هو الذي يؤدّي هذه التنغيمات...

- جدّتي... ما هذا؟

كانت نائمة.

- كاميل... ما هذا؟

- بظريقان يفسدان عليّ الصمت.

- ممتاز... بما أنّ الأمر هكذا... تعال يا فيلو

سأصطحبك إلى الصيد.

- ماذا؟ أوه... لست... لستُ موهوباً في الصيد... لا

زلتُ... لا زلتُ أتعثر...

ضحك فرانك.

- تعال يا عزيزي فيلو، تعال. تعال وحدثني عن عشيقتك

لكي أشرح لك أين هي بكرة قصبه الصيد...

حملق فيليبير في كاميل.

دافعتُ عن نفسها:

- هيه! أنا لم أقل شيئاً!

- كلا، ليست هي من أخبرتني. إنه خنصري...

ابتعد غروكينبول الطويل وفي رقبتة عقدة الفراشة وعلى عينه

نظارة ذات زجاجة واحدة وفيلوشار القصير وقد عصّب رأسه

بعصابة القرصان وهما يرفعان يداً وينزلان أخرى...

- إذاً، أخبرني يا غلامي العزيز، أخبر عمو فرانك بما

لديك من طعم... الطعم مهم جداً، أتدري؟ لأنّ تلك

الحيوانات ليست مغفلة... أوووه، كللللا... ليست مغفلة

أبدأ...



حينما استيقظت بوليت، قامتا بجولة حول القرية بالسيارة ثم  
أرغمتها كاميل على الاستحمام لكي تدفئها.  
كانت تعضّ على نواجذها.  
لم يكن كلّ ذلك معقولاً...  
لا بأس.

أضرم فيليبير النار وأعدّ فرانك العشاء.  
نامت بوليت باكراً ورسمتهما كاميل وهما يلعبان الشطرنج.  
- كاميل؟

- اممم...

- لماذا ترسمين دائماً؟

- لأنني لا أجد شيئاً سوى الرسم...

- والآن؟ مَنْ ترسمين؟

- المجنون والفارس.

كان من المقرر أن ينام الصبيان على الأريكة وكاميل على  
سرير فرانك الصغير.

قال فيليبير:

- أوه... أأظن يكون من الأفضل أن تنام كاميل على السرير

الكبير...

نظرا إليه وهما يتسلمان.

- صحيحٌ أنني مصاب بقصر النظر، ولكن ليس إلى هذه

الدرجة...

علّق فرانك:

- لا، لا، ستذهب إلى غرفتي... سنفعل مثل جيرانك...  
لا شيء قبل الزواج...

هذا لأنه كان يريد أن ينام معها في سرير طفولته. تحت  
صور لاعبي كرة القدم وكؤوس سباقات الدراجات في الطرق  
الوعرة. سوف لن يكون ذلك مريحاً ولا رومانسياً ولكنه كان  
الدليل على أنّ الحياة فتاة طيبة رغم كل شيء.

كان في غاية الضجر في تلك الغرفة... في غاية الضجر...  
لو قيل له بأنه ذات يوم سيصطحب أميرة إلى هنا ويتمدد  
هنا، بجانبها، في هذا السرير الصغير المصنوع من الأصفر  
والذي كان مثقوباً في ما مضى، والذي كان ينام فيه حينما كان  
طفلاً ومن ثم يتقلب فيه حالماً بنساءٍ حقيرات أقلّ جمالاً منها  
بكثير... لما صدّق... هو المبتور ذو القدمين الكبيرتين والذي  
كان يضع طنجرة صغيرة من البرونز على رأسه... كلاً، لم تكن  
هذه القضية رابحة في ما مضى...

نعم، كانت الحياة مطبخاً غريب الأطوار... أمضيتُ  
سنواتٍ في غرفة باردة وفجأة! بين ليلة وضحاها، أصبحت على  
المشاة، يا بني!

سألت كاميل:

- بماذا تفكر؟

- لا شيء... ترّهات... وأنتِ، أأنتِ بخير؟

- لا أستطيع أن أصدق بأنك قد كبرت هنا...

- لماذا؟

- لأنه مكانٌ بائسٌ جداً... إنه مكانٌ لا يرقى حتى إلى

مستوى قرية، إنه... إنه لا شيء... سوى بيوت صغيرة مع نوافذ صغيرة وقديمة... وذاك الكوخ الخشب، الذي لم يتغير فيه شيء منذ الخمسينات... لم أر في حياتي مطبخاً كهذا... والمقلاة التي تأخذ كل المكان! والمقصورات في الحديقة! كيف يمكن لطفل أن يتعرع هنا؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت لتعيش؟

- كنتُ أبحث عنكِ...

- كفى... ليس عن هذا، قلنا...

- أنتِ قلتِ...

- هيا...

- تعرفين جيداً ما فعلتُ، أنتِ عشتِ الأمر نفسه... سوى أنني، كانت لديّ الطبيعة... حظيتُ بهذه الفرصة... كنتُ دائماً خارج البيت... وقال فيلو عبثاً ما يريد، كان ذلك عندليباً، أنا أعرف ذلك، جدّي هو من قال لي ذلك وكان جدّي العقق الذي يغني... لم يكن في حاجةٍ إلى طيورٍ يستخدمها كطعم...

- وماذا فعلت لتعيش في باريس؟

- لم أعش...

- ألا يوجد عملٌ هنا؟

- كلا. لا شيء يُذكر. ولكنني لو رزقتُ بأولادٍ ذات يوم، أقسم لكِ بأنني سوف لن أدعهم يكبرون بين السيارات، هذا لن يحدث... إنّ طفلاً لا يملك جزمة طويلة وقصبة صيدٍ ومقلاع، ليس طفلاً حقيقياً. لماذا تبسمين؟

- لا شيء. أجلك ظريفاً.

- أودّ لو تريني شيئاً مختلفاً... ..

- لست سعيداً قط.

- كم واحداً تريدان؟

- عفواً؟

- كم طفلاً؟

تذمّرت:

- هيه... .. أتقصّصني أم ماذا؟

- مهلاً، لقد قلتُ لكِ هذا، ليس بالضرورة أن يكون

الأولاد متي!

- لا أريد أولاداً.

قال محبطاً:

- حقاً؟

- كلا.

- لماذا؟

- لأنّ.

طوّق رقبتها وشدّها بقوّة نحوه وهمس في أذنها:

- أخبريني... ..

- كلا.

- بلى. أخبريني. لن أبوح بذلك لأحدٍ... ..

- لا، لا أريد أن يبقوا لوحدهم، إذا متّ... ..

- أنتِ محقّة. ولهذا يجب أن ننجب الكثير منهم... .. ثم إنك

تعلمين... ..

ضمّها بشدّة أكثر.

- لن تموتي... أنتِ ملاك... والملاك لا يموت أبداً...  
بكت.

- ما بكِ إذا؟

- لا، لا شيء... هذا لأنّ دورتي الشهرية ستأتي... في  
كلّ مرّة، يحدث الأمر ذاته... أتألّم في كلّ مكانٍ من جسمي  
وأبكي لكلمة نعم أو لا...  
ابتسمت:

- ها أنت ترى أنني لستُ ملاكاً...  
5

كانا في العتمة منذ زمنٍ طويل، غير مرتاحين ومتشابكين،  
عندما قال فرانك:

- ثمّة أمرٌ يُكدرني...

- ما هو؟

- لديك أخت، أليس كذلك؟

- نعم...

- لماذا لا تلتقين بها؟

- لا أدري.

- هذه حجة واهية! يجب أن تلتقي بها!

- لماذا؟

- لأنّه! من الرائع أن يكون للمرء أخت! أنا كنتُ لأعطي

كلّ شيء لتكون لي أخت! كلّ شيء! حتى دراجتي الهوائية! حتى  
أماكني الأكثر سرية للصيد! حتى كرات البليارد الكهربائي  
خاصّتي! كما في الأغنية، تعلمين... أزواج القفازات، أزواج  
قبعات الرسميات...

- أعلم... لقد فكّرتُ في ذلك للحظة ولكنني لم أجرؤ... ..

- لماذا؟

- ربّما بسبب والدتي...

- كفيّ عن الحديث عن والدتك... إنها لا تجلب لكِ

سوى الآلام... لا تكوني مازوشية... لستِ مدينة لها بشيء،  
أتعلمين؟

- بالطبع بلى.

- بالطبع كلا. حينما يتصرّف الوالدان بطريقة سيّئة، لسنا

مضطرين لأن نحبّهم.

- بالطبع بلى.

- لماذا؟

- حسناً فقط لأنّهما والداك...

قال متذمراً:

- ليس من الصعب أن نكون والدين، يكفي أن نتضاجع.

ولكن الأمر يتعقّد بعد ذلك... أنا مثلاً، سوف لن أحبّ امرأة

بذريعة أنّها ضاجعتني في مرأب... ليس بوسعي أن أفعل

شيئاً...

- ولكنّ حالتي مختلفة...

- كلا، هذا أسوأ... في أيّ حالٍ تعودين كلّما تقابلينها...  
 في حالة مريعة. يكون وجهك...  
 - كفى! لا أريد الحديث عن ذلك.  
 - حسناً، حسناً، نقطة أخيرة. لسبب مضطّرة لأن تحبّيتها.  
 هذا كلّ ما عليّ قوله. سوف تقولين لي بأنني هكذا بسبب نزعتي  
 الشريرة وربّما تكونين على حقّ. ولكن هذا فقط لأنني سرّت في  
 هذا الطريق الذي أرشدك إليه: لسنا مضطّرين لأن نحبّ والدينا  
 حينما يتصرّفان كأوغاد، هذا كلّ ما في الأمر.

...-

- هل غضبتِ؟

- كلا.

- اعذريني.

...-

- أنتِ محقّة. وضعك يختلف... لطالما اهتمت بك...  
 ولكن ليس من حقّها أن تمنعك من رؤية أختك... بصراحة، هي  
 لا تستحقّ هذه التضحية...

- كلا...-

- كلا.

## 6

في اليوم التالي، عملت كاميل في الحديقة بحسب تعليمات  
 بوليت، وجلس فيليبير في عمق الحديقة لكي يكتب، وأعدّ لهم  
 فرانك طبقاً شهياً من السلطة.

بعد شرب القهوة، نام على الكرسي الطويل. كان ظهره يؤلمه.

سوف يطلب حشية في المرّة القادمة. لن ينام ليلتين بهذه الطريقة... كلاً... كانت الحياة فتاة طيبة ولكن الأمر لم يكن يستحق عناء التعرّض لمخاطر وحماقات... أوه كلاً... عادوا كلّ نهاية أسبوع. مع أو من دون فيليبير. ولكن غالباً معه.

كانت كاميل - وكانت تعلم ذلك منذ البداية - تصبح مناصرة للبستنة.

هدأت بوليت من حماسها:

- كلاً. لا يمكننا زرع هذه! تذكّري أننا لا نأتي إلا مرّة واحدة في الأسبوع. يلزمنا نباتات قويّة ومعمّرة... نحتاج إلى بسلات إن شئت، إلى قبسات، إلى نباتات زينة... إنها نباتات جميلة جداً، وخفيفة تماماً، سوف تروق لك، تفضّلي...

وعثر فرانك، بوساطة قريب زميل شقيقة تيتي الضخم، لنفسه على درّاجة نارية قديمة ليذهب بها إلى السوق أو ليلقي تحية الصباح على رينيه...

وكان قد قضى اثنين وثلاثين يوماً من دون درّاجة وكان لا يزال يتساءل كيف تحمّل ذلك...

كانت عتيقة، كانت قبيحة ولكنها كانت تدوّي صراخاً. كان يصرخ فيهم من السقيفة التي يلجأ إليها حينما لا يكون في المطبخ:

- دعوني أسمع هذه، دعوني أسمع هذه المعجزة!



رفع الجميع رؤوسهم بفتور من مشاتلهم أو من كتابهم.

«بييت، بيت، بيت، بيت».

- إذا؟ هذا مجنون أليس كذلك؟ وكأنه هارلي! مويف...

عادوا إلى انشغالاتهم من دون إبداء أدنى تعليق...

- بفف... أنتم لا تفقهون شيئاً...

سألت بوليت كاميل:

- مَنْ تكون آرليت هذه؟

- آرليت دافيدسون... مغنّية رائعة...

- لا أعرفها.

اخترع فيليبير لعبة المعارف. كان على كلّ واحد أن يعلم

الآخرين شيئاً في إطار فكرة نقل المعرفة.

كان فيليبير أستاذاً بارعاً...

ذات يوم، روت لهم بوليت كيف يتمّ التقاط الخنافس:

- في الصباح، حينما لا تزال مخدّرة ببرد الليل وساكنة

على الأوراق، نهزّ الأشجار التي تقف على أوراقها، ونحرّك

الأغصان بمخبط ونجمعها على قطعة قماش. ندقّها ونغطيها

بالكلس ونضعها في حفرة، فيصبح سماداً آزوتياً ممتازاً... ولا

تنسوا تغطية رؤوسكم!

وفي يومٍ آخر، قطع لهم فرانك لحم عجل:

- حسناً، الفِطع التي تأتي في المرتبة الأولى: لوزة الكتف،

ما تحت لوزة الكتف، لوزة الحلواني، الورك، نصف الصُلب،

الفتيلة الصغيرة، الربع المغطى، أيّ الأضلاع الخمس الأولى

والأضلاع الثلاث التالية، الربع المكشوف والكتف. والآن قَطع  
المرتبة الثانية: الصدر، الغضاريف والشريحة. وأخيراً قَطع المرتبة  
الثالثة: قوس الساق، العرقوب و... آه، اللعنة، نسيْتُ قطعة...  
أما فيليبير، فكان يعطي دروساً في الإدراك لهؤلاء الكفرة  
الذين لا يعرفون شيئاً عن هنري الرابع  
عدا طبقه من الدجاج بالفخّارة وقاتله رافايك وقضيه الشهير  
الذي كان يجهل بأنّه ليس عظماً...

- وُلِدَ هنري الرابع في بو العام 1553 ومات في باريس  
العام 1610. وهو ابن أنطوان دو بوربون وجان دو ألبير. إحدى  
قرباتي البعيدات بين قوسين. في العام 1572، تزوّج ابنة هنري  
الثاني، مارغريت دو فالوا، وهي ابنة عمّ والدتي. وكزعيمٍ  
للحزب الكالفييني، ارتدّ عن البروتستانتية لكي يتهرّب من سان-  
بارتيلمي. في العام 1594، جرى ترسيمه في شارتر ودخل إلى  
باريس. وأقام السلم الديني بموجب معاهدة نانت في العام  
1598. وكان شعبياً جداً. سوف أتجاوز كلّ معاركه، فهي لا  
تعنيكم، كما أتصوّر... ولكن من المهمّ أن نتذكّر بأنّه كان  
محاطاً، من بين آخرين، برجلين عظيمين: ماكسيميليان دو  
بيتون، دوق سولي، الذي أصلح الوضع المالي للبلاد، وأوليفيه  
دو سير الذي كان نعمة لزراعة ذلك العصر...

أما كاميل، فلم تشأ أن تروي شيئاً. كانت تقول:

- أنا لا أعرف شيئاً، ولستُ متأكّدة مما أعتقده...

كانوا يشجّعونها:

- حدّثينا عن الرّسامين! عن الحركات والعصور الفنية

واللوحات الشهيرة أو عن عدتك إن شئت!

- كلا، لا أجد الحديث، أخشى أن أخدعكم...

- أيّ عصرٍ تفضّلين؟

- عصر النهضة.

- لماذا؟

- لأنّ... لا أدري... كلّ شيءٍ فيه جميل. كلّ مكان...

كلّ...

- كلّ ماذا؟

- كلّ شيء.

مازحها فيليبير:

- حسناً... شكراً. لا يسعنا أن نختصر أكثر. لمن يودّ معرفة

المزيد، أشير إلى أنّ تاريخ الفن لكاتبه إيلي فور موجودٌ في

مراحيضنا خلف آندوروا 2003.

أضافت بوليت:

- وأخبرينا من تحيين.

- من الرّسامين؟

- نعم.

- أوه... من دون ترتيب... رامبرانت، دورر، دافنشي،

مونتينيّا، لوتانتوريه، لاتور، تورنر، بونينغتون، دولاكروا،

غوغان، فالوتون، كورو، بونار، سيزان، شاردان، دويغاس،

بوش، فيلاسكيز، غويا، لوثو، هيروشيچ، بيرو ديلا فرانسيسكا،

فان آيك، الأخوان هولبان، بيليني، تيبولو، بوسان، مونه، شو

تا، مانيه، كونستابل، زيم، فويار أوه... هذا فطيع، لا بدّ أنني  
نسيت الكثيرين منهم...

- ولا تستطيعين أن تقولي لنا شيئاً عن أحد هؤلاء  
الرسامين؟

- كلا.

- مثلاً... بيليني... لماذا تحيينه؟

- بسبب بورترية الدوج<sup>(1)</sup> لليوناردو لوردان.

- لماذا؟

- لا أدري... يجب الذهاب إلى لندن، إلى المعرض  
الوطني إذا ما كنتُ أتذكر جيداً، ومشاهدة هذه اللوحة لامتلاك  
هذا اليقين الذي أنا عليه... إنها... إنها... كلا، لا أريد أن  
أضع يديّ الكبيرتين عليها...

سَلّموا بكلامها:

- حسناً... هذه ليست سوى لعبة في نهاية المطاف...  
سوف لن نرغمك...

ابتهج فرانك:

- آه! عرفتُ ما نسيته! الرقبة طبعاً! أو العنق، كما نشاء...  
يُعدُّ منه طبقٌ بالصلصة البيضاء...

عندها تشّتت كاميل، كان ذلك واضحاً.

ومع ذلك، ذات مساء يوم اثنين، وسط الازدحام بعد عبور  
سان-آرنو، وبينما كانوا جميعاً متعبين ومتذمّرين، قالت فجأةً:

---

(1) قاضٍ أوّل في جمهوريتي جنوى والبندقية. (المترجم).

- وجدتها!

- عفواً؟

- معرفتي! معرفتي الوحيدة التي أمتلكها! علاوة على ذلك،

أحفظها عن ظهر قلب منذ سنوات!

- هيا، كلنا آذانٌ صاغية... ..

- إنه هوكوساي، رسامٌ أعشقه... .. أتعرفون الموجهة؟

ومشاهد مونت فوجي؟ أجلللللل... .. الموجهة الفيروزية الموشاة

بالزبد؟ يا لها من تحفة... .. ليتكم تعرفون كلَّ ما رسمه، شيءٌ لا

يمكن تخيله... ..

- هذا كلُّ شيء؟ عدا «يا لها من تحفة» ليس لديك شيءٌ

تضيفينه؟

- بلى، بلى... .. أستجمع ذاكرتي... ..

وفي عتمة تلك الضاحية غير المفاجئة، بين مركزٍ تجاري في

اليسار وشركة فوارفوي في اليمين، بين اللون الرمادي للمدينة

وعدوانية القطيع العائد إلى الحظيرة، تلفّظت كاميل بكلماتها

القليلة:

منذ سنّ السادسة، كان لديّ هوسٌ برسم أشكال الأشياء.

نحو الخمسين من عمري، نشرْتُ رسومات لا تُحصى،

ولكنّ كلَّ ما رسمته قبل سنّ السبعين، لم يكن جديراً بمشقة

الحسان.

في سنّ الثالثة والستين، بدأت تدريجياً أدرك تكوين الطبيعة

الحقيقية، الحيوانات، الأشجار، الطيور، الحشرات.

في المحصلة، في سنّ الثمانين، سأحقق المزيد من التقدّم؛  
في سنّ التسعين، سألج سرّ الأشياء؛ في سنّ المائة، سأصل  
حتماً إلى درجة مدهشة، وحينما أبلغ المائة وعشر سنوات، في  
بיתי، سواء كانت نقطة، أو كان خطأً، سيغدو كلّ شيء نابضاً  
بالحياة.

أطلب من الذين سيعيشون بمقدار عمري، أن يروا إن كنتُ  
سألتزم بكلامي.

كُتِبَ هذا الكلام من قبلي في سنّ الخامسة والسبعين،  
هوكوساي، العجوز المجنون بالرسم.  
ردّدت كاميل:

«سواء كانت نقطة، أو كان خطأً، سيغدو كلّ شيء نابضاً  
بالحياة...».

ربّما أدلى كلّ بدلوه، فطلّت نهاية الحكاية من دون تعليق.

## 7

بمناسبة عيد الفصح، تمّت دعوتهم إلى القصر.  
كان فيليب متوتراً.

كان يخشى أن يفقد شيئاً من هيئته.  
خاطب ذويه باحترام ولباقة، وخاطبه ذووه باحترام ولباقة،  
كما تخاطبوا في ما بينهم باحترام ولباقة.  
- صباح الخير، يا أبي.

- آه ها أنت هنا، يا بنيّ... إيزابيل، هيّا أخبري والدتك،  
أرجوك... ماري-لورانس، أتعرفين أين زجاجة الويسكي؟  
يستحيل وضع اليد عليها... .

- صليّ للقدّيس أنطوان، يا صديقي!

في البداية، بدا لهم ذلك غريباً ومن ثمّ لم يعد ذلك يثير انتباههم.

كان العشاء متكلّفاً. طرح المركيز والمركيزة سيلاً من الأسئلة عليهم ولكنّهما لم ينتظرا إجابة للحكم عليهم. علاوة على ذلك، كانت الأسئلة حامية بعض الشيء، من نمط:

- وماذا يعمل والدك؟

- إنّه متوقّي.

- آه، عفواً.

- أرجوك...

- أوه... ووالدك أنت؟

- لم أعرفه...

- ممتاز... أنت... أتأخذين قليلاً من طبق مقدونيا؟

- كلا شكراً.

قافلة ملائكة في قاعة الطعام المائلة السطح...

- وأنتِ إذاً... أنتِ طبّاخ، أليس كذلك؟

- نعم...

- وأنتِ؟

التفتت كاميل نحو فيليبير.

أجاب نيابةً عنها:

- إنها فنّانة.

- فنّانة؟ كم هذا جميل! وأنتِ... أنتِ راضية عن ذلك؟

- نعم. أقصد... أنا... أعتقد...
- كم هذا جميل... وتعيشان في نفس العمارة، أهذا صحيح؟
- نعم. في الطابق العلوي.
- في الطابق العلوي، في الطابق العلوي...
- كان يبحث ذهنياً في ذاكرة دليله الاجتماعي.
- ... أنتِ روليه مورتمار صغيرة إذا!
- ردت كاميل هلعاً:
- أوه... أدعى فوك...
- أخرجت كل ما في جعبتها:
- كاميل، ماري، إيزابيت، فوك.
- فوك؟ كم هذا جميل... لقد سبق وتعرفتُ على شخص يُدعى فوك... رجلٌ في غاية الجسارة، أعتقد أنه كان يُدعى...
- شارل، أهو أحد أقاربك؟
- أوه... كلا...
- لم تفتح بوليت فمها خلال السهرة. لأكثر من أربعين عاماً، كانت قد أعدت المائدة لدى أناسٍ من هذا النمط وكان من الصعب عليها أن تنثر الملح على الغطاء المطرّز.
- كان شرب القهوة متكلفاً هو الآخر...
- هذه المرّة، جاء دور فيلو في اللعبة:
- إذا، يا بنيّ؟ ألا زلت تعمل في البطاقات البريدية؟
- لا أزال، يا أبي...



- عملٌ مشوّق، أليس كذلك؟

- لم أرغمك على قول ذلك..

- لا تكن ساخراً، أرجوك... السخرية هي استعراض

الكسالى، لقد قلتُ لك ذلك مراراً... .

- نعم، يا أباي... قلعة سان - اكز... .

- عفواً؟

- سان - اكزوبيري.

ازدرد الآخر ريقه.

وعندما استطاعوا، أخيراً، أن يغادروا تلك الغرفة المخضرة المزرقّة التي اجتمعت فيها كلّ حيوانات المكان فوق رؤوسهم، حتى شادين لعين، حتى بامبي، حمل فرانك بوليت إلى غرفتها. وهمس في أذنها: «مثل عروس»، وهزّ رأسه حزيناً حينما أدرك أنّه سينام على بعد ألف مليار كيلومتر من أميرتية، على علوّ طابقيين منهما.

التفت ولمس قائمة خنزيرٍ برّيٍ مفتولة في حين كانت كاميل تجرّها من ثيابها.

- لا، ولكنني لا أصدّق ذلك... هل رأيتما الطعام السيئ الذي أكلناه؟ ما هذا التخريف؟ كان ذلك كريهاً! ما كنتُ لأجرؤ قط على أن أقدم هكذا طعام لضيوفي! في هذه الحالة، من الأفضل إعداد طبقٍ من العجّة أو معكرونة البانزاني!

- ربّما ليست لديهم الموارد؟

- سحفاً ولكن بمقدور الجميع إعداد طبقٍ مناسبٍ من

العجّة، أليس كذلك؟ لا أفهم هذا... لا أفهم... تناول القذارة في صحونٍ من الفضّة وتقديم خمره سيئة في دورقٍ من الكريستال، لا بدّ أنني أبله ولكن هناك شيءٌ ما يحيرني... إذا باعوا واحداً فقط من شمعداناتهم الاثني والخمسين، سوف يتناولون طعاماً لائقاً لمُدّة عام... .

- أتصوّر أنّهم لا يرون الأمور بهذه الطريقة... لا بدّ أنّ بيع نكّاشة أسنان واحدة للعائلة يبدو لهم أمراً غير لائقٍ مثلما سيكون الأمر بالنسبة لك لو أنّك قدّمت لضيوفك طبق مقدونيا في علبة... .

- سحقا، علاوة على ذلك، لم يكن الطعام لذيذاً! رأيتُ العلبة فارغة في الحاوية... كانت معلبات ليدر برايس! هل تصدّقين؟ الإقامة في قصرٍ كهذا محاطٍ بخنادق لتجميع الماء الزائد، وفيه ثريات، وآلاف الهكتارات من الأراضي وكلّ هذه الممتلكات، ويتناولون معلّبات ليدر برايس! لا أفهم هذا... يجعل الحارسَ يناديه السيّد المركيز ويقدم لك وجبة مقدونيا البائسة... .

- هيا، اهدأ... المسألة ليست مهمّة جدّاً... .

- بلى، المسألة مهمّة جدّاً، اللعنة! بلى، المسألة مهمّة جدّاً! ما معنى أن تنقل التراث إلى أبنائك إذا كنت لا تجد حتى أن تخاطبهم بلطف! كلا، ولكن هل رأيت كيف تكلم مع عزيزي فيلو؟ لقد رأيت شفته الصغيرة تتقوّس وهو يقول: ألا زلت تعمل في البطاقات البريدية، يا بني؟ كان يقصد: «يا ولدي الأحمق؟». أقسم لك، لقد راودتني رغبة جامحة في أن أوجّه له لكمة... إنّ

عزيزي فيلو أشبه بابه، إنه أروع إنسانٍ قابلته في حياتي والآخر  
الذي أزعجه، هذا الأبله القميء... ..

أبدت بوليت أسفها:

- سحقاً يا فرانك، كفت عن الشتم.

فكفت فرانك عن ألفاظه السوقية.

- أففف... علاوة على ذلك، سأنام في الحمام هيه،  
أخبركما بأنني سوف لن أذهب إلى القدّاس غداً! شكراً وحمداً  
على ماذا أولاً؟ سواء كنت أنت يا فيلو أو أنا، من الأولى بنا أن  
نلتقي في ميثم... ..

- أوه، نعم! في منزل الآنسة بوني!

- لماذا؟

- لا شيء.

- هل ستذهين إلى القدّاس؟

- نعم، أرغب في ذلك... ..

- وأنت، يا جدّتي؟

- ...

- أنتِ ستمكثين معي. سوف نري هؤلاء القرويين كيف  
يكون الطعام اللذيذ... طالما ليست لديهم الموارد، سوف نقوم  
نحن بإطعامهم!

- لم أعد مؤهلة للقيام بالشيء الكثير، أنت تعلم... ..

- هل تتذكّرين وصفتك لإعداد فطيرة الفصح؟

- طبعاً.

- لا بأس، ولكن أقول لك إن هذا لن يدوم طويلاً! حسناً، سأغادر وإلا سأجد نفسي في السجن...  
وفي اليوم التالي، ما أشد ما كانت دهشة ماري-لورانس حينما نزلت إلى مطبخها في الساعة الثامنة صباحاً. كان فرانك قد عاد من السوق وأخذ ينظّم عمل مجموع خدمه غير المرئيين.  
كانت مذهولة:

- يا إلهي، ولكن...

كان يغني وهو يفتح كلّ الخزانات:

- كلّ شيء يسير على ما يُرام يا سيّدتي المركيزة. كلّ شيء يسير سيراً ممتازاً، ممتازاً، ممتازاً! لا تشغلي بالك بشيء، أنا أتحمّل مسؤولية الغداء...

- و... ووجبتني من فخذ الخروف؟

- وضعتها في المجمّدة. أخبريني، أليست لديك صينية؟

- عفواً؟

- لا، لا شيء. مصفاة صينية ربّما؟

- أوه... نعم، هنا، في هذه الخزانة...

قال مذهولاً، وهو يرفع المصفاة التي كانت إحدى قوائمها

ناقصة:

- أوه! ولكن هذا رائع! إلى أيّ عصر تعود هذه؟ وكأنّها

من نهاية القرن الثاني عشر، أليس كذلك؟

وصلوا جائعين وبمزاجٍ رائع، كان يسوع قد عاد وانضمّ

إليهم، وجلسوا إلى المائدة وهم يتلمّظون. فجأةً، نهض فرانك

وكاميل بخفّة. نسوا أيضاً صلاة المائدة...

تنحج رب الأسرة المتسلط:

- باركنا يا رب، بارك هذا الطعام والذين أعدوه (غمزة من فيلو لمساعدته) وامنح الخبز للذين لا يملكونه...

ردت جوقة المراهقات بتململ:

- آمين.

أضاف:

- بما أن الأمر هكذا، سوف نأكل بشهية هذه الوجبة المدهشة... لويس، اذهب واجلب لي قارورتين من أونكل هوبير، من فضلك...

- أوه، يا صديقي، أنت متأكد؟

- نعم، نعم... وأنت يا بلانش، كفي عن تمشيط شعر أخيك، لسنا في صالون تجميل على ما أعلم...

قدّم لهم هليون بصلصة مخفوقة ثم جاءت فطيرة الفصح المعدة من قبل بوليت ليستافيه ثم ربع خاروف محمص مع زبادي فخارية فيها طماطم وباذنجان مع وريقات من الصعتر، ومن ثم كعكة بالفراولة وفراولة برية مع كريم شانتيي.

- وصلصة الزيت، من فضلك...

نادراً ما كانوا سعداء حول هذه المائدة ذات الاثنتي عشرة وصلة وأبدأ لم يضحكوا عن طيب قلب إلى هذه الدرجة. بعد عدة كؤوس من الشراب، أسقط المركيز مندیل العنق وروى حكايات غريبة عن الصيد الذي لم يكن له دائماً دور حسن فيه... كان فرانك غالباً في المطبخ وكان فيلو يقوم بالخدمة. كانا ممتازين.

همست بوليت لكامل:

- ينبغي عليهما أن يعملوا معاً. الفائز الصغير على الأفران،  
والمجامل الكبير في الصالة. سيكون الأمر مذهلاً... ..

شربوا القهوة على درج المدخل وأبدت بلانش المزيد من  
الرقّة والتكلف قبل أن تعود وتجلس على ركبتي فيليبير.  
أوف... لقد جلس فرانك أخيراً. بعد خدمة كهذه، لا بدّ  
أنّه أراد أن يرتاح قليلاً... ..

سألته كامل حينما لمحت السلّة التي يرتمي الجميع عليها:

- ما هذا؟

ردّ ساخراً:

- ملفوفية، كانت أقوى منّي، لم أستطع الامتناع عنها... ..  
نزل درجةً واستند إلى ساقى فتاته.  
وضعت كرّاستها على رأسه.

سألها:

- ألسيت مرتاحة هنا.

- مرتاحة جداً.

- إذأ، عليك أن تفكّري بالأمر يا حلوتي... ..

- بماذا؟

- في هذا. في حالنا، هنا الآن... ..

- لا أفهم شيئاً... .. أتريد أن أفلي شعرك من القمل؟

- نعم... .. فلي شعري وساعدك لك الكثير من دفاتر الرسم.

تنهّدت:

- فرانك... ..

- لا، لا، كانت مسألة رمزية! أن أستند إليك وأن تشتغلي عليّ. شيء من هذا القبيل، ترين... ..

- أنت خطير... ..

- نعم... تفضّلي، سأسنّ سكاكيني، حينما أتوقّر على الوقت... .. أنا متأكّد أن هناك ما ينبغي فعله هنا... ..

قاموا بجولة في المكان مع بوليت على الكرسي المتحرّك وافترقوا من دون الكثير من الكلام. أهدتهم كاميل قصرهم مرسوماً بالألوان المائية، وأهدت فيليب رصماً جانبياً لبلانش.

- أنت تهين كلّ شيء... لن تصبّحي ثرية أبداً... ..

- لا يهمّ.

في نهاية الممرّ المزيّن بشجر الحور، ضرب على جبينه، مطلقاً شتيمة إسبانية:

- كرّمبا! لقد نسيّت أن أخبرهم... ..

لم ييدر ردّ فعلٍ في البيت.

فكرّر بصوتٍ أعلى:

- كرّمبا! لقد نسيّت أن أخبرهم... ..

- ماذا؟

- بشأن ماذا؟

- أوه، لا شيء... تفصيلٌ صغير... ..

حسناً.

ساد الصمت من جديد.

- فرانك وكاميل؟

- نحن نعرف، نحن نعرف... سوف تشكرنا لأنك رأيت

والدك يمزح للمرة الأولى منذ سقوط مزهرية سواسون...

- لا... لا أبداً.

- ماذا هناك؟

- أ... أتقبلون أن تكونوا... ش... ش... ش...

- ش ماذا؟ شراغيف؟

- كلا. ش...

- كلاب الزنبي الألمانية؟

- ك... كلا، ش... ش...

- ش ماذا؟ تّباً!

- شه... شهود زواج.

انعطفت السيارة وقضمت كاميل مسند الرأس.

## 8

لم يشأ أن يخبرهم بالمزيد عن الأمر.

- سأخبركم عندما أعرف أكثر...

- إذاً؟ ولكن... طمئننا... هل لديك صاحبة على الأقل؟

ردّ حانقاً:

- لم تكن لي صاحبة قط في حياتي! صاحبة... يا لها من

كلمة مبتذلة... خطيبة، كلمة أثيرة...

- ولكن... هل هي تعلم بالأمر؟



- عفواً؟

- بأنكما خطيبان؟

اعترف والنعاس يغالبه:

- ليس بعد... ..

تنهّد فرانك:

- أرى العمل... .. المرکز لفيلو، هذا... .. حسناً، جيّد... .. لا

تنتظر مساءً دعوتنا، اتّفقنا؟ لعلّي أحظى بالوقت الكافي لأشتري

لباساً رجالياً أنيقاً... ..

أضافت كاميل:

- وأنا سأشتري ثوباً!

علّقت بوليت:

- وأنا سأشتري قبّعة... ..

## 9

جاء آل كيسلر لتناول العشاء ذات مساء. قاموا بجولة حول

العمارة بصمت. كان بورجوازيان بوهيميان عجوزان يقعيان هناك.

كان في الحقيقة منظرًا مبهجاً.

لم يكن فرانك حاضراً وكان فيليبير رائعاً.

أرّتهم كاميل ورشتها. وجدت بوليت نفسها في كلّ

الوضعيات، بكلّ التقنيات وبكلّ القياسات. كان معبداً لبهجتها،

لرقتها وحسرتها وذكزياتها المحفورة أخاديد على وجهها

أحياناً... ..

كانت ماتيلد مضطربة وبيار واثقاً:

- هذا جيّد! هذا ممتاز! بسبب قيظ الصيف الماضي، أصبح العجوز منظماً جداً، أتعرفين؟ سينجح الأمر... أنا واثقٌ من ذلك.

كانت كاميل مرهقة.

مر... هقة.

أضافت زوجته:

- دعك من ذلك، هذا تحريضٌ... إنّ هذا الرجل الطيّب متأثر...

- أوه! وهذا! هذا عظيم!

- لم تنتهِ اللوحة...

- هل ستدعينيها لي؟ هل ستخصني بها؟

وافقت كاميل على ذلك.

كلا. سوف لن تعطيه قط لأنّ اللوحة لم تنتهِ وسوف لن تنتهي لأنّ موديلها لن يعود أبداً... كانت تعلم ذلك... هذا مؤسف.

ولكن لا بأس.

إذاً سوف لن تترك هذه الرسمة الأولى أبداً... لأنّها لم تنتهِ... ستبقى معلّقة... مثل صداقتهما المستحيلة... مثل كلّ ما كان يفرّقهما في الدنيا...

كان ذلك في صباح يوم السبت، قبل بضعة أسابيع... كانت كاميل منهمكة في العمل. حتى إنّها لم تسمع رنين الجرس حينما دقّ فيليبير بابها:

- كاميل؟

- ماذا؟

- ملكة... ملكة سبأ هنا... في صالوني.

كانت مامادو رائعة. كانت قد ارتدت أجمل قمصانها  
الفضفاضة وكلّ مصاغها. وكان شعرها مرفوعاً حتى ثلثي  
جمجمتها وترتدي خماراً متناسقاً مع تنورتها.

- لقد قلتُ لكِ بأنني سأتي ولكن يجب أن تستعجلي لأنني  
سأذهب إلى حفلة زواجٍ عند عائلتي في الساعة الرابعة... إذاً  
تسكنين هنا؟ تعملين هنا؟

- أنا سعيدة جداً بلقائك!

- هيا... قلتُ لكِ لا تضيعي الوقت... ..

أجلستها كاميل في وضعية مريحة.

- حسناً. اجلسي منتصبه القامة!

- ولكنني دائماً أجلس منتصبه القامة!

بعد عدّة رسومات تجريبية، وضعت قلمها الرصاص على

لوح الرسم:

- لا أستطيع أن أرسمك ما لم أعرف اسمك... ..

رفعت الأخرى رأسها ورمقتها بنظرة مع ازدراءٍ رائع:

- اسمي ماري-آناستازي بامونديلا مبايه.

لن تعود ماري-آناستازي بامونديلا مبايه أبداً إلى هذا الحيّ  
المكسو على طريقة ملكة ديولولو، قرية طفولتها، وكانت كاميل  
على يقينٍ من ذلك. سوف لن ينتهي البورتريه خاصتها أبداً وسوف

لن يكون لبيار كيسلر العاجز عن أن يصبح بولي الصغير بين ذراعي هذه «الزنجية الجميلة»...

عدا هاتين الزيارتين، عدا تلك الحفلة الراقصة الصغيرة التي ذهب إليها ثلاثهم للاحتفال بعيد الميلاد الثلاثين لأحد زملاء فرانك والتي صرخت فيها كاميل بأنها قد فقدت شهيتها، لم يحدث أي شيء استثنائي.

كانت الأيام تطول والشقة تتسخ وفيليبير يكرّر أقواله وكاميل تعمل وفرانك يفقد كلّ يوم بعض الثقة فيها. كانت تحبه ولكنها لا تريده، كانت تعرض نفسها ولكنها لا تنذرها، ومع ذلك كانت تحاول ولكنها لم تكن مقتنعة بذلك.

ذات ليلة، تغيب عن البيت. لكي يرى ردّ فعلها.

لم تعلق بأيّ كلمة.

ثمّ تغيب ثانية، ثمّ ثالثة. لكي يشرب.

كان ينام في منزل كيرماديك. وحيداً لمعظم الوقت، مع

فتاة، ليلة موتٍ مفاجئ.

أمتعها وأدار لها ظهره.

- ماذا؟

- دعيني وشأني.

## 10

لم تعد بوليت تمشي تقريباً وتجنّبت كاميل طرح الأسئلة عليها. كانت تُبقيها بطريقة مختلفة. في ضوء النهار أو تحت هالة المصابيح. كان حالها يسوء في بعض الأيام ويتحسن في أخرى. كان ذلك مضمناً.

أين يتوقّف احترام الآخر ومن أين يبدأ مبدأ عدم مساعدة شخصٍ في خطر؟ كان هذا السؤال يؤرقها وكلّما كانت تنهض ليلاً، عازمةً على تحديد موعدٍ عند طبيب، كانت السيّدة العجوز تستيقظ مبتهجة ومتفتحة مثل وردة... .

وفرانك الذي لم يستطع أن يستخلص من أحد فتوحاته المخبرية القديمة أدويتها من دون وصفة طبية... .

لم تعد تتناول أيّ شيء منذ أسابيع... .

مساءً عرض فيليبير على سبيل المثال، كانت خائفة القوى واضطروا لأن يطلبوا من السيّدة بيريرا مرافقتها... .

- لا مشكلة! كانت جدّتي معي في المنزل لاثنتي عشرة سنة، وبالتالي، أنا أجيد... . أجيد رعاية المسنين!

جرى العرض في دارٍ للشباب والثقافة في نهاية الخط A لشبكة القطارات السريعة.

استقلّوا مترو الساعة السابعة وأربع وثلاثين دقيقة مساءً، وجلس أحدهم قبالة الآخر ودفعوا الأجرة بصمت.

كانت كاميل تنظر إلى فرانك مبتسمةً.

احتفظي بابتسامتك الصفراء الصغيرة، لا أريدها. هذا كلّ ما تجيدين إعطائه... . ابتسامات صغيرة لخداع الناس... . احتفظي بها، هيّا، احتفظي بها. ستنتهين وحيدة في برجك مع أقلامك للرسم وسيكون ذلك مناسباً لك. أنا أشعر بالتعب هنا... . أنا دودة أرضٍ مغرمة بنجمة في السماء... .

كان فرانك ينظر إلى كاميل وهي تكزّ على أسنانها.

كم أنت لذيذٌ حينما تكون غاضباً... . كم أنت جميلٌ حينما

تفقد توازنك... لماذا لا أستطيع ترك نفسي أنجرف معك؟ لماذا  
أولمك؟ لماذا أرتدي مشدّاً تحت درعي وجعبتني خراطيش ذات  
حمالة؟ لماذا أركّز على تفاصيل واهية؟ خذ فتّاحة علب، اللعنة!  
انظر في صندوقك الصغير، أنا متأكّدة من أنّ لديك ما يلزم  
لجعلني أتنفّس...

سألها:

- في ماذا تفكّرين؟
- في اسمك... لقد قرأت أمس في قاموسٍ قديم أنّ  
شخصاً يُدعى ليستافيه كان خادماً شهيراً يتبع فارساً ويساعده...
- حقّاً؟
- نعم.
- خادماً، ماذا...
- فرانك ليستافيه؟
- حاضر.
- حينما لا تنام معي، مع مَنْ تنام؟
- ...

أضافت وهي تعضّ شفّتها:

- أتفعل بهم نفس ما تفعل بي؟
- كلا.

مدّوا يد العون لبعضهم في الصعود من نفق المترو إلى  
السطح.

اليد، هذه نعمة.

كان المكان محزناً بعض الشيء.

كانت تفوح منه رائحة مشروباته الفاترة وأحلامه المختلة بالمجد. كانت إعلانات مصفرة تعلن جولة رامون ريوبامبو الظافرة وفرقته المرتدية لألبسة من جلد الجمل الأمريكي. أخذ فرانك وكاميل بطاقتيهما واحترارا في اختيار مكانهما...

شيئاً فشيئاً، امتلأت الصالة. كان الجوّ جوّ احتفالٍ شعبي وخيري. كانت الأمهات قد تجملن والآباء تحقّقوا من بطاريات كاميراتهم.

وككلّ مرّة يكون متوتراً فيها، كان فرانك يهزّ قدمه. وضعت كاميل يدها على ركبته لتهدئته.

- إن فكرة أن يجد عزيزي فيلو نفسه وحيداً أمام كلّ هؤلاء الناس تقتلني... أعتقد بأنني سوف لن أتحمّل... تخيلي أن تخونه الذاكرة... تخيلي أن يبدأ بالتلعثم... بفف... سيكون أيضاً مناسباً للتجميع بالملعقة الصغيرة...

- اسكت... سيتمّ كلّ شيء على ما يُرام...  
- أقسم لك لو أنّ شخصاً واحداً ضحك هازئاً به، سأنقضّ عليه وأضربه...

- هدوء...  
- هدوء، هدوء! أتمنى أن أجدك هادئة! سوف تجذبين

الأنظار إليك، هنا أمام كلّ هؤلاء المجهولين؟  
أولاً، كان هذا عرضٌ للأطفال. عرض سكابان وكينو والأمير الصغير ولشارع بروكا.

لم تستطع كاميل أن ترسمهم، كانت ساهية جداً.

ثم جاءت جماعة من المراهقين المخلّعين في مشيتهم تؤدّي دورها التجريبي وهم يعرضون أنفسهم من خلال التلوّيح بسلاسل ثقيلة مطلية بالذهب.

تساءل فرانك:

- أوه ولكن ماذا يضعون على رؤوسهم؟ أثواباً لصوقة أم ماذا؟

بدأت الاستراحة الفاصلة.

اللعنة. فترت الفانتا ولم يظهر فيليبير في الأفق...

حينما أطفئت الأنوار، ظهرت فتاة غريبة المظهر.

كانت قصيرة القامة جداً وتنتعل حذاءً من طراز كونفيرس زهري اللون بحلّة جديدة وترتدي ثوباً للرقص مخطّطاً متعدّد الألوان، وتنوّرة قصيرة من التول الأخضر اللون وبلوزة طيار قصيرة مطرّزة باللؤلؤ. كان لون شعرها متناسقاً مع لون حذاءها.

جنّية... وتناثرت حفنة من نثار الورق الملون... جنّية رعناء حيوية كالتّي نجّبتها من النظرة الأولى أو لا نفهمهما أبداً.

انحنّت كاميل ورأت فرانك يضحك ببلاهة.

- مساء الخير... إذاً سنبدأ... لقد... لقد فكّرتُ كثيراً في الطريقة التي أستطيع أن أقدم بها لكم المشهد التالي وفي النهاية، فكّرتُ... فكّرتُ أنه... سيكون من الأفضل أن أروي لكم لقاءنا...

همس:

- أوه، أوه... بدأ التلعثم. هذا بسينا.



- أوه إذًا... كان ذلك في العام الماضي تقريباً...

كانت تحرّك يديها في كلّ الاتجاهات.

- أنتم تعلمون أنني أقيم بعض الورشات للأطفال في بوبورغ وقد اخترته لأنه كان دائماً يدور حول المساند الدوّارة لكي يحصي ويعيد إحصاء بطاقاته البريدية... كلّما كنتُ أمرّ، كنتُ أتهدّياً لمباغتته وكان لا مفرّ من ذلك: كان منهمكاً في إحصاء بطاقاته البريدية وهو يئنّ. مثل... مثل شابلن، أترون؟ مع هذه الغصّة التي تنتاب حلوقكم... عندما لا تعودون تعلمون إن كان عليكم أن تضحكوا أم تبكوا... حينما لا تعودون تعلمون شيئاً... حينما تمكثون، هنا، ببلاهة تامّة، بقلبٍ حائرٍ بين الحزن والفرح... ذات يوم، ساعدته و... وأحببته كثيراً... ماذا... أنتم أيضاً... سوف ترون... لا يمكننا إلا أن نحبه... هذا الصبيّ، إنّ... إنّ كلّ أنوار المدينة له وحده...

كانت كاميل تضغط على يد فرانك.

- آه! هناك أمرٌ آخر... حينما قدّم نفسه للمرّة الأولى، قال لي: «فيلبير دو لا دوربيلير» فأجبته، أنا الطبيعية والمهذّبة، بنفس الطريقة، بالنسب الجغرافي: «سوزي... أوه... سوزي دو بيلفيل...»، فصرخ: «آه! هل أنتِ إحدى سليلات جيوفروا دو لاجيم الذي قاتل آل هابسبورغ في العام 1672؟». فتلعثمت: «لا، دو... دو بيلفيل دو... دو باريس ماذا...». وهل تعرفون ما هو الأسوأ؟ لم يشعر حتى بالإحباط... كانت تحجل.

- إذًا هذه هي الحكاية، لقد قيل كلّ شيء. وأطلب منكم أن تصفّقوا له بقوة...

صقر فرانك من بين أصابعه.

دخل فيليبير بتثاقل. في شكّة دوره. الزرد والخوذة والسيف  
الكبير والترس والخُرْدَة.

سرت قشعيرةٌ في الحضور.

بدأ بالكلام ولكن لم يفهم منه شيءٌ.

بعد انقضاء عدّة دقائق، اقترب صبيٌّ ومعه كرسيٌّ بلا مسند  
ليرفع له مقدّمة خوذته. فأصبح كلامه مسموعاً.  
وافترت الابتسامات.

لم يكن معلوماً بعد إن كان إنساناً أم خنزيراً... ..

فبدأ فيليبير بعرضٍ رائعٍ للتعري. في كلّ مرّة ينزع فيها قطعة  
من شكّته، كان غلامه الصغير يسمّيها بصوتٍ قويّ:

- الخوذة... القلنسوة الحديد... طوق الرقبة... مجنّ  
الرقبة والكتفين... واقي الصدر... واقي الجذع... أربطة  
الزند... الكفوف الجلد... درع الفخذ... واقيات الركبتين...  
واقيات الساقين...

انتهى فارسنا، الرخو تماماً، إلى الانهيار ونزع الصبي  
«جوربيه».

أعلن أخيراً وهو يرفعهما فوق رأسه ويسدّ أنفه:

- المَداسان.

تصاعدت ضحكاتٌ حقيقية هذه المرّة.

لا شيء يساوي عرضاً هزلياً كبيراً لإثارة الحماسة في  
قاعة... ..

في الأثناء، كان فيليبير، جان، لويس-ماري، جورج ماركيه دو لا دوريلبير، يروي بالتفصيل، بصوتٍ أحادي النبرة ومتقزّز، فروع شجرة نسبه وهو يعدّد بطولات سلالته المهيبة.

جدّه شارل كان ضدّ الأتراك إلى جانب سان لويس في العام 1271، وجدّه بيرتران الذي هاجم آزينكور في العام 1415، وعمّه بيدول في معركة فونتونوا، وجدّه لويس على جروف موان في شوليه، وشقيق جدّه ماكسيميليان إلى جانب نابليون، ووالد جدّه على طريق السيّدات وجدّه لأمّه سجين الألمان في بوميراني. والكثير الكثير جدّاً من التفصيلات. لم ينس الصبيان بكلمة. تاريخ فرنسا في 3 D. فنّ عظيم.

وختم قائلاً:

- والآن ها هي الورقة الأخيرة من الشجرة.

نهض، شاحباً ونحيلاً جدّاً، يرتدي فقط سروالاً داخلياً مطبّعاً بأزهار الزنبق.

- الورقة الأخيرة هي أنا، أتعلمون؟ الذي يحصي بطاقاته البريدية...

جلب له غلامه معطفاً عسكرياً.

سألهم:

- لماذا؟ لماذا، يا للشيطان، يحصي وريث عرش هكذا موكب، ويعيد إحصاء قصاصات الورق في مكانٍ يمقته؟ حسناً، أنا سأخبركم بالأمر...

وهنا، تغيّر اتجاه الريح. تحدّث عن ولادته المختلّة لأنّه جاء خطأ، تنهّد قائلاً: «سابقاً...». ولأنّ والدته رفضت الذهاب إلى

مستشفى تُجرى فيه عمليات إجهاض. تحدّث عن طفولته المقطوعة عن العالم والتي علّموه خلالها بأن يتعد عن الطبقة الدنيا. روى سنواته الأخاذة مع غافيو مثل رمح والأعمال الدنيئة العديدة التي كان ضحيّتها، وهو الذي لم يكن يعرف عن علاقات القوّة سوى الحركات البطيئة لجنوده الدُمي...  
وضحكّ الناس.

ضحكوا لأنّ ذلك كان مضحكاً. الضربة التي تلقّاها بالإناء الزجاجي للبول، والسخریات، النظارات المرمية في المراحيض، والتحريض على الاستمناء، وقسوة فلاحي فانديه الصغار والمداعبات المريبة للحارس. الحمامة البيضاء وصلوات المساء الطويلة للذين أهانونا وعدم إخضاعنا للإغراء ووالده الذي كان يسأله كلّ سبت إن كان قد تصرّف بكفاءة ورفع رأس أجداده بينما كان يتململ لأنّهم كانوا قد أدخلوا فيه القضيب بالصابون الأسود.

نعم، كان الناس يضحكون. لأنّه هو الذي يسخر من ذلك وهم كانوا معه بدءاً من تلك اللحظة.  
كلّهم أمراء...  
كلّهم خلف الريشة البيضاء لقبّته...  
كلّهم منفعلون.

تحدّث عن اضطراباته الوسواسيّة القهرية. أوراق ضمّانه الاجتماعي التي لم يرد فيها اسمه أبداً، وتأتّاته، واضطراباته، حينما تورّط لسانه في اختلاله، ونوبات قلقه في الأماكن العامة، أسنانه التي انحسرت عنها اللثة، وجمجمته الصلعاء، وظهره

المحدّب قليلاً وكلّ ما فقدّه خلال طريقه ليولّد في قرنٍ آخر. ويتربّى بلا تلفزيون، بلا صحف، بلا نزّهات، بلا فكاهة وخاصّة بلا أدنى عطفٍ للعالم المحيط به.

أعطى دروساً في الوقار، في قواعد آداب السلوك، وذكر العادات الحسنة وسواها في العالم مردّداً عن ظهر قلب كراس جدّته:

«الأشخاص الكرماء والحساسون لا يقدّمون لأنفسهم الطعام، بحضور خادم، في مقارنة قد تكون شائنة بالنسبة له. مثلاً: «فلان يتصرّف مثل غلام». لم تكن السيّدات العظيمات في الماضي يتبجّحن بهكذا حساسية، هيّا قولوا وأنا أعرف في الواقع أنّ دوقه من القرن الثامن عشر اعتادت على إرسال حاشيتها إلى مكان الإضراب عند كلّ إعدام وهي تقول لهم بفظاظة: «اذهبوا إلى المدرسة!».

«اليوم، نوقر على نحو أفضل الكرامة الإنسانية والحساسية المنصفة للصغار وعامة الناس؛ هذا هو مجد عصرنا...  
ثمّ زايد قائلاً:

ولكن بعد كلّ حساب! لا ينبغي لتهديب السادة حيال الخدم أن يتحوّل إلى نوع من البساطة الوضيعة. مثلاً، لا شيء يساوي في ابتذاله إصغاء المرء إلى نمائم خدمه...».

وظلّ الناس يضحكون. وإن لم يكن الأمر مضحكاً. أخيراً، تحدّث باللغة الإغريقية القديمة، وتلا صلواتٍ كثيرة باللاتينية واعترف بأنّه لم يشاهد قط فيلم لاغراند فادروي لأنّه يسخر من الأديان... .

- أعتقد بأنني الفرنسيّ الوحيد الذي لم يشاهد فيلم لاغرانج فادروي، أليس كذلك؟

تصاعدت أصواتٌ لطيفة قائلة: لا، لا... لستّ الوحيد... .

- لحسن الحظّ أنا... أنا أفضل حالاً. لقد... لقد أنزلتّ الجسر المتحرّك، أعتقد... وأنا... غادرتُ أراضيّ لأحبّ الحياة... التقيتُ أناساً أكثر نبلاً مني بكثير... و... أقصد... بعضهم في القاعة ولا أريد أن... أن أعكّر مزاجهم ولكن... .

ولأنّه كان ينظر إليهما، التفت الجميع نحو فرانك وكاميل اللذين كانا يحاولان يائسين اب... اب... ابتلاع الغصّة التي في حلقهما.

لأنّ هذا الشخص الذي يتحدّث، هذا النحيل الطويل الذي جعل جميعهم يتلوّون من الضحك وهو يروي مآسيه، كان صديقهما فيلو، ملاكهما الحارس، سوپر-نيسكويك خاصّتهما القادم من السماء. الذي كان قد أنقذهما مغلقاً ذراعيه الطويلتين النحيلتين جداً على ظهريهما المحبطين... .

بينما كان الناس يصفّقون له، انتهى إلى البدء بارتداء لباسه من جديد. كان الآن يرتدي رداءً مع ذيل وقبعة رسميات.

- هذه هي الحكاية إذاً... أعتقد بأنني قلتُ كلّ شيء... .  
أتمنى ألا أكون قد أزعجتكم بهذه الهديانات الغابرة... . وإذا كانت هذه هي الحالة، للأسف، أرجوكم أن تعذروني وأن تقدّموا شكواكم إلى تلك الأنسة الشريفة الوفيّة ذات الشعر الوردية لأنّها هي من أرغمتني على أن أقف أمامكم هذا



لم يحضر فرانك وكاميل احتفال نهاية السنة مع الجماعة لأنهما لم يشاءا تفويت مترو الساعة الحادية عشرة وثمانٍ وخمسين دقيقة.

كانا جالسين بجوار بعضهما هذه المرّة ولم يثرثرا كما فعلا خلال رحلة الذهاب.

الكثير من الصور، الكثير من الارتجاجات...

- أتعتقدين أنه سيعود هذا المساء؟

- هممم... لا تبدو هذه الفتاة صارمة جداً حيال قواعد

الأصول...

- إنه مجنون، إذأ؟

- مجنونٌ تماماً...

- هل تتخيلين شكل ماري-لورانس حينما تكتشف كنتها

الجديدة؟

- برأيي، لن يستمرّ ذلك طويلاً...

- لماذا تقولين هذا؟

- لا أدري... حدسٌ أنثوي... يوم أمس، في القصر،

عندما كنّا ننتزّه بعد الغداء مع بوليت، قال لنا وهو يرتعد غيظاً:

«أفهمون؟ هذا عيد الفصح، ولم يخبّبوا حتى بيضاً لبلانش...».

ربّما أكون مخطئة ولكنني شعرتُ بأنّ تلك كانت القشّة التي

قصمت ظهر البعير... لقد أذاقوه كلّ شيء من دون أن يستاء،

أمّا الآن... أن لا يُخبّباً بيضٌ لهذه الفتاة الصغيرة، فذلك محزنٌ



للغاية... محزونٌ للغاية... لقد شعرتُ بأنه يفرغ جام غضبه  
متخذاً تدابير صارمة... قد تقول لي إنّ هذا أفضل... أنت  
المحقّ: لم يكونوا يستحقون ذلك...

هزّ فرانك رأسه واكتفياً بذلك. ولو ذهباً أبعد من ذلك،  
لاضطراً أن يتحدّثا عن المستقبل افتراضياً (وإن تزوّجا، أين  
سيعيشان؟ ونحن، أين سنعيش؟ الخ). ولم يكونا مستعدّين  
لخوض هذا النوع من الحديث... الخطر للغاية... المغامر  
للغاية...

دفع فرانك أجرة السيّد بيريرا بينما كانت كاميل تروي الخبر  
لبوليت ثمّ تناولوا بعض الطعام وهم يصغون إلى حديثٍ عن  
التقنية المحتملّة.

- هذه ليست تقنية، هذه معلوماتية.

- آه، عذراً...

في الواقع، لم يعد فيليبير إلى البيت تلك الليلة وبدت لهما  
العمارة فارغة على نحوٍ مريع... كانا سعيدين له وتعيّسين  
لنفسيهما... عاودهما شعورٌ قديمٌ بالهجران...  
فيلو...

لم يكونا بحاجة للكلام للإفصاح عن قلقهما. كان ذلك بادياً  
عليهما بوضوح.

اتّخذا من زواج صديقهما ذريعة للإفراط في الكحول وشرب  
أنخاب كلّ يتامى العالم. كان هناك الكثير والكثير من الخمر  
لينهوا تلك السهرة المضطربة بسكرةٍ عظيمة.  
عظيمة ومريرة.

ماركيه دو لا دوربيلير، فيليبير، جان، لويس-ماري، جورج، مولود في 27 أيلول (سبتمبر) 1967 في لاروش-سور-يون (فانديه)، تزوج مارتان، سوزي، المولودة في 5 كانون الثاني (يناير) 1980 في مونتروي (سين-سان-دوني) في بلدية الدائرة عشرين في باريس في أول اثنين من شهر حزيران (يونيو) 2004 تحت الأنظار المضطربة للشاهدين ليستافيه، فرانك، جيرمان، موريس، المولود في 8 آب (أغسطس) 1970 في تور (إندر-ايه-لوار) وفوك، كاميل، ماري، اليزابيت، المولودة في 17 شباط (فبراير) 1977 في مودون (هوت-دو-سين) وبحضور ليستافيه بوليت التي رفضت الإفصاح عن عمرها.

وحضر أيضاً والدا العروس وكذلك صديقها الأقرب، وهو صبيّ طويل القامة ذو شعرٍ أصفر كان أكثر رزانةً منها بقليل... كان فيليبير يرتدي بزّة رائعة من الكتان الأبيض مع منديل جيب وردي اللون فيه دوائر صغيرة خضراء اللون.

كانت سوزي ترتدي تنورة قصيرة رائعة وردية اللون فيها دوائر صغيرة خضراء اللون مع مؤخرّة مستعارة وذيل ثوبٍ يطول لأكثر من مترين. كانت تردّد: «حلمي!».

كانت تضحك طيلة الوقت.

كان فرانك يرتدي بزّة كالتّي يرتديها فيليبير. كانت بوليت ترتدي قُبعة صنعتها كاميل. قُبعة نسائية صغيرة منقوشة بالعصافير والريش من كلّ الجهات وكانت كاميل ترتدي قميصاً من

السموكينغ أبيض اللون من قمصان جدّ فيليبير والذي كان ينزل حتى ركبتها. وكانت قد عقدت ربطة عنق حول خصرها ودشنت صندلين أحمرين جميلين جداً. كانت تلك المرّة الأولى التي ترتدي فيها تنوّرة منذ زمنٍ طويلٍ جداً...

ثمّ راح كلّ هذا الجمع الجميل للتنزّه في حدائق بوت-شومون مع سلّة لا دوربيلبير الكبيرة التي يستخدمها في توزيع الطعام وهم يتحايلون لثلا يراهم الحرّاس.

نقل فيليبير عدداً قليلاً من كتبه الكثيرة إلى الشقّة الصغيرة لزوجته التي لم تتخيّل للحظة أن تترك حيّها المعشوق لتُدفن على الجانب الآخر من نهر السين...

هذا يدلّ على أنّها لا مبالية وعلى أنّه يحبّها...

ومع ذلك احتفظ بغرفته وكانا ينامان فيها كلّما يأتيان لتناول العشاء. وقد استغلّها فيليبير ليضع فيها كتباً ويأخذ منها أخرى بينما استغلّتها كاميل في إكمال بورترية سوزي.

لم تكن تشعر بذلك... كانت لا تزال امرأة لا تستسلم... هيه! مخاطر المهنة...

لم يعد فيليبير يتلعثم ولكنّه كان يكفّ عن التنفّس ما أن تخرج عن مدى رؤيته.

وحينما أبدت كاميل دهشتها من سرعة اتّفاقهما على الزواج، نظرا إليها بغرابة. ماذا ننتظر؟ لماذا نهدر وقت سعادتنا؟ هذا شيءٌ من البلاهة الخالصة...

هزّت رأسها، مُرتابة، متأثرة، بينما كان فرانك ينظر إليها خلسةً...

دعك من هذا، أنتِ لا تستطيعين أن تفهمي... لا تستطيعين أن تفهمي هذا... أنتِ مليئة بالعُقد... ليس لديك ما هو جميلٌ سوى رسوماتك... أنتِ منكمشة على نفسك تماماً... حينما أفكر بأنني أعتقدُ أنكِ حيوية... تَبًّا، لا بدّ أنني كنتُ ثملاً في ذلك المساء لأضع إصبعي في عينيّ حينها... اعتقدتُ أنكِ جئتِ لتمارسي الحبّ معي في حين كنتِ فقط جائعة... كم أنا أبله، أقسم لك...

أتدريين ما الذي يجب فعله؟ يجب إفراغ رأسك كما تُفرغ أحشاء الدجاجة وإخراج كلّ القذارة المتراكمة فيه دفعة واحدة. سيكون رجلاً قوياً مَنْ ينجح في فكّ عقلك... وليس من المؤكّد أنّه موجود... يقول لي فيلو إنك ترسمين جيّداً لأنك هكذا، سحقاّ إذاً، إنّه لثمنٌ غال...

هزه فيليبير:

- ماذا يا عزيزي فرانك؟ تبدو مضطرباً الآن...

- أنا متعب...

- لا بأس... لقد اقتربت العطلة...

- أفف... ما زال أمامنا كلّ شهر يوليو (تموز)... سوف

أذهب إلى النوم لأنني سأستيقظ باكراً غداً: سأخذ هاتين السيّدتين للاستحمام في الريف...

قضاء الصيف في الريف... كانت تلك فكرة كاميل ولم تجد بوليت في ذلك ضيراً... بل تحمّست الجدّة للفكرة...

حينما أخبرته بخطتها، استسلم فرانك لها.

كانت تستطيع العيش بعيداً عنه. لم تكن مغرمة ولن تكون

كذلك أبدأ. بل أخبرته: «شكراً فرانك، وأنا أيضاً». ثم إنها مشكلته إن كان قد اعتقد بأنه أقوى منها ومن العالم أجمع. لا يا ولدي، لستَ الأقوى... لا... أنتَ من أوهمت نفسك بذلك، إيه؟ ولكنك عنيدٌ للغاية، ومتبجحٌ للغاية..

كانت حياتك بائسة وعديمة القيمة مذ ولدت فلماذا إذاً سيتغير الأمر الآن؟ ماذا كنتَ تظن؟ سوى لأنك كنت تضاجعها برضاك ولأنك كنت لطيفاً معها.. هذا سينزل عليك السعادة... أفف... شيءٌ لا يُغتفر... انظر إلى لعبتك قليلاً، هل رأيتها؟ إلى أين كنت تنوي الوصول، أخبرني؟ إلى أين كنت تنوي الوصول؟ بصراحة؟

وضعت جزدانها وحقيبة بوليت في الممر وانضمت إليه في المطبخ.

- أنا عطشانة.

...

- أنت متضايق؟ أزعجك أن تغادر؟

- لا أبدأ! سأرتاح قليلاً...

نهضت وأمسكت بيده:

- هيا، تعال...

- إلى أين؟

- إلى النوم.

- معك؟

- نعم!

- كلا.

- لماذا؟

- لا أرغب... أنتِ رقيقة ولا تتحمّلين ضربة على

الأنف... أنتِ تخدعيني فحسب، لقد ضقتُ ذرعاً...

- حسناً...

- أنتِ متقلّبة في مواقفك... هذه طريقة كريهة للتصرّف...

...

- هذه طريقة كريهة...

- ولكنني جيّدة معك...

ردّد ساخراً:

- «ولكنني جيّدة معك...». لا يهمني في شيء أن تكوني

جيّدة معي. أنا أريد أن تكوني معي فحسب. أمّا ما تبقى...

تميّزك وتشوشك الفني وتدابيرك الصغيرة حيال مؤخرتك

وضميرك... احتفظي بكلّ هذا لأبله آخر. أمّا الداعي، فقد سلّم

كلّ شيء. لن تأخذي منه أيّ شيءٍ آخر، يمكنكِ أن تكفّي عن

الاهتمام بالأمر، يا أميرة...

- أنت مغرم، أهذا صحيح؟

- أوه، أنتِ مزعجة يا كاميل! هذا صحيح! حدّثيني وكأنني

مريض الآن! تَبّاً لكِ، القليل من الحياء، اللعنة! هيا، سترحلين،

وهذا سيريحني... لماذا سأزعج نفسي بامرأة تطيب لها فكرة

قضاء شهرين في جحرٍ بائسٍ وحيدة مع امرأة عجوز؟ أنتِ لستِ

فتاة طبيعية ولو كنتِ تتمتعين بالحدّ الأدنى من الحصافة لذهبتِ

للعلاج قبل الإمساك بأول أبله يمرّ.

- بوليت محقّة. أنت فقط لدرجة غير معقولة ..  
صباح اليوم التالي، بدت المسافة طويلة جداً.  
ترك لهما السيارة وعاد بدراجته النارية القديمة.  
- هل ستعود السبت المقبل؟

- لأفعل ماذا؟

- امم... لترتاح هنا... ..

- سنرى... ..

- أطلب منك ذلك... ..

- سنرى... ..

- ألن نتعانق؟

- لا. سوف آتي وأقبلك السبت المقبل إن لم أجد ما هو  
أفضل للقيام به ولكنني لن أعانقك بعد الآن.  
- حسناً.

ذهب ليودّع جدّته ثمّ تواري في نهاية الطريق.

عادت كاميل إلى الأنابيب الضخمة لألوانها. كانت مستسلمة  
الآن للتزيين الداخلي... ..

بدأت بالتفكير ثمّ عدلت عن ذلك. أخرجت ريشها من ماركة  
وايت-سبيريت ومسحتها مطوّلاً. كان محقّقاً: سوف نرى.

واستأنفت حياتها البسيطة. كما كان الحال في باريس ولكن  
بشكلٍ أبطأ. وتحت الشمس.

تعرفت كاميل على زوجين انكليزيين كانا يرمّمان البيت  
المجاور. تمّ تبادل أشياء وطرّفٍ وأدوات وكؤوس مشروب جن  
تونيك بينما كانت طيور السماء تتراقص.

ذهبتا إلى متحف الفنون الجميلة في تور، انتظرت بوليت في ظلّ شجرة أرزٍ كبيرة (الكثير من الدرجات) بينما كانت كاميل تكتشف الحديقة، السيّدة الجميلة جداً وحفيد الرّسام ادوار ديبا- بونسان. لم يكن هذا موجوداً في القاموس... مثل ايمانويل لانسييه الذي كانتا قد زارتا متحفه في لوش قبل بضعة أيام من ذلك... كانت كاميل تحبّ كثيراً هؤلاء الرّسامين غير الموجودين في القاموس، هؤلاء الأساتذة الصغار، كما كان يُقال... محلّيّو المرحلة، الذين لم تكن لديهم مساند رسم سوى المدن التي استقبلتهم. سيبقى الأوّل إلى الأبد جدّ أوليفيه دوبريه والثاني تلميذ كورو... من دون غطاء العبقرية والسلالة، كانت لوحاتهما تشير الإعجاب على نحوٍ أكثر هدوءاً، وربّما على نحوٍ أكثر إخلاصاً...

كانت كاميل تسألها باستمرار إن كانت تريد الذهاب إلى المراحيض. كانت هذه الثرثرة نوعاً من الغباء ولكنها كانت تشبّث بهذه الفكرة الثابتة لاستبقائها قريبة منها... استجابت لها السيّدة العجوز لمرةٍ أو مرّتين ووبّختها بكثرة:

«آه! كلا، يا عزيزتي بوليت، لك كلّ ما تريدين إلّا هذا! أنا هنا فقط من أجلك! اسأليني! ابقِ معي، تبتاً لك! ما معنى أن تنغوّطي على كرسيك؟ لستِ محبوسة في قفصٍ على ما أعلم؟

...

- هيه! بوليت! ردّي عليّ. هل أصابك الصّم أيضاً؟

- لا أريد أن أزعجك...

- كاذبة! لم تريدي أن تزعجي نفسك!..»



في ما تبقى من الوقت، كانت تعتنني بالحديقة وتشتغل في المنزل بأشغال يدوية وتعمل وتفكر في فرانك وتقرأ -أخيراً- رباعي الإسكندرية. بصوتٍ خفيضٍ أحياناً... ليضعها في الجو... ثم كان يحين دورها في الغناء الأوبرالي...

«اسمعي هذه، هذه جميلة جداً... يقترح دون رودريغز على صديقه أن يذهب للموت في الحرب إلى جانبه لينسيه بأنه مغرمٌ بإليزابيت...»

انتظري، سأرفع الصوت... دعيني أسمع هذا الثنائي، يا بوليت... يا إلهي، أنت تزرع في أررواحنا... كانت تدندن وهي تحرك رسغيها، نا نينانا نينانا...

هذا جميل، إيه؟».

كانت قد غفت.

لم يأتِ فرانك في عطلة نهاية الأسبوع التالي ولكنهما تلقّتا زيارة السيد والسيدة ماركيه المتلازمين.

وضعت سوزي مخدّة رياضة اليوغا على العشب وكان فيليبير يقرأ في كرسيّ طويلٍ كراسات سياحية حول إسبانيا التي كانا سيسافران إليها في الأسبوع التالي لقضاء شهر العسل فيها.

- عند خوان كارلوس... ابن عمّي بالمصاهرة.

ابتسمت كاميل:

- ربّما كان عليّ أن أشكّ في ذلك...

- لكن... وفرانك؟ أليس هنا؟

- كلا.

- أيقوم بجولةٍ على دراجته؟

- لا أدري... ..

- أتعنين أنه قد بقي في باريس؟

- أتصوّر ذلك... ..

تأسّف:

- أوه يا كاميل... ..

ردّت غاضبةً:

- ماذا يا كاميل؟ ماذا؟ أنت من أخبرتني حينما حدّثتني عنه

لأوّل مرّة بأنّه لا يُطاق... .. وأنه لم يقرأ في حياته سوى

الإعلانات القصيرة في موتوبوفيلان ماغازين، وأنه... .. وأنه... ..

- اسكتي. اهديني. لا أعاتبك على شيء.

- كلا، أنت تفعل ما هو أسوأ... ..

- كنتِ تبدين سعيدة... ..

- نعم. إذاً يكفي. لتتوقّف هنا. دعنا لا نشوّه كلّ شيء... ..

- أتعتقدين أنّها كرصاصات قلمك؟ أتعتقدين أنّها تُستهلك

حينما نستعملها؟

- ماذا تقصد؟

- المشاعر.

- إلى متى يعود آخر بورترية شخصي لك؟

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

- إلى متى يعود؟

- إلى زمنٍ بعيد... ..

- هذا ما اعتقدته بالضبط...

- لا علاقة لهذا بالأمر.

- كلا طبعاً...

- كاميل؟

- اممم...

- الأوّل من تشرين الأوّل (أكتوبر) 2004 الساعة الثامنة

صباحاً...

- ماذا؟

مدّ نحوها رسالة المعلّم بوزو، الكاتب العدل في باريس.

قرأتها كاميل وأعادتها إليه واستلقت على العشب عند قدميه.

- عفواً؟

- كان حرياً بذلك أن يستمر...

- أنا متأسّف...

- كفى.

- تشاهد سوزي الإعلانات في حيننا... هذا جيد أيضاً،

أتدري؟ هذا... هذا رائع كما كان والدي يقول...

- كفى. وفرانك، أعلم بالأمر؟

- ليس بعد.

قال بأنّه سيصل في الأسبوع التالي.

همست له كاميل على الهاتف:

- هل اشتقتَ إليّ كثيراً؟

- لا. لدي بعض الأمور التي ينبغي القيام بها على

درّاجتي... هل أطلعك فيليبير على الرسالة؟

- نعم.

...-

- أتفكر في بوليت؟

- نعم.

- أنا أيضاً.

- كان من الأفضل تركها حيث كانت...

أضافت كاميل:

- أتعتقد ذلك فعلاً؟

- كلا.

### 13

انقضى الأسبوع.

غسلت كاميل يديها وعادت إلى الحديقة وانضمت إلى بوليت التي كانت تتشمس في أريكتها.

كانت قد أعدت حلوى الكيش... وهي كعكة فيها قطع من شحم الخنزير... المهم أنها تؤكل...

كامرأة صغيرة خانعة في انتظار زوجها...

كانت جاثية على ركبتها تنكش الأرض حينما همست رفيقتها العجوز من وراء ظهرها:

- لقد قتلته.

- عفواً؟

كانت تتلفظ بمزيد من الحماقات في الفترة الأخيرة...

- موريس... زوجي... قتلته.

انتصبت كاميل من دون أن تلتفت.

- كنتُ في المطبخ أبحث عن محفظة نقودي لأذهب وأجلب الخبز و... ورأيتَه يسقط... كان يعاني من مرضٍ عضال في القلب، أنتِ تدرين... كان يتحسرج ويتأوه وكان وجهه... ارتديتُ... ارتديتُ سترتي وخرجت...

«أخذتُ كلَّ وقتي... توقفتُ أمام كلِّ بيت... والصغير، كيف حاله؟ وهل شفي من الروماتيزم؟ وهل رأيتم الإعصار؟ أنا التي لا أتكلّم كثيراً، كنتُ ودودة جداً، ذاك الصباح، والأسوأ من كلِّ هذا أنني لعبتُ اللوتو... هل فهمتِ؟ وكأنّه كان يوم حظي... حسناً ومن ثم... عدتُ في نهاية المطاف وكان ميّناً».

صمتت.

- رميتُ بطاقتي لأنني ما كنتُ لأحظى بوقاحة التحقق من الأرقام الراححة وطلبتُ الإسعاف... أو النجدة... لم أعد أعرف... وكان الأوان قد فات... وكنتُ أعرف ذلك... صمتت.

- ألا تقولين شيئاً؟

- كلا.

- لماذا لا تقولين شيئاً؟

- لأنني أعتقد أن تلك كانت ساعته.

قالت بلهجة متوسّلة:.

- أتعقدين ذلك؟

- أنا متأكّدة من ذلك. أزمة قلبية، هذه أزمة قلبية. لقد أخبرتني ذات يوم بأنّه كان يعاني منها منذ خمسة عشر عاماً. ولتثبت لها حسن نيتها، انهمكت في العمل وكأنّ شيئاً لم يكن.

- كاميل؟

- نعم.

- شكراً.

حينما استيقظت بعد ذلك بنصف ساعة، كانت الأخرى قد نامت وهي تبسم.

فراحت وجلبت لها غطاءً.

ومن ثمّ لقت لنفسها سيجارة.

ثم نظّفت أظافرها بعود ثقاب.

ثم ذهبت تتفقّد حلوى «الكيش».

ثم قطعت ثلاث وريقات من الخسّ وبضع وريقات من الثوم المعمر.

ثمّ غسلتها.

ثمّ قدّمت لنفسها كأساً من النيذ الأبيض.

ثمّ استحمت.

ثمّ عادت إلى الحديقة وهي ترتدي بلوزةً.

وضعت يداً على كتفها:

- هيه... سبردين يا عزيزتي بوليت...

هزتها بلطف:

- عزيزتي بوليت؟

أبدأ لم تتطلّب رسمهً هذا القدر من العناية منها.  
لم ترسم سوى رسمة واحدة.  
وربّما كانت الأجمل.

## 14

كانت الساعة تتجاوز الواحدة ليلاً حينما أيقظ فرانك كلّ  
القرية بضجيج درّاجته.  
كانت كاميل في المطبخ.  
- مرّة أخرى الإفراط في الشراب؟  
وضع بلوزته على كرسيّ والتقطت كأساً من على رفّ يقع  
فوق رأسها.  
- لا تتحرّكي.  
جلس قبالتها:  
- هل نامت جدّتي؟  
- إنّها في الحديقة...  
- في الحد...  
وحينما رفعت كاميل وجهها، بدأ يئنّ.  
- أوه لا، تّباً... أوه لا...  
...

## 15

- وماذا عن الموسيقى؟ هل لديك ما تفضّله؟  
التفت نحو كاميل.

كانت تبكي.

- سوف تجدين لنا شيئاً جميلاً، إيه؟

هزّت رأسها.

- وماذا عن البول؟ هل... هل شاهدتِ التعرقة؟

## 16

لم تمتلك كاميل الشجاعة للعودة إلى المدينة للبحث عن CD مناسب. فضلاً عن أنها لم تكن متأكّدة من أنها ستعثر عليه... ثمّ إنّها لم تكن تمتلك الجرأة.

أخرجت الكاسيت الذي كان لا يزال موجوداً في الجهاز ومدّته نحو المشرف على مكان حرق الجثث.

- أليس هناك ما ينبغي فعله؟

- كلا.

لأنّه كان فعلاً الكاسيت المفضّل لديها... والدليل هو أنّها قد غنّت أغنية لها، إذاً...

وكانت كاميل قد ألقتها لها لتشكرها على البلوزة التي حاكتها لها خلال الشتاء وكانت تستمعان إليها يوم عادت من حدائق فيلاندري.

شاهدتها بتسم عبر المرأة العاكسة...

حينما كان هذا الشاب الطويل القائمة يغني، كانت في العشرين من عمرها.

وقد رأته في العام 1952 في وقتٍ كان يوجد مسرح المنوعات قرب دور السينما.



تنهّدت:

- آه... كان في غاية الوسامة... في غاية الوسامة...

فأوكلت إلى المونسنيور مونتان القيام بمهمّة التأيين.

وبصلاة الجنازة...

حينما كنا نغادر في الصباح الباكر، حينما كنا ننطلق في

الطرق،

على دراء-جة،

كنا بضعة أصدقاء،

كان هناك فيرنان، كان هناك فيرمان، كان هناك فرانسيس

وسياستيان،

ومن ثمّ بولييت...

كنا جميعاً مغرمين بها، كنا نشعر وكأننا نطير بأجنحة،

على دراء-جة...

وفيلو الذي لم يحضر حتى...

غادر إلى قصوره في إسبانيا...

وقف فرانك منتصباً، ويداه خلف ظهره.

كانت كاميل تبكي.

لا، لا، لا... وكأنّ شيئاً لم يكن،

ها هي قد عادت،

الأغنية الصغييرة...

كانت قد اختفت،

كان بلاط الطريق

موحشاً جداً...

أيها الأشقياء، أيتها المركيزات

لقد انطلق حلقي...

كانت تبتسم... أيها الأشقياء، أيتها المركيزات... ولكن

هؤلاء نحن...

لا، لا، لا، ردّدوا معي

عالياً...

الأغنية الصغبييرة...

كانت السيّدة كارمينو تتلاعب بمسبحتها وهي تشهق.

كم كان عددهم في هذه المصلّى الزائف المصنوع من

المرمر الزائف؟

العشرات ربّما؟

عدا الإنكليز، لم يكن هناك سوى عجائز...

عجائز فقط.

فقط عجائز كنّ يهززن رؤوسهنّ بحزن.

كانت كاميل خائفة على كتف فرانك الذي ظلّ يقطع

أصابع يده.

ثلاث علامات موسيقية صغيرة،

غادرن،

إلى عمق الذكرى...

انتهين من جلبتهنّ،

وقلبن الصفحة،

وذهبن إلى النوم...

أشار الرجل ذو الشوارب الكثيفة بإشارة إلى فرانك.  
فوافق.

انفتح باب الموقد، سار النعش، أُغلق عليه الباب و...  
اشتعلت فيه النار...

اكتوت بوليت للمرة الأخيرة بالنار وهي تصغي إلى معبودها  
مغني الأغاني العاطفية.

ورحلت... عرجاً... في سعي الشمس... في مهب  
الريح...

وتعانق الحاضرون. العجائز أخبرن فرانك كم كنّ يحببن  
جدّته. وابتسم لهنّ. وكان يعضّ على نواجذه لئلا يبكي.

تفرّق جمع الناس الطيبين. أشار له السيّد إلى أوراقٍ ومدّ له  
آخرُ علبة سوداء صغيرة.

جميلةً جداً. أنيقةً جداً.

العلبة التي لمعت تحت الضوء الباهت للثريا الزائفة.

دعتهما إيفون إلى تناول مشروبٍ منشط.

- لا شكراً.

- أكيد؟

ردّ فرانك ممسكاً بذراعها:

- أكيد.

ووجدا نفسيهما في الشارع.

وحيدين.

كلاهما لوحدهما.  
اقتربت منهما سيّدة في الخمسينات من عمرها.  
دعتهما إلى بيتها.  
لحقا بها بالسيارة.  
كانا ليلحقا بأيّ كان.

## 17

أعدّت لهما كوباً من الشاي وأخرجت من الفرن قطعة من  
الحلوى.

عرفتهما بنفسها. كانت ابنة جان لوفيل.

لم يكن قد رآها من قبل.

- هذا طبيعي. حينما جئتُ أسكن بيت أمي، كنت قد  
رحلت منذ زمنٍ طويلٍ...

تركتهما يشربان ويأكلان بهدوء.

ذهبت كاميل تدخّن في الحديقة. كانت يداها ترتجفان.

حينما عادت وجلست معهما، ذهب ضيفها يبحث عن علبة  
كبيرة.

- انتظر، انتظر، سوف أجدها لك... آه! ها هي!  
تفضل...

كانت صورة صغيرة محزّزة سكرية اللون مع توقيعٍ مبهرجٍ في  
أسفل يمينها.

امراتان شابّتان. كانت الواقفة إلى الطرف الأيمن تضحك

وهي تحدّق في الكاميرا بينما كانت الأخرى تخفض عينيها تحت  
قبعة سوداء.

كانتا صلعاوين.

- هل عرفتها؟

- عفواً؟

- هنا ... هذه جدّتك.

- هذه؟

- نعم. ويجانبها خالتي لوسيان... الشقيقة الكبرى  
لأمي...

مدّ فرانك الصورة نحو كاميل.

- كانت خالتي معلّمة مدرسة. يُقال بأنّها كانت أجمل فتاة  
في البلاد... ويقال أيضاً بأنّها كانت متعالية جداً... كانت مثقفة  
ورفضت مراراً المتقدّمين للزواج منها، وبالتالي نعم، كانت فعلاً  
متعالية غريبة... في 3 تموز (يوليو) 1945، صرّحت خياطتها  
رولاند ف... كانت أمي تحفظ المحضر الرسمي عن ظهر  
قلب... شاهدتها تتسلّى وتضحك وتمزح بل وذات يوم تلعب  
معهم (الضباط الألمان) لعبة رشّ الماء بلباس الحّمّام في باحة  
المدرسة.

ساد الصمت.

سألت كاميل في النهاية:

- هل حلقوا لها شعرها؟

- نعم. روت لي أمي أنّها بقيت منهكة لأيامٍ طويلة وأنّ

صديقتها بوليت موغان جاءت ذات صباح وأخذتها. كانت قد حلقت شعرها بموسى قصير لوالدها وضحكت أمام بابهم. أمسكتها بيدها وأرغمتها على مرافقتها إلى المدينة لتذهب إلى مصوّر. قالت لها: «هيا... تعالي... ستكون هذه ذكرى لنا... أقول لك، تعالي! لا تدعيهم يشمتون بك... هيا... ارفعي رأسك، عزيزتي لولو... أنت أفضل منهم، هيا...». لم تجرؤ خالتي على الخروج بلا قبعة ولم ترفعها عند المصوّر، ولكن جدّتك، انظر إلى هذه الكياسة... كم كان عمرها آنذاك؟ عشرين عاماً؟

- إنها من مواليد تشرين الثاني (نوفمبر) 1921.

- ثلاثة وعشرون عاماً... امرأة صغيرة طيبة وشجاعة،

أليس كذلك؟ تفضّل... أمنحك هذه الصورة... .

ردّ فرانك ملويّ الفم:

- شكراً.

ما إن أصبحنا في الشارع، التفت إليها وخاطبها بافتخار:

- كانت جدّتي امرأة قديرة، أليس كذلك؟

وأخذ يبكي.

أخيراً.

كان ينتحب:

- جدّتي العزيزة... جدّتي العزيزة... لم يكن لي سواها

في الدنيا...

تجمّدت كاميل فجأة في مكانها واستدارت ثم ركضت

لتجلب جرة الرماد.

نام في الأريكة واستيقظ باكراً جداً صباح اليوم التالي.  
من نافذة غرفتها، شاهدته كاميل ينثر رماداً ناعماً جداً فوق  
نباتات الخشخاش العطرة والبازيلاء...

لم تجرؤ على الخروج في الحال وعندما قرّرت في النهاية  
أن تحمل إليه فنجاناً من القهوة الساخنة، سمعت هدير دراجته  
يبتعد.

انكسر الفنجان وخارت فوق طاولت المطبخ.

## 18

نهضت بعد عدّة ساعات من ذلك، أنّبت ذاتها، أخذت  
حماماً بارداً وعادت إلى أنابيب ألوانها.

كانت قد بدأت بإعادة رسم هذا المنزل اللعين وكانت على  
وشك إنهاء عملها.

تواصلت عبر موجة FM وأمضت النهارات التالية على سلّم.  
كانت ترسل رسالة إلى فرانك كلّ ساعتين تقريباً لتخبره إلى  
أين وصلت.

9,13 أندوشين، فوق صوّان السّفرة.

11,37 عائشة، عائشة، اسمعيني، حول النافذة.

13,44 سوشون، سيجارة في حديقة.

16,12 نوغارو، السقف.

19,00 الأخبار، جونون بالزبدة.

10,15 بيتش بويز، حمّام.

11,55 بينابار، هذا أنا، هذه ناتالي.

15,03 ساردو، غسل الريش.

لم يجبها سوى مرّة واحدة:

01,16 صمت.

هل أراد القول: نهاية الخدمة، السلام، الهدوء، أم أراد

القول: الصمت؟

وسط الشك، أغلقت هاتفها النقال.

## 19

أغلقت كاميل مصراعي النافذة وراحت تودّع... تودّع

الأزهار وداعبت الهرّ وهي تغمض عينيها.

نهاية شهر تموز (يوليو).

كانت باريس تختنق.

كانت العمارة صامته. وكأنها قد طردت سگانها...

قالت له: هب، هب، هب، ما زال لديّ شيء يجب أن

أنهيه، أنا...

اشتريت دفترًا جميلًا جدًّا، وألصقت على صفحته الأولى

الميثاق الساذج الذي كتبوه ذات مساءً في الأكاديمية ثم جمعت

كلّ رسوماتها ومخططاتها ورسوماتها الإعدادية وما إلى ذلك.

لتتذكّر كلّ ما تركوه خلفهم وما سيختفي في نفس الوقت... ..

كان هناك ما يستدعي بناء عشرة أقفاص فاخرة للأرانب في

هذه السفينة الضخمة... ..



ثمّ كانت ستهتمّ فقط بتفريغ الغرفة المجاورة.

ومن ثمّ ...

حينما ستكون مشابك الشعر وماسورة البوليدان هي الأخرى

قد ماتت ...

وهي تفرز رسوماتها، وضعت جانباً بورترية صديقتها.

إلى تلك اللحظة، لم تكن متحمّسة جداً لفكرة المعرض

تلك ولكنها الآن شغفت بها. أصبحت الآن فكرتها الثابتة: أن

تحببها مرّة أخرى. أن تفكّر فيها، أن تتحدّث عنها، أن تعرض

وجهها، ظهرها، رقبتها، يديها... تحسّرت على أنّها لم تدوّن

كلامها حينما روت لها ذكريات طفولتها على سبيل المثال... أو

حبّها العظيم.

«سيبقى هذا بيننا، اتفقنا؟».

- نعم نعم ...

- إذاً، كان يُدعى جان-بابتيست... ألا تجددين أنّ هذا

اسمٌ جميل؟ أنا لو رزقتُ بطفلٍ لسمّيته جان-بابتيست...».

إلى تلك اللحظة، كانت لا تزال تسمع صدى صوته

ولكن... إلى متى؟

ولأنّها كانت معتادة على أن تقوم بالأعمال المنزلية وهي

تصغي إلى الموسيقى، ذهبت إلى غرفة فرانك لكي تستعير

مسجّلاته.

لم تجدها.

لم يعد هناك أيّ شيء.

فقط ثلاثة صناديق كرتون مصفوفة على طول الجدار.  
وضعت رأسها على مصراع الباب واستحالت الأرضية رمالاً  
متحركة.

أوه، كلا... هو أيضاً غير موجود... هو أيضاً غير  
موجود...  
كانت قلقة.

أوه، كلا... كانت تردّد ذلك... كانت هي الأخرى تفقد  
الجميع...

أوه، كلا، اللعنة...

أوه، كلا...

صفقت الباب وهرعت إلى المطعم.

سألت لاهثة:

- فرانك هنا؟

ردّ عليها رجلٌ ضخمٌ ومترهلٌ بفتور:

- فرانك؟ لا، لا أعتقد.

كانت تمسك بأنفها لئلا تبكي.

- ألم... ألم يعد يعمل هنا؟

- لا...

أفلتت أنفها و...

- أقصد لن يعود يعمل بعد هذا المساء... آه... ها هو!

كان يصعد من غرف تبديل الملابس ومعه كلّ البسته

المطوية.

حينما شاهدها، قال:

- آها، آها... ها هي مرّة أخرى بستانيتنا الجميلة...  
كانت تبكي.

- ماذا هناك؟

- اعتقدتُ أنك قد رحلت... .

- غداً.

- ماذا؟

- سأرحل غداً.

- إلى أين؟

- إلى انكلترا.

- لـ... لماذا؟

- أولاً لآخذ عطلة ومن ثمّ لأعمل هناك... لقد وجد لي

رئيسي في العمل مكاناً رائعاً... .

حاولت أن تبتسم قائلة:

- سوف تُطعم الملكة؟

- لا، أفضل من هذا... رئيس قسم في وستمنستر... .

- حقاً؟

- قمّة القمم.

- آه... .

- هل أنتِ بخير؟

... .

- هيّا، تعالي لنشرب كأساً... سوف لن نفترق بهذه

الطريقة مهما يكن... .

- في الداخل أم على الرصيف؟

- في الداخل...

نظر إليها، مغيظاً:

- لقد فقدتِ كلَّ الكيلوغرامات التي منحتكِ إيّاها...

- لماذا سترحل؟

- لقد أخبرتكِ... لأنّ هذه ترقية رائعة لي ثمّ أوه... لا

أدري، يعني... ليست لديّ القدرة على التأقلم مع باريس،

أنا... سوف تقولين إنّ بمقدوري أن أبيع منزل بوليت ولكنني لا

أستطيع...

- أنا أفهم ذلك...

- لا، لا، المسألة ليست كذلك... ليس بسبب ذكرياتي

فيه... أوه... لا، وإنّما لأنّ هذا الكوخ ليس ملكي.

- أهو ملك والدتك؟

- كلا، هو ملكك.

...

أضاف وهو يُخرج رسالة من محفظته:

- آخر رغبات بوليت... تفضّلي، يمكنكِ أن تقرئيها...

عزيزي فرانك،

لا تنظر إلى خطي السيئ، لم أعد أرى شيئاً.

ولكنني أرى جيّداً أنّ هذه الصغيرة كاميل تحبّ حديقتي

كثيراً ولذلك أرغب أن أورثها إيّاها إن لم ترَ مانعاً في ذلك...

اعتنِ جيّداً بنفسك وبها، إن استطعت.

أقبلك بقوة،

جدّتك

- متى تلقّيت هذه الرسالة؟

- بضعة أيام قبل... قبل رحيلها... تلقّيتها يوم أبلغني فيلو

بيع الشقّة... لقد... لقد أدركت أنّ هذا يضعنا في مأزق... ..

أووف... .. كان يعزف بخبث على الوتر الحساس... ..

لحسن الحظّ، وصل نادلٌ وسأله:

- ماذا يطلب السيّد؟

- مياهاً غازية بالليمون، من فضلك... ..

- والآنسة؟

- كونياك... .. دوبل... ..

- تتحدّث عن الحديقة، وليس عن المنزل... ..

- نعم... .. أوه... .. سوف لن نتخاصم، اتّفقنا؟

- سترحل؟

- لقد أخبرتكِ. حجزتُ التذكرة... ..

- متى سترحل؟

- غداً مساءً... ..

- عفواً؟

- كنتُ أعتقد بأنك قد ضقتَ ذرعاً بالعمل لدى

الآخرين... ..

- بالطبع ضقتُ ذرعاً، ولكن ماذا تريدان أن أفعل غير

ذلك؟

نبتت كاميل في حقيبتها وأخرجت كراسها.

احتمى مشبكاً يديه أمام وجهه:

- لا، لا، لقد انتهى الأمر. لم أعد هنا، قلتُ لكِ...

كانت تقلّب الصفحات.

قالت وهي تدير الكراسه نحوه:

- انظر...

- ما هذه القائمة؟

- هذه قائمة بكلّ الأمكنة التي اكتشفناها، بوليت وأنا،

خلال نزواتنا...

- أمكنة ماذا؟

- الأمكنة الشاغرة التي يمكنك أن تنقل عملك إليها...

وقبل أن ندوّن العناوين، تناقشنا كثيراً نحن الاثنتان! الأماكن

المشار إليها هي الأفضل... هذا المكان خاصّة، سيكون

رائعاً... ساحة صغيرة خلف البانشيون... مقهى قديم جميل، أنا

متأكّدة من أنّ هذا سوف يُعجبك...

تجرّعت آخر رشفة من الكونياك.

- أنتِ تهذين تماماً... أتعرفين كم يكلف فتح مطعمٍ؟

- كلا.

- أنتِ تهذين تماماً... حسناً، هيّا... يجب أن أذهب

وأنتي ترتيب أغراضي... سأتناول العشاء عند فيلو وسوزي، هل

تأتين؟

أمسكت بذراعه لتمنعه من النهوض.

- أنا أملك المال... ..

- أنتِ؟ لطالما عشتِ كمتسولة!

- نعم لأنني لا أريد المسّ بهذا المال... .. أنا لا أحبه،

ولكنني سأمنحك إياه... ..

... ..

- هل تتذكر حينما أخبرتك بأنّ والدي كان مؤمناً وأنه قد

مات في... .. في حادث عمل، أتذكر؟

- نعم.

- حسناً، لقد أحسن تدبير الأمور... .. ولأنّه كان يدرك بأنّه

سيتركني، فقد فكّر في تأمين مستقبلي.

- لم أفهم.

- تأمينٌ على الحياة... .. باسمي... ..

- ولماذا... .. ولماذا لم تشتري لنفسك قط حذاءً لائقاً؟

- لقد أخبرتك بالسبب... .. لا أريد هذا المال. تفوح منه

رائحة الجثة. كنتُ أريد والدي حيّاً، لا هذا المال.

- كم المبلغ؟

- ما يكفي لأن يبتسم لك مصرفي ويعرض عليك قرضاً

مناسباً، على ما أعتقد... ..

أمسكت بكرّاستها من جديد.

- مهلاً، أعتقد بأنني قد رسمته في مكانٍ ما... ..

انتزعها من بين يديها.

- كفي، يا كاميل... .. كفي عن هذا. كفي عن الاختباء

خلف هذه الكراسية اللعينة. كفي... لمرّة واحدة فقط... أتوسّل إليك...

كانت تنظر إلى طاولة الشراب.

- هيه! أنا أكلمك!

نظرت إلى قميصه الرياضي.

- لا، انظري إليّ، انظري إليّ أنا.

نظرت إليه.

- لماذا لا تقولين لي ببساطة: «أنا لا أريدك أن ترحل»؟ أنا

مثلك، أنا أيضاً لا حاجة لي بهذا المال إن كنت سأنفقه

بمفردي... أنا... أنا لا أدري، اللعنة... «أنا لا أريدك أن

ترحل» هذه ليست جملة عصيّة على القول، أليس كذلك؟

- لقد سبق وقلت لك هذا.

- ماذا؟

- لقد سبق وقلت لك هذا...

- متى؟

- ليلة الحادي والثلاثين من كانون الأول (ديسمبر)...

- نعم، ولكن لم يكن ذلك محسوباً... كان ذلك بشأن

فيلو...

ساد الصمت.

- كاميل؟

أريد لفظ الكلام واضحاً:

- أنا... لا... أريدك... أن... تر... حل.



- أنا ...

- جيّد، تابعي ... لا ...

- أنا خائفة.

- خائفة من ماذا؟

- خائفة منك، خائفة منّي، خائفة من كلّ شيء.

تنهّد.

وتنهّد أيضاً.

- انظري. افعلي مثلي.

كان يتخذ وضعية لاعب كمال الأجسام الذي يُبرز عضلاته في مسابقة.

- شددي قبضتيك ... كوري ظهرك، اثني ذراعيك

وصالبيهما وضعيهما أمام ذقنك ... هكذا ...

قالت مستغربة:

- لماذا؟

- لأنّه ... يجب أن تمرّقي هذا الجلد الذي يضيق كثيراً

عليك ... انظري ... أنتِ تختنقين داخله ... يجب أن تخرجي

منه الآن ... هيّا ... أريد أن أسمع تقصّف تمرّقه عند فقرات

ظهرك ...

ابتسمت.

- لا ... احتفظي بابتسامتك في جوزة حلقك ... لا

أريدها ... ليس هذا ما أطلبه منك! أنا أطلب منك أن تعيشي،

تبّاً لك! لا أن تبسمي لي! هناك مقدّمات النشرات الجويّة ليفعلن

هذا... حسناً، سوف أنصرف وإلا سأغضب مرّة أخرى... هيا،  
إلى اللقاء هذا المساء...

## 21

فتحت كاميل لنفسها فسحة بين العدد الهائل لمخدّات سوزي  
المبرقشة، لم تلمس طبقها وشربت ما يكفي لكي تضحك في  
الأوقات المناسبة.

حتى من دون شرائط الأفلام، حضروا عرضاً للفيلم  
الوثائقي معرفة العالم...

أوضح فيليبير:

- أراغون أو كاستيل.

كانت تردّد عند كلّ صورة.

-... إنهم أئداء المصير!

كانت مبتهجة.

حزينة ومبتهجة.

تركهم فرانك بسرعة لأنه أراد أن يدفن حياته كفرنسي مع  
زملائه.

حينما نجحت كاميل أخيراً في أن تنهض، رافقها فيليبير  
حتى الطريق المرصوف بالحصى.

- هل ستمكّنين من الذهاب؟

- نعم.

- هل تريدان أن أطلب لكّ سيارة أجرة؟

- كلا شكراً. أرغب أن أمشي.
- حسناً... نزهة سعيدة، إذاً... ..
- كاميل؟
- نعم.
- التفتت.
- غداً... .. في الساعة الخامسة والربع مساءً في محطة الشمال... ..
- هل ستكون هناك؟
- هزّ رأسه نافياً:
- للأسف، كلا... .. سأكون في العمل... ..
- كاميل؟
- التفتت مرّة أخرى.
- أنتِ... .. اذهبي إلى هناك كرمي لي... .. من فضلكِ... ..

## 22

- جئتِ لتلّوحي بمنديلكِ؟
- نعم.
- هذا لطفٌ منكِ... ..
- كم عددنا؟
- عدد مَنْ؟
- الفتيات اللواتي جئن للتلويح بمناديلهنّ وطبعن خديك بأحمر شفاههنّ؟

- انظري إذاً ..

- ليس هناك سواي؟!!

قال ممتعاً:

- إيه نعم... الأوقات صعبة... لحسن الحظ أنّ

الانكليزيات حاميات... أقصد، هذا ما قيل لي!

- سوف تعلمهنّ القبله الفرنسية؟

- من بين أمورٍ أخرى... سترافقيني حتى رصيف القطار؟

- نعم.

نظر إلى ساعة المحطة. مازحها بطريقة مصطنعة:

- حسناً. لم يتبقّ أمامك سوى خمس دقائق لتتفوّهي بجمله

من خمس كلمات، هذا ممكن، أليس كذلك؟ هيّا، إذا كانت

خمس كلمات كثيرة، يكفيني ثلاث... ولكن الكلمات المناسبة،

اتفقنا؟ اللعنة! لم أختم بطاقتي... ماذا قلت؟

ساد الصمت.

- يا للخسارة... سأبقى غلاماً...

وضع حقيبته الكبيرة على كتفه وأدار لها ظهره.

ركض لكي يختم بطاقته لدى مكتب المراقبة.

شاهدته يسترّد بطاقته ويلوّح لها بيده...

وانسلّ بين حشود ركّاب اليوروستار...

وأخذت دجاجة الأرض الضخمة تلك تبكي.

ولم تعد ترى سوى نقطة رمادية من بعيد...

رنّ هاتفها النقال.

- هذا أنا.

- أعرف، ظهر رقمك عندي...

- أنا متأكد من أنكِ وسط مشهدٍ فائق الرومانسية... أنا متأكد أنكِ وحيدة في نهاية الرصيف، كما في فيلم سينمائي، تبكين حبك الضائع وسط سحابة من الدخان الأبيض...  
بكت مبتسمة.

استطاعت أن تردّ:

- ليس... ليس تماماً، كنتُ... كنتُ فقط أخرج من المحطة...

جاءها صوتٌ من خلف ظهرها: «كاذبة».

سقطت بين ذراعيه وضمتّه بشدة بشدة بشدة.

إلى أن طقطق ظهرهما.

كانت تبكي.

أجهشت بالبكاء، تمخّطت في قميصه، وزادت بكاءً، طردت سبعة وعشرين عاماً من العزلة، من الحزن، من المصائب التي حلّت على رأسها، بكت الحنان الذي لم تلقاه أبداً، طيش والدتها، المسعفون الجاثون على السجّادة، حيرة والدها، الأشغال الشاقة التي مارستها، السنوات المتواصلة، أبداً، البرد، متعة الجوع، الانحرافات السيئة، والخيانات التي فُرِضت عليها وهذا الدوار الذي تشعر به دائماً، هذا الدوار على حافة الهاوية والمضائق. والشكوك، وجسدها المتواري دائماً ومذاق الأثير والخوف الدائم من عدم الجدارة. وبوليت أيضاً. عذوبة بوليت التي سُحِقَتْ في خمس ثوانٍ ونصف...

ضمّ بلوزته عليها ووضع ذقنه على رأسها.

- هيا... هيا... هيا...

همس لها بلطف من دون أن يدري إن كان يقصد: هيا  
واصلي البكاء، أم هيا كفي عنه.

كما تشاء هي.

دغدغه شعرها، فشرع بغاية الراحة والسعادة.

كان سعيداً للغاية.

ابتسم. للمرة الأولى في حياته، كان في المكان المناسب  
واللحظة المناسبة.

حكّ ذقنه فوق جمجمتها.

- هيا يا برغووثي... لا تقلقي، سوف ننجح، لن نكون  
أفضل من غيرنا ولكننا لن نكون أسوأ منهم أيضاً... أقول لك  
إننا سوف ننجح... ليس لدينا ما نخسره، طالما ليس لدينا  
شيء... هيا... تعالي.

خاتمة





كان يتحشرج لإخفاء سعادته:

- اللعنة لا أصدّق هذا... لا أصدّق... هذا الأبله لا يتحدث سوى عن فيلو! وهذا الدوام وذاك الدوام... طبعاً! هذا ليس صعباً عليه! العادات الحسنة في دمه! والاستقبال والديكور ورسومات فوك... ومطبخي إذأ؟ الجميع لا يباليون بمطبخي؟  
انتزعت سوزي الصحيفة من بين يديه.

- يتلهف قلبي على تلك الحانة التي قدّم لنا فيها الطاهي الشاب فرانك ليستافيه من أطايبه وهو يعيد ابتكار طبق منزلي أكثر حيوية، أكثر ابتهاجاً... بكلمة واحدة كلّ يوم هناك سعادة وجبة يوم الأحد من دون الخالات المسنّات ومن دون يوم الاثنين... ماذا إذأ؟ ما هذا؟ أسعار البورصة أم دجاج مشوي؟

صرخ في الناس الذين رفعوا الستار:

- لا، المطعم مغلق! ولكن بلى، تعالوا، تفضّلوا... تعالوا... سيكون هناك ما يكفي للجميع... فينسانت، خذ كلبك اللعين وإلا سأوسعه ضرباً!

أمره فيليبير:

- ابتعد يا روشوشوارت!

- بارييس... ليس روشوشوارت... ..

- أنا أفضل روشوشوارت... أليس روشوشوارت حقيقياً؟  
تعال إلى عمك العجوز فيلو، ستحصل على عظمة كبيرة.  
كانت سوزي تضحك.

إلى الآن لا تزال سوزي تضحك طيلة الوقت.

- آه، ها أنت ذا! هذا جيد، لقد رفعت نظارتك الشمسية  
لمرة واحدة!

كانت تتغنج قليلاً.

إذا لم يكن قد أوقع بالشابة بعد، فإن العجوز فوك كانت  
مضمونة. كانت والدة كاميل تتخذ دائماً حذرهما بحضوره وتنظر  
إليه بعينين مبلولتين مثل الذين يخرون على طريقة بروزاك.

- ماما، أقدم لك أنييس، صديقتي... وبيتر زوجها  
وظفلهما فالتان...

آثرت أن تقول «صديقتي» بدل أن تقول «أختي».

لم تشأ أن تتحمل مشقة الإفصاح عن الأمر طالما الجميع لا  
يبالون به... كما كانت فعلاً قد أصبحت صديقتها، وبالتالي...

صرخ فرانك:

- آه! أخيراً! ها هي مامادو وشركاؤها! هل جلبت لي ما  
طلبت منه منك، يا مامادو؟

- أوه نعم وأرجوك أن تنتبه لأن هذا ليس فلفل العصافير،  
هذا... هذا مختلف...

- شكراً، رائع، تعالي وساعديني خلف...

- أنا قادمة... سيسي انتبهي إلى الكلب!

- لا، لا، إنه لطيف...

- لا تشغل نفسك، لا تشغل نفسك بتربيتي... إذا؟ أين

المطبخ؟ أوه ولكنه ضيق جداً!

- هذا مؤكّد! أنتِ تشغلين كلّ المكان!

قالت وهي تشير إلى الإطار الزجاجي للصورة:

- أوه ولكن هذه هي السيّدة العجوز التي شاهدتها عندك،

أليس كذلك؟

- لا... لا تلمسيها. هذه تعويذتي...

كانت ماتيلد كيسلر تغوي فانسان وصديقه في حين كان بيار

يعلق قائمة للطعام بصمت. كانت كاميل غارقة في نشرة لوغازيتان

دي كوميستيل، وهي دورية تعود إلى العام 1767، وتستوحي

منها أفكاراً لكي ترسم مآكل جنونية... كان ذلك رائعاً. أوه...

وأين... وأين النسخ الأصلية؟

كان فرانك متوتراً، إذ كان في المطبخ منذ الفجر... ما أن

أصبح الجميع حاضراً...

- هيا، هيا إلى المائدة، سيبرد الطعام! الساخن! الساخن!

أولاً!

وضع قدراً كبيراً وسط الطاولة وراح يجلب مغرفة.

ملاً فيلو الكؤوس. ممتاز، كما هو دائماً.

لولاه، لما كان النجاح سريعاً. كانت لديه تلك الموهبة

العجيبة في إراحة الناس، كان يجد دائماً كلمةً مجاملة، موضوعاً

للنقاش، دعابةً، لمسةً من السحر الفرنسي... وكان يعانق كلّ أفراد الحيّ... وهم جميعاً على صلة ودّ به...  
حينما كان هو الذي يستقبل الناس، كان يحسن تدارك الأمور ويشرحها بوضوح وتأتيه الكلمات المناسبة بسهولة ويسر.  
ومثلما كتب عنه صحافيّ، كان «روح» ذلك المطعم الصغير الأنيق.

تذمّر فرانك:

- هيا، هيا، مدّوا أطباقكم نحوي...  
في تلك اللحظة، قالت كاميل، التي كانت تلاعب الطفل فالتنان منذ ساعة، الكلام التالي:

- أوه، يا فرانك... أريد طفلاً كهذا...

أخيراً قدّم طبق ماتيلد، تنهّد... تّبّا، يجب فعلاً أن أفعل كلّ شيء، هنا... وضع المغرفة في الطبق، فكّ عقدة فوطته، وضعها على مسند كرسيّه، أمسك بالطفل وأودعه بين ذراعي والدته، رفع حبيبتّه، ثبّتها على كتفه مثل كيس بطاطس أو نصف هيكل ثور، أنّ تحتها... وذلك لأنّ الصغيرة كانت قد حبلت...  
فتح الباب، عبر الساحة، دخل إلى الفندق المقابل، صافح فيشايان، صديقه البوّاب، الذي كان يطعمه بين برقيتي فاكس، أخذ المفتاح، شكره وصعد السلالم مبتسماً.



## معاً...

طريفة، مؤثرة، إنسانية، حنونة، صادقة. هذه الكلمات القليلة قد تكون كافية لوصف هذه الرواية الجديدة لآنا غافالدا والتي تُعدّ نشيداً حقيقياً للحبّ والصدقة والمسرة.

إنّما تروي حكاية اللقاء ومن ثمّ الخلافات والحنان والصدقة والتشّدق والمصالحات... كلّ ما يحدث بين أربعة أشخاص يعيشون تحت سقفٍ واحد. أربعة أشخاص لا شيء مشترك بينهم وربّما ما كان عليهم أن يلتقوا قط. تائهون جداً ووحيدون جداً ومنهكون جداً... ومع ذلك سيكفّل القدر أو الحياة أو الصدفة أو الحبّ - سمّوه ما شئتم - بتوبيخهم وزعزعتهم بعض الشيء.

حكايتهم هي نظرية الدومينو ولكن باتجاه معاكس. بدل أن يُسقطوا بعضهم، يتعاونون على النهوض.

ISBN 978-9953-68-536-3



9 789953 685366

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب 113/5158

markaz@wanadoo.net.ma

cca\_casa\_bey@yahoo.com